سُورَةُ الفَتْحِ



سورة الفتح(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ① ﴾(٢)

الحق سبحانه وتعالى هنا يتكلم بصيغة الجمع (إنَّا) الدال على العظمة ، ذلك لأن الله تعالى يزاول مُلكَه لا بصفة واحدة ، إنما بصفات متعددة وكمالات شتى ، فى القدرة والعلم والحكمة وغيرها من صفاته سبحانه .

---

(١) سورة الفتح سورة مدنية بالإجماع وهى ٢٩ آية ، نزلت ليلاً بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها . قاله المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم . قال عنها رسول الله ﷺ : « لقد أنزلت علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس » . وهى السورة رقم (٤٨) فى ترتيب المصحف . نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة المائدة وثلاثتها سورة مدنية . [راجع تفسير القرطبى ٩ / ٦٣١٠] والإتقان فى علوم القرآن (١/ ٢٧) .

(٢) سبب نزول الآية : عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ① ﴾ [الفتح] فقال رسول الله ﷺ : « لقد أنزلت علىَّ آية هى أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها كلها » . أوردهما الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٦ ، ٢١٧).

لكن حينما يتكلم عن ذاته سبحانه يتكلم بصيغة المفرد الواحد ، فيقول مثلاً : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] ليثبت لنفسه تعالى الوحدانية ، فإنْ تكلم عن فعل من أفعاله قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]

ونلاحظ هنا أنه سبحانه أكد ضمير المتكلم (إنَّا) بقوله (نحن) ثم كرر الضمير فى (نزلنا) وفى ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر] ذلك ليؤكد أهمية المنهج الذى جاء به القرآن ، وأنه منهج سماوى من عنده سبحانه ، وأنه مُعجز للخلق ، وفى هذا بيان لفضل القرآن الكريم .

ومادة (فتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، نقول : فتح الباب . وهذا المعنى يدل على فتح المغاليق ويكون فى الأمر الحسى ، كما فى قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف]

وهناك فتح معنوى فى الأمر الذى يأتى بالخير كما فى قوله تعالى فى المنافقين : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم[1] بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [البقرة] أى : ما أعطاكم فى التوراة من صفات النبى ﷺ المذكورة فى التوراة . وهناك فتح بمعنى : حكم وفصل كما فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]

ومن معانى الفتح : النصر كما فى الآية التى معنا ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح] لأن الدعوة

---

(١) حاجّه : نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين . أى : قدم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر . [القاموس القويم ١/١٤٣] .

حين قامت ، وعارضها كفار مكة وصَمُّوا آذانهم عنها وعاندوها استهزاءً برسول الله ﷺ وإيلاماً له ولمَنْ آمن بدعوته .

كان الحال كأن الباب مغلق في وجه الدعوة ، فقال الله له ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ① ﴾ [الفتح] أي : فتح ظاهر واضح ، فتح لباب انتشار الدعوة وقوتها بحيث يكون لها قوة وشوكة ومنعة ، فبعد أنْ كانت قريش تحاصرها لتقضي عليها فتح لها الباب فجابت الجزيرة العربية كلها ، وبعد أنْ كانت قريش تضيق على الدعوة الخناق أصبح العربُ كلهم يحتضنونها ويدافعون عنها .

وفي آية أخرى شرح لنا مسألة الفتح هذه ، فقال سبحانه : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** .. ㊶ ﴾ [الرعد] يحكم بنصرة الإسلام وانتشاره في بقاع الأرض ، وإذا حكم الله وقضى فلا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقبَ لحكمه ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا** .. ② ﴾ [فاطر] وما دام أن الله فتح فلا يضرك أنْ يغلق البشر .

الفعل (فتح) يتعدى بنفسه في الفتح الحسيِّ نقول : فتح الباب ويتعدى باللام كما في ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ** .. ① ﴾ [الفتح] أي : نصرناك ويتعدَّى بـ (على) في الأمور المعنوية ، وفي الخيرات يسوقها الله إليك ويُنزلها عليك .

لذلك مشهور في الدعاء أن نقول : فتح الله عليك ، كأن الخيرات ستنزل عليك كالمطر ينزل على رأسك ، ومن ذلك قوله تعالى مع الفارق بين الحالين : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ** .. ㊹ ﴾ [الأنعام] يعني : أتيناهم بالخيرات من كل ناحية

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤)﴾ [الأنعام] أى : فرح البطر والتعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف]

لأنه كما سبق أنْ قلنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع برجل لا تُوقعه من على الحصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليزيد الإيلام ، كذلك هؤلاء فتح الله عليهم أبواب الخيرات من كل ناحية ليؤمنوا ، لكنهم نسوا ما ذكِّروا به ، فأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

والنعمة إذا لم تُقابل بالشكر انقلبتْ إلى نقمة ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] والأخذ حال النعمة والرفاهية أنكى وأوجع من الأخذ حال الفقر ، فالأخذ مع النعمة فيه يأسٌ بعد إطماع ، مثل السجين الذى يطلب الماء لشدة عطشه ، فيأتى له الحارسُ بكوب الماء حتى يقترب من فمه فيُريقه على الأرض .

وقوله تعالى :

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا (٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا (٣)﴾

سبق فى سورة محمد أنْ بيَّنا معنى الذنب فى حق النبى ﷺ لأنه معصوم وقلنا : إنه من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[1] ،

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (١/٣٠٩) وعزاه للجنيد رحمه الله ، وكذا فى تفسير أضواء البيان . وقال السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٠٣) وقال : إنه من كلام أبى سعيد الخراز رواه ابن عساكر فى ترجمته . فهو ليس بحديث .

لذلك عدّ النسيان فى حقه ذنباً لأنه نبى موصول بالوحى ، مؤتمن على منهج الله ، فلا يُتصوَّر منه النسيان الذى يحدث من باقى أمته .

لذلك تجاوز الله لهم عن النسيان فى حين لم يتجاوز عنه لرسول الله ، ومثّلنا لذلك بنسيان سيدنا آدم ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] وسمّى هذا النسيان معصية .

فالمغفرة لرسول الله من هذه الأمور أمثال عتاب الله له : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١)﴾ [التحريم] وقوله : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

فالله يعاتب رسوله شفقة عليه ورحمة به ﷺ ، وكأنه يقول له : يا محمد لا تحزن ولا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها ، لأن لك رصيداً من الله فالاستغفار من مثل هذه الأمور ، لا أنه أذنب ذنباً فيه مخالفة للمنهج حاشاه ﷺ أنْ يكون منه ذلك .

وكلمة ﴿لِيَغْفِرَ .. (٢)﴾ [الفتح] من غفر والغفر هو الستر ، وستْر الذنب إما أنْ يكون بعده بمنع العقوبة عليه أو يستر الذنب قبل أنْ يحدث فلا يحدث أصلاً ، هذا معنى ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢)﴾ [الفتح] ما تقدم يستر عقوبته ، وما تأخر يستر الذنب نفسه فلا يقع .

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. (٢)﴾ [الفتح] تمام النعمة على رسول الله أنْ بعثه الله للناس كافة لكل زمان ولكل مكان ، وكان الرسلُ قبله

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/ ٥٩] .

يُبعث الرسولُ إلى قوم معينين فى زمن معين ، أما سيدنا رسول الله فقد جاء على موعد مع التقاء حضارات الدنيا كلها واتصال بين المشرق والمغرب ، فجاء رسولاً عاماً وخاتماً للرسالات ، لذلك نقول : سيد الرسل وخاتم الأنبياء .

ومن تمام النعمة أن الله فتح له ، وأزال من أمامه العقبات التى كانت تعرقل مسيرة الدعوة حتى دانتْ له الجزيرة العربية كلها وشملها الإسلام ، وعلى يديه هدى اللهُ هذه الأمة فحملت رسالته من بعده وساحت بها فى شتى بقاع المعمورة .

فجذب إليه أعظم حضارتين فى هذا الوقت ، هما : حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ، حتى إنهم ليقولون : من عجائب هذا الدين أنه فتح نصف الكرة الأرضية فى نصف قرن من الزمان ، وهذه لم تحدث من قبل .

والحق سبحانه يشرح لنا مسألة تمام النعمة هذه فى قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ③ ﴾ [المائدة]

لذلك لما سمع سيدنا أبو بكر هذه الآية قال : لقد نعى محمد نفسه بهذه الآية[1] . لأنه لا شىء بعد التمام إلا النقصان ، فأخذوا من

(١) ما وجدته فى هذا هو عن عمر بن الخطاب وليس أبا بكر . فقد روى هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت هذه الآية بكى عمر ، فقال له النبى ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : أبكانى أنّا كنا فى زيادة من ديننا . فأما إذا كمل فإنه لم يكن شىء قط إلا نقص . قال : صدقت . أورده البغوى فى تفسيره (٣/١٢) والألوسى فى روح المعانى (٤/٣٧٥) والبقاعى فى نظم الدرر (٢/٣٣) وابن عادل فى تفسير اللباب وأبو السعود فى تفسيره (٢/٢٠٢) .

هذه إشارة إلى قرب موته ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى لينال الجزاء .

لذلك لما جاءه ملك الموت وخيّره ﷺ قال : بل الرفيق الأعلى[1] .

فاختار جوار ربه ليس هرباً من المسئولية بل لعلمه بتمام الأمر واستوائه ، وأنه ليس له مهمة بعد ذلك ، بعد أنْ أدَّى الأمانة وبلَّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وأظهر أمر الدين ، وأرسى قواعده .

وقوله : ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح] فبعد أنْ رأى النعمة قد تمتْ ، وليس هناك مغاليق اطمأن إلى أن الله لا يتخلى عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح] هل النصر هو العزيز أم المنصور ؟ المنصور هو العزيز ، إنما وصف النصر بالعزة فكأن نصر الحق يُسعد النصرَ نفسه ويعزه وليقول له : إنك بهذا النصر أخذتَ ما لم يأخذه مثلك أبداً .

وفي موضع آخر بيَّن الحق سبحانه أنه ناصر رسوله في وقت الرخاء كما في فتح مكة ، وناصره وقت الشدة كما في حنين : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ[2] إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥١٤٢ ، ٢٥١٤٣) ولفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره . قالت : فلما حُضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة قالت عائشة : قلت : إذاً والله لا يختارنا وقد عرفت أنه الذي كان يقول لنا : إن نبياً لا يقبض حتى يُخير .

(٢) حنين : معركة وقعت بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف العربيتين في وادي حنين ويقع بين مكة والطائف ، وكانت معركة شديدة على المسلمين بسبب أنهم دخلوا هذا الوادي وهم لا يعلمون أن مالك بن عوف وضع جيشه على شكل كمائن في مداخل ومضايق وشعاب وادي حنين برماة للسهام ، فكان أن ارتبك المسلمون ارتباكاً عنيفاً وتراجعوا بدون نظام ، ولكن المسلمين تمالكوا أنفسهم عندما نادى عليهم رسول الله قائلاً « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » فاستطاعوا هزيمة المشركين . [موسوعة ويكيبديا بتصرف واختصار] .

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾ [التوبة]

فلما اغتروا بالكثرة أدَّبهم ، ثم تداركهم برحمته ونصرهم ، وما كان الله لينصرهم فى فتح مكة ثم يخذلهم فى حنين ، وكأن الله يقول لرسوله : اعلم أن الله وراءك وناصرك ومؤيدك ، لكن عليك وعلى أمتك ألاَّ تغتروا بنصر أو بقوة أو بعدد ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ .. (٤) ﴾ [الفتح] أى : الطمأنينة والأمان بعد أن اشتدَّ الكرب عليه ، وبعد أنْ كانوا فى ذلة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب]

نعم إذا اشتد الكرب هان ، ومع الضيق يأتى الفرج وتدخلت السماء وجاء نصر الله ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ .. (٤) ﴾ [الفتح] ولينفى عنهم ما خالطهم وما ساورهم من الغرور بالعدد ومخالفة قواعد الجندية لله تعالى .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤) ﴾ [الفتح] يعنى : لا تظنوا أنكم أنتم جنود الله فقط ، بل لله جنود كثيرة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ

هُوَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر] فمن جنود الله الملائكة المدبِّرات أمراً أى التى تُدبر شئون الكون بأمر الله .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] وقد أقسم الله بهم فقال : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات] هؤلاء جنود الله فى السماء .

نعم لله جنود فى السموات وجنود فى الأرض ، أهلك الله بهم الأمم المكذِّبة ، اقرأ : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم[2] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

هذه كلها من جنود الله : الحاصب والصيحة والخسْف والغرق وغيرها . وهذه الجنود لا يعلمها إلا الله من حيث كيف تعلم وكيف تدبر لتحارب أعداء الله لأنها تعمل فى خفاء .

ومع ذلك لما أراد الحق سبحانه نُصْرة رسوله ﷺ لم ينصره بآية من هذه الآيات الكونية ، إنما نصره بقوة إيمان المؤمنين به وثباتهم فى مواجهة أعدائهم وإلا لقالوا لولا الظواهر الطبيعية لم يقدروا علينا .

لكن جعل الحق سبحانه النصر منسوباً إلى الجنود الخفية بالفعل ، أما الظاهر فمنسوب إلى هؤلاء المؤمنين لكى تظل رهبتهم فى قلوب أعدائهم .

---

(١) معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢ / ٢٩] .

(٢) هذه أربعة أنواع من العذاب : (الحاصب) وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم عاد . و(الصيحة) التى أخذت قوم ثمود فقضت عليهم ، و(الخسف) الذى عاقب الله به قارون . و(الغرق) الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام .

لذلك نقرأ في حادثة الهجرة : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة]

فجند الله كانوا في هذا الموقف ، لأن الصِّديق يقول لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا[(١)] ، إذن : هناك جنود منعت رؤيتهم ، الحمام الذي عشش والعنكبوت الذي نسج خيوطه لم يكُن إلا جندياً من جنود الله .

سراقة بن مالك[(٢)] لما ساخت قوائم فرسه في الرمال ، فكانت الرمال جنداً من جنود الله ، والأعجب من ذلك أنْ يُسخِّر الله من الكفرة أنفسهم من يساعد في إتمام الهجرة وهو الدليل عبد الله بن أريقط[(٣)] وكان كافراً لا يعرف رسول الله ﷺ ، ذلك لأن الله غالبٌ على أمره ؛ فجعل هاديَ المادة يهدي هاديَ المعنى !!

وقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

قلنا : لأن وارد الرحمن لا ينازعه ولا يعارضه وارد الشيطان ، وهذه

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٩٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٤٣٨٩) من حديث أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق حدَّثه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ واللفظ لمسلم .

(٢) سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني أبو سفيان ، صحابي له شعر ، له في كتب الحديث ١٩ حديثاً . كان في الجاهلية قائفاً (يقتفي الأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هجرية توفي ٢٤ هجرية . [الأعلام للزركلي ٣/٨٠] .

(٣) كان دليلهم في رحلة الهجرة ، وكان ماهراً خريتاً ، ليثي ديلي ، استأجره أبو بكر ، وكان كافراً ولكنهما أمناه ، وفي كتاب (المحبر) أنه عبد الله بن أريقط العدوي حليف العاص بن وائل السهمي . [بتصرف من كتب التراجم] .

رأيناها فى قصة أم موسى لما أوحى الله إليها أنْ تلقيه فى البحر ، مع أنها أُمٌّ تخاف على وليدها ومع ذلك ألقتْه ، ورأيناها فى فرعون الذى يقتل الذكور من بنى إسرائيل يأتيه موسى على هذه الصورة ، ومع ذلك لم يشكّ فى أمره وربَّاه فى بيته ، فالله تعالى ربُّ القلوب خالقها ومُقلّبها كيف يشاء ، يجعلها تقبل حكمه دون مناقشة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ ﴾ [الفتح] عليماً بجنوده ، وهو سبحانه حكيم فى توجيهها فى أوقات مخصوصة وإلى قوم بعينهم ، فالمسألة ليست قوة باطشة بلا حساب ولا بلطجة ولا ظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ ﴾

يُروى أنه لما نزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② ﴾ [الفتح] قال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، هذا ما أعده الله لك ، فماذا أعدَّ لنا ؟ فنزلت : ﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

(١) سبب نزول الآية : عن أنس رضى الله عنه قال : أنزلت هذه الآية على النبى ﷺ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾ [الفتح] عند رجوعه من الحديبية نزلت وأصحابه مخالطون الحزن وقد حيل بينهم وبين نسكهم ونحروا الهدى بالحديبية ، فلما أنزلت هذه الآية قال لأصحابه : لقد أنزلت علىّ آية خير من الدنيا جميعها فلما تلاها النبى ﷺ . قال رجل من القوم : هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بيَّن الله ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ .. ⑤ ﴾ [الفتح] .

تَحتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح] هذا ما لهم .

وقد وقف المستشرقون عند قوله سبحانه : ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح] وقالوا : كيف يُكفِّر عنهم سيئاتهم وقد أدخلهم الجنة بالفعل ؟ إنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أنْ كفَّر عنهم سيئاتهم .

نقول : المعنى يسترها عليهم حتى لا تُنغِّص معيشتهم فى الجنة ولا موقفهم من ربهم عز وجل ، أو يسترها عنهم فينسوها حتى لا يخجلوا منها ، كما لو أنك أحسنتَ إلى مَنْ أساء إليك .

فكلما زدتَ فى الإحسان إليه زاد تأنيباً لنفسه ، لذلك يستر اللهُ عنهم سيئاتهم ، فلا يذكرونها حتى لا تُنغص عليهم ما هم فيه من لذة النعيم .

وهنا ملحظ فى ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح] أولاً اللام هنا للتعليل كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] فالعلة فى الخَلْق هى العبادة ، أما القول بأن أفعاله تعالى لا تُعلل نقول : لا تُعلل بعلة ترجع إلى نفعه سبحانه إنما إلى نفع غيره ، إذن تعلل .

ثم ذكر المؤمنات هنا بعد المؤمنين ، فلماذا خصَّهن بالذكْر مع أن العادة أن النساء يُذكرنَ فى الحكم فى طَيِّ الرجال فى أغلب آيات القرآن ، كما فى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : يأيتها المؤمنات ، لأن المرأة مستورة فى الرجل ، ولا تُذكر إلا إذا كان لها حكم خاص بها ، فلماذا إذن ذكرها هنا ؟

قالوا : لأن المقام مقامُ حديث عن الجهاد بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ ﴾ [الفتح] والمرأة لا تجاهد ، لذلك ذكرها الحق سبحانه ليؤكد على أن لها أجراً فى الجهاد ، ولينزع عنها الشكّ فى هذه المسألة .

وقوله سبحانه : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ⑤ ﴾ [الفتح] بيّنا أن هذه الآية أتتْ بلفظ ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. ⑩⓪ ﴾ [التوبة] وهذا ليس تكراراً للمعنى الواحد إنما لكل منهما معنى ، فالماء حينما يجرى من تحتك تطمئن إلى استمراره ، فلن يقدر أحدٌ أنْ يمنعه عنك لأنه ناشىء فى ملكك .

إنما ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا.. ①⓪⓪ ﴾ [التوبة] ربما كان يجرى من مكان بعيد عنك ويمر عليك ، فتخشى أنْ يُمنع عنك .

وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. ⑤ ﴾ [الفتح] ليُذهب ما فى نفسك من الخوف من فوات النعيم ، لأن نعيم الدنيا مهما كان يُنغِّصه عليك مخافة أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، فالله يطمئنك على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع وخالدٌ لا يفنى ، فلا يفوتك بأنْ يذهب عنك ، ولا تفوته أنت بالموت .

لذلك سمَّاه فوزاً عظيماً ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ ﴾ [الفتح] ما بالك حين يُوصف الفوز بالعظمة ؟ وما بالك إنْ كان هذا كله عند الله ؟ فالعطاء يكون على قدر المعطى ، إنك تُسر وتسعد حينما يرضى عنك مسئول كبير مثلاً ، وتُسر حينما تحسن إلى شخص فيعطيك هدية أو مكافأة ، فكيف إذا كافأك الله ؟

لذلك دائماً أذكر يوم أنْ ذهبنا مع بعض الوزراء إلى سان

فرانسيسكو وذهبنا إلى فندق فخم تعجَّب الجميع من هيئته وجمال تصميمه وما فيه من إمكانيات ، فلما رأيت الإعجاب فى أعينهم قُلْتُ لهم : خذوها دليلَ إيمان وقولوا : هذا ما أعدَّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ(١) ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

تأمل هنا المقابلة التى تظهر الفرق وتضعك أمام مقارنة بين ما أعدَّه الله للمؤمنين من الجزاء وما أعده للمنافقين والكافرين ، والجمع بين المتقابلات أسلوبٌ من أساليب القرآن لكى تبدو المفارقة ، لذلك الشاعر العربى قال فى وصف محبوبته :

الوَجْه مِثل الصُّبْح مُبْيضّ وَالشَّعْر مِثْلُ الليْلِ مُسْودّ
ضِدَّانِ لَمَّا اسْتجْمَعَا حَسُنَا وَالضِّدّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ونلاحظ هنا أنه ذكر المنافقين والمنافقات قبل المشركين والمشركات فى مقاساة العذاب ، نعم لأن المنافق أشد جُرْماً من المشرك ، المنافق ستر كفراً وأظهر إيماناً فتسلَّل إلى صفوف المؤمنين وانطوى تحت لوائهم ، وهو فى حقيقته مشرك معاند يكيد للمؤمنين تحت ستار .

(١) (عليهم دائرة السوء) فى الدنيا بالقتل والسبى والأسر ، وفى الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السُّوء» بالضم . وفتح الباقون . [تفسير القرطبى ٦٣١٦/٩] .

أما المشرك فظاهره مثل باطنه وعداوته معروفة ، ومن اليسير أنْ تأخذ حذرك منه ؛ لذلك قال تعالى عن المنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ(١) الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥)﴾ [النساء] يعنى : هم تحت المشركين وأدْنى منهم .

وقوله تعالى : ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ .. (٦)﴾ [الفتح] الظن : الحكم بشىء على غير حقيقة ، وحين تقول : أظن كذا يعنى أنا غير مُتيقِّن منه . وأقلّ من الظن الوهم . لكن ما الظن الذى ظنوه ووصفه الله بأنه ظن السوء ؟

قالوا : إن محمداً لن ينتصر علينا أبداً ، وقد بيَّن الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

يعنى : الذى يظن هذا الظن ليس أمامه إلا أنْ يمد حبلاً إلى السماء ويتعلق به كالمشنوق ، ثم ليقطع هذا الحبل ، وينظر هل يُذهِبَ هذا غيظه ؟

وهذا الظن فى الله سبحانه وتعالى ، وأول ظنهم فى الله أنْ قالوا : ليس له وجود . وآخرون قالوا : موجود وله شريك . وآخرون قالوا : القرآن ليس من عند الله بل من عند محمد . وآخرون أنكروا البعث والقيامة .

وهذا كله ظَنُّ سَوْء بالله ، لذلك يقابله الحق سبحانه بعذاب أيضاً

---

(١) الدَّرْك : أسفل كل شىء ذى عمق كالبئر ونحوها . ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥)﴾ [النساء] أى فى الطبق الذى فى قعر جهنم ، والنار سبع دركات . [القاموس القويم ١/ ٢٢٧] .

سوء فيقول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ .. ⦗٦⦘ ﴾ [الفتح] والدائرة منطقة لها محيط مغلقة ، فكأنهم لا يقدرون على الإفلات منها لأنها محيطة بهم .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ⦗٢٠⦘ ﴾ [البروج] ليس هذا وفقط ، بل أيضاً ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⦗٦⦘ ﴾ [الفتح] سبحان الله ، كم جمع عليهم من ألوان النكال[1] والعذاب والغضب واللعنة ؟!

الغضب انفعال يثير الغاضب على المغضوب عليه فينتقم منه ، الحق سبحانه وتعالى غنيٌّ عن الانفعال ، إنما يُحدِّثنا على قدر فهمنا ، وعلى قدْر ما فى لغتنا من وسائل التعبير .

﴿ وَلَعَنَهُمْ .. ⦗٦⦘ ﴾ [الفتح] طردهم من واسع رحمته وأبعدهم عنها ، ثم بعد ذلك تلعنهم الملائكة ويلعنهم اللاعنون ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [الفتح] أعدها بالفعل فهى موجودة الآن ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⦗٦⦘ ﴾ [الفتح] وقوله ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ .. ⦗٦⦘ ﴾ [الفتح] هى الجزاء الطبيعى لظنِّ السَّوْء الذى ظنوه بالله .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[2] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⦗٧⦘ ﴾

---

(١) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ⦗٢٥⦘ ﴾ [النازعات] أى : عذبه الله عذاباً شديداً يعد عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة . [القاموس القويم ٢/٢٨٨] .

(٢) قال ابن عباس : جنود السماوات الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون . [تفسير القرطبى ٩/٦٣١٦] .

ذكر هنا أيضاً جنود الحق سبحانه لأنها تنزل على قسمين : جنود رحمة تنزل بالخير كالملائكة ينزلون بالتنزيل وبالوحى ، وأخرى بالماء ، وهناك جنود تنزل بالنقمة والطمس والعذاب والإذلال .

ونفهم من قوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۝٧ ﴾ [الفتح] أن المراد بالجنود هنا جنود العذاب ، فهى التى تناسب وصف العزة . والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وهذه العزة مقيَّدة بالحكمة مُنزَّهة عن البطش أو الظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ(١) وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً(٢) وَأَصِيلًا ۝٩ ﴾

الخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ ، يقول له ربه تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ .. ۝٨ ﴾ [الفتح] يا محمد ﴿ شَاهِداً .. ۝٨ ﴾ [الفتح] أى : على أمتك وعلى مَنْ سبقك من الرسل أنهم قد بلَّغوا الرسالة ، نعم شاهد عليهم بما أخبره الله به فى القرآن .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .. ۝١٤٣ ﴾ [البقرة] أى : تشهدون على الناس أنكم قد أبلغتموهم ، لأن هذه الأمة ورثت الدعوة

---

(١) عزَّروه : أحاطوه بالعناية أو وقروه وعظموه . قال تعالى : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ .. ۝٩ ﴾ [الفتح] أى : لتحيطوه بالعناية وتنصروه . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

(٢) البكرة : أول النهار . وقوبلت فى القرآن بالأصيل وبالعشى . قال تعالى : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٩ ﴾ [الفتح] .

عن رسول الله وحملتها من بعده .

لذلك ورد فى الحديث الشريف قول سيدنا رسول الله ﷺ « نضَّرَ الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع »[1] .

وقوله : ﴿ وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) ﴾ [الفتح] مبشراً بالخير ونذيراً بالعذاب ، وقلنا : البشارة أو النذارة تكون قبل وقوع الحدث . لكن لماذا بشيراً ونذيراً ؟ قال : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) ﴾ [الفتح]

إذن : علة الإرسال لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ .. (٩) ﴾ [الفتح] تعظموه وتنصروا دينه وتُعلُوا كلمته ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ .. (٩) ﴾ [الفتح] أى : تُعظمونه وتُقدرونه حقَّ قدره ، لأنه سبحانه جعل لخلقه منهجاً يحرس حركة حياتهم من الطيش .

فلما خلق اللهُ آدمَ وسوَّاه على صورته ونفخ فيه من روحه دبَّتْ فيه الحياة واستوى مخلوقاً كاملاً ، بمعنى أنه لم يكُنْ طفلاً ثم كبر فصار شاباً فرجلاً .

لا بل دبَّتْ فيه الحياة ، وهو رجل كامل الرجولة ، وطرأ آدم على كوْنٍ أعدَّه الله له فيه كل مُقوِّمات حياته من ماء وهواء وأرض وشمس وقمرٍ ، وبعد أنْ أعطاه قوام مادته أعطاه القيم التى هى قوام الروح .

---

(١) عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » . أخرجه أبو داود فى سننه (٣١٧٥) ، والترمذى فى سننه (٢٥٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٢٢٦) وأحمد فى مسنده (٢٠٦٠٨) .

لذلك بعد أنْ مَنَّ الله عليه بروح المادة أعطاه روحاً أخرى للقيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] لذلك سمَّى القرآن روحاً ، وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] وخاطب الأحياء بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..(٢٤) ﴾[الأنفال] فعلم أن هناك حياتين حياة المادة وحياة الروح وهى المنهج .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ[1] فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾

الحديث هنا عن بيعة الحديبية التى كانت عند شجرة الرضوان التي قال الله فيها فى نفس هذه السورة ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) ﴾ [الفتح]

إذن : الفتح الذى نحن بصدده ظهرت بشائره فى هذه البيعة فى بداية الفتح الأعظم ، لذلك لما اعترض سيدنا عمر وقال لسيدنا رسول الله : لِمَ نُعط الدنية[2] فى ديننا ؟ نهره الصِّديق أبو بكر وقال له : الزم غَرزك يا عمر[3] . يعني : لا تتعد حدودك واعرف مكانك .

وكان الصِّديق يقول : والله ما كان فَتْحٌ فى الإسلام أعظمَ من

(١) نكث العهد : نقضها ولم يفِ بشروطها . [القاموس القويم ٢ / ٢٨٤] .

(٢) الدنية : الخصلة المذمومة . ورجل دنى من قوم أدنياء ، وهو الضعيف الخسيس الذى لا غناء عنده المقصِّر فى كل ما أخذ فيه . [لسان العرب - مادة : دنا] .

(٣) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح ، من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

فتح الحديبية ، لماذا ؟ لأنه الذى مـهَّد لفتح مكة ، ولكن الناس وقتها لم يتسع ظنهم لما بين محمد وربه ، ومن طبيعة الناس العجلة .

أما الحق سبحانه فلا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وتعلمون قصة السيدة أم سلمة[1] لما دخل عليها سيدنا رسول الله مُغْضَباً ، فقالت له : ما أغضبك يا رسول الله ؟ قال : هلك المسلمون يا أم سلمة أمرتهم فلم يمتثلوا . قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون جاءوا على شوق لرؤية الكعبة ، ثم يُمنعون عنها وبينهم وبينها كذا وكذا ، اعذرهم يا رسول الله وانظر إلى ما أمرك الله به فافعله ولا تكلم أحداً ، فإنهم إنْ رأوك فعلتَ فعلوا[2] .

ونجحت خطة أم سلمة ونجى المسلمون من فتنة كادت تهلكهم ، صحيح هى عصبية إيمانية وأمر فى ظاهره يُرضى رسول الله ، لكن إنْ كان الأمر الأعلى من الله فهو أوْلى بالسمع والطاعة .

لذلك قالوا : من الشجاعة أن تجبن ساعة ، هَبْ ونحن جالسون فى مكان وبيننا أكابر وعظماء ودخل علينا مجرم وفى يده مسدس وأمرنا بالقيام وهددنا ، ماذا نفعل ؟ لابدّ أنْ نمتثل لأمره فى هذا الموقف حتى لا نخاطر بأنفسنا .

---

(١) أم سلمة هى : هند بنت سهيل القرشية المخزومية من زوجات النبى ﷺ ، تزوجها فى السنة الرابعة للهجرة ، من أكمل النساء عقلاً وخلقاً (ولدت عام ٢٨ قبل الهجرة) وتوفيت عام ٦٢ هجرية عن ٩٠ عاماً . روت عن رسول الله ٤٠٠ حديثاً . [الأعلام للزركلى ٨/٩٧] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١٨١٥٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله قام فقال : « يأيها الناس انحروا واحلقوا . قال : فما قام أحد . قال : ثم عاد بمثلها ، فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمنَّ منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون » . الحديث .

فهناك شجاعة على الغير ، وشجاعة على النفس ، وهذه من الحنكة والسياسة ، وهذا ما فعله رسول الله وما رآه بما لديه من نورانية موصولة بالحق سبحانه .

وكان هذا الصلح رفعة للإسلام وإعلاءً لرايته مع أنهم عادوا ولم يدخلوا مكة ، ذلك لأن قريشاً كانت تتخذ من الإسلام عدواً ، ولا تسمح له بأنْ يُعبِّر عن نفسه ، والآن تفتح معه باب الحوار والمناقشة . إذن : أصبح للإسلام كيان وكلمة تُسمع ، وارتفع عن ذلّة الماضى وهوانه .

كذلك كان الصلح تهدئة لقريش وإزالة لما لديها من حقد وشحناء ضد المسلمين ، فبالصلح معهم نأمن جانبهم لنتفرغ لنشر الدعوة فى باقى جزيرة العرب ، وقبل أنْ يصل المسلمون فى طريق عودتهم إلى المدينة بيَّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ المسألة ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ .. ۝١٠﴾ [الفتح]

والمبايعة عقد بين طرفين واتفاق ، والبيع أمر محبوب للإنسان على خلاف الشراء ، لذلك قال تعالى فى الجمعة ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝٩﴾ [الجمعة] لأنك تحب أن تبيع ، أما الشراء فلا تحرص عليه كما تحرص على البيع وقد تشترى وأنت كاره .

إذن : يبايعونك يعنى : يعقدون معك عقد بيع ، هذا العقد شرحه الحق سبحانه فى قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ .. ۝١١١﴾ [التوبة]

إذن : عقدوا هذه الصفقة مع الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ .. ۝١٠﴾ [الفتح] لأنك يا محمد لا تأخذ شيئاً لنفسك ، إنما تأخذ لمنهج الله الذى أرسلك به وبعثك من أجله .

فبيعة الرسول هى فى الحقيقة بيعة لله ، لذلك قال ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ⟨١٠⟩ ﴾ [الفتح] أى : فوق الأيدى التى امتدتْ لتبايع رسول الله ، فكانت يد الله فوق يد الجميع ، لأن المنة هنا من الله فلا تظنوا المنة منكم بأنْ بايعتم ، بل المنة من الله عليكم ، ويده فوق أيديكم وهو الذى ساق لكم هذا الخير الذى يُسعدكم فى الدنيا وفى الآخرة .

واليد هنا ليست هى اليد التى نعرفها كأيدينا ، بل هى يد المنَّة والمعروف ، كما تقول مثلاً : فلان له علىَّ يد . يعنى : نعمة أو مكْرمة وجميل .

وقوله : ﴿ فَمَن نَّكَثَ .. ⟨١٠⟩ ﴾ [الفتح] أى : نقض عهده ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ .. ⟨١٠⟩ ﴾ [الفتح] فهو المضار ، لأن الله تعالى لا يضره شىء من أفعال العباد ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

وفى المقابل : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ .. ⟨١٠⟩ ﴾ [الفتح] يعنى : وفَّى وكان عند العهد الذى أخذه على نفسه ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ⟨١٠⟩ ﴾ [الفتح]

ذكر البخارى ومسلم هذه القصة ، وأن الحديبية مكان يبعد عن مكة حوالى ٢٢ كم عند شجرة كانت مائلة فسميت الحديبية[١] ، أو عند عين ماء كانوا يرتوون منها ، وأن عددهم كان ألفاً وأربعمائة ، فى رواية البخارى روى سيدنا سلمة بن الأكوع[٢] أنهم بايعوا رسول الله على الموت ، وفى رواية مسلم أنهم بايعوه على ألاَّ يفروا من المعركة[٣] .

---

(١) الحديبية : بئر سمى المكان بها . وهو موضع قريب من مكة .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٨٥١) عن يزيد بن أبى عبيد قال : قلت لسلمة بن الأكوع : على أى شىء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت . وقد أخرج مسلم فى صحيحه (٣٤٦٢) كتاب : استحباب مبايعة الإمام .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٦٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : بايعنا نبى الله ﷺ يوم الحديبية على أن لا نفر . وعند أحمد أيضاً (١٤٢٩٥) عن جابر قال : بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ
أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ
فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ
بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا
(١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ(١) ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ
ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا (١٢) ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بغيب يخبر به نبيه ﷺ ويعلمه بما سيقوله هؤلاء ، والمخلّفون جمع مُخلّف وهم الذين طلب منهم الخروج مع رسول الله لأداء العمرة فلم يخرجوا وتعللوا بعدها بهذه الحجج التى كشف القرآنُ زيفها وكشف نواياهم وما كان يدور فى نفوسهم .

والأعراب هم البدو وسكان البادية ، وقولهم : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا .. (١١) ﴾ [الفتح] يعنى : عن الخروج معك .

وقولهم : ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا .. (١١) ﴾ [الفتح] دلَّ على أنهم أذنبوا وأخطأوا ، وإلا ما طلبوا من رسول الله أن يستغفر لهم .

والواقع أنهم كاذبون فى هذا ، فما شغلتهم الأموال ولا الأولاد إنما خافوا على أنفسهم الخروج ، لأنهم ظنوا فى أنفسهم أن رسول

(١) ينقلب : يرجع ويتحول إلى موضعه الأول فى المدينة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ .. (١٧٤) ﴾ [آل عمران] أى : رجعوا إلى المدينة . [القاموس القويم ٢ / ١٢٩] .

الله لن يرجع من هذه العمرة ولن يعود إلى أهله ، لأن قريشاً تتربص به ومعهم جماعات من الأحابيش[١] ومن ثقيف وكنانة وغيرها .

فقالوا فى أنفسهم ما أخبر الله به ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا .. (١٢)﴾ [الفتح] لذلك بُهت من قال هذا الكلام لما سمع الله يخبر به ويكشف مكنونات صدورهم .

والعجيب أن هذا الإخبار ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ .. (١١)﴾ [الفتح] نزل فى قرآن يُتلى علانية ويسمعه هؤلاء المخلفون ، وكان بأيديهم ألاَّ يتعللوا بهذه الحجج لكن صدق الله وقالوا بالفعل ما أخبر القرآن به .

هذه كما حدث تماماً فى قوله تعالى فى مسألة تحويل القبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة]

سمع اليهود هذا الكلام وسمعوا هذا الوصف ، ومع ذلك قالوا ما أخبر الله به وصدقوا على أنهم سفهاء ، فهذه وأمثالها من علامات صدق القرآن الكريم ، فالذى يتكلم به هو الذى يعلم ما سيحدث فى المستقبل ويخبر به قبل أنْ يقع ثم يأتى الواقع موافقاً لما قال .

قالوا : كان هؤلاء المخلَّفون من سبع قبائل[٢] أظن ، منها أشجع ومزينة وهوازن وبخع وأسلم وغيرها . هؤلاء قالوا : إن محمداً ألقى

---

(١) الأحابيش : حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يسمى حبيشاً فسموا الأحابيش ، ذكره ابن دريد فى جمهرة اللغة (١/١١٥) والحباشة : الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة والجمع الأحابيش . [تاج العروس للزبيدى] .

(٢) ذكر ابن عباس ستة منهم هم : غفار ومزينة وجهينة وأشجع والديل وأسلم . [ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير] . وذكرهم أيضاً مجاهد وغيره [قاله الشوكانى فى فتح القدير] .

بنفسه فى التهلكة ، ولن يعود من هذه العمرة لما يعلمون من القوة التى تواجهه فتخلّفوا ، فى حين أنهم كانوا يتمنون الخروج إلى خيبر ، حيث الغنائم والأموال التى لا حَصْرَ لها هناك .

وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .. (١١)﴾ [الفتح] أى فى قولهم : ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا .. (١١)﴾ [الفتح] فهذه الكلمة باللسان فقط ، فهم لا تهمهم المغفرة ولا يفكرون فيها .

ثم يُبيِّن لهم الحق سبحانه حقيقة الأمر : ﴿قُلْ .. (١١)﴾ [الفتح] يعنى : قُلْ لهم يا محمد ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا .. (١١)﴾ [الفتح]

هذا استفهام للتعجب أو للتوبيخ يقول لهم : مَنْ يردُّ عنكم قضاء الله ومَنْ يدفع عنكم الضر إنْ أصابكم فى أموالكم أو فى أهليكم ، من ؟ لا أحد .

كذلك لا أحد يمنع عنكم النفع إنْ أراده الله لكم ، إذن : هذه حجة باطلة لا تُجدى ، وكذب لا فائدة منه ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١)﴾ [الفتح] يعنى : لا يَخْفى عليه من أموركم شىء .

ثم يُؤدبهم بأنْ يكشف عن الكلام الذى أسرُّوه بعضهم إلى بعض فيقول : ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ .. (١٢)﴾ [الفتح] أى : يرجع ﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا .. (١٢)﴾ [الفتح] ويُؤكدون ظنهم لاقتناعهم به ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٢)﴾ [الفتح] أى : زيّنه بعضكم لبعض ، أو لقى استحساناً منكم .

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ .. (١٢)﴾ [الفتح] أى : الظن الفاسد والمراد

به أن رسـول الله لن يعود إلى أهله ولا المـؤمنون معـه ، وهذا يعنى النهاية لمسيرة الدعوة .

﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ⦗١٢⦘ ﴾ [الفتح] يعنى : مثل الأرض البور التى لا خَيْرَ فيها ، فأنتم مثل هذه الأرض أهل فساد لا خيرَ فيكم .

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ⦗١٣⦘ ﴾

الكلام هنا فـيه إشـارة مفـهومـة تعنى هؤلاء المـخلَّفين ، وقـوله ﴿ أَعْتَـدْنَا .. ⦗١٣⦘ ﴾ [الفتح] أى : أعـددناها بالفعل فـهى موجـودة ، فالسعير لا تُعدُّ لهم بعد حـضورهم إليها ، إنما هى مُعدَّة لهم من الآن تنتظرهم وتتشوق إليهم .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحـانه أعدَّ الجنة بحيث تكفى جميع الخَلْق على اعتـبار أنهم جميـعاً مؤمنون ، كذلك أعـدَّ النار بحيث تكفى جميع الخَلقْ لو كفروا .

فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بقيتْ أماكن أهل النار خالية فى الجنة ، لذلك يُورثها الحق سبحـانه لأهل الجنة ، وهذا قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⦗١٠⦘ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⦗١١⦘ ﴾ [المؤمنون]

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⦗١٤⦘ ﴾

يقول البلاغيون : فى الآية أسلوب قصر بتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ⟨١٤⟩﴾ [الفتح] أى : لله وحده وملكيتها مقصورة عليه سبحانه دون شريك ، ومادة ملك تأتى بضم الميم وفتحها وكسرها ، أما اللام فساكنة .

نقول : ملك بالكسر يعنى : ما تملكه وتملك التصرف فيه ، إنما مُلك بالضم فهو لمَنْ يملك الشيء ويملك مالك الشيء ، وهذه لله عز وجل .

أما مَلك بالفتح فهى بمعنى المقدرة كما جاءت فى قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. ⟨٨٧⟩﴾ [طه] أى : بإرادتنا ولكننا كنا مجبرين .

وهذه الآية جاءت هنا للظرف ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ⟨١٤⟩﴾ [الفتح] وجاءت فى موضع آخر للمظروف ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ⟨١⟩﴾ [التغابن] لأن السموات والأرض ظرف لأشياء كثيرة .

ومعلوم أن المظروف يكون أنفسَ من الظرف الذى يحفظه ، كما قلنا : إن ما فى الخزنة أنفسُ منها وأغلى ، وإلا ما حُفظ فيها .

فإذا كانت السموات والأرض فيها من العجائب ما لا يُحصى ، فما بالك بما فيها من مخلوقات الله تعالى ، وها نحن كل يوم يكتشف العلماء شيئاً جديداً فى خَلْق الله فيه من الإعجاز ما فيه .

خذ مثلاً الهواء الذى كنا نظنه فقط لعملية التنفس ، الآن عرفنا أنه مجال واسع لموجات صوتية وضوئية ، والأثير الذى حولنا مليء بما لا حدَّ له من هذه الأشياء .

إذن : ابحثوا فى الظرف عن نفاسة المظروف ، ألا نراهم الآن يتجهون إلى باطن الأرض حيث الثروات الثمينة من الماس والذهب

والمعادن والبترول .. كذلك فى الجبال الأحجار الكريمة والجرانيت والمرمر والرخام ، وفى البحار فى أعماقها اللؤلؤ والمرجان .

إذن ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [التغابن] فيه توجيه وإشارة للبحث فى المظروف ، لكن ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ⑭ ﴾ [الفتح] فيه إشارة إلى وجوب النظر والتأمل فى عجائب السماوات والأرض فى ذاتها .

وقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. ⑭ ﴾ [الفتح] البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً . يقول : إذن أين الاختيار ؟ والمعنى : أن الله يغفر للمؤمن الذى اهتدى لمنهج الله ، ولا يغفر للكافر الذى أعرض عن منهج الله .

إذن : ساعة يقول ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٢٦٤ ﴾ [البقرة] أى : لا يهديهم بسبب كفرهم ، لأن الكافر قلبه مُلىء كفراً حتى لم يعُد فيه مجال للإيمان ، لأن الحيز الواحد لا يسع إلا شيئاً واحداً ، فكان عليه أنْ يُخرج الكفر من قلبه قبل أنْ يبحث قضية الإيمان .

فإذا تجرَّد قلبه من الهوى وناقش نفسه ، وقارن بين الكفر والإيمان ، ثم يُدخل ما اطمأن إليه منهما كان ولابدَّ أنْ يختار الإيمان ، لذلك نقول : إن الكافر لم يترك للمناظرة العقلية بينه وبين نفسه مجالاً .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. ㊻ ﴾ [سبأ] ما هى ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. ㊻ ﴾ [سبأ]

إذن : الحق سبحانه لا يرضى لنا غوغائية التفكير ، ولا يرضى لنا المراءَ والجدلَ العقيم ، لذلك حدد كيفية النظر والتأمل والبحث ، إما

أن تكون بمفـردك وتناقش نفسك ، أو على الأكثر يكون الاثنـان معاً ، هذا يقول وهذا يُعدِّل له ، فهـما بعـيدان عن المراء وعن العـصبـية ، وقريبان من الوصول إلى الحق .

ومع أن الآية تتحـدث عن المغفـرة وعن العذاب ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٤)﴾ [الفتح] إلا أنها تُخـتم بالمغـفرة والرحـمة فهما الأغلب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح]

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

هنا أيضاً الحـق سبحـانه وتعالى يخبـر بما سيـقوله المـخلفون ، والمغانم يراد بها مـغانم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ .. (١٥)﴾ [الفتح] يعنى : لنأخذ منها كـما تأخذون ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ.. (١٥)﴾ [الفتح] يعنى : حكمه عليهم بعدم الخروج إليها .

وقد بيَّن الحق سبحانه ذلك فى قوله : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ[(١)] وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً[(٢)] وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

(١) ثبَّطه : عوَّقه وبطَّـأ به . يقول تعالى : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ .. (٤٦)﴾ [التوبة] أى : ولكن كره الله خـروج المنافقين للقتـال فى غزوة تبوك فعـوَّقهم عنه بالجبن . [القامـوس القويم ١/١٠٦] .

(٢) الخبال : النـقصان والخسارة والهـلاك . والخبال فسـاد العقل . فهم يفسـدون أفكاركم بكلامهم وشبهاتهم وشهواتهم ونفاقهم .

سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

فالمراد بكلام الله هنا حكمه عليهم بعدم الخروج لخيبر ، وحكم الله لا يُنقض ، وكلمة الله لا ترد ، وقد أرجأهم الله لفرصة أخرى ، قادمة يمكنهم الاشتراك فيها وهى حروب الردة .

ثم جاء الرد عليهم : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح] أى : قبل رجوعنا ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح] أى : على أنْ نأخذ معكم من الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح] نعم لا يفقهون إلا قليلاً ، لأن المسألة ليستْ مسألة غنائم .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ(١)
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ(٢) فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن
تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

---

(١) فى تأويل وتحديد (قوم أولى بأس شديد) أقوال كثيرة :
– أنهم أهل فارس . قاله ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى .
– أنهم الروم . قاله كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبى ليلى .
– أنهم فارس والروم . قاله الحسن البصرى .
– أنهم هوازن وثقيف . قاله ابن جبير .
– أنهم هوازن وغطفان يوم حنين . قاله قتادة .
– أنهم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة . قاله الزهرى ومقاتل .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦٣٢٣/٩) : « فى هذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة أن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ، لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليه السلام لأنه قال : ﴿ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة] .فدلَّ على أن المراد بالداعى غير النبى ﷺ ، ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبى إلا أبو بكر رضى الله عنه » .

يعنى : يا جماعة المخلَّفين عن الخروج مع رسول الله فى عمرة الحديبية ، لقد منعكم الله من الخروج إلى خيبر ، لأن لها أُنَاساً هم أَوْلَى بها منكم ، وهم الذين أطاعوا رسول الله فى الخروج إلى الحديبية .

أما أنتم فالفرصة أمامكم فى حروب الردة ، حيث تقاتلون قوماً ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .. (١٦)﴾ [الفتح] أصحاب قوة وتمرُّس فى الحروب : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا .. (١٦)﴾ [الفتح] تعْرضوا وتتخلفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ .. (١٦)﴾ [الفتح] أى : فى الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾ [الفتح]

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾

أى : ليس على هؤلاء إثم ، ولا مؤاخذة فى تخلُّفهم عن الخروج إلى الجهاد لأنهم أصحابُ أعذار(١) وليس لديهم وسائل الجهاد . ثم يضعنا السياق أمام هذه المقارنة بين الفعل والجزاء عليه ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (١٣)﴾ [النساء] أى : فى الأمر بالخروج ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

(١) قال ابن عباس : لما نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾ [الفتح] قال أهل الزمانة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (١٧)﴾ [الفتح] . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/ ٦٣٢٤] .

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ .. (١٧)﴾ [الفتح] يُعرض ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾ [الفتح]

﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ(١) فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا(٢) (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾

هذه بيعة الرضوان وهى بيعة الحديبية ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ .. (١٨)﴾ [الفتح] من الشوق لرؤية البيت وآداء العمرة ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ .. (١٨)﴾ [الفتح] السكون والطمأنينة لأنهم انصاعوا لأمر رسول الله .

﴿وَأَثَابَهُمْ .. (١٨)﴾ [الفتح] جازاهم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)﴾ [الفتح] وهو صلح الحديبية الذى كان بمثابة التمهيد للفتح الأكبر فتح مكة ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً .. (١٩)﴾ [الفتح] هى مغانم خيبر .

---

(١) قال بكير بن الأشج : كانت الشجرة بفج نحو مكة . ويقول عبد الله بن مغفل : كان رسول الله ﷺ تحت الشجرة يبايع الناس وإنى لأرفع أغصانها عن رأسه . [زاد المسير لابن الجوزى] وهى نفس الشجرة التى قطعها عمر بن الخطاب عندما رأى الناس يأتون الشجرة فيصلون عندها .

(٢) الفتح القريب : فتح خيبر . قاله قتادة وابن أبى ليلى . وقيل : فتح مكة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٣٢٩] .

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ (١) وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفتح] أى : مغانم خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفتح] كفَّ عنكم أيدى أعدائكم من اليهود وغيرهم ممَّنْ كانوا حول المدينة ، حيث ألقى فى قلوبهم الرعب .

﴿ وَأُخْرَىٰ (٢) لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) كلمة الناس هنا ، اختلف المفسرون فى تأويلها :
- هم أهل مكة ، كفَّهم عنكم بصلح الحديبية . قاله ابن عباس .
- هم اليهود . كف أيديهم عن المدينة بعد خروج النبى إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى ، لأن كف أيدى المشركين بالحديبية مذكور فى آية أخرى ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفتح]
- هم عيينة بن حصن الفزارى وعوف بن مالك النضرى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبى ﷺ محاصر لهم ، فألقى الله فى قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٣٢٩] .

(٢) قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين كأرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى ، وعن ابن عباس أيضاً والضحاك : هى خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها .[تفسير القرطبى ٩/ ٦٣٣٠] باختصار .

أى : مغـانم أخرى ، والمراد بها مـغانم غزوة حنين يبـشرهم الله بها فى المستقبل ، وقد جاءتْ بالفعل بعد الفتح .

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله : ﴿لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح] أى : فرُّوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح] لا يجدون صديقاً ولا معيناً . وهذه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح] أى : طريقته وعـادته فى خلقه أن ينصر أهل الحق ويخذل أهل الباطل ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح] أى : مضتْ فى الأمم السابقة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ(١) مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ(٢) وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) قوله ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح] فيه ثلاثة أقوال :
- أحدها : أنه الحديبية . قاله ، أنس . والثـانى : وادى مكة . قاله السدى . و الثالث : التنعيم . حكاه أبو سليمان الدمشقى .
[انظر زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير آية ٢٤ الفتح] .

(٢) أخرج الواحدى النيسابورى فى هذه الآية عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسـول الله ﷺ من جـبل التنعـيم متـسلحـين يريدون غرَّة الـنبى ﷺ وأصحـابه فأخذهم أسراء فاستحياهم . فأنزل الله ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح] .

بطن مكة مكان قريب من الحديبية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .. (٢٤)﴾ [الفتح] نصركم عليهم وأظهركم عليهم ، وهذه القوة هى التى أجبرت كفار مكة على الجلوس مع رسول الله للتفاوض ، فقد أصبح للمسلمين كلمة تُسمع ورأى يُحترم ، لذلك جاءتْ قريش لتعقد معهم معاهدة .

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ(١) مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾

الحق سبحانه وتعالى يبين لهم الحكمة من الصلح وعدم الدخول مع الكفار فى قتال فى هذا الوقت ، صحيح أنهم صدوكم عن الكعبة ومنعوكم من دخول مكة وأنتم على شوق للبيت ومعكم الهدى تسوقونه للبيت .

والهدى دليل السلام ، وأنكم ما جئتم للحرب ، بل لعمل دينى تعبدى ﴿وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ .. (٢٥)﴾ [الفتح] الهدى ما يُهدى لفقراء الحرم من الأنعام ﴿مَعْكُوفًا .. (٢٥)﴾ [الفتح] مقيداً ومحبوساً لهذا الغرض و ﴿مَحِلَّهُ .. (٢٥)﴾ [الفتح] أى : المكان الذى يُذبح فيه .

---

(١) الهَدْى : واحدته هَدْية ، وهى الذبيحة تهدى إلى الحرم فى الحج . ومعكوفاً : اسم مفعول أى : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحره . [القاموس القويم ٢ / ٣٢] .

ثم يكشف لنا عن واقع أهل مكة فى هذا الوقت ، ففى مكة إخوان لكم مُسلمون يكتمون إسلامهم ، بين الكفار هناك مؤمنون ومؤمنات لا تعرفونهم ، فلو تواجهتم معهم فى حرب لقتلتموهم ، وأنتم لا تعلمون هذه الحقيقة .

﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح] معرة يعنى ضرر وتكون سُبَّة فى حقكم أنكم قتلتم إخوانكم .

﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح] تفرقوا وتميَّز المؤمن من الكافر ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : عذّبناهم بأيديكم وسمحنا لكم فى قتالهم[1] .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ[2] فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) استدل الإمام مالك بهذه الآية على حرمة إذاية الكافر إذا تترس بمسلم واحتمى به ، أو كان هناك مسلمون داخل حصن يسيطر عليه الكافرون . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحداً من المسلمين فعليه الدية والكفارة ، فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة . أما أبو حنيفة وأصحابه والثورى فقد جوزوا الرمى فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) قال الزهرى : حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ومنعهم من دخول مكة . وقال ابن بحر : حميتهم وعصبيتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٣٤٠] .

الحق سبحانه وتعالى يبين لرسوله ﷺ علة أنْ صدوه عن دخول مكة هذا العام ، فالمسألة كلها مجرد حقد وحمية جاهلية تمكَّنتْ من قلوب هؤلاء ، فكَبُرَ عليهم أنْ يدخل محمد وأصحابه مكة ، ففى دخولهم هذا العام إهانة لهم(١) .

الحمية هى الطيش والغرور والغطرسة ، فالقوة لا تُمدح ولا تُذم إلا من خلال أثرها على صاحبها ، فالقوة تُمدح إن جلبتْ الخير لصاحبها ، وتُذم إنْ جرَّته إلى الشر وأوقعته فى الهلاك .

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. (٢٦) ﴾ [الفتح] السكينة يعنى الطمأنينة ، والثقة فى نصر الله ، والرضا بالصلح ، والعودة دون دخول مكة هذا العام .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ .. (٢٦) ﴾ [الفتح] وهى كلمة التوحيد ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .. (٢٦) ﴾ [الفتح] أجدر بها وأهلٌ لها ، حيث استحقوها بطاعتهم لله ولرسوله .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ
لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ
مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ
مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا
قَرِيبًا (٢٧) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يقصّ علينا قصة شوق المسلمين للبيت

(١) وذلك أنهم قالوا : قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ، واللات والعزى لا يدخلها أبداً . [القرطبى ٩/ ٦٣٤٠] .

بعد أن اغتربوا عن مكة مدة طويلة واشتاقوا لأداء العمرة وللطواف بالبيت ، ولكن حمية الجاهلية وطيشها وغرورها بقوتها الكاذبة حالتْ دونهم ودون ما يريدون .

والحق سبحانه حينما يتكلم فى هذه المسألة يتكلم عنها على أنها رؤيا سبقتْ واقع القصة ، والرؤيا كما تعلمون ما يراه النائم من أشياء ، قد يكون لها واقع وقد لا يكون .

والرؤيا تحدَّث القرآن عنها فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ يَـٰأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ④ ﴾ [يوسف]

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية ، واعترضوا على أسلوب القرآن فى تكرار الفعل (رأى) فى هذه الآية ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ④ ﴾ [يوسف]

والمتأمل فى القصة وتفاصيلها لا يجد تكراراً ، لأن كلَّ فعل منهما له دلالة ومعنى ، فالأول قال ﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ④ ﴾ [يوسف] ولم يقُلْ : ساجدين . وفى الأخرى قال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ④ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن الرؤيا الأولى غير الأخرى ، الأولى رآهم بلا سجود ، رآهم فى وضعهم الطبيعى ، ثم رآهم فى حالة السجود ، لأنك لا تعرف الشمس مثلاً ساجدة إلا إذا عرفتها غير ساجدة ثم طرأ عليها السجود .

إذن : لابدَّ من تكرار الفعل هنا مرة لغير السجود ، ومرة أخرى للسجود ، يعنى فوجىء بها تسجد . ولو قال : رأيتها ساجدة بدايةً

لقُلْنا : كيف ؟ لأن السجود لا يكون إلا بحركة ساكن وتحرّك بالسجود .

إذن : الحق سبحانه لا يضع لفظاً إلا لغاية ومعنى ، ولِلَقْطَة لابدَّ منها .

ولما قَصَّ يوسف على أبيه هذه الرؤيا قال : ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً .. ⑤﴾ [يوسف] لأن سيدنا يعقوب عليه السلام علم أن هذه الرؤيا تعنى علو شأن يوسف على إخوته ، وإذا كانوا قد حقدوا عليه لاهتمام أبيه به أو منحه بعض العطف أكثر منهم .

فكيف إذا قصَّ عليهم هذه الرؤيا ؟ كيف إذا عرفوا أن الملأ الأعلى من المخلوقات سجدوا له ؟

كذلك هنا رؤيا ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. ⑳﴾ [الفتح] فكأن سيدنا رسول الله قد رأى رؤيا هى ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ .. ㉗﴾ [الفتح]

وقد قصَّ رسول الله هذه الرؤيا على أصحابه ، فاطمأنوا إلى دخولهم مكة وآداء العمرة ، كذلك لما منعهم سفهاء قريش من دخول مكة تعجبوا واعترضوا على منعهم من الدخول .

وسيدنا عمر يقول لسيدنا رسول الله : ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلِمَ نُعط الدنية فى ديننا ؟

صحيح هم على الحق وجاءوا على شوق للبيت ، لكن إنْ دخلوا مكة غصباً ودون رضا أهلها ستقوم بينهم معركة . وقلنا : إنها ستصيب جماعة من المسلمين فى مكة لم يعلنوا عن إسلامهم كما

ذكر فى الآية السابقة .

لذلك قال الحق سبحانه بعدها ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا..(٢٧)﴾ [الفتح] فالحق سبحانه أخبر نبيه بالرؤيا وصدَّقها فى الواقع ، لكن لم تحدث بعد ، لأن الله يعلم من واقع الأمر ما لا تعلمون ، لذلك أجَّل العمرة هذا العام ، وجعل الرسول يعقد معاهدة الصلح بينه وبين كفار مكة على أنْ يؤدوا العمرة العام المقبل .

واقرأ قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ .. (٢٧)﴾ [الفتح] ولم يحدد لها زمناً ، فلو قال قائل مثلاً : ألم تقُلْ أننا سنؤدى العمرة وندخل المسجد الحرام يقول له : ليس بالضرورة هذا العام .

والمتأمل فى ألفاظ الآية يجدها تدل على هذا المعنى ، وأن العمرة لن تكون هذا العام ، نفهم هذا من معانى الكلمات ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .. (٢٧)﴾ [الفتح]

فلو دخلتم دون إذن قريش ورضاها لن يتحقق لكم هذا الأمن ، فسوف يقاتلونكم ويعتدون عليكم ، حتى لو سمحوا لكم بالدخول فلنْ يتحملوا رؤيتكم وأنتم تطوفون بالبيت ، وسوف تأخذهم حمية الجاهلية لابدَّ .

ثم قال : ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ .. (٢٧)﴾ [الفتح] وهذا أمن آخر بعد أداء العمرة ، لأن قريشاً كانت إذا دخل أحد الحرم لنُسك لا يتعرضون له ، لكن يعتدون عليه بعد أنْ يفرغ من نُسكه .

فقوله ﴿لا تَخَافُونَ .. (٢٧)﴾ [الفتح] دلَّ على أنهم آمنون فى بداية العمرة وفى نهايتها ، وهذا لا يتوفر لهم إلا إذا دخلوا برضا قريش وإذنها .

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧) ﴾ [الفتح] الحق هو : الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فما دام أن الله أراه الرؤيا فلا بدَّ أنْ تصدُقَ فى الواقع ، لأن رؤيا الأنبياء حَقٌّ ، ونبوة سيدنا رسول الله ﷺ بدأت أول ما بدأت بالرؤيا الصادقة ، وقد مكث رسول الله فى مرحلة الرؤيا هذه ستة أشهر .

فإذا ما قارنّا بين هذه المدة وبين مدة ٢٣ سنة هى عمر بعثته ﷺ وجدناها $\frac{١}{٤٦}$ ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[1] ، وبدأ النبوة بالرؤيا الصالحة لأنها تأتى والإنسان نائم ، وليس له خواطر خاصة فى شهوة أو خلافه .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح] أى : جعل من بعد صلح الحديبية ورجوعهم بدون عمرة فتحاً قريباً للإسلام وللمسلمين .

وهذا الفتح من عدة وجوه : أولاً الهدنة مع قريش والتصالح معها ، وهذا التصالح أعطى فرصة لنشر الدعوة خارج مكة ، حيث تفرَّغ المسلمون لذلك بعد أنْ أمنوا جانب قريش .

وهذا يعنى أيضاً الاعتراف بمحمد وبدعوته واحترام العهد معه ، فقد أصبح للإسلام كلمة تُسمع بعد أنْ كان مضطهداً .

ثم كان هذا الصلح عزة للمسلمين ، كما قال تعالى ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .. (٢٦) ﴾ [الفتح] كلمة الله هى كلمة (لا إله إلا الله) ، لذلك قال فيها ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٧٤) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وأخرجه مسلم فى صحيحه (٤٢٠٣) عن أبى هريرة . وعن ابن عمر (٤٢٠٥) .

فالكرامة هنا ، وإياكم أنْ تظنوا أن قريشاً حين تصدكم عن المسجد الحرام أن هذا يعنى عزة لها ، أبداً لأن العزة لله والكرامة عند الله بالتقوى ، لا بالطيش والغرور بالقوة الكاذبة .

والرسول ﷺ فى هذا الصُّلح يُعطينا درساً فى الحنكة السياسية ، فقد قبل الصلح مع الكفار ، وقبل أن يعود هو وأصحابه دون دخول مكة هذا العام وهم على مقربة منها ، لأن فى ذلك صالح المسلمين والإسلام ، حتى إنه فى أثناء المعاهدة تنازل عن أشياء ما كان أحد يظن أنه يتنازل عنها .

فلما جاءوا لكتابة المعاهدة أملى رسول الله الكاتب وهو الإمام على : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل بن عمرو[1] : لا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا وقفنا منك هذا الموقف ، فردَّ عليه رسول الله : بل اكتب محمد بن عبد الله ونزل على رأى سهيل بن عمرو لكن اعترض على . وقال : بل اكتب رسول الله ، فقال له رسول الله : اكتبها وستُسام[2] مثلها فتقبل .

وفعلاً مرَّتْ السنوات ، وحدث الخلاف بين على ومعاوية ولما انتهيا للصلح . قال على : اكتب ، هذا ما تعاقد عليه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فاعترضوا على كلمة أمير المؤمنين وقالوا : لو نعلم أنك أمير المؤمنين ما قاتلناك فرضى بها وكتب : على بن أبى

(١) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشى العامرى ، خطيب قريش وأحد سادتها فى الجاهلية ، أسره المسلمون يوم بدر وافتدى فاقام على دينه إلى يوم فتح مكة فأسلم وسكنها ثم سكن المدينة ، هو الذى تولى أمر صلح الحديبية ، توفى عام ١٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/ ١٤٤] .

(٢) سامه الأمر سوماً : كلفه إياه . قال الليث : السَّوْم أن تجشم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . والسَّوْم : التكليف وقيل معناه : عرض علىَّ . [لسان العرب – مادة : سوم] بتصرف .

طالب[1]. وكانت هذه المسألة علامة من علامات النبوة .

وأيضاً لما أملى الرسول ﷺ فى أول العقد : بسم الله الرحمن الرحيم فرفضوا كتابتها وقالوا : نحن لا نعرف هذا ، بل اكتب : باسمك اللهم فرضى بها أيضاً سيدنا رسول الله .

وهذه كلها تنازلات من رسول الله ، جاءت مراعاة لمصلحة الإسلام والمسلمين فى إطار ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا .. (٢٧)﴾ [الفتح] وكانت النتيجة ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [الفتح] وفعلاً بعد هذا الصلح توالتْ الفتوحات بعد أنْ أمنوا شر قريش لمدة عشر سنوات .

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾

الهدى هو الدلالة على طريق الخير الموصِّل للغاية التى تسعد صاحبها فى الدنيا والآخرة ، وقد أُرسل سيدنا رسول الله بالهدى للناس كافة فدلَّ الجميع ، فمَن اهتدى بهداه أعانه اللهُ وزاده هدى

(١) من الحجج التى احتج بها الخوارج فى الخروج على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه فى التحكيم بينه وبين معاوية رضخ لمحو تلقيبه بأمير المؤمنين ، فقال الخوارج : محا اسمه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين . فرد عليهم ابن عباس فى مناظرته لهم : أما قولكم : محا اسمه من أمير المؤمنين فإنى أنبئكم بذلك عمن ترضون ، أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية وقد جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو قال : يا على اكتب هذا ما اصطلح محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو ، فقالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى رسولك . ثم أخذ الصحيفة فمحاها بيده ، ثم قال : يا على اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . فوالله ما أخرجه الله بذاك من النبوة . [الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى ١/٢٩٢] . ذكر السبب الموجب لقتال الخوارج .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] ومن انصرف عنه واختار الضلال زاده الله ضلالاً بأنْ ختم على قلبه .

ومثّلنا لذلك بشرطي المرور حين يرشدك إلى الطريق ، فإنْ سمعتَ كلامه واهتديتَ بدلالته لك زادك وصحبك حتى يُوصّلك إلى غايتك ، وإنْ انصرفت عنه ولم تأخذ برأيه تركك ومصاعب الطريق ، وربما رآك على الطريق الخاطيء ، فلم ينصحك لأنك لم تسمع له .

والقرآن الكريم لما تكلم عن الهدى قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥) ﴾ [البقرة] وهذا المعنى يُصحح الفهم الخاطيء عند البعض ، حيث يرونَ أن الهدى عبء على صاحبه ومشقة وتكاليف وتقييد للحرية .

لكن الهدى فى الواقع غير ذلك ، الهدى مطيّة تحملك إلى غايتك ، فأنت على هدى يعنى مُستْعل عليه تركبه ليوصّلك ، فالمنهج وإنْ كان فى ظاهره يقيد حركتك ، إلا أنه يُقيدها لصالحك أنت ويقف ضد شهواتك لصالحك أنت .

المنهج حين يقيد يدك عن السرقة يقيد يد الناس جميعاً ، أنْ تسرق منك ، وحين يأمرك بغضِّ البصر عن محارم الناس يأمر الناسَ جميعاً بغضِّ البصر عن محارمك . إذن : أنت الفائز فى هذه المسألة . المنهج يقيد حركتك عن شهوة عاجلة فى الدنيا ليعطيك نعيماً باقياً فى الآخرة .

وقوله : ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ .. (٢٨) ﴾ [الفتح] أى : الإسلام ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير . ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٢٨) ﴾ [الفتح] يُعليه ويُعلى كلمته على كل الأديان التى سبقته ، لأن القرآن جاء مهيمناً على كل هذه الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

والظهور هنا ظهور حجة وبرهان ، وظهور كمال فى التعاليم وفى المنهج ، وهذا لا يمنع وجـود ديانات أخرى ما زالتْ حـتى الآن وبعد أربعة عشر قرناً من الإسلام .

لذلك سُئلنا هذا السؤال فى إحـدى سفرياتنا ، فقلنا ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٢٨)﴾ [الفتح] لا تعنى أنْ يكون الناسُ جميعاً مسلمين ، لأن الظهور هنا ظهور تعاليم ، وحدث هذا بشهادتكم أنتم فقد ألجأتكم قضايا الحياة إلى منهج الإسلام حيث لا حلَّ لكم إلا فيه .

لذلك رأيناهم يأخـذون مـثـلاً بأحكام الطلاق فى الإسـلام ، وهذا إظهار للدين لأنهم أخذوا تعاليمه دون أنْ يؤمنوا به ، كذلك فى مسألة تعدد الزوجات كانوا يهاجمونها ويعترضون عليها والآن ينادون بها .

والعجيب أنهم يرضوْنَ بتعدد الخليلة يعنى العشيقة ، ولا يرضون بتعدد الحليلة أى الزوجة ، وهذا فساد فى الطبع والذوق وتصرُّف تأباه الشرائع .

كذلك فى الناحية الاقـتصادية ، لما تكلَّم (كنز)[(١)] ملك الاقتصاد عندهم انتـهى إلى القول بأن المـال لا يؤدى وظيفتـه الاجتـماعـية فى الكون إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر ، وهذا هو رأى الإسلام .

لذلك حرَّم التـعامل بالربا لأن الربا عـملية بين غنى وفقـير ، غنى عنده فائض يُقـرض ، وفقير مُعـدم يقترض ، فكيف نطلب من الفـقير الذى لا يملك الأصل أنْ يعطى الغنى الذى يملك الأصل وزيادة .

ثم هَبْ أن الفقير أخذ المال ليستثمره فى التجارة ثم خسرتْ هذه التجارة . إذن : يكون مطلوباً منه أن يسـدد رأس المال ثم الفوائد إلى جانب جهده الذى راح هباءً طوال مدة التجارة .

---

(١) هو : جون مينارد كـينز ، اقتصادى إنجليزى ، ولد ٥ يونيـو ١٨٨٣ م ، مؤسس النظرية الكينزية من خلال كـتابه (النظرية العـامة فـى التشـغيل والفائدة والنقـود) عام ١٩٣٦ ، توفى ٢١ أبريل ١٩٤٦ ، م . عن ٦٣ عاماً .

إذن : كم مصيبة حلَّتْ به ؟ إذن : تحريم الربا يُقدِّر أولاً مصلحة الفقير ، ويُقدِّر أيضاً مصلحة الغنى فى كل شىء لأنك إنْ كنتَ قادراً فأقرضتَ نظرت إلى حال الغنى .

لكن قد تتقلب الأوضاع ، ويصير الغنىُّ فقيراً يحتاج إلى أنْ يقترض . إذن : ليس من مصلحته أنْ يتعامل بالربا .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨) ﴾ [الفتح] يعنى : شهادته كافية ، لأن الشاهد حينما يشهد يشهد بما رأى ورؤيته محدودة ، إنما حين يشهد الله فهي شهادة العلم المحيط إحاطة تامة ولا يوجد من يغيرها ، لكن ﴿ شَهِيداً (٢٨) ﴾ [الفتح] على ماذا ؟ قالوا : على أن الذى يتبع الهدى مصيره إلى الجنة ، وهى دار النعيم الدائم الذى لا ينقطع ، والنعمة التى لا تزول .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ
رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ (١) فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ
سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا



(١) شطأ الزرع : ما خرج وتفرع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ١/٣٤٨] .

﴿ محمد ﴾ اسمه ﷺ ﴿رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] وصفه الجديد ، لأننا عرفنا محمداً أولاً قبل أنْ يكون رسول الله ، ومحمد من الحمد يعنى أن الناس تحمده وقد حمده قومه منذ صغَره ، وقالوا : الصادق الأمين .

فقد كانت سيرته وماضيه بينهم يدلّ على هذه الصفات ، وعلى أنه شخص مميَّز بين أقرانه وأنه غير عادى .

وقد أجمعوا على ذلك حتى قبل الرسالة ، وكانوا يرون فى طفولته أنه لم يُصَبْ بشىء من لوثة الطفولة ولهوها ولعبها ، رأوا أنه كان يرعى الغنم وكان مثله من الفتيان الذين يرعون الغنم فى البادية ينزلون بالليل إلى مكة يحضرون سهرات اللهو .

أما هو فقد فكر مرة فى أنْ ينزل معهم ، فلما ذهب معهم إلى هناك أخذه النوم ، فلم يستيقظ إلا بعد أنْ انفضَّ السامر[1] . فكأن الله عصمه ونزَّه سمعه وبصره أنْ يسمع أو يرى شيئاً من هذا ، أما رفاقه فقد تعجَّبوا لأنهم لم يروْه بينهم ، لذلك أصبح مأموناً عندهم ، ولما لم يُجرِّبوا عليه كذباً قط أصبح جديراً بأنْ يقولوا عنه : الصادق الأمين .

وفى يوم من الأيام اجتمع الصبيان لحمل حجر ثقيل يلعبون به ، فلما ثَقُلَ عليهم شمَّروا ثيابهم حتى لا يؤثر الحجر فى أكتافهم ، وكان معهم رسول الله فأمسك بثوبه ، وأراد أن يفعل مثلهم ، فسمع صوتاً يقول له :

---

(١) قال رسول الله ﷺ : ما هممت بشى مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة لغلام يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فاصابنى مثل أول ليلة ثم ما هممت بعده بسوء . [أورده فى الكامل فى التاريخ ١ / ٢٥٠] .

عورتك يا محمد ، فكان هو الوحيد الذى لم يكشف عن عورته[(١)] .

وقد لاحظوا عليه ذلك قبل سنِّ التمييز ، فأخذوا عنه فكرة أنه مُهيأ من ناحية أخرى ، ثم عرفوا سداد رأيه وحُسْن تفكيره فى مسألة وضع الحجر الأسود فى مكانه ، حينما اختلفتْ قبائل قريش مَنْ ينال شرف وضع الحجر فى مكانه حتى كادوا أنْ يتقاتلوا ، ثم قالوا : نُحكِّم أول داخل علينا .

فكان محمد الصادق الأمين الذى لا يختلف على أمانته اثنان ، فأخذ رداءه ووضع عليه الحجر ، وأمر كل قبيلة أنْ تأخذ بطرف منه ، حتى إذا ما وصلوا به إلى موضعه من الكعبة حمله ووضعه فى مكانه ، وهكذا انتهى الخلاف الذى أثار حفيظة القوم[(٢)] .

فقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى : هذا الذى تعرفونه وتعرفون صِدْقه وأمانته وكرم أخلاقه ، هذا الذى لبث بين ظهرانيكم أربعين سنةً هو رسول الله الذى اختاره الله للرسالة . إذن : أنتم شهدتم له قبل أنْ أرسله إليكم ، وما دام قد شهدتم له بالخُلق الجميل وسداد الرأى فواجبٌ عليكم أنْ تُصدقوه .

والحق سبحانه وتعالى لم يصف محمداً فى ذاته إنما صفَّى أصوله ، وزكَّاهم بأنْ عصمهم من السجود للأصنام ، وهى عبادة كانت شائعة فى

---

(١) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٥٠) أن رسول الله ﷺ قال : « لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإنى لا أقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال : شد عليك إزارك . قال : فأخذته فشددته علىَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىَّ من بين أصحابى » وكذا فى (سبل الهدى والرشاد) والروض الأنف للسهيلى (١/ ٣١٢) .

(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٨٠) وفى سبل الهدى والرشاد (١/ ١٦٧ ، ١٧١) والشفا للقاضى عياض (١/ ١٣٤) والسهيلى فى الروض الأنف (١/ ٣٤٥) وابن هشام فى السيرة (١/ ١٩٧) .

هذا الوقت ، وقد أجمعوا على أن أجداده لم يسجد أحدٌ منهم لصنم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « مازلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »[١] أى : أنه ﷺ جاء من نسل طاهر لم يخالطه شيء من سفاح الجاهلية .

وقصة أبيه عبد الله مع زينب الخثعمية معروفة فى الجزيرة العربية كلها خاصة فى مكة ، حيث رأت فيه جمالاً وجلالاً فعشقته حتى راودته عن نفسه ، وعندها قال الأبيات المشهورة :

أمَّا الحَرَامُ فَالمَمَاتُ دُونَهُ والحِلّ لا حل فَأَسْتبِينَه

يَحْمِي الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَه فَكَيْفَ بالأمْرِ الذى تَبْغِينه ؟

فلما تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب[٢] وحملت فى رسول الله انتقل إليها هذا النور الذى كان فى وجه عبد الله ، فلما رأته الخثعمية بعد ذلك قالت : وماذا أفعل به وقد ذهب النور الذى كان فى وجهه[٣] ؟

---

(١) أورده الألوسى فى تفسيره (روح المعانى ٥/٣٨٨) والرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب ٦/٣٣٧ ، ٣٣٨ - ١٢/٩) والنيسابورى فى تفسيره (٣/٢٩٥) دون سند أو عزو لأى راو ، وورد معزواً لابن عباس فى فتاوى الأزهر (٨/١٠٠) وقال الرملى فى فتاواه (٦/١٦٧) : معناه أنه لم يقع فى نسبه ﷺ ما كان سفاحاً .

(٢) هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، قرشية ، أم النبى ﷺ ، كانت أفضل امرأة فى قريش نسباً ومكانة ، رباها عمها وهيب بن عبد مناف ، تزوجت عبد الله بن عبد المطلب ، مرضت فى إحدى رحلاتها لزيارة قبر زوجها فتوفيت بموضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة ، وكان رسول الله حينها عمره ست سنين وقيل أربع .. توفيت عام ٤٥ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى ١/٢٦] .

(٣) أورد السهيلى فى الروض الأنف (١/٢٧٣) من حديث محمد بن إسحاق أن عبد المطلب انصرف بعد أمر القداح آخذاً بيد عبد الله ، فمر به على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى وهى أخت ورقة بن نوفل وهى عند الكعبة . فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى . قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع علىّ الآن . قال : أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه . فسار به عبد المطلب حتى زوّجه آمنة بنت وهب . ثم مر بتلك المرأة فقال لها : ما لك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضت علىَّ بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة . وقد كانت تسمع من أخيها ورقة أنه كائن فى هذه الأمة نبى .

وهذا يعنى أن الحق سبحانه وتعالى صنع محمداً على عينه ، وحماه من سِفَاح الجاهلية ، وحماه فى كل مراحله .

وبعد ذلك مات أبوه واستُرضع فى بنى سعد ، ورأت له مرضعته كثيراً من الكرامات والمعجزات ، فلما قالت لإخوته فى الرضاعة : احموا محمداً من حر الشمس . فقالوا : والله يا أماه ما نجده أبداً فى حرِّها ، لأنه إذا سار نرى فوقه غمامة تُظلله[1] .

إذن : شهد له فى ذاته ، وشهد له فى آبائه ، علم الجميع أنه مُؤيَّد من أعلى .

فقوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] يعنى أنه اختار الرسول على وفْق رأيكم ، فإياكم أنْ تكذِّبوه ، ومحمد هنا مبتدأ مُخبر عنه بقوله ﴿رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

أى : أن محمداً المعروف لكم هو رسول الله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان الواجب ساعة يُرسَل إليكم أنْ تؤمنوا به وأنْ تُصدقوه .

والحق سبحانه وتعالى لما أيَّد محمداً بالمعجزات أيّده بمعجزة عقلية ، وفرَّق بين معجزة عقلية ومعجزة كونية ، فالمعجزة الكونية تقع مرة واحدة ، كما رأينا فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، وأنه كلَّم الناس فى المهد ، ولم يَرَ هذه المعجزة سوى القوم الذين حضروها وعاينوا هذا الموقف .

---

(١) كانت حليمة مرضعة رسول الله لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً فغفلت عنه يوماً فى الظهيرة فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخته فقالت : فى هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ما وجد أخى حراً ، رأيت غمامة تظل عليه ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت . أورده فى عيون الأثر (١/ ٥٢) ، وابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٢٨) والشامى فى سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٨٨) وذكر أنها أخته الشيماء .

أما بالنسبة لنا فهو خبر نُصدقه ونؤمن به ، لأن القرآنَ أخبر به .

أما محمد فرسالته عامة وخاتمة للرسالات إلى قيام الساعة ، إذن : فمعجزته يجب أن تتناسب مع عمومية الرسالة ، يجب أن تكون معجزة خالدة باقية لا تنتهي بانتهاء الموقف .

لذلك جاء القرآن معجزة باقية ببقاء الرسالة إلى قيام الساعة ، فمنذ نزلت الرسالة ونحن نقرأ ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وستظل تُقرأ إلى قيام الساعة ، محمد رسول الله بدليل هذا القرآن المعجز .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] فتولَّى الحق سبحانه بنفسه حفْظَ القرآن على خلاف الكتب السابقة عليه ، حيث وكل الله حفْظها إلى أهلها ومَنْ آمن بها .

﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ.. (٤٤) ﴾ [المائدة] ومعنى ﴿ استحفظوا.. (٤٤) ﴾ [المائدة] أي : طُلب منهم حفظها تكليفاً من الله ، والتكليف عرضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد رأيناهم لم يحافظوا بل بدَّلوها وغيَّروها ونسُوا الكثير منها .

أما القرآن فهو كما هو منذ أنزله الله على قلب رسوله ﷺ ، لأن الله حفظه بحفظه ، ولم يأتمن على ذلك البشر .

ومن مظاهر حفظ الله للقرآن أنْ يسخر له مَنْ يخدمه حتى ممَّنْ لا يؤمنون به ، فكثيرٌ ممَّنْ يقومون على طباعة القرآن وزخرفته الآن من غير المسلمين ، وقد رأينا الرجل الألماني الذى طبع القرآن كله فى صفحة واحدة مع أنه لم يفعل هذا فى الإنجيل وهو كتابه .

إذن : نقول أن ماضى رسول الله بين قومه أهَّله لمهمة الرسالة ، لذلك الذين استقبلوا خبر بعثته ﷺ سارعوا إلى تصديقه قبل أنْ يسمعوا من القرآن آية واحدة ، لماذا ؟

لأنهم أخذوا الدليل على صدقه من ماضيه فيهم ، فما جرَّبوا عليه كذباً قط ، والذى لا يكذب على الناسَ من باب أوْلَى لا يكذب على الله ربِّ الناس .

ومثل هذا الموقف رأيناه أيضاً من الصِّديق أبي بكر في حادثة الإسراء والمعراج ، فلما بلغه أن رسول الله يدَّعي أنه أُسْري به قال : إنْ كان قال فقد صدق[١] .

أما المعجزة فقد جاءتْ لمن كذَّب وأنكر رسالته ﷺ ، جاءت لمَنْ لم يؤمن ولمَنْ اتهم القرآن بأنه كذبٌ وافتراء ، فجاء ليقول لهم ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس] أي : مفتراة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أي : آمنوا به وأصلحوا في معيته البشرية والمنهجية ، وهؤلاء وصفهم بأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] إذن : جمعوا بين الشيء ونقيضه ، بين الشدة والرحمة .

وهذا دليل على أن المؤمن ليس له طبْع واحد يحكمه ، إنما يتغير تبع التكليف الذي يأتيه من ربه عز وجل ، فمع الأعداء تجده قوياً شديداً عليهم ، يُريهم أن قناة المؤمن لا تلين ، أما مع إخوانه المؤمنين فهو رحيم بهم شفيق عليهم .

وفي موضع آخر عبَّر القرآن عن هذا المعنى ، فقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة] فالمنهج الإيماني هو الذي يحكم سلوك المؤمن ويُوجهه ، وهذا ما رأيناه بالفعل في تصرّفات كل من الصِّديق أبي بكر والفاروق عمر .

فأبو بكر مع ما عُرِف عنه من اللين والرحمة لما جاءت مسألة

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٣٨١) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما أسرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس فمن (وفي رواية ٤٤٣٢ : ممَّن) كان آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر ، فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . وأخرجه كذلك البيهقي في دلائل النبوة (٦٥٢) .

الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ رأيناه يخرج عن هذا الطبع اللين ، ويكون فى أشدّ ما يمكن .

ويقول لعمر : والله لو منعونى عقالاً[1] كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتُهم عليه ، وينهر عمر ويقول له : أجبَّار فى الجاهلية خوَّار فى الإسلام[2] .

والمتأمل فى مسألة الردة يجد أنها تحتاج إلى قسوة وحزم ، وإلا انتشرتْ خاصة بين ضعاف الإيمان ، والناس ما يزالون حديثى عهد بالدين ، وهذا ما أخرج أبا بكر من طبْع اللين إلى طبْع الشدة .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح] فهم مع هذه الشدة على الكفار تراهم ركعاً سجداً ، والركوع والسجود مراحل لإظهار العبودية الكاملة لله تعالى ، فالركوع تنحنى بقامتك لله ، والسجود أعظم من الركوع حيث تخرّ إلى الأرض وتضع جبهتك ، وهى أشرف موضع فيك على الأرض تواضعاً وتذللاً لله وخضوعاً له سبحانه .

لذلك قلنا : فى الركوع والسجود كمال العبودية لله ، وهذا فهمناه من قول إبليس الذى حكاه عنه القرآن : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) العقال : قال الكسائى : العقال صدقة عام ، وقال بعضهم : أراد أبو بكر رضى الله عنه بالعقال الحبل الذى كان يعقل به الفريضة التى كانت تؤخذ فى الصدقة إذا قبضها المصدِّق . وفى روايات أخرى : لو منعونى عناقاً . وفى أخرى : جدياً . [لسان العرب - مادة : عقل] بتصرف . قلت : المقصود : لو منعونى أقل شىء . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٧٦) والبيهقى فى دلائل النبوة(٧٣١) والمتقى الهندى فى كنز العمال (١٦٨٣٨) وتاريخ الإسلام للذهبى (١/٩١) .

فلم يذكر باقى الاتجاهات أعلى وأسفل ، لماذا ؟ لأن الأعلى يمثل علو الألوهية ، حين نرفع أيدينا بالدعاء ، والأسفل يمثل ذُلَّ العبودية حينما تسجد الجباه ، وتخضع لله تعالى ، لذلك لا يأتى الشيطان من هذين .

وقوله تعالى : ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩)﴾ [الفتح] هذه هى علة كونهم أشداء على الكفار ورحماء بينهم ، وكونهم يحافظون على الركوع والسجود ، أى : يفعلون هذا ابتغاء فضل الله وطمعاً فى رضوان الله عنهم .

وهذا قمة الإخلاص فى الأعمال ، فهدفهم من العمل وجه الله لا ينظرون إلى غيره ، لماذا ؟ لأنهم يحسبون حساب هذا اليوم الذى سيقفون فيه أمام الله ، ولا يجدون غير الله يحاسبهم ويجازيهم .

لذلك قلنا فى العلماء والمخترعين الذين خدموا البشرية بأعمالهم الحسنة ومع ذلك لا نصيبَ لهم فى الآخرة ، لأنهم ما عملوا لله إنما للبشرية وللحضارة .

لذلك قال الله عنهم : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] فُوجىء بالإله الحق الذى لم يكُنْ فى باله هو الذى يحاسبه ، وهو الذى يجازيه .

ومن علامات هؤلاء المؤمنين أيضاً ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] سيماهم أى علامتهم المميزة لهم هى الأثر الذى يتركه السجود فى جبهة الإنسان والتى نسميها زبيبة الصلاة .

فالخالق سبحانه لم يخلق البشر فى الكون على قالب واحد ، إنما لكل إنسان قالبه الخاص به ، والذى لا يتطابق مع قالب آخر على كثرة الخَلْق ، وهذه من طلاقة القدرة فى عملية الخَلْق ، فالناس

مختلفون فى الطول والقصَر والعرض واللون والملامح ... إلخ .

لكن الصفة المميزة لجميع المؤمنين الذين وصفهم الله بهذه الصفات ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] وهذه العلامة يلازمها نور فى الوجه وبشاشة نلاحظها على وجه المؤمن ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد(١) .

وكثيرون منّا يجد لذة فى إطالة السجود ، ويجد فيه أنْساً بالله فيعتاد ذلك ، فتظهر هذه العلامة على جبهته إلى جانب هذا النور والإشراق الذى يبدو على وجهه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذا إذا قارنت بين رجل قضى ليله فى الشرب والخلاعة والاستهتار ، وآخر قضى ليله فى عبادة الله وتسبيحه .

وهذه الوجوه تأتي هكذا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

ونحن نلاحظ هذه الصورة ، ونرى بدايتها فى الدنيا قبل الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ .. (٢٩)﴾ [الفتح] أى : الأوصاف التي سبق ذكرها للمؤمنين مع محمد وهى : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] هذه الصفات هى ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] وهكذا وصفتهم التوراة ، فكأن التوراة فيها ذكر ومَثَلٌ للمؤمنين الذين يؤمنون بمحمد الرسول الخاتم ، لأن التوراة مُبشِّرة به .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧٤٤) وأبو داود فى سننه (٧٤١) والنسائى فى سننه (١١٢٥) وأحمد فى مسنده (٩٠٨٣) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

أما الإنجيل فقد وصفهم بأوصاف أخرى غير هذه ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

فهؤلاء المؤمنون مثلهم فى الإنجيل مثل الزرع الذى أخرج ﴿شَطْأَهُ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] أى فروعه ، والشطأ هو أعلى العود أو السنبلة ﴿فَاسْتَغْلَظَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] يعنى : اشتد العود وقوىَ وامتلأ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] يعنى : بلغ مبلغه حتى إنه ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] لكمال استوائه واستقامته ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

ولك الآن أنْ تقارن بين هذين المثالين تجد المثل الأول فى التوراة اهتم بالنواحى الروحية ، وذكر أموراً وأوصافاً كلها قيم ومعنويات ، فأتباع محمد أشداء على الكفار رحماءُ بينهم ، وهم رُكَّعٌ وسُجَّد يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وهم سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، كلها قيم ومعنويات ليس فيها شىء من الماديات أبداً .

أما مثلهم فى الإنجيل فمثل مادى يخلو تماماً من الروحانيات أو القيم ، لماذا ؟ قالوا : لأن اليهود كانوا قوماً ماديين مبالغين فيها ؛ بحيث لا يقتنعون إلا بها .

ففى فترة التيه التى كتبها الله عليهم رزقهم المنَّ والسَّلْوى ، وهو طعام حُلو شهىٌّ يأتيهم دون تعب ، وينزل عليهم دون سَعى منهم ، فلم يرضوا به لأنه غيبٌ لا يعلمون مصدره ، وطلبوا من الله أن يرزقهم مما تنبت الأرض من بقْلها وقثّائها وفُومها وعدسها وبصلها . أى : ما يزرعونه بأيديهم ويباشرونه بأنفسهم .

حتى فى علاقتهم بالله أرادوا أنْ يكون سبحانه مادة ، فقالوا

لموسى عليه السلام ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥)﴾ [البقرة] والحق سبحانه وتعالى غيب ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. (١٠٣)﴾ [الأنعام]

أما رؤيتنا له سبحانه فى الآخرة فلأننا نُعَدُّ فيها إعداداً آخر يناسب هذا الشرف ، بحيث نتمكن من رؤيته تعالى ، أما فى الدنيا فلا نقدر على ذلك لأن الله تعالى لم يمنع تجليه على خَلْقه ، لكن نحن فى الدنيا لا نقدر على تحمل هذا التجلى .

وهذا المعنى واضح فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، لما قال لربه عز وجل ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] فكان الجواب ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] وهذا يعنى أن غيرك يمكن أنْ يرانى .

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] فلما تجلّى ربنا للجبل اندكّ الجبل ، فكيف إذا تجلى سبحانه وتعالى على الإنسان ، وموسى عليه السلام رأى الجبل وهو يندكّ فخرَّ وصعق من هَوْل ما رأى من أثر التجلِّى على المتجلَّى عليه .

نقول : فلما كانوا بهذه الصورة من المادية جاء لهم بمَثَل كله روحانيات وقيم ، فكأنه ذكر فى التوراة من صفات المؤمنين بمحمد ما ينقص أهل التوراة ، يقول لهم : أنتم بالغتم فى المادية ، وسوف آتى بنبى له أمة تقيم الروحانيات والقيم التى قصَّرتم أنتم فيها .

أما النصارى فكانوا يُغلِّبون الروحانيات ، والإنجيل ذاته كله روحانيات وقيم ، لذلك لما سُئلَ سيدنا عيسى عليه السلام عن مسألة ميراث قال : أنا لم أبعث مورثاً .

وهذا التباين بين التوراة والإنجيل جعل اليهود والنصارى يلتقون

على كتاب واحد ، مزيج من التوراة والإنجيل ليجمعوا بين المادية والروحانية ، وسمَّوْه الكتاب المقدس ، التقوا عليه رغم ما بينهم من العداوة والخلاف .

ولما كان الإنجيل بهذا الوصف جاء مثَلُ المؤمنين فيه مثلاً مادياً تماماً ، وهو الشيء الذى يفتقده الإنجيل ، فالإنجيل يخلو تماماً من الحديث عن المعاملات وعن حركة الحياة ، إذن : فكلٌّ مثل منهما جاء ليجبر نقصاً ، فاليهود ينقصهم الروحانيات ، والنصارى ينقصهم الماديات فى حركة الحياة .

ونقف هنا عند قوله تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذه إشارة إلى أن تقدمنا فى الماديات وبلوغنا فيها درجة الاستواء والاستقامة والاكتفاء الذاتى ، هذا أمر يغيظ الكفار ، فاحذروا أنْ يسبقوكم فى هذا المجال .

إنهم إن سبقوكم فيه أذلوا أعناقكم ، وتحكموا فى مقدراتكم ، واستعلوا عليكم بما يملكون من إمكانيات ليست عندكم .

وهذا للأسف ما حدث ، فقد احتجنا إليهم فى معظم الصناعات حتى فى لقمة العيش ، وها هم يفعلون بنا الأفاعيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : يا مَنْ آمن بمحمد فارتضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً عليكم أنْ تأخذوا من كلٍّ بطرف ، خذوا من الماديات ما يُعلى شأنكم ، وما يُعينكم على حركة الحياة .

وخذوا من الروحانيات ما يعصمكم من الزلل ، ويصلح دينكم ودنياكم ، لأن مثلكم فى التوراة قِيَم ، ومثلكم فى الإنجيل مادة .

لذلك جاء الإسلام مُؤيّداً بالعلم الكونى لا يتعارض معه ، والقرآن ملىء بالحديث عن هذه الكونيات ، واقرأ إنْ شئتَ وتدبر هذه الآيات :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ [1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ [2] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر أجناس الوجود كلها الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وكلمة العلماء هنا لا تقتصر على علماء الدين ، إنما كل العلماء فى كل المجالات دينية أو دنيوية .

فكأن الحق سبحانه أراد لنا ديناً يجمع بين الدنيا والآخرة ، بين العبادة وحركة الحياة ، فإياكم أنْ تأخذوا الدين وتتركوا الدنيا لأعدائكم يستزلونكم بها .

وسبق أنْ قلنا : مَنْ أراد أنْ تكون كلمته من رأسه فلتكُنْ لقمته من فأسه ، فإياكم أنْ يتفوق عليكم أعداؤكم فى هذا المجال ، لأن عطاء الربوبية واحد للمؤمن وللكافر ، فلا تتركوه اعتماداً على عطاء الألوهية .

إنك لا تستطيع أنْ تقيم العبودية لله إلا إذا أخذتَ بعطاء الربوبية ، وسعيْتَ إلى تطوير حركة الحياة والاستفادة منها والمشاركة فيها .

وسبق أنْ أشرنا إلى مسألة ستر العورة مثلاً ، وهى واجبة ، ولا تتم العبادة إلا بها ، انظر كم حركة من حركات الحياة نقوم بها لنستر عورتنا باللباس ؟

---

(١) الجُدد : مفرده الجُدَّة : القطعة منه . والجدة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . أى : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١٢٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/ ٥٠] .

تتبع بذرة القطن من حين أنْ تضعها في الأرض إلى أنْ تصير ثوباً تلبسه . إذن : نقول حركة الحياة هي التي تعين على حركة الدين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح] انظر ﴿ آمَنُوا .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا جانب الدين ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا جانب الدنيا وما تحتاجه من حركة الحياة .

فإياك إذن أنْ تهمل جانباً لحساب الآخر ، لأن دينك دينٌ جامع للروح وللمادة . والذين آمنوا هم الذين جمعوا هذه الصفات ووعدهم الله هذا الوعد .

والإيمان هو العقيدة الراسخة المستقرة في النفس ، والتي لا تقبل المناقشة ، فالقلب مطمئن بهذه العقيدة ، وأنها تُسعد دنياه وآخرته ، والأصل في الإيمان أنْ تؤمن بالله رباً وخالقاً للكون ، تؤمن بأسمائه وصفاته .

فإذا آمنتَ بهذه الصفات اطمأن قلبك إلى ما يجري عليك من قضائه وقدره ، فهو سبحانه يبتليك بالخير لتشكر ، ويبتليك بالشر لتصبر ، فأنت مُثاب في كلتا الحالتين .

والإيمان من مادة (أمن) فهي تدور حول الأمان والاطمئنان . تقول : آمنت بكذا . يعني : اعتقدتُه اعتقاداً جازماً لا يداخله شكٌّ ، وآمنت له يعني : صدَّقته . وأمَّنه يعني : طمأنه على مستقبل حياته ، إذن : كلها تدور حول الاستقرار والثبات وعدم التحول إلى النقيض .

وثمرة الإيمان ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] يُراد بها ما تقدَّم من قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

السُّجُودِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] وهم فى الماديات وفى حركة الحياة مثل الزرع الذى استوى على سُوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .

والوعد للمؤمنين بماذا ؟ ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] قلنا : فيها تخلية ثم تحلية يغفر أولاً . ثم يعطى الأجر . والقاعدة الشرعية أن درء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة(١) .

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] فالزحزحة عن النار فى ذاتها نعمة ، لذلك ضُرب الصراط على متن جهنم ، فلا بد لمن يمر عليه أنْ يرى جهنم بعينه ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر]

وهذا يُشعرك بعظمة الإيمان ، وأنه النعمة الكبرى لأنه نجانا من هذه النار وأدخلنا الجنة ، والعمل الصالح هو الذى أخذ بيدك وتجاوز بك هذه العقبة .

واقرأ : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] فمطلق الإنسان فى خُسْر لا يستثنى منهم ، ولا ينجو إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

والتواصى بالحق يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتواصى بالصبر يدل على أن هذا الطريق محفوفٌ بالمخاطر ، ويحتاج منك

---

(١) هى قاعدة أصولية فى أصول الفقه ، تكلم عنها الشيخ محمد بن أحمد الفتوحى المعروف بابن النجار (ت ٩٧٢ هـ) فى كتابه (شرح الكوكب المنير) (٣ / ٣٩) فقال : « من أدلة الفقه قول الفقهاء : درء المفسدة أولى من جلب المصالح ودفع أعلاها . يعنى : أن الأمر إذا دار بين درء مفسدة وجلب مصلحة كان درء المفسدة أولى من جلب المصلحة ، وإذا دار الأمر أيضاً بين درء إحدى مفسدتين وكانت إحداهما أكثر فساداً من الأخرى فدرء العليا منهما أَوْلَى من درء غيرها ، وهذا واضح يقبله كل عاقل ، واتفق عليه أولو العلم » .

إلى صبر على الأذى من الخصوم ومن المعارضين فالنصح ثقيل .

وكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا .. ۝﴾ [العصر] تعنى أن الكلَّ يوصى ، ففيها استمرارية ومداومة وعدم يأس ، لأن المعارض الذى تنصحه قد يصبر هو أيضاً ويتمادى ، فعليك أنْ تغالبه فى الصبر ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا.. ۝﴾ [آل عمران]

ووعد الله هو الوعد الحق الذى لا يتخلف ، لماذا ؟ لأنه وعد ممَّنْ يملك كلَّ أسباب الوفاء ولا يعوقه عن الوفاء شيء ولا يمنعه مانع ، ولأنه سبحانه الحق الذى لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يتحول ، فمَنْ إذن يحول دونه ودون تحقيق وعده ؟

فهو سبحانه الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى مُلكه ، ولا منازعَ له فى سلطانه ، وهو القوى ، فلا توجد قوة أخرى تمنعه . أما الوعد من البشر فقد لا يتحقق لأنَّ الإنسان لا يملك كلَّ أسباب الوفاء ، وهو أهل أغيار وتقلُّب .

لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ۝﴾ [الرعد]

إذن : نقول إن الحق سبحانه ثابت لا يتغير من أجلنا ، لكن علينا نحن أنْ نغير من أنفسنا من أجله تعالى .

وكلمة ﴿مَّغْفِرَةً .. ۝﴾ [الفتح] تعنى : أن الخالق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه علم أننا خطاءون كثيرو النسيان كثيرو الجهل ، لكن هذا كله مُتوقع منا ، ولا ينبغى أنْ يُيئسنا من رحمة الله لأنه هو الذى خلقنا على هذه الصورة ، وهو الذى تكفّل لنا بالمغفرة ، وما علينا نحن إلا أنْ نطرق أبوابها ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ۝﴾ [طه]


سُورَةُ الحُجُرَاتِ



سورة الحجرات(١)



يقول الحق سبحانه(٢) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① ﴾

(١) سورة الحجرات هى السورة رقم (٤٩) فى ترتيب المصحف الشريف . وهى سورة مدنية بإجماع العلماء حكاه القرطبى فى تفسيره (٩/٦٣٥١) . نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم . فهى السورة رقم ١٠٦ فى ترتيب النزول . وانظر (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧) .

(٢) سبب نزول الآية : عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ..① ﴾ [الحجرات] إلى قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ .. ⑤ ﴾ [الحجرات] رواه البخارى . [أسباب النزول للواحدى ص ٢١٨] .

تستطيع هنا أن تلاحظ المناسبة بين هذه الآية فى مفتتح سورة الحجرات وبين نهاية سورة الفتح ، الحق سبحانه فى أواخر آيات الفتح حدثنا عما دار فى الحديبية ، وكيف انتهى الموقف هناك بالصلح ، وكيف أن هذا الصلح أحدث خلافاً بين الرسول وبين المؤمنين به .

ووقف رسول الله وحده وقَبِلَ الصلح وقَبِلَ كل شروطهم ، وتنازل لهم عن أشياء دلَّتْ على حنكته السياسيةَ وعلى بُعْد نظره ، فى حين عارضه المؤمنون كما رأينا .

حتى أن عمر يقول له : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ يقول : بلى ، يقول : أليسوا على الباطل . يقول : بلى ، يقول : فلم نُعطِ الدنية فى ديننا ؟[1] .

وقلنا : أنهم قبل أنْ يعودوا إلى المدينة أخبرهم الحق سبحانه بالحكمة من العودة دون أداء العمرة هذا العام . إذن : كان للمؤمنين رأى ، وكان لرسول الله رأى آخر ، لأن المسلمين تعصبوا لأنفسهم أما رسول الله فقد تعصَّب للإسلام .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩ ، ٢٩٤٥ ، ٤٤٦٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٣٣٨) وأحمد فى مسنده (١٥٤٠٨ ، ١٨١٦٦) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه . وفيه أن عمر بن الخطاب قال : فأتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً . وفيه أن أبا بكر قال له : أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق ، الحديث بطوله .

ولما حدثتْ المعارضة لرسول الله جاءتْ سورة الحجرات لتعالج هذه المسألة في أول آية منها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ①﴾ [الحجرات] والنداء هنا خاص بالذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولاً .

﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ①﴾ [الحجرات] يعني : إياكم أنْ تُقدِّموا رأياً أو تقطعوا أمراً قبل أنْ يأذن الله لكم به ويأذن رسوله ويقضي فيه ، لأن رسول الله لا يصدر إلا عن وحي من الله .

وأنتم حينما تقفون في وجه أمر الرسول فأنتم في حقيقة الأمر تعارضون أمر الله الذي ارتضيتم به رباً وإلهاً وآمنتم بصفاته ، ومقتضى هذا الإيمان ألاَّ تُقدِّموا رأيكم على رأيه ، ولا حكمكم على حكمه ، فإذا قال الله أو قال رسول الله فلا تقدموا رأياً من عندكم .

وكلمة ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ①﴾ [الحجرات] بين يديك يعني : أمامك ، يعني لا تسبقوه بأنْ تقطعوا أمراً دونه ، وتذكّر أنك أمام الله وفي مواجهته ، فهو لا يُكلِّفك حركة فتلتفت يميناً أو شمالاً .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. ①﴾ [الحجرات] يعني : إنْ أردتم ألاَّ تُقدِّموا بين يدي الله ورسوله فاتقوا الله في ذلك . يعني : لا تكونوا كذابين فيه ، ولا تعودوا مرة أخرى إلى المخالفة فهذا لا يصح .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾ [الحجرات] يعني : اتقوا مَنْ هذه صفاته فهو سميع يسمع كلَّ ما يقال ، وعليم بكل ما يختلج في نفوسكم ، ولا يخفى عليه شيء من أموركم . وما دُمتم قد آمنتم به فقد وجبتْ عليكم طاعته وطاعة رسوله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

النداء هنا أيضاً للذين آمنوا ، ألاَّ يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى فى حضرته ، وكذلك لا يرفعوا رأيهم فوق رأيه ، ومن أدب الحديث عموماً ألاَّ ترفع صوتك ، لأن رفع الصوت فيه استعلاء ، أو على الأقل فيه مساواة ، فما بالك إنْ كان مُحدِّثك رسول الله ؟ .

إذن : وجب عليك ألاَّ يعلو صوتك على صوته ، بل يكون صوتك أقلَّ وأخفت ، وتكلّمه بأدب وخشوع ، فكما آمنتَ به نبياً ورسولاً مبلِّغاً وقدمتَ رأيه على رأيك .

فكذلك حين تُحدِّثه لا ترفع صوتك فوق صوته ، فصوته ﷺ ينبغى أنْ يكون الأعلى ، لأنه الأوْلَى بالاستماع وبالاهتمام ، ونحن فى حقبة من تاريخنا شاعتْ بيننا مقولة (لا صوتَ يعلو فوق صوت المعركة) لأن المعركة فى هذا الوقت كانت هى الحل . والمعنى : لا يعلو صوتٌ على صوته .

---

(١) قال النيسابورى (ص ٢١٨) : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس كان فى أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ .. (٢)﴾ [الحجرات] لا تنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً ، فلا نقول : تعال يا أحمد تعال يا محمد . بل نقول : يأيها النبى ، يأيها الرسول ، يا رسول الله ، لأن ربك الذى خلقك وخلقه وأرسله لك رسولاً خاطبه هكذا .

فى حين أنه تعالى خاطب كل الرسل بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى إلا محمداً ﷺ لم يخاطبه باسمه إنما بوصفه (يا أيها النبى) (يا أيها الرسول) فإذا كان خالقه لم يدعه باسمه .

إذن : وجب عليك أنْ تدعوه بهذا الوصف ، إلا إذا كنتَ أنت أعلى مقاماً من الذى خلقك والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ.. (٢)﴾ [الحجرات] أى : خشية أنْ تحبط أعمالكم . يعنى : تبطل وتفسد ، لماذا ؟ لأن الجهر لرسول الله بهذه الصورة أو رفْع الصوت عنده يُعد مخالفة للمنهج الذى جاء به .

فرسول الله لم يأت بمنهج من عنده ، إنما هو مبلِّغ عن الله ، فمَنْ خالف فى ذلك فقد خالف منهج الله واستحقَّ أنْ يحبط عمله ، ثم فى إهانة الرسول إهانة لمن أرسله .

وقوله : ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ [الحجرات] أى : يحبط عملك ويبطل وأنت لا تدرى ، فهذه المسألة من الأشياء الدقيقة التى ينبغى التنبه لها ، فمع كونه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ لكن لا تغرّنك هذه الصفات وتجعلك تساويه بغيره فى النداء ، بل احتفظ له ﷺ بمنزلته ومهابته وكرامته ، ولا تجعله مثلك فى الخطاب ، مثل رجل يُدلل

الخادم فيغتر الخادم بذلك ، حتى أن سيده يناديه فلا يجيب .

لذلك الرجل العربى دخل على قوم لا يعرفهم ولا يعرفونه . فقال : السلام عليكم قوم حَسُنتْ أخلاقهم ، قالوا : وكيف علمت حُسْن أخلاقنا ؟ قال : عرفت حُسن أخلاقكم من سوء أخلاق عبيدكم ، أى : أنهم يُدلِّلون العبيد ولا يعاقبونهم .

وقد ورد عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خدمت النبى ﷺ ، فما قال لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته[1] ؟

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

معنى ﴿ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] يخفضونها ويُخافتون بها فى حضرته ﷺ ، احتراماً له وتكريماً .

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] أى :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٧٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٢٦٩ ، ٤٢٧١) وأبو داود فى سننه (٤١٤٤) والترمذى فى سننه (١٩٣٨) وقال : حديث حسن صحيح . وهو عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] تالى ابو بكر أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخى السرار . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢١٩] .

صفّاها وأخلصها لتكون محلاً للتقوى وللطاعة ، ولحمل منهج رسول الله إلى الناس كافة ، فهم مؤهَّلون لحمل هذه الرسالة بعد أنْ نقَّى الله قلوبهم وطهرها وصفَّاها من الخبث ، ونفى عنها أمراض الرياء والنفاق وضعف الإيمان .

لقد صهرتهم الأحداث فى بوتقة الشدائد ، بحيث لم يَبْقَ فى صفوف الإيمان إلا أقوياء العقيدة القادرون على حمل أمانة هذه الدعوة .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] فالرسول يشهد أنه بلّغنا ، ونحن نشهد أننا بلغنا الناس .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

نزلت هذه الآية فى جماعة(١) كان لهم أسرى ، فجاءوا يراجعون رسول الله فى أمرهم ليطلق سراحهم ، لكنهم أخطأوا من عدة وجوه :

---

(١) عن زيد بن أرقم قال : أتى ناس النبى ﷺ فجعلوا ينادونه وهو فى الحجرة : يا محمد يا محمد : فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الحجرات] وقال محمد بن إسحاق وغيره : نزلت فى جفاة بنى تميم .. وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم . [أسباب النزول للواحدى ص ٢١٩] .

أولاً : جاءوا بيت النبى ﷺ من الوراء ولم يأتوا من الأبواب .

ذلك لأنهم لا يعرفون فى أىِّ حجرة يقيم رسول الله ، أهو عند عائشة ؟ أم عند حفصة ؟ أم عند أم سلمة ؟ وهم يعلمون أن لرسول الله مهمات شتى ، له مهمة مع الناس ، ومهمة مع أهله ، ومهمة قبل ذلك مع ربه .

فكان عليهم إذا لم يظهر لهم رسول الله فى المسجد أنْ ينتظروا خروجه وألاَّ يُزعجوه ، فهو ولابدَّ فى مهمة من هذه المهمات وربما كان مشغولاً فى خلوة مع ربه عز وجل أو مع أهله .

ثانياً : نادوا رسول الله كما ينادى بعضهم بعضاً ، ولم يراعوا حرمة رسول الله ومنزلته، لذلك وُصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون ، فالتعقل يقتضى خلاف هذا التصرف .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ .. ۝٥﴾ [الحجرات] نعم خيراً لهم لأنه ﷺ بعد أنْ نادوه واضطروه للخروج أطلق نصف الأسرى ، وقال : والله لو صبروا حتى أخرج عليهم لأطلقتُ الأسرى كلهم[1] .

إنما جعل ذلك تأديباً لهم لخروجهم عن اللياقة والأدب فى التعامل معه ﷺ .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات] لم يأخذهم بالعذاب ورسول

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٣٦١) قال : « قيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء » .

الله عاقبهم على قدر أعمالهم حتى لا يكون غضبه لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾

أيضاً نداء خاص بالذين آمنوا ، وهو النداء الثالث بعد ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِه .. ① ﴾ [الحجرات] وبعد ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ .. ② ﴾ [الحجرات] وهنا ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. ⑥ ﴾ [الحجرات]

ونلاحظ أن النسق القرآنى لم يجمع بين هذه الأمور الثلاثة فى نداء واحد ، ولم يستخدم أدوات العطف إنما خصَّ كل أمر منها بنداء خاص لمزيد التأكيد والاهتمام .

---

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٢) : « نزلت هذه الآية فى الوليد ابن عقبة بن أبى معيط ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فلما سمع القوم تلقوه تعظيماً لله تعالى ولرسوله ، فحدَّثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال : إن بنى المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب رسول الله وهمَّ أن يغزوهم ، فبلغ القوم رجوعه ، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا : سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدى إليه ما قبلنا من حق الله تعالى ، فبدا له فى الرجوع ، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله هذه الآية .

ففى وصيـة سيدنا لقمـان لابنه قال : ﴿ يَـٰبُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان]

إذن : خصّ مسـألة العقيـدة بنداء خاص لأهميـتها ، وجـمع عمل الجـوارح فى نداء واحـد لأنها علـى مسـتوى واحـد من الأهميـة فى الدين .

إذن : نفهـم من تكرار النداء بيأيهـا الذين آمنوا أنه يعطى أهمـية خاصة لكل نداء . ومعنى ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ .. (٦) ﴾ [الحجرات] الفاسق وصْف مأخـوذ من قولنا فسقت الرطبـة . يعنى : خرجت عن قشـرتها ، وخروج الرطبة عن قـشرتها يُعـرِّضها للحشـرات وللآفات الضـارة .

كذلك المؤمن يُغلفه الإيمان ويحميـه أنْ تصيبه آفات النفوس ، فإذا فـسق يعنى : خـرج عن حـدود الإيمـان وشذَّ عنـه أصابتـه الأمـراض المهلكة ، لذلك قالوا عن الفاسق هو مرتكب كبيرة أو مجهول الحال .

فإذا جاءك النبأ أى الخبر من مثل هذا من فاسق فلا تُسلم له بما قال ، إنما ﴿فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات] يعنى : تثبَّتوا من صـحة هذا الخبر ومن صدَّقه .

قف حتى تتبين وجه الحقيقـة فيما سمعتَ حتى يكون حكمك على

الأمور واقعياً ، ولا تأخذك العجلة والحمية فتقع فى محظور ﴿ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات]

الحق سبحانه يأمرنا بالتثبت هنا لأن الإنسان ابن أغيار كثير التقلب ، فربما اتصف بالصدق ، لكن كذب هذه المرة أو اتصف بالكذب ، لكن صدق هذه المرة ، فالتثبت احتياط واجب ، حتى يأتى الحكم والتصرف بعد ذلك موضوعياً ولا نقع فى دائرة الظلم والتعدى على الآخرين .

تبيَّن من خبر الفاسق لعله يكون من الأشياء التى عصى الله فيها ، لأن العصيان عنده سهلٌ ، فلو صدَّقته ربما تصيب قوماً لا ذنبَ لهم .

﴿ بِجَهَالَةٍ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] وأنت تجهل حقيقة الأمر ، وعندها يصبح المصاب صاحبَ حق وأنت مُعتد فتندم على تعدِّيك وتجاوزك للصواب ، تندم لأنك جعلتَ مَنْ أسأته صاحبَ حَقٍّ عليك .

وفرْق بين مَنْ يفعل الذنب بجهالة ومَنْ يفعله متعمداً ، وبحسب موقف النفس البشرية من المعصية يكون قبول التوبة ، وأذكر ونحن فى فرنسا أن واحداً من الزملاء رُشِّح لأنْ يكون مبعوثاً إلى فرنسا ، هذا ذاهب إلى هناك لقصد العلم فقط وليس فى باله أى أغراض أخرى ، وهناك سكن على طريقة الغرباء فى أحد البيوت مع إحدى الأسر .

وفى ليلة دخلت عليه بنت هؤلاء الذين يسكن معهم ، ربما قد يكون ارتكب معصية معها فى هذا الموقف لكنه وقع فيه عن جهالة

ودون أن يخطط له .

على خلاف شخص آخر حينما يذهب إلى هذه البلاد يذهب وفى باله هذه المسائل ، وربما اتصل بمَنْ يعطيه عناوين أهل المعصية .

لذلك يُحدد الحق سبحانه شروط التوبة المقبولة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

والندم على المعصية أول مراحل التوبة ، لكن الأمر بالتثبُّت من خبر الفاسق ، أهو وعظ ابتداءً أم له سَببٌ نزل القرآنُ من أجله ؟ قالوا : بل له سببٌ وهو حادثة الوليد[1] بن عقبة بن أبى معيط لما ولاَّه رسولُ الله جبايةَ أموال الزكاة من بنى المصطلق .

فلما ذهب إليهم خرجوا جميعاً لمقابلته والاحتفاء به حين علموا أنه رسول رسول الله ، لكنه خاف من جمعهم على هذه الصورة ، وخشى أنْ ينالوه بشرٍّ خاصة وقد كان له دية قديمة عندهم من أيام الجاهلية .

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبى معيط أبو وهب الأموى القرشى : والٍ من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم ، فيه ظُرف ومجون ولهو ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم فتح مكة ، بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص (سنة ٢٥ هجرية) فانصرف إليها وأقام إلى سنة ٢٩ . اعتزل الفتنة بين على ومعاوية ، ولكنه رثى عثمان وحرض معاوية للأخذ بثأره ، مات بالرقة عام ٦١ هجرية / ٦٨٠ ميلادية . [الأعلام للزركلى ٨/١٢٢] .

ففرَّ عائداً إلى رسول الله وقال : يا رسول الله منعونى الزكاة ، فرسولُ الله تثبَّت من الأمر وسألهم فقالوا : بل خرجنا فرحاً به يا رسول الله ، ولو صدَّق رسولُ الله هذا الخبر لاعتبرهم مرتدين ، وربما كان حدث ما لا تُحمد عقباه .

ورُوى أن سيدنا رسول الله بلغه أن السيدة مارية أم إبراهيم لها ابنُ عم يزورها ويدخل عندها ، فأغضبه ذلك وقال لعلى : خُذْ هذا السيف واذهب إليه فإنْ وجدته فاقتله . فقال : يا رسول الله أنا فى أمرك أأقتله ؟ أم يرى الشاهد ما لا يرى الغائب ؟ انظر هنا إلى احتياط على رضى الله عنه .

فلما ذهب وجده عند مارية فهمَّ بسيفه ليقتله ، لكن الرجل أسرع إلى نخلة فصعد عليها بحيث لا يناله سيفُ على ، ثم ألقى بنفسه على الأرض وفتح بين ساقيه حتى بانت لعلى أماكن عورته فرآه على أمسحاً . يعنى : ليس له ما للرجال فكفَّ عنه .

وذهب إلى رسول الله وأخبره الخبر فقال : صدقتَ يا على ، يرى الشاهد ما لا يراه الغائب . ونفهم من هذه القصة أن الذى أخبر بها رسولَ الله فاسقٌ أراد الوقيعة والتشهير بأم إبراهيم[1] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٦٩٢٢) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد باب الغيرة (٢/٢٢٥) وعزاه للبزار وقال : فيه ابن إسحاق وهو مدلس ولكنه ثقة ، وبقية رجاله ثقات ، وقد أخرجه الضياء فى أحاديثه المختارة على الصحيح . وقد حكم الألبانى على حديث على بن أبى طالب فقال : سنده جيد (السلسلة الصحيحة ١٩٠٤) وأصله صحيح .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[1] وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾

الكلام هنا له علاقة بما حدث من مخالفة المسلمين لرأى رسول الله فى الحديبية ، فالحق سبحانه يقول لهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ .. ﴿٧﴾﴾ [الحجرات] كأنه يقول لهم احترموا وجوده بينكم فهو رسول الله ولا يخفى عليه شىء لأنه مُؤيَّد من الله ، والله يخبره بالواقع ، فليس علمه بالأمور كعلمكم .

وكلمة ﴿فِيكُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [الحجرات] تدل على الظرفية كما تقول : الماء فى الكوب ، أو المال فى الخزانة ، ومعلوم أن المظروف أغلى وأنفَسُ من المظروف فيه ، وأنتم ظرف لرسول الله ومنهج رسول الله ؛ لذلك قرأوا[2] : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] بفتح الفاء .

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ .. ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت . [القاموس القويم ٢/٣٩] .

(٢) قرأها بالفتح : ابن عباس وأبو العالية والضحاك وابن محيصن ومحبوب عن أبى عمرو نقله ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير آية ١٢٨ من سورة التوبة . ثم قال فى المفتوحة ثلاثة أقوال . أحدها : أفضلكم خلقاً . والثانى : أشرفكم نسباً . والثالث : أكثركم طاعة لله عز وجل .

إذن : وجود رسول الله بينكم ميزة لكم وعصمة وحماية لأنه موصول بربه ، وهذه المسألة كان يعلمها كفار مكة وصناديدهم ، لكنهم غلبهم العناد والمكابرة وحجبتهم عن الإيمان .

لذلك اجتمع في يوم من الأيام كلٌّ من أبى سفيان والحارث بن هشام وثابت بن قيس ، وكان بلال يؤذن للصلاة . فقال ثابت : لقد رضى الله عن أبى حيث قبضه قبل أن يرى هذا المنظر ، يعنى : أن بلالاً الحبشى الأسود هو الذى يؤذِّن لرسول الله ، وقال الحارث : أما رأى رسول الله غير هذا الغراب الأسود يُؤذِّن ، وقال أبو سفيان : والله أحب أنْ أقول يعنى مثل قولكما ، لكنى أخشى أنْ يخبر اللهُ رسوله بما أقول[1] .

إذن : كان هؤلاء القوم يعلمون صدق رسول الله ، لكن منعهم اللدد والعناد والكبر عن قبول الحق .

أيضاً تعلمون أن سيدنا رسول الله قد زوَّج ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدين من أولاد أبى لهب ، وكان هذا قبل البعثة ، فلما اشتدت العداوة بين أبى لهب ورسول الله أجبر أبو لهب ولديه على تطليقهما .

وفى يوم قابل أحد هذين الولدين رسول الله فى الطريق ونظر إليه ثم تفل وتنبه رسول الله لما فعل ، فدعا عليه وقال : يأكلك كلب

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره من قول ابن عباس ، ومثله عن مقاتل فى تفسير البغوى (٣٤٧/٧) وابن الجوزى فى زاد المسير (٤٠٥/٥) والخازن فى تفسيره (٤٦٧/٥) .

من كلاب الله[1] وبلغت هذه الدعوة أبا لهب فخاف على ولده ، وعندما خرج مع القافلة التجارية إلى الشام جمع رجالها وقال لهم : إذا عرَّسْتم - يعنى آويتم للمبيت - فاجعلوا ولدى فلاناً بينكم ، فإننى أخشى عليه دعوة محمد .

إذن : كان يعلم أن محمداً على الحق ، وأن دعوته مُستجابة ، وبالفعل جعلوه بينهم لما ناموا ، وسلط الله عليه أسداً حقيقياً اختطفه من بينهم .

فصِدْق رسول الله كان معلوماً لهؤلاء ، وكانت ألسنتهم تغلبهم وتنطق بهذا التصديق ، من ذلك قولهم : ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ⑦﴾ [المنافقون] وأخبر الحق عنهم بقوله : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ⑭﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ .. ⑦﴾ [الحجرات] ومن ذلك ما حدث منكم فى الحديبية ، فلو أطاعكم فى عدم الصلح ﴿لَعَنِتُّمْ .. ⑦﴾ [الحجرات] أصابكم العنت والمشقة والإثم .

---

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ [المسد] قال أبو لهب لابنيه عتبة وعتيبة : رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وطلق عتيبة أم كلثوم وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه فقال ﷺ : أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه . دلائل النبوة للبيهقى (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

ومثلها قوله تعالى : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعزّ عليه أنْ يـراكم فى مشقـة ، لأنه بكم رؤوف رحيم ، فـإنْ رآكم على المعصية استغفر لكم ، وإنْ رآكم على الطاعة حمد الله ، هذا حتى بعد أنْ يموت .

﴿ولَـٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ .. (٧)﴾ [الحجرات] لكن هنا استدراك لما سبق ، يعنى أن رسـول الله لم يطعكم فيـما ذهبـتم إليه من التـصمـيم على دخـول مكة وأداء العمـرة ، ولكن الله حـبَّب إليكم الإيمـان وزيَّنه فى قلوبكم ، فـعُدْتم إلى رأى رسـول الله ولم تقـضُوا أمـراً خلاف أمـره ورضيتم به .

وهذا نتيجة هداية الله لكم ، وتحبيبه الإيمانَ وتزيينه فى قلوبكم ، فلولا ذلك لخرجتم عن أمره وهلكتُم بعصيانكم له ، وفى نفس الوقت ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ .. (٧)﴾ [الحجرات] وهذا من أعظم نعَم الله عليكم .

﴿أُوْلَـٰئِكَ .. (٧)﴾ [الحجرات] أى : الذين اتصفوا بهذه الصفات فـأحبّـوا الإيمان وكـرهوا الكفر والفـسوق والعـصيـان ، أولئك ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ [الحجرات] جمع راشد ، وهو الذى التزم طريقَ الحق والهداية فلـم يَحدْ عنه ، ومن ذلك قولـنا : ترشيد النفـقات وترشـيد الاستهلاك ، يعنى أنْ نضعه فى موضعه المناسب .

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾

الفضل يعنى الزيادة ، والمراد هنا أن الله تعالى عاملهم بمزيد من نعمه وكرمه .

قالوا لأحد الصالحين : احكم بيننا ، فقال : بالعدل أم بما هو أحسن من العدل ؟ قالوا : وهل هناك أحسن من العدل ؟ قال : أحسن من العدل الفضل ، العدل أنْ تأخذ حقك ، والفضل أنْ تتنازل عنه تفضلاً .

كذلك نِعَم الله علينا من باب الفضل ، لأن التكليف الذى كلَّفنا الحق به يعود علينا نحن بالمصلحة ولا ينتفع الله منه بشيء ، لأنه سبحانه الغنى عن خَلْقه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه بصفات الكمال فيه خلقنا ، إذن : النعم ليستْ مقابلاً للطاعة ، إنما هى محْضُ فضل من الله .

أما فى مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر] فسمَّى لهم أجراً ليعلموا أن عملهم مقبولٌ ، وسيُجزون عليه الجزاء الأوفى .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات] عليم وعلمه محيط لا يخفى عليه شيء من أمرك ، والسر عنده علانية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر]

إذن : إياك أنْ يخالط عملك نفاقٌ أو رياء أو عجب أو كبرياء . وقلنا : إن الله تعالى يريد القلوب لا مجرد عمل الجوارح . ثم هو سبحانه ﴿حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات] يدبر شئون ملكه بمقتضى حكمته تعالى ، والحكيم هو الذى يضع الشيء فى موضعه المناسب .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾

كلمة ﴿ طَائِفَتَانِ .. (٩) ﴾ [الحجرات] مثنى طائفة وهى مفرد فى اللفظ ، وإنْ دَّلتْ فى واقعها على الجمع مثل كلمة قوم ، تُجمع طائفة على طوائف . وهذه الآية تقرر حكماً يتعلق بالحرب وضرورة الصلح بين الطائفتين المتحاربتين ، حتى لا تستمر الحروب بين المؤمنين بعضهم البعض .

ونلاحظ هنا أن لفظ ﴿ طَائِفَتَانِ .. (٩) ﴾ [الحجرات] مثنى . والقياس أن يقول : اقتتلتا لكن القرآن جمعها فقال ﴿ اقْتَتَلُوا .. (٩) ﴾ [الحجرات] لماذا ؟ قالوا : لأن الطائفة كتنظيم تتمثل فى واحد ، هو رئيس هذه الطائفة ، لكن إذا دار القتال تقابل أفراد الطائفتين ، فالقتال بمجموع الأفراد .

بدليل أنه لما تحدَّث عن الصلح عاد إلى لفظ المثنى ، فقال ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات] لأن مجلس الصلح ليس بالضرورة أنْ يحضره جميع أفراد الطائفة ، بل ينوب عنهم شخص واحد يعقد الصلح .

﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ .. (٩) ﴾ [الحجرات] أى : بعد أنْ تمّ الصلح وبغَتْ إحدى الطائفتين على الأخرى . يعنى : تعدَّتْ

وتجاوزتْ الحدَّ فى العدوان ولم تحترم الصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى .. ⑨﴾ [الحجرات] أى : لردعها ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ .. ⑨﴾ [الحجرات] ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ .. ⑨﴾ [الحجرات] أى : إلى الحق .

وهكذا أصبح لدينا ثلاث طوائف ، طائفتان اقتتلتا ، وطائفة تحكم بينهما بالصلح ، ذلك لأن المجتمع المؤمن فى مجموعه مؤتمنٌ على هذه المهمة ، مهمة الحكم بين المتخاصمين ، ولديه ما يؤهله للعدل وعدم الميل أو اتباع الأهواء فى عملية الصلح ، وإذا لم تتوافر هذه الشروط فى الحكم لا يتم الصلح ، بل تتفاقم الأمور وتزيد تعقيداً .

ويكفى أن صاحب الهوى والميل فى الحكومة بين الطرفين يسقط من نظر الجميع ، حتى الفئة التى حكم لصالحها زوراً تمقته ، لذلك قالوا عن شاهد الزور : ترتفع الرؤوس على الخصم بشهادته ، وتدوس الأقدام على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿فَإِن فَاءَتْ .. ⑨﴾ [الحجرات] أى : بعد القتال وعادتْ إلى الصواب ، فعودوا أنتم إلى الصلح ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا .. ⑨﴾ [الحجرات] والمعنى : لا تتركوا الفئة التى فاءتْ إلى الحق دون أنْ تُصلحوا بينهما ، صحيح هى عادتْ إلى الحق لكن ما زال الخلاف قائماً فلابدَّ من الصلح حتى لا تفرخ حرباً أخرى وتبقى جذور الخلاف تتأجج فى الصدور فتشعل المعارك من جديد .

إذن : منعنا المعركة أولاً ، ورددنا المظالم إلى أهلها ، ونزعنا فتيل الحرب .

وكلمة ﴿ وَأَقْسِطُوا .. ۝٩ ﴾ [الحجرات] من أقسط يُقسط فهو مُقْسط أى : اعدلوا بينهما ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ ﴾ [الحجرات] العادلين ، وهناك قسَط يقسط فهو قاسط أى : جائر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ ﴾ [الجن] فالهمزة فى أقسط همزة إزالة . أى : أزال الجور والظلم .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ ﴾

وهذه المسألة لها سبب ، ففى حنين اختلفوا على شىء وتفاقم بينهم هذا الخلاف ، حتى صار معركة خاصة بين سفهاء القوم منهم واستعملوا فيها الأسلحة الخفيفة مثل العِصىِّ وسعف النخيل والشماريخ ، وقبل أنْ تتحول إلى حرب حقيقية بلغ الأمر رسول الله ﷺ فقال لهم : « أصلحوا بين أخويكم »[1] .

ذلك لأن المؤمنينْ إخوة فى النسب من آدم عليه السلام ، وإخوة فى الإيمان ، وإخوة النسب أسبق وتبعها إخوة الإيمان ، وهذا يعنى أن

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قلت يا نبى الله لو أتيت عبد الله بن أبىّ فانطلق إليه النبى ﷺ فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النبى ﷺ قال : إليك عنى ، فو الله لقد آذانى نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا..۝٩﴾ [الحجرات] أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٣) وعزاه للبخارى ومسلم كلاهما من طريق المعتمر بن سليمان .

للكافر حقَّ أخوّة النسب ، وإنْ لم يكُنْ له حق فى أخوة الإيمان .

لذلك نقول فى إخوة النسب إخوة ، وفى الإيمان نقول ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر] لذلك تكتمل الأخوة فى إخوة الإيمان .

ويُروى أن معاوية دخل عليه حاجبه . فقال : يا أمير المؤمنين بالباب رجل يستأذن فى الدخول ، ويدَّعى أنه أخوك ، فضحك معاوية وقال : خدمتنى كذا وكذا ولا تعرف إخوتى ؟ قال : هكذا قال لى ، قال : أدخله ، فلما دخل سأله معاوية : أى إخوتى أنت ؟ فقال : أخوك من آدم ، فضحك معاوية وقال : رحم مقطوعة ، والله لأكونَنَّ أولَ مَنْ وصلها . وقضى له حاجته[1] .

ولفظ الإخوة هنا يُقرِّب النفوس ، ويُزيل ما بين الناس من طبقية أو عصبية ، لذلك نجد الأسلوب القرآنى حتى فى مسألة القصاص فى القتلى يقول : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ . . ﴿١٧٨﴾﴾[البقرة]

يريد أنْ يُذكره أنه أخوه رغم ما بينهما من عداوة وشحناء ، فالله يُرقِّق القلوب حرْصاً على سلامة المجتمع المسلم ، ولمنزلة الأخوة فى العلاقات الإنسانية قالوا فى الحكَم : رُبَّ أخ لك لم تلده أمك .

حتى أن البعض يرى أن الإنسان حينما يتعثر فى الطريق فيصيبه

---

(١) ذكره اليوسى فى (المحاضرات فى الأدب واللغة) أن معاوية جاءه إنسان فقال له : أسألك بالرحم التى بينى وبينك إلا ما رفدتنى (أى أعطيتنى) فقال : أنت من عبد مناف ؟ قال : لا . قال : أنت من قريش ؟ قال : لا . قال : أنت من العرب ؟ قال : لا . قال : أى رحم بينى وبينك ؟ قال : رحم آدم ، فقال : رحم مجفوة لأكونن أول من وصلها فأعطاه . وكذا الأبشيهى فى كتاب (المستطرف فى كل فن مستظرف) .

مكروه يقول : أخ . كـأنه يستنجد بأخيـه ، أى أخ له قريب منه يمكن أنْ يُسعفه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑩ ﴾ [الحجرات] أى : اتقـوا الله فـى عمليـة الإصـلاح بين الطرفين .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑩ ﴾ [الحجرات] ترحمون من مـاذا ؟ تُرحمون من اسـتـمـرار العـداوات بين المـؤمنين ، وهذا يعنى ضـرورة إنـهـاء الخلافات قـبل أن تستفحل وتتمـادى ، وفى استفحالهـا ضرر يصيب الجمـيع ، يصيب الطرفـين المتنازعـين أولاً ، ثم يتعدَّى إلـيكم ، حيث ترى كل طائفة أنكـم تنحازون للأخرى . إذن : من مـصلحة المجـتمع كله إنهاء العداوات وحقن الدماء بين المؤمنين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ⑪ ﴾

نلاحظ هنا أن القـرآن وجَّـه النهى إلى القـوم مرة ، وإلى النســاء مرة ، وخَصَّ كُلاً منهما بنهى ، ذلك لأن كلمة قوم لا تُقال إلا للرجال ، لأنهم هم الذين يقومون على شئون الأسرة ، أما المرأة فليس لها قيامٌ إلا على بيتها ، يقول الشاعر :

وَمَا أدْرى وَلَسْتُ إخَالُ أدْرى أقـوْمٌ آلُ حِصْـن أمْ نِسَـاءُ

إذن : القـوم تُقال للنسـاء وفى آية أخـرى قـال تعـالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ .. (٣٤) ﴾ [النساء] البعض يفهم من كلمة ﴿ قَوَّامُونَ ﴾ أنها للقهر وللضرب ، أبداً ، بل الرجال قوَّامون على النساء . يعنى : يقومون على رعايتهن وتدبير أمورهن .

لذلك نقول للمرأة (ست بيت) فكأن الرجل هو الخادم الراعى لها ، ونحن نقول : فلان قائم بهذا الأمر . يعنى : يتولى العمل الشاقّ فيه .

تذكرون فى قصة سيدنا آدم لما أسكنه اللهُ الجنةَ هو وزوجه ، وحدثتْ من آدم المخالفة لأمر الله ، قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه] هذا خطاب لآدم وحواء .

والقاعدة أن يقول (فتشقيا) بالتثنية ، لكن قال ﴿ فَتَشْقَى ﴾ أى : آدم وحده ، لأن مهمة الكدح والشقاء وتحمُّل مسئولية الأسرة للرجل فقط ، أما المرأة فهى للبيت ولها دور فيه ودور هام يملأ كلَّ لحظة فى حياتها ، لكن ماذا نفعل وهُنَّ يُردْنَ أنْ يشقيْنَ مع الرجال ؟

والنهى عن السخرية فى هذه الآية له سببٌ فى الرجال ، وله سببٌ فى النساء : فيُروى أن ثابت بن قيس[1] دخل على مجلس رسول الله ﷺ فوجد الصفَّ الأول قد اكتمل ، وأراد أنْ يجلس فى

---

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى الأنصارى ، صحابى ، كان خطيب رسول الله ﷺ وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد . وفى الحديث : نعم الرجل ثابت . ودخل عليه النبى ﷺ وهو عليل ، فقال : أذهب الباس رب الناس عن ثابت بن قيس . قتل يوم اليمامة شهيداً فى خلافة أبى بكر عام ١٢ هجرية /٦٣٣ ميلادية . [الأعلام للزركلى ٢/٩٨] .

الصف الأول لأنه كان ثقيل السمع ، فجاء إلى رجل من ضعفاء القوم وقال له : تزحزح فلم يتزحزح ، فقال له : منْ أنت ؟ قال : فلان ، قال : ابن فلانة ؟ وكانت لها سيرة سيئة بين الناس ، وسمعه رسول الله ﷺ فقال : من قال ابن فلانة ؟ قال : أنا يا رسول الله ، فقال : انظر فى مجلسنا فنظر فيه ، فقال له : ماذا رأيتَ ؟ قال : رأيت الأسود والأبيض والأحمر . قال : أفضلكم عند الله أتقاكم[(١)] .

ثم لم ينس الرجل الذى قيل له تفسح فلم يتفسح ، ونزل فى حقِّه قوله تعالى : ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ .. (١١)﴾ [المجادلة]

ويُروَى أن السيدة أم سلمة كانت قصيرة ، وفى مرة أصابها وجع فى رجلها فربطتها بقطعة من القماش ، وكان فيها بقية تتدلَّى على الأرض تجرُّها خلفها ، فرأتها على هذا الحال السيدة عائشة والسيدة حفصة . فقالت إحداهن للأخرى : تمشى ولها ذيل كذيل الكلب . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية[(٢)] .

لذلك يقول الحق سبحانه فى يوم القيامة : « جعلت نسباً ،

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره للآية : « نزلت فى ثابت بن قيس وقوله فى الرجل الذى لم يتفسح له : ابن فلانة ، فقال النبى ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله . فقال النبى ﷺ : انظر فى وجوه القوم . فنظر فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر . فقال : فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى . فنزلت فى ثابت هذه الآية . وذكره البغوى فى تفسيره (٣٤٣/٧) وفيه : أن ثابتاً قال : من هذا ؟ قال : أنا فلان . فقال ثابت : بن فلانة . وذكر أماً كان يُعير بها فى الجاهلية .

(٢) قاله الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٤) قال : نزلت فى امرأتين من أزواج النبى ﷺ سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت حقويها بسبنية وهى ثوب أبيض ، وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة : انظرى ما تجر خلفها كأنها لسان الكلب . فهذا كان سخريتها .

وجعلتم نسباً ، فجعلتُ أكرمكم عند الله أتقاكم فـأبَيْتم وقُلْتم : أكرمنا فـلان ابن فلان ، فـاليوم - أى يوم القـيـامة - أرفع نسـبى وأضَـعُ أنسابكم »[1] .

ودخل رجل أعـرج على أحدهم ، فـراح ينظر إليـه نظرة سخـرية لعرجـته ، ففـهم الأعرجُ قـصده ، فقـال له : أتعيب الصَّنعـة أم تعيب الصانع ؟ فأفحمه حـتى ندم على سُوء أدبه معه ، وقال : والله لوددتُ عندها أنْ أكون أنا مثله وهو مثلى .

والحق سـبحانه وتعـالى حينمـا ينهانا عن الـسخرية ، إنمـا يريد المساواة بـين جميع خَلْقه ، فـالخَلْق جميعـاً خَلْقه وصنعته وعـبيده ، وليس فـيهـم من هو ابن الله ، ولا مَنْ بينه وبين الله قـرابة ، فلِمَ إذن يسخر بعضنا من بعض ؟

إياك والسخـرية من الناس مهـما كـانوا أقلّ منك ، عليك إنْ رأيت عيباً فى دين أو خُلق أنْ تُقوِّمه وتُصلح من شأنه ما استطعت .

وإذا كان العيبُ فى الخَلْق ، وفيما لا دخْلَ للمخلوق فيه فتأدَّبْ مع الخالق ، ووالله لو علمتم ما جعله الله للمؤوف[2] - يعنى : مَنْ به آفة -

---

(١) أخرجه الحاكم فى مـستدركه (٣٦٨٤ ، ٣٦٨٥) والطبرانى فى المعـجم الصغير (٦٤٣) ونحوه للبـيهقى فى شعب الإيمـان (٤٩٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه ورفعتم أنسابكم ، فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم ، أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال الحاكم : « هذا حديث عال غريب الإسناد والمتن ولم يخرجاه » .

(٢) الآفة : العاهة . ويقال : آفـة العلم النسيان . وطعام مؤوف : أصابـته آفة . وقد إيف الزرع أى أصابتـه آفة . وآف القوم : دخلت عليـهم آفة . وآفت البلاد تؤوف : صـارت فيهـا آفة . [لسان العرب - مادة : أوف] .

لتمنيتم جميعاً أنْ تكونوا مؤافين ، فإن الله تعالى ليس له ولد ، بل وزَّع أسبابَ فضله على عباده ، فإنْ أخذ من واحد منهم شيئاً فقد عوَّضه خيراً منه .

والسخرية والاستهزاء لا يكونان إلا من إنسان علَا فى شىء أمام إنسان نقص فى هذا الشىء كأن يسخر الغنىُّ من الفقير ، أو القوى من الضعيف ، أو سليم التكوين من المعاق .. وهذا السلوك نتيجة الغفلة عن ميزان التفاضل بين الخلق جميعاً ، ألا وهو التقوى .

وقلنا : إنك لو نظرتَ فى الوجود كله لوجدتَ فيه قضية عادلة ، هى أن كل إنسان منَّا ، مجموع نعم الله عليه تساوى مجموع أىِّ إنسان آخر ، لأن الخالق سبحانه وزَّع فضله على عباده لكن هذا أخذ ١٠٠٪ فى العقل وهذا أخذ ١٠٠٪ فى الصحة لكن المجموع فى النهاية متساوٍ .

ذلك لأن الله تعالى لا يريد نسخاً مكررة من البشر ، إنما يريدنا متفاوتين فى المواهب لتستقيم بنا حركة الحياة وتتكامل ويرتبط البشر ببعض ارتباط حاجة ، لذلك قلنا إن الباشا قد يحتاج إلى عامل المجارى .

فقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (١٦٥) ﴾ [الأنعام] يعنى كل منا مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر . تعلمون أن بتهوفن الموسيقى الشهير كان أصم لا يسمع ، وأن تيمور لنك الذى دوَّخ الدنيا بالفتوحات كان أعرج .

هذا يعنى أنك لا تسخر من أحد ، ولا تحتقر أحداً لأنك رأيته أقلَّ منك فى شىء ما ، فكلنا سواسية فى ميزان الحق سبحانه ، وكأنه سبحانه يريد أنْ يعطينا درساً فى أنه سبحانه ليس له ولد وليس له صاحبة .

لذلك كانت الجن أفضل فهماً منا حين قالت : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣ ﴾ [الجن] فكلنا عيال الله ، بل تبلغ هذه المساواة إلى أن رسول الله يأمرنا بأنْ نسوِّىَ بينَ أولادنا ولو فى القُبلة .

وسيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا كيف نتصرف إذا ما حدث بيننا شىء من التهكم أو السخرية ، وكيف نقابله ونردّ عليه . فيُروى فى سبب نزول هذه الآية أن السيدة صفية بنت حُيى بن أخطب ، وكان زعيم بنى المصطلق ، ولما غزاهم رسول الله كانت السيدة صفية فى الأسرى فأراد ﷺ أنْ يُكرمها لأنها بنت ملكهم فتزوجها فغارت منها نساء النبى ، والغيرة كما يقولون (فقاقيع) الحب .

وكانت عائشة أكثر زوجات الرسول غيرةً عليه ، فقالت لصفية : يا يهودية بنت يهوديين ، فذهبت صفية باكية إلى رسول الله وحكتْ له ما كان من عائشة ، فضحك رسول الله لأنه يعلم غيرة عائشة عليه .

لذلك لم يُؤنِّب عائشة ، إنما أرضى صفية وطيَّب خاطرها وقال لها : إنْ قالت لك هذا فقُولى لها : ولكن أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد[2] .

---

(١) الجد : العظمة والمجد . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣ ﴾ [الجن] أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسير الآية عن ابن عباس أن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن النساء يعيرننى ويقلن لى : يا يهودية بنت يهوديين . فقال رسول الله ﷺ : هلا قلت إن أبى هارون ، وإن عمى موسى وإن زوجى محمد ، فأنزل الله هذه الآية . وكذا تفسير البحر المحيط (١٠/١١١) وابن الجوزى فى (زاد المسير ٥/٤٠١) .

انظر كيف عالج سيدنا رسول الله هذا الموقف ، وكيف أعلى من شأن صفية ، فهى سليلة الرسل والأنبياء وزوجة نبى ، نعم رد يفحم ولا يخطر على بال أحد ، ولم لا وقد أُوتى ﷺ جوامع الكلم(١) .

ومثل هذا الموقف أيضاً حدث من السيدة عائشة للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، حيث كانت تغار من السيدة خديجة ، ومن ثناء رسول الله عليها فى كل موقف ، حتى قالت له : ماذا يعجبك فى عجوز شمطاء(٢) حمراء الشدقين(٣) ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ كيف ردَّ رسول الله ؟ قال لها : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، فقد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله عز وجل ولدها إذ حرمنى أولاد النساء »(٤) .

وبعد ذلك لما قابلت فاطمة قالت لها : لا يغرنّك ثناء رسول الله على أمك ، فقد تزوجها ثيِّباً وتزوجنى بكْراً ، فلما اشتكتْ لرسول الله

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٤٩٦) عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بُعثت بجوامع الكلم » وكذا مسلم فى صحيحه (٨١٢ ، ٨١٤) والترمذى فى سننه (١٤٧٤) ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد وبياض . والشمط فى الرجل : شيب اللحية . والشمطات : الشعرات البيض فى شعر الرأس . [لسان العرب – مادة : شمط] .

(٣) الشدق : جانب الفم . قال ابن سيده : الشِّدقان طفطفة الفم من باطن الخدين ، والأشدق : العريض الشدق الواسعه المائله . [لسان العرب – مادة : شدق] .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٧١٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٥٥٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء قالت : فغرت يوماً فقلت : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها » .

قولَ عائشة قال لها : إذا قالت لك هذا فقولى لها : ولكن أمى تزوجت رسول الله بكْراً وأنت تزوجته ثيباً[1] .

والبعض يقول : كيف يحدث كل هذا فى بيت رسول الله ؟ نقول : نفهم من هذه الغيرة إلى جانب أنها علامة الحب لسيدنا رسول الله ، إلا أنها أيضاً تعنى أن عائشة التى تزوجها رسول الله وهى بنت التاسعة ، ومع ذلك كانت تغار على كبره ، وهذا يعنى أنه ﷺ غير مزهود فيه .

وقوله سبحانه : ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ .. (١١)﴾ [الحجرات] هنا نَهْى عن صفة أخرى مذمومة لا تليق بأهل الإيمان ، هى صفة اللمز وهو أنْ تعيب الآخرين ، وتأمل دقة الأداء القرآنى فى قوله : ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ .. (١١)﴾ [الحجرات] والإنسان لا يلمز نفسه إنما يلمز غيره ، لكنه أنزل الآخرين منزلة الإنسان نفسه ، ثم إنك حين تلمز الناس تُجرّئهم على أنْ يلمزوك ، على حَدِّ قول الشاعر :

لسَانُكَ لاَ تَذْكُر بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فكُلُّكَ عَوْراتٌ وللنَّاسِ أَلْسُنُ

وَعَيْنكَ إنْ أبدَتْ إليْكَ مَسَاوِئاً ... فَصُنْهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ للنَّاسِ أعيُنُ

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] لأنك حين تُسلِّم على الناس يردون عليك السلام فكأنك سلَّمتَ على نفسك .

---

(١) أشار إليه الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) فى تفسيره لآية ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ .. (١١) ﴾ [الحجرات] نهى آخر عن التنابز بالألقاب . أى : لا يدع أحدكم أخاه بلقب يكرهه ، والتنابز من نبز الشيء يعنى : أبعده وتركه ، كذلك حين تنادى شخصاً بلقب يكرهه ، فكأنك تبعده عنك وتُوسع الفجوة بينك وبينه .

والأسماء عندنا فى اللغة اسم ولقب وكُنية : الاسم هو ما يُطلق على المسمى فيصير عَلَماً مثل محمد . واللقب هو ما يُشعِر بمدح أو ذم مثل الصِّديق ، أو أن نسمى أحد الضعفاء مثلاً (سليمان بطة) ، أما الكُنْية فهى ما صُدِّرتْ بأب أو أم . مثل أبى بكر ، أم المؤمنين .

إذن : لا يجوز أنْ ننادى شخصاً مثلاً بلفظ مكروه وهو لا يحبه ولا يحب أن يُنادى به ، من ذلك ما ذكرناه من قول عائشة لصفية : يا يهودية . والتنابز بالألقاب يزرع الأحقاد والضغائن ، ويهيج الغرائز والغضب عليك ، ولم لا تناديه بأحب الأسماء إليه لتعطفه إليك .

حتى أن الفقهاء قالوا : إذا أذنب الرجل ذنباً ثم تاب منه إياك أنْ تُذكِّره به أو تُعيِّره به ، لأن ذلك يُعدُّ قذفاً له ، إلى جانب أنك تعين عليه الشيطان ، كمن تاب عن الخمر ونقول له (يا خمورجى) ، أو تاب عن القمار ونقول له (يا قمرتى) وهكذا .

لذلك قال بعدها : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ .. (١١) ﴾ [الحجرات] يعنى : بئس ما تقول لأخيك حينما تُذكِّره بماض يريد أنْ ينساه ، وقبيح بك أنْ تُعيِّره بعد أنْ تاب ، كما أنه قبيحٌ بك الفسوق بعد الإيمان .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ .. (١١) ﴾ [الحجرات] يعنى : عن التنابز بالألقاب ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ [الحجرات] نعم ظالمون لأنفسهم بعدم اتباع المنهج فى هذا النهى ، وظالمون لغيرهم حين ينادونهم بهذه الألقاب المكروهة ، فمن حَقِّ الذى تاب ألاَّ تذكره بعيبه ، وألاَّ تُعيِّره به .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾

الحق سبحانه يأمرنا أنْ نجتنب كثيراً من الظن ، والظن هو الخاطر يخطر بالبال . وهو نوعان : ظن حسن ، وظن سيء ، الظن الحسن لا شيء فيه ولا إثمَ عليه ، بل هو من مطلوبات الشرع كما سنرى ، والمنهى عنه هنا هو ظن السُّوء الذى يؤدى إلى فساد فى العلاقات ويترتب عليه عقوبة .

لذلك علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نجتنب ظن السُّوْء ، فلما كان ﷺ معتكفاً وجاءته السيدة صفية تطلب منه شيئاً فخرج إليها وكانت محتجبة ، ورآهما أبو بكر وعمر فانصرفا مخافة أنْ يراهما رسول الله وهو فى هذه الحالة لكنه ناداهما وقال : على رسلكما يعنى : قفَا إنها صفية ، وعلما ما أراد رسولُ الله ، فقالا له : لا يكون هذا معك يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان يجرى من ابن

آدم مجرى الدم »[1] .

إذن : فسيدنا رسول الله يُعلِّمنا أنْ نغلق باب ظن السَّوء ، ونقطع أسبابه ونربأ بأنفسنا أنْ نضعها فى هذا الموضع .

وفى قصة الإفك فى سورة النور يُعلِّمنا الحق سبحانه ويحثّنا على أنْ نظن بالمؤمنين خيراً ، وأن نبتعد عن ظن السَّوْء فيهم ، فيقول سبحانه عن حديثهم فى شأن السيدة عائشة : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور]

والظن الحسن هو أن تحتاط للأمر ، ولا تجعل له أثراً سيئاً فى نفسك ، فمثلاً إنْ جاءك رجل وقال لك : إن فى هذا الطريق جماعة يتربَّصون بك ويريدون بك شرّاً ، كان عليك أنْ تأخذ بالأحوط لك وأنْ تصدقه وتحذر ما حذَّرك منه ، لأن الغالب أنه يريد لك السلامة لا يريد لك الإيذاء .

أما إنْ كان الظنُّ يترتب عليه حكم شرعى ، فقد وجب عليك أنْ تتحقق من صحته .

وتأمل دقة الأداء القرآنى واحتياطه فى قوله تعالى : ﴿ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ .. (١٢) ﴾ [الحجرات] يعنى : أن أكثر الظن ظن سيء يجب اجتنابه ، والقليل ظنٌّ حسن لا مانع منه ، لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .. (١٢) ﴾ [الحجرات] لا كله ، فاحذر أنْ تقع فى الإثم

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، ٣٠٣٩ ، ٦٦٣٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٤٠ ، ٤٠٤١) من حديث صفية بنت حُيى بن أخطب أم المؤمنين .

حين تظنّ بالمؤمنين السوء دون بينة .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا .. ⦗١٢⦘﴾ [الحجرات] لا تتبعوا عورات الناس ولا تبحثوا عن خصوصياتهم ، وفى الحديث : « مَنْ تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه فى عقر داره »(١) .

ونذكر هنا لطيفة من لطائف أسماء الله الحسنى تلاحظ أن كثيراً من أسمائه تعالى لها مقابل كما فى المحيى المميت ، المعز المذل القابض الباسط .

لكن الستار ألها مقابل فنقول الفضاح ؟ تعالى الله سبحانه عن هذه الصفة لأن ستره مسدولٌ على عباده مهما حدث منهم لا يفضحهم ، والستار صيغة مبالغة من ستر ساتر .

لذلك ورد فى بعض الأحاديث قوله تعالى : أبغض العاصى ولكنى أكره مَنْ يتتبعه ، لماذا ؟ لأن تتبع العورات والسقطات يُشيع الفاحشة فى المجتمع .

فالحق سبحانه يحمى مجتمع الإيمان من هذا ، ويكفى أن المستتر

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٢٥١) من حديث أبان وغيره أن النبى ﷺ قام بعد صلاة العصر فرفع صوته حتى أسمع العواتق فى خدورهن ، قال : يا معشر من أعطى الإسلام بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تؤذوا المؤمنين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته . وفى مسند أبى يعلى الموصلى (٧٢٥٧) من حديث أبى برزة الأسلمى . وليس فى الحديث لفظة (عقر داره) بل هى (جوف بيته) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١٢٨١) عن ابن عباس ، والبيهقى فى شُعَب الإيمان (٩٣٣١ ، ١٠٧٤٨) عن البراء بن عازب .

بالمعصية ما يزال عنده حياء الإيمان .

والنبى ﷺ يقول : « إذا بُليتم – أى بشىء من المعاصى – فاستتروا »[1] .

وهذا كمن لا يقدر على الصوم مثلاً وعنده عذر ويُباح له الفطر ، لكن مع ذلك لا يجوز له أنْ يجاهر بفطره أمام الناس ، حتى لا يكون قدوة سيئة للشباب الذين لا يدركون هذه الأعذار .

فحين يرونه يفطر تتربَّى عندهم خميرة ذهنية أنه يجوز لهم الفطر فى رمضان ، إذن : عليه أنْ يستر فطره حتى لا تَحدث هذه الأسوة .

ولخطورة التجسس، قال الفقهاء[2] : لو أن رجلاً يعيش فى عشة من البوص والعيدان ، وجاء آخر فنظر إليه من خلال الثقوب ، فجاء صاحب العشة بعود ففقأ عينه لا يكون لعينه مقابل ولا تعويض ، لأنه اقتحم على الأول منزله ، ونظر إليه دون إذنه .

ومثل هذا فى سنة رسول الله[3] حيث بلغه أن رجلاً ينظر إليه من ثقب الباب .

---

(١) ذكره الإمام مالك فى موطئه (١٢٩٩) بلفظ « من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله فإنه من يبدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » وكذا البيهقى فى السنن الصغرى (٢٧٤٧) .

(٢) مستند هذا من حديث رسول الله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لو اطلع أحد فى بيتك ولم تأذن له فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح » . أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٦١٠٩) .

(٣) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل كشف ستراً فأدخل بصره من قبل أن يؤذن له فقد أتى حداً لا يحل له أن يأتيه ، ولو أن رجلاً فقأ عينه لهدرت ، ولو أن رجلاً مر على باب لا ستر له فرأى عورة أهله فلا خطيئة عليه ، إنما الخطيئة على أهل بيته » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٥٩١) .

ويُروى أن سيدنا عمر كان يتفقَّد أحوال رعيته ، ويقوم بالعسّ[1] ليلاً ، وقد بلغه أن رجلاً يشرب الخمر مع أصحابه فى بيته ، فتسوَّر عليه داره فوجده مع رجل من أصحابه جالسين ، وليس فى المجلس خمر ولا شىء من هذا .

فلما رآه الرجل قال : لقد ظننت بى كذا وكذا ، لكن فاتك من أمور الدين ما هو أهم من ذلك . أولاً : دخلت البيت من السور ، والله يقول : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] ثانياً : دخلت علىَّ بيتى بدون استئذان ، فانصرف عمر ولم يقل شيئاً[2] .

وفرْق بين التجسس (بالجيم) والتحسس (بالحاء) التحسس تتبُّع وبحث عن الغير ، لكن بدون قصد العورات ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف] أى : ابحثوا عنه حتى تصلوا إليه ، كما يفعل رجال المباحث مثلاً .

وقوله : ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] هنا نَهْى عن الغيبة عموماً ، لأن القرآن لم يحدد مَنْ يغتاب ومَنْ يغتاب فيه .

---

(١) العس : الطواف بالليل . ومنه حديث عمر رضى الله عنه أنه كان يعس بالمدينة أى يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعاسّ : الطوَّاف الحارس . جمعه عسس . [اللسان - مادة : عسس] .

(٢) أورده العسكرى فى الأوائل (١/٤٣) أن عمر كان يعس فى المدينة فسمع صوت رجل يغنى فى بيت فدخل عليه من وراء البيت فوجد عنده امرأة وخمراً ، فقال : ما هذا يا عدو الله ؟ قال : لا تعجل يا أمير المؤمنين إن كنت عصيتُ الله فى واحدة فقد عصيتَه فى ثلاث . قال الله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست . وقال ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورتَ ، وقال : ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلِّموا على أنفسكم ﴾ وقد دخلتَ من غير سلام . قال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، لله علىّ إن عفوتَ عنى ألا أعود . فعفا عنه .

ولما سُئلَ رسـول الله ﷺ عن الغيبة قال : ذكْـرك أخاك بما يكره وهو غائب . فـقال السـائل : فإن كـان فى أخى ما أقـول ؟ قال : إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبـته ، وإنْ لم يكُنْ فيه ما تقول فقد بهته[1] ، أى : افتريتَ عليه وكذبتَ .

ثم يعطينا القرآن صورة حسِّية للغـيبة ، فيقول : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ .. (١٢) ﴾ [الحجرات] تأمل كم فى هذه الصورة من منفرات تبين فظاعة هذا العمل ، فالذى يغتاب أخاه فى غيبته كالذى يأكل لحـمه وهو ميت . أى : غائب عن الحيـاة ولا يقدر أنْ يدافع عن نفسه .

إذن : شبّهه بصورة شنيعة تنفر منها النفس السوية .

وقالوا : إن سـبب نزول هذه الآية أنها نزلتْ فى الوليد بن عـقبة ابن أبى مـعيط حيـنما بعثـه رسول الله لجـمع أموال الزكـاة من بنى المـصطلق ، وكـان عليه لهم دية فـى الجاهليـة ، فلمـا رأوْه خرجـوا لمقابلته ، فخاف منهم الثأر وعاد إلى رسول الله ، وقال : إنهم امتنعوا عن دفع الزكاة .

ورُوى أن أسـامة بن زيد كـان القائم علـى مؤنة الطعـام فى بيت رسول الله ، فـأراد رجلان أنْ يذهبا لكى يَطْعمـا فى بيت رسول الله ، فبعثـوا سلمان الفارسى ليسأل أسامة الطعـام ، فلما سأله قال : ليس عندنا طعام ، فـعاد إليهـما سلمـان وقال : يقول أسـامة : ليس عندنا طعام ، قـالا : بل عنده لكنه بخل به ، ثم قـالا لسلمان : أنت وجـهك وجه شؤم ، ولو ذهبت إلى بئر سميحاً يعنى : فواراً - لغاب ماؤه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحـيحه (٤٦٩٠) وأبو داود فى سننه (٤٢٣١) والترمذى فى سننه (١٨٥٧) ، وأحمد فى مـسنده (٦٨٤٩ ، ٨٦٢٥ ، ٨٦٤٨ ، ٩٥٢٢) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهكذا اغتابوا كلاً من أسامة وسلمان ، فلما رآهما رسول الله قال : إنى لأشمُّ من أفواهكم ريح لحم نتن ، قالوا : يا رسول الله والله ما أكلنا لحماً ، قال : لقد اغتبتما أسامة وسلمان ، اذهبا فارضوهما[١] لأنك إذا لم تُرض المغتاب فستكون عند الله أقبح من الزانى .

لذلك لما اغتاب رجل ابن سيرين[٢] فجاءه وقال له : يا إمام أحل نفسى منك ، فقال : لم ؟ قال : لأنِّى اغتبتك ، فقال : أنا لا أُحِل ما حرم الله .

والحسن البصرى علم أن رجلاً اغتابه ، فأرسل إليه خادمه بطبق من الرُّطَب ، وقال له : قل له هذا هدية لك من سيدى ، لأنه علم أنك أهديتَ إليه حسناتك بالأمس[٣] .

هذا يدل على أنك تدفع حَقَّ مَن اغتبته من حسناتك ، فَإِنْ لم تكن لك حسنات أُخِذَ من سيئاته فطُرِح عليك ، وقد دلّ على ذلك الحديث

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى أن سلمان الفارسى كان مع رجلين فى سفر يخدمهما وينال من طعامهما ، وأن سلمان نام يوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا : ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجىء إلى طعام معدود وخباء مضروب . فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهم إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثنى أصحابى لتؤدمهم إن كان عندك ، قال : ما يصنع أصحابك بالأدم قد ائتدموا ؟ فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقال : والذى بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما فنزلت ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا .. (١٢)﴾ [الحجرات] . نقله السيوطى فى الدر المنثور (تفسير آية ١٢ الحجرات) .

(٢) هو : محمد بن سيرين البصرى الأنصارى بالولاء ، أبو بكر ، إمام وقته فى علوم الدين بالبصرة ، تابعى ، من أشراف الكتَّاب ، مولده ووفاته بالبصرة (٣٣ هـ - ١١١ هـ) ، نشأ بزازاً (تاجر قماش) فى أذنه صمم ، اشتهر بالورع وتفسير الأحلام . [الأعلام للزركلى ٦/١٥٤] .

(٣) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) (٣٤٧/٢) أن رجلاً قال للحسن البصرى : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

النبوى الشريف[١] .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات] اتقوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، وتجنّبوا أسباب عقابه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات] أى : كثير التوبة على مَنْ تاب ، كثير الرحمة لمن أناب .

وهذا الختام يعطى العاصى الأمل فى رحمة الله ، ولا ييئس المغتابين من رحمته تعالى ، فمَنْ زلَّ لسانه بالغيبة فليبادر بالتوبة ، وإذا علم أن ربه تواب رحيم عاد من قريب ولا يستمرئ هذه الفعلة ولا يتمادى فيها .

وسبق أنْ أوضحنا أن من أعظم نعم الله علينا أنْ شرع لنا التوبة ، وفتح لنا بابَ القبول ، وإلا تمادى العاصون وفسدَت الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) ورد هذا فى أى مظلمة منك لأخيك المسلم ، فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة فى نفس أو مال فأتاه ، فاستحله قبل يوم القيامة ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم إنما هى الحسنات ، قيل : يا رسول الله فإنْ لم يكن له حسنات ؟ قال : أخذ من سيئاته ، فوضع على سيئاته » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٥٣١٦) .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى ثابت بن قيس : وقوله فى الرجل الذى لم يفسح له ابن فلانة ، فقال رسول الله ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يا رسول الله فقال : انظر فى وجوه القوم ، فنظر فقال : ما رأيت يا ثابت ؟ فقال : رأيت أبيض وأحمر وأسود ، قال : فإنك لا تفضلهم إلا فى الدين والتقوى . فأنزل الله تعالى هذه الآية . أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٤) .

تلاحظ أن النداءات السابقة كانت بـيأيها الذين آمنوا ؛ لأنها توجيهات وتشريعات خاصة بالذين آمنوا ، لأن الله تعالى لا يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

أما النداء هنا فنداء عام للناس جميعاً يلفت أنظارنا إلى آية الخَلْق ، وإلى عظمة الخالق سبحانه ، وهذه الآية تشمل الجميع ، فالخالق سبحانه خلق المؤمن والكافر ، والذكر والأنثى ، هما أصل هذا الخَلْق ، فالذكر وحده لا يتناسل ، وكذلك الأنثى وحدها .

أما قوله تعالى فى سورة السجدة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة] فهذا خاص بالخلق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، حيث خلقه الله وصوَّره بيديه ، وكل شىء فى الكون مقدور بقول : كُنْ فيكون .

لذلك قال تعالى لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. ۝٧٥ ﴾ [ص] يعنى : كيف لا تسجد لشىء أنا خلقته بيدى ، إذن : أنت لا تسجد لآدم إنما تسجد طاعة لمن أمرك بالسجود .

وبعد أن خلق آدم من طين جعل ذريته من بعده ﴿ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة] وهذا يقتضى الزوجية بين الذكر والأنثى .

وفى سورة النساء قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ۝١ ﴾ [النساء] أى آدم عليه السلام ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ۝١ ﴾ [النساء] يعنى : حواء . إذن : حينما يقول سبحانه : ﴿ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. ۝١٣ ﴾ [الحجرات] لا يعنى بداية الخلق ، إنما النسل الذى جاء بعد الخلق الأول .

لذلك قال في آخر آية النساء : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١)﴾ [النساء] وهؤلاء الرجال والنساء تفرقوا في أنحاء الأرض وصاروا ﴿شُعُوباً وَقَبَائِلَ .. (١٣)﴾ [الحجرات] فالعرب شعب ، والروم شعب ، والفرس شعب ، ثم انقسمتْ الشعوب إلى قبائل ، والقبائل إلى بطون ، والبطون إلى أفخاذ وهكذا .

وفي داخل الأسرة الواحدة تختلف الأسماء ، لأننا لا نترك الأشخاص بدون أسماء ليتم التعارف ، فهذا محمد وهذا أحمد وهذه فاطمة .. والحكمة من ذلك هي ﴿لِتَعَارَفُوا .. (١٣)﴾ [الحجرات] على مستوى الأفراد وعلى مستوى الشعوب .

والتعارف أمر ضروري بين البشر ، لأن مصالحهم في أنْ يتعارفوا ، وسوف تضطرهم ظروف الحياة لهذا التعارف ، حيث سيحتاج بعضهم إلى بعض ، لأنه كما قلنا : الحق سبحانه وزَّع أسباب فضله على خَلْقه ، فما توفر لك قد لا يتوفر لغيرك .

لذلك رأينا مثلاً أوربا التي بلغت من الحضارة والتقدم مبلغاً تحتاج إلى سكان الصحراء رعاة الغنم والإبل حيث البترول وثروات الجبال من المعادن والأحجار الكريمة .

وهذا الاختلاف في الفضائل يؤدي إلى أنْ يتعاون الخَلْق ويتساندوا ، بحيث يكمل بعضهم نقص بعض . إذن : اختلاف يؤدي إلى التكامل لا إلى التعاند .

وهذا التكامل شاهدناه في آية خَلْق الرجل والمرأة ، فالرجل والمرأة ليسا ضدين ، بل هما عنصران متكاملان ، لأن لكل منهما مهمة لا يؤديها الآخر .

والحق سبحانه أوضح لنا هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② ﴾ [الليل] فهل يقول عاقل أن الليل ضد النهار ؟

ومثل الليل والنهار الذكر والأنثى ، لذلك أقسم بعدها بخلقهما ، فقال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ③ ﴾ [الليل] فالرجل لتحمُّل مشاقّ الحياة ، للكدح وللعمل ، والمرأة حنان وعاطفة ، وكل مُيسَّر لما خُلِق له(١) .

لذلك نعجب ممن ينادى بالمساواة بين الرجل والمرأة ، كيف ولكلٍّ منهما مهمته التى خُلق لها . والبعض يظلم النساء ويقول : ناقصات عقل ودين(٢) ، لأن العقل مهمته الترتيب والاختيار بين البدائل ، وهذه ليست مهمة المرأة بل مهمة الرجل الذى يدير دفة الأسرة فى رحلة الحياة .

أما المرأة فمهمتها عاطفية ، تحنو على الصغير والكبير ، وتفتح

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٩٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٨٩) من حديث عمران بن حصين قال : قيل يا رسول الله أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار ؟ فقال ﷺ : نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : « كل ميسّر لما خُلِق له » . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠٨٦) .

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٣ ، ١٣٦٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١١٤) من حديث عبد الله بن عمر . وعند الترمذى فى سننه (٢٥٣٨) من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ونصه : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن . قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال :" أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل . قُلْن . بلى : قال : فذلك من نقصان عقلها . أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تَصُم ؟ قلن : بلى : قال : فذلك من نقصان دينها » .

صدرها لتستوعب ، وتريح المتعب والمريض فى أسرتها ، ومع ذلك نراها إذا ترملت قامتْ بالمهمتين وحلَّتْ محلّ الزوج ، وربما كانت أكثر نجاحاً فى تربية الأولاد وصيانتهم .

الحق سبحانه وتعالى خلق آدم من طين ، وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، لكن لم يخلق حواء بنفس الطريقة ، إنما أخذ من ضلع آدم جزءاً وخلق منه حواء ، لماذا إذن لم يخلقها كخَلْق آدم ؟ قالوا : خلقها من الرجل لتكون له القوامة عليها .

كذلك فى مسألة الحمل تأخذ منه البذرة ، ثم تكمل هى عملية النسل ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ① ﴾ [النساء]

وقال الرسول ﷺ : « خُلقت المرأة من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه »[(١)] وكما شرف آدم بأن الله خلقه وسوّاه بيده ، كذلك شَرُفَتْ حواء أنها خُلقت من شىء خلقه الله بيده .

والعالم الآن مشغول بعملية الاستنساخ ، وهو يعنى أنْ نأخذ من الأصل نسخة مطابقة له ، كما نقول نسخ الكتاب . يعنى : أنْ نأتى منه بصورة أخرى مثله ، وهذه العملية نراها فى الجماد مثلاً ، نرى الزلط منه الكبير والصغير والمتوسط ، فهل رأينا (زلطة) مثلاً تكبر عن حجمها أبداً ، لماذا ؟

قالوا : لأن له مطامر تحت الأرض ، تتم فيها عملية التكاثر أو

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٤ ، ٤٧٨٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٧٠ ، ٢٦٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » .

الاستنساخ هذه ، فإذا خرج إلى الهواء جَمُد على ما هو عليه .

كذلك نجده فى النبات ، فهل رأيتم مثلاً تقاوى القصب أو التين البرشومى ؟ أبداً ليس له تقاوى ، إنما نأخذ عقلة من عود القصب ونزرعها فتخرج عود القصب ، ونأخذ لوحاً من ألواح التين ونزرعه فيعطينا شجرة تين ، أليس هذا استنساخاً ؟

كذلك بالإمكان أنْ نجده فى الحيوان ، وبالفعل تحدَّثوا عن استنساخ تم بالفعل فى الحيوان ، كما حدث فى النعجة دوللى[1] . وهى محاولة على أية حال .

أما فى الإنسان فهى عملية لا يقدر أحدٌ عليها ، لأن الإنسانَ مختلف عن باقى أجناس الكون ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، وهو المخلوق المكرَّم وباقى الأجناس فى خدمته ، فلو تصوَّرنا الاستنساخ فى الجماد والنبات والحيوان فلا نتصوَّره أبداً فى الإنسان ، لأن التكاثر فيه له شروط وضوابط لا مجرد استخراج نسخ مكررة منه .

لذلك لا يتم التكاثر فى الإنسان إلا من خلال اللقاء بين الزوجين الذكر والأنثى ، وداخل أسرة تحتضن الطفل وتحبه وتربيه وتعتنى به ، لا يليق بالإنسان أنْ يخرج من مفرخة مثل مفرخة الكتاكيت مثلاً .

لذلك نرى أن طفولة الإنسان هى أطول طفولة فى المخلوقات كلها ، وعندنا من الأطفال مَنْ تبلغ طفولته حتى سنٍّ ١٤ سنة ، أما الطيور

---

(١) تعتبر النعجة دوللى أول حيوان ثديى يتم استنساخه من خلال استخدام الحمض النووى لنواة خلية من نعجة ناضجة وعرضت على الجمهور عام ١٩٩٧ قام باستنساخها البروفسور إيان ويلموت ، وماتت عام ٢٠٠٣ .

والحيوانات فتعتنى بصغارها حتى تستطيع الحركة والأكل ثم تتركها وكأنها لا تعرفها ، وربما ذُبح الحيوان أمام أمه وهى لا تدرى به .

فكيف إذن نتصور الاستنساخ فى الإنسان وهو الخليفة المكرّم ، إن الأديان كلها ترفض الزنا وتأبى أنْ يأتى الولد بطريق غير شرعى ، تأبى أنْ يُرمى المولود فى الشارع ، أو حتى يُربى فى الملاجئ ، فكيف الحال إذا تَمَّ استنساخه ؟

من هنا نقول : إن عملية الاستنساخ لا تكون أبداً فى الإنسان ، ولا يقدر عليها إلا الله خالق الإنسان ، ويريد له الصلاح ، يريد له أنْ يأتى فى أحضان أب يرعاه وأم تحنو عليه يأخذ منهما الفضائل ، ويتعلم منهما القيم .

ثم إن نجاحهم فى استنساخ الحيوان لا يعنى أبداً الطعن فى القدرة الإلهية ، بل هو دليل جديد من أدلة الإيمان بالقدرة ، فالذى استنسخ النعجة لم يأت بها من العدم ، إنما جاء بها من نعجة أخرى هى خَلْق من خَلْق الله ، والعقل الذى فكّر خَلْق من خَلْق الله .

ثم يضع الحق سبحانه القاعدة التى بها تتفاضل هذه الشعوب وهذه القبائل ، فيقول : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣)﴾ [الحجرات] أى : أن أشخاص الشعوب تتميز بالتقوى .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يقول الرب : جعلتُ لكم نسباً وجعلتم لأنفسكم نسباً ، قلت : إن أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتُم ، وقلتم : فلان بن فلان . فاليوم – يعنى : يوم القيامة – أرفع نسبى

وأضع أنسابكم »[(١)] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات] عليم بخَلْقه ، يعطى كلاً منهم ما يناسب مهمته ودوره فى حركة الحياة ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالله أعلم بخلْقه وأعلم بقدراتهم ومقدارهم ، ويسَّر كلاً منهم للعمل الذى يناسبه ، لذلك نراهم طبقات فيهم أستاذ الجامعة ، وفيهم الحداد والسباك والنجار وماسح الأحذية فيهم الصانع والزارع ، وإلا كيف تستقيم حركة الحياة لو أن الناس جميعاً دكاترة جامعة ؟

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ[(٢)] ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم[(٣)] مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٦٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وكذا الطبرانى فى المعجم الكبير (١٦٤) والمعجم الصغير (٦٤٣) « يقول الله يوم القيامة : يأيها الناس إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً ، فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان أكرم من فلان بن فلان ، وإنى اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ » .

(٢) سبب نزول الآية : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فى سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة وجعلوا يمنُّون عليه . فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . أورده النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٥) .

(٣) لاته يلتيه حقه : نقصه ولم يؤده كاملاً . قال تعالى : ﴿ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

الأعراب : اسم جنس ليس له مفـرد ، والأعراب هم سكان البادية لم يذهبـوا إلى الحـضر ، لذلك نجـدهم على طبـيـعتـهم تغلب عليـهم الجفوة . والحق سبحـانه يخبر عنــهم أنهـم قالــوا ﴿آمَنَّا .. (١٤)﴾ [الحجرات] والله سبحانه أعلم أنهم لم يصلوا إلى درجة الإيمان ؛ لأن الإيمان ليس كلمة تُقال بل عقيدة راسخة تعمر القلب .

أمـا الإسـلام فـهـو الشكل الظاهرى وعـمل الجـوارح من صـوم وصلاة وغيرها من العبـادات ، لذلك صحّح لهم القول ، وقال : ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤)﴾ [الحجرات]

يعنى : تنفذون فـقط أوامر الإسلام بعمل الجـوارح ، إنما قلوبكم ليس فيها إيمـان ، وساعة يقول لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا .. (١٤)﴾ [الحجرات] فهذا دليل على أنه صادف شيئاً فى نفوسهم ، وهو سبحانه لا تخفى عليه من عباده خافية ، وهم يعلمون هذه الحقيقة .

إذن : أخبـرهم بواقع فى نفوسهـم ، يقول لهم : كونوا صـادقين مع أنفسكم وقـولوا أسـلمنا والله يعلم غـيبَ قلوبـكم ، فـهم فى هذا الموقف أشبه بالمنافقين حيث كانوا يحرصون على الصلاة فى الصف الأول ، يُنصتـون لـسـمـاع القـرآن ، وهذه كلهـا ظـواهر والله يعلم سرائرهم ، ويعلم أنها خلاف ما يُظهرون .

وقوله : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات] لما أداة نفى مـثل (لم) ، تنفى وقوع الـحدث فى الزمن المـاضى على التكلم ، لكنها تـعطى معنى آخر هو احتـمال حدوث الفـعل بعد ذلك ، كما تقـول مثلاً حينما تدخل البســتان : البستان لمَّا يثـمر بعد . أى : أنه سوف يُثمر فيما بعد .

لذلك العلماء قالوا فى هذه الآية : أنها لم تُغلق فى وجوههم باب الإيمان ، وبشَّرت بأنهم سيؤمنون فيما بعد ، ثم إن كشف القرآن لمستور قلوبهم وإخبار الرسول لهم بذلك هو الذى جعلهم يفكرون فى الأمر ويقتنعون ويدخلون ساحةَ الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] الحق سبحانه يُطمئنهم على ثمرة أعمالهم الصالحة ، فهى محفوظة لن تضيع بل لن تنقص .

ومعنى ﴿ لا يَلِتْكُم .. (١٤) ﴾ [الحجرات] لا ينقصكم من الفعل : ألت يألت .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [الحجرات] وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [سبأ] فمرة يُقدم الرحمة ، ومرة يقدم المغفرة ، وذلك بحسب الحال .

فمثلاً حينما يقف الجانى أمام السلطان مُقراً بذنبه ، لكن يلاحظ السلطان أنه رقيق الحال ، رثُّ الثياب ، مُصفر اللون فيشفق عليه ، ثم يأمر له بطعام وكسوة . وبعد ذلك يعفو عنه .

هنا قدَّم الرحمة على المغفرة ، أو العكس يعفو عنه أولاً ، ثم قبل أنْ ينصرف من مجلسه يقول لرجاله : أعطوه كذا وكذا .

وهذه المادة (ألت) وردتْ فى موضع آخر فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] فالكلام هنا عن جماعة مؤمنين ، وذريتهم تابعة لهم ، كذلك فى الإيمان فهم مشتركون فيه ، فما ضرورة الإلحاق هنا ؟

قالوا : ألحقناهم بهم فى الثواب ، لأن لكل منهما عملاً ، لكن عمل الآباء أكثر ودرجتهم أعلى ، فكرامة لهم نلحق بهم الأبناء ونجعلهم جميعاً فى منزلة واحدة ، فألحق الأدنى بالأعلى .

وقوله : ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (١٤) ﴾ [الحجرات] فى ماذا ؟ تُطيعونه فى الإيمان ؛ لأنهم كانوا بالفعل مسلمين ، فأراد أنْ يحثهم على الإيمان ويُبعدهم عن الكذب والادعاء .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (١٥) ﴾

الحق سبحانه يريد أنْ يوضح لهم معنى الإيمان ، وأنه ليس كلمة تُقال ، إنما عقيدة راسخة لا يداخلها شكّ ولا ارتياب ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا .. (١٥) ﴾ [الحجرات] آمنوا بالله وبوحدانيته ، وأنه سبحانه وحده الخالق الرازق المدبر لشئون هذا الكون ، آمنوا بأسماء الله وصفاته ، كذلك آمنوا برسول الله ، وأنه أمين صادق فى البلاغ عن الله ، ثم لم يرتابوا ولم يشكّوا فى شىء من هذا .

ومن صفات المؤمنين أيضاً ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٥) ﴾ [الحجرات] وهل هناك أدلّ على صدق الإيمان والإخلاص فيه من أنك تجود بنفسك فى سبيل هذا الإيمان ؟

لذلك قال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ .. (١٥) ﴾ [الحجرات] أى : المؤمنون حقّ الإيمان ، هذه صفاتهم ، ثم فى آخر الآية يصفهم بالصدق فى إيمانهم .

﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ [الحجرات] نعم صادقون فى إيمانهم ، لأنهم ضحُّوا بأغلى وأعزّ ما يملك الإنسان بالمال ثم بالنفس ، والشهيد ما ضحى بنفسه وما قدَّم ماله إلا وهو على يقين من أنه سيجد عند الله أفضل مما ترك فى الدنيا .

لذلك يجزيه ربه بالحياة الباقية ، فلا يدركه موت بعد ذلك ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

أى : يعاملون معاملة أهل الجنة ، فيأكلون ويشربون ويتمتعون ، ولاحظ أن هذه الحياة وصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران] لا عندك أنت .

وهذا يعنى أنك لو فتحتَ على شهيد قبره لن تجده حياً ، لأنه ليس حياً عندك ، إنما هو حيٌّ عند الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ [الحجرات] تعريض بهؤلاء الذين كذبوا على الله وادَّعوا الإيمان ، كأنه يقول لهم : لقد آمن أولئك وصَدقوا فى إيمانهم ، أما أنتم فكذَّبتم وتجاوزتم الحقيقة .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٦) ﴾

يعنى : تنبهوا إلى هذه الحقيقة ، فأنا خالقكم وأعلم بكم من أنفسكم ولا يَخْفى علىَّ منكم خافية ، فإياكم أنْ تقولوا آمنا وتظنون أنكم تدارون الحقيقة وتسترون كذبكم ، فأنا أعلم المؤمن من غير

المؤمن ، أعلم الصادق وأعلم المنافق .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦) ﴾ [الحجرات] أى : تخبرونه بما أنتم عليه من الإيمان ، كيف ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١٦) ﴾ [الحجرات] أى : لا يخفى عليه شىء فيهما ، بل ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) ﴾ [الحجرات] يعنى : علمه تعالى لا يتوقف عند السموات والأرض ، إنما يتعدَّى ذلك .

﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) ﴾ [الحجرات] لأن السموات والأرض بعض كوْن الله الفسيح ، لذلك وصفهما أى السموات والأرض وما بينهما ، فقال : مثل حلقة ألقيتها فى فلاة[1] ، فما نعرفه نحن من السموات والأرض لا يكاد يُذكر فى كوْن الله .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾

---

(١) عن أبى ذر الغفارى قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه فقلت : يا رسول الله أى آية نزلت عليك أفضل ؟ قال : آية الكرسى ، ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كحلقة فى أرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » . أخرجه الإمام ابن بطة فى الإبانة الكبرى (٢٥٤٤) وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٦٢) وفيه طول .

(٢) سبب نزول الآية : ذكر ابن كثير فى هذا نحو ما ذكره النيسابورى فى سبب نزول آية رقم (١٤) عن ابن عباس . ولكن فيه أن رسول الله ﷺ قال : إن فقههم لقليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم . فنزلت هذه الآية ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات] .

يُروى أن هذه الآية نزلت فى جماعة من الأعراب ، وقيل : من بنى أسد أتوا النبى ﷺ وهو فى المسجد ، فقالوا : جئناك نشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولم تبعث إلينا بعثاً ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان .

فأنزل الله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات]

إذن : مَنْ يمنُّ على مَنْ ؟ أنتم لا ينبغى أنْ تمنُّوا بإسلامكم على رسول الله ، لأن إسلامكم فى صالحكم يعود عليكم بالنفع ، فالإسلام هو الذى أمَّنكم من القتال والحرب والأسْر ، وأخذتم ما يتميز به المسلم من حَقٍّ فى الزكاة والحماية ، والله تعالى لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

إذن : لا تمنُّوا بإسلامكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ .. (١٧) ﴾ [الحجرات] لأنه أرشدكم إلى طريق الصواب والهداية ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ .. (١٧) ﴾ [الحجرات] إذن : إنْ كان هناك منة ، فالمنّة منّ الله عليكم ، لأن طاعة الله والسير على منهجه هو الذى يحمى لكم حركة الحياة ويُنظمها حتى لا تتعارض مصالحكم .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات] أى : فى ادعائكم الإيمان ، وإنْ تفيد الشك فكأنهم يمنُّون بشىء هم كاذبون فيه ، وحتى لو كانوا صادقين ما كان لهم أنْ يمنُّوا به .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾

سبق أنْ أوضحنا أن السموات والأرض ظرف ، وفى هذا الظرف عجائب وبدائع من خَلْق الله أعظم من الظرف ، لأن القاعدة أن المظروف أعلى وأعظم من المظروف فيه .

لذلك الحق سبحانه يقول : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨٩)﴾ [آل عمران] وفى موضع آخر : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٣١)﴾ [النجم] فالسموات والأرض رغم ما فيهما من عجائب الخلْق وإبداع وهندسة كونية إلا أنهما يحويان ما هو أعجب .

هنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عما فى السموات والأرض من غيب ، والغيب كل ما غاب عن إدراكك ، والشىء قد يغيب عن إدراكك اليوم ويظهر لك غداً ، فمثلاً الكهرباء قبل اكتشافها كانت غيباً لا ندرى عنه شيئاً ، والآن أصبحتْ مشهداً نحسُّه جميعاً ونتعامل معه .

إنك لو نظرتَ إلى الموجات التى تحمل الصوت والصورة فى الهواء لوجدتَ أمراً عجيباً حقاً ، لأنك لو جئتَ مثلاً بمائة راديو ومائة تليفزيون ، ووضعتها فى مكان واحد ، ووجَّهت كلاً منها إلى جهة لوجدتَ إرسالات مختلفة بالصوت والصورة .

فكيف تداخلتْ هذه الموجات فى هواء واحد ، ووصلتْ إلينا بهذه الدقة وهذا الوضوح ، وهى من أقصى بلاد الدنيا ؟

هذه كلها أسرار من غيب السموات والأرض تدعونا إلى الإيمان بقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

ورغم عظمة الخَلْق فى السموات والأرض ، فغيب السموات

والأرض أعظم من الجميع ، وسيظل هـذا الغيب مدداً لا ينفد ، وعطاء لا ينتـهى ، يُطالعنا من حـين لآخـر بشىء جـديد من غـيب الله ليظلّ القرآنُ معجزاً إلى قيام الساعة .

ومن حكمـة الحق سبـحانـه وتعالى أنْ وزَّع عطاءات القـرآن على عصور الزمان كلها حتى لا يستقبل عصرٌ القرآنَ وهو بلا عطاء .

ثم إن هذا العطاء يـأتى على قـدر العـقـول ، وعلى قـدر البـحث والتأمل فى ملكوت الله ، وبذلك نفهم مـعنى قول النبى ﷺ عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه ولا يَخْلَق عن كثرة الردِّ »(١) .

فأنت تقرأ مثلاً أعظم القصائد الشعرية ، ولابدَّ أنْ تسأم منها بعد مرة أو حتى بعد عدة مرات ، لكن تقرأ القرآن فلا تمله ، بل تزداد له حباً كـلما أمعنتَ فى القراءة ، لأنه كـلام الله وله سِرٌّ مع كل تَالٍ له ، وله عطاء لكل مُتأمل فيه ، فعطـاءات القرآن متعددة يأخذ منه كل تَالٍ له على قدره .

وختام السـورة بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات] يدل على أن مُلْك الله واسع وعجائبه لا تنتهى ، وليس لها حصر ولا عَـد ، ومهما وصلت البشرية من التـقدم فسوف

---

(١) أورده المتـقى الهندى فى كنز العمال (٢٣٥٦) وعـزاه لابن أبى شيبـة ومحمـد بن نصر المروزى وابن الأنبـارى فى كتـاب المصاحف والحـاكم فى مسـتدركه والبـيهـقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعـود ، وتمام الحديث : « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلمـوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبيـن والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوّم ولا يزيغ فيـستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد » . الحديث بتمامه أخرجه الدارمى فى سننه (٣٣٧٨) .

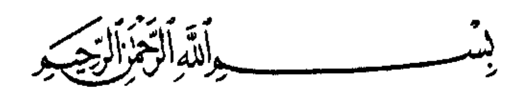
يبقى عند القرآن الجديد ، وفى آيات الله ما يبهر العقول .

كنا فى الماضى نتحدث عن عصر الفحم ، ثم عصر البخار ، ثم عصر الكهرباء ، والآن يتحدثون عن عصر الطاقة النووية والطاقة الذرية ، فأين كانت هذه الطاقات ؟

كانت غيباً فى علم الله وكشف عنها لعباده حينما تقدَّمتْ العقول وارتقتْ الأفكار ، وكلها اكتشافات لم يأتِ أحدٌ بشىء من عنده ، كلها من عند الله وفَيْض من عطائه مطمور إلى حين .


سُورَةُ قٓ

سورة ق[1]



﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾

سبق أنْ تحدثنا عن الحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن ، وهنا نكتفى بالإشـارة إلى أن هذه الحروف المقطعة مـثل (ق) تمثل جانبَ الغيب فى القرآن ، والغيب هو محكّ الإيمان كما بيَّنا .

فالفلاح الأمى مثلاً يستخدم التليفزيون ويتنقل بين قنواته دون أنْ يعرف كيف يعمـل وكيف ينتقل من قناة إلى أخرى ، فهو يسـتفيد به دون معرفة بـكيفية عمله ، كذلك يسـتخدم رافعة الميـاه (الطلمبة) ، وهو لا يعرف (ميكانيكية) عملها .

كذلـك نحن مع الحروف المـقطعة هذه نؤمن بهـا وندع مـعانيـها لقائلها سبحانه . والدين ينقسم إلى عناصر ثلاثة : عقائد تعمر القلوب ،

(١) سورة (ق) هى السـورة رقم (٥٠) فى ترتيب المصحف الشريف ، عـدد آياتها ٤٥ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعطاء وعكرمـة وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية وهى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق] نزلت سـورة (ق) بعد المـرسلات وقـبل سـورة البلد ، فهى السـورة رقم (٣٣) فى ترتيب نزول القـرآن . [راجع القـرطبى ٩/ ٦٤٠٠ ، والإتقان فى علوم القـرآن للسيوطى ١/ ٢٧] .

وعبادات وتكاليف هى عمل الجوارح ، ثم الكلام الذى ينقل هذه الأمور كلها وهو مهمة اللسان أى التعبير .

وكل من العقائد والتكاليف والتعبير فيه غيب ومشهد ، فالله غيب ، لكن آثار قدرته فى الكون مشهد ، والصلاة من حيث ترددك على المسجد خمس مرات وما فيها من ركوع وسجود وحركات مشهد ، لكن عدد ركعاتها غيب .

فكأن الحق سبحانه يعطينا الغيب فى هذه الأشياء ليختبر فينا حقيقة الإيمان ، فما علمته دليل على صدق ما لم تعلمه .

كذلك الحال فى حروف القرآن الكريم وآياته ، فآيات القرآن على وجه العموم نفهمها ونعرف معانيها ، لكن الحروف المقطعة هى الغيب الذى يجب علينا أنْ نؤمن به حتى ولو لم نعرف معناه ، وتبقى هذه الحروف دليلَ إعجاز القرآن .

فقوله تعالى : ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق] جمعتْ بين الاثنين ، الغيب فى (ق) والمشهد فى ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق] وهما المكوِّنان للقرآن الكريم (ق) دليل الإعجاز ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق] إذن : أتى بالدليل والمستدل عليه .

و (ق) تحمل معنى القسَم ، وهى حرف واحد كما أقسم الله بالشىء الواحد ، فقال : ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ②﴾ [العصر] وقال : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾ [النجم]

كما يقسم بالحرفين مثل (يس) ، (طه) ، (حم) ، وكذلك

يقسم بشيئين من مخلوقاته مثل : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] ويقسم بثلاثة أحرف مثل (الم) ، وبثلاثة أشياء مثل : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات]

ويقسم بأربعة في ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعراف] وفي ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين] كما يقسم بخمسة أحرف في ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم] وفي قوله سبحانه ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ[1] مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ[2] ۝٦﴾ [الطور]

إذن : جاء هذا القسم على خمسة أضرب من الواحد إلى خمسة ، ولم يزد على ذلك حتى لا يكون القسمُ ثقيلاً على اللسان ، ولأن أقصى ما يمكن في الكلمة المجردة خمسة أحرف ، لكن في القسَم بآياته الكونية زاد على ذلك .

اقرأ : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا[3] ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ [الشمس]

---

(١) الرق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ١/٢٧٢] .

(٢) سجره يسجره : ملأه . وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير] أي : مُلئت . [القاموس القويم ١/٣٠٣] وقال الربيع بن أنس : هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها . وقال الجمهور : هو هذا البحر . [تفسير ابن كثير ٤/٢٤٢٠] .

(٣) طحاه يطحوه : بسطه . قال تعالى : ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦﴾ [الشمس] أي : بسطها ومهدها للسكنى . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

ولو فعل مثل ذلك فى القسم بالحـروف لخرج عن بنية الكلمة فى اللغة .

ونلاحظ أيضاً أن القسم بالحروف المقطعة لم يأتِ إلا فى أوائل السور ، أما القسم بالآيات الكونية فيأتى فى أولها كما رأينا ، ويأتى فى خلالها كما فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾ [المدثر]

ثم إن القسم بالحروف المقطعة لا يأتى بالواو ، إنما تأتى واو القسم مع الآيات الأخرى التى نفهم معناها ، وهنا يقول : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] ولم يقل و (ق) لأن الواو حرف ، و (ق) حرف ، فيحدث بينهما لَبْسٌ ، هذه من إعجازات القرآن التى ينبغى أنْ نقف عندها وقفة تأمل .

والتصديق بهذه الغيبيات هو الذى يثبت صدق الإيمان ، وإلا فما الميزة فى أنْ تكون كلُّ آيات القرآن مفهومة معلومة المعنى والمراد ؟ ما الميزة فى أنْ تكونَ كل أمور الدين معلومة لنا خاضعة للقياس العقلى وعليها دليل ؟

وسبق أنْ أوضحنا أن المشهد والإيمان بالمشهد أمر عادى الكل يؤمن به ، المهم أنْ تؤمنَ بما غاب عنك ثقةً منك فيمَنْ أبلغك به .

هَبْ أنك ذهبتَ إلى الطبيب وبعد أنْ فحص حالتك كتب لك الدواء ، بالله هل تناقشه لِم كتبتَ كذا ؟ ولم كتبتَ كذا ؟ إنك لا تناقشه لأنك ذهبتَ إليه مختاراً ، ذهبتَ إليه وأنت تثق به ومستعد لأنْ تنفذ تعليماته وتتناول الدواء الذى وصفه لك وأنت لا تعرف شيئاً عنه .

فإذا كنتَ تثق بالطبيب وهو إنسان مثلى ومثلك وعُرْضةٌ للخطأ ، فما بالك بالله ؟ ألاَ تثق فى كلامه ؟

ولأهمية الإيمان بالغيب مدح الله المؤمنين به ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ③ ﴾ [البقرة] فكما نؤمن بالآيات واضحة المعنى نؤمن بالحروف غير واضحة المعنى ، فهذا قرآن مشهد ، وهذا قرآن غيب ، وكما نؤمن بالآيات الكونية المشاهدة نؤمن بالله خالقها ومبدعها ، وهو سبحانه غيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① ﴾ [ق] القرآن اسم لما نزل من عند الله على قلب سيدنا رسول الله ، ودلّ على صدقه فى البلاغ عنه . وسُمِّى قرآناً ليدل على أنه مقروء ، وسُمِّى الكتاب ليدل على أنه مكتوب ، فهو مُسجَّل فى السطور محفوظ فى الصدور .

وللقرآن مزية خاصة به لم تُعْطَ لكتاب قبله ، هى أن القرآن يحمل المنهج ويحمل المعجزة معاً ، أما الرسالات السابقة عليه فكان المنهج فى الكتاب ، والمعجزة منفصلة عنه .

فسيدنا عيسى مثلاً كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته أنْ يبرىء الأكمه[1] والأبرص ويُحيى الموتى بإذن الله ، وسيدنا موسى كان كتابه ومنهجه فى التوراة ، أما معجزته فكانت فى العصا ، أما سيدنا رسول الله فكانت معجزته هى عين منهجه ، لماذا ؟

لأن رسالته دائمة باقية فى الزمان كله إلى قيام الساعة وباقية فى

---

(١) الأكمه : الذى يُولد أعمى . أو فقد بصره . [القاموس القويم ٢/١٧٥] والأبرص مَنْ أصابه البرص ، وهو مرض جلدى يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/٦٤] .

المكان كله ، فلها عمومية الزمان وعمومية المكان ، ونحن الآن نقول : هذا محمد رسول الله وهذه معجزته ، في حين لا نستطيع أنْ نقول ذلك مع سيدنا موسى مثلاً أو سيدنا عيسى ، لأن معجزاتهما انتهت بانتهاء زمانيهما .

ومعنى ﴿ الْمَجِيدِ ① ﴾ [ق] أي : العظيم صاحب الشرف والمجد والعلو ، ومجيد على وزن فعيل ، وهي من أوزان المبالغة مثل رحيم ، وفعيل تأتي مرة بمعنى فاعل مثل رحيم أي : راحم ، وتأتي بمعنى مفعول مثل قتيل أي : مقتول .

فمعنى ﴿ الْمَجِيدِ ① ﴾ [ق] أي : ماجد في ذاته وممجَّد في ذاته فهي تحمل المعنيين ، فهو ماجد وممجد ، لأنه أعلى وأرفع كلام وأغلى الكتب وأشرفها ، فهو في ذاته مجيد .

ثم لأنه جاء من مجيد أعلى هو الحق سبحانه ، وبلَّغه ملَك مجيد إلى رسول مجيد ، ويبقى بعد ذلك أنه أُنزل على أمة مجيدة .

لكن إذا كانت : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① ﴾ [ق] قسم فأين جوابه ؟ قالوا : قسم على أن البعث حقّ . أي : ق والقرآن المجيد لتبعثن ، والأقرب من ذلك أنْ نأخذ الجواب من الكلام بعد القسم ، وهو قوله تعالى :

﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ② ﴾

والعجب لا يكون إلا من شيء غير معتاد ، والنفس لا تهتدي إلى

سببه ، ولا إلى علّته مثل الساحر نعجب لما يفعل لأننا لا نفهمه ، والحديث هنا عن الكفار المعاصرين لبعثة النبى ﷺ .

وقد أوضح القرآن هذه المسألة وشرحها فى موضع آخر هو قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]

إذن : عجبهم أو اعتراضهم ليس على القرآن ، إنما على محمد ﷺ ، كيف ينزل عليه القرآن وهو من عامة الناس ، ولماذا لم ينزل على أحد عظماء القوم ثم أتوا بشبهة أخرى ، لماذا لم ينزل على ملك .

وقد ردّ القرآن عليهم وبيَّن لهم هذه الشبهة ، فمحمد ﷺ رسول وقدوة ، والقدوة لا تتم إلا إذا كان الرسولُ من جنس المرسل إليهم ، وإلا كيف نقتدى بملك وله طبيعة غير طبيعتنا ، وقدرة غير قدرتنا .

ولو أمرنا بعمل ما كان من حقنا أنْ نقول له : لا نستطيع أنْ نفعل مثلك ، لأنك ملَك تقدر على ما لا نقدر عليه ، فلا تتم الأُسْوة إذن .

فمن عظمة الرسالة أنْ يكون الرسولُ منكم ، لذلك منَّ الله عليهم بذلك ، فقال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] أى :

---

(١) القريتان هما : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل ، قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

جنسكم بل من قومكم ، ومن أقرب الناس لكم ، وأنتم تعرفون صدقه وأمانته حتى قبل الرسالة ، وشهدتم له بذلك .

وقوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق]

يعني : أن الكافرين هم الذين تعجبوا من اختيار محمد ﷺ للرسالة ، إذن : غير الكافرين لم يتعجبوا من ذلك ، وإذا كان القرآن نزل على مدى ثلاث عشرة سنة ، فمن الناس مَنْ آمن بمحمد وصدَّقه من أول آية نزلتْ عليه . وقال : نزل عليّ اليوم كذا وكذا .

بل إن سيدنا أبا بكر صدَّق رسول الله وآمن به بمجرد أنْ قال : إنى رسول الله دون أنْ يسأله عن شيء ، لماذا ؟

فماضيه فى قومه يُؤهله لهذه المكانة ، ولم لا يصدقه وهو الصادق الذي ما جُرّب عليه كذبٌ قط ، والذى لا يكذب على الخَلْق أحرى ألاَّ يكذب على الخالق .

كذلك صدّقه فى خبر الإسراء والمعراج ولم يناقش مثل غيره ، بل قال عن رسول الله : إنْ كان قال فقد صدق(١) ، لقد أخذها بالعقل ، وبما لديه من مقدمات من سيرة رسول الله .

لذلك كلمة (محمد) ذاتها دليل على صدقه ، فقوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ.. ۝٢٩﴾ [الفتح] محمد مبتدأ أخبر عنه بأنه رسول الله ، ومحمد بمعنى محمود يحمده الناس ويثنون عليه .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره لآية ١ من سورة الإسراء من حديث سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٢٢) وذكره عبد الرزاق فى مصنفه (٥/٣٢٨) من طريق الزهرى أيضاً .

إذن : هو من بدايته ونشـأته مُعَدٌّ لهـذه المهمة ، لذلك مـا جرَّبوا عليه كـذباً أبداً ، ولا شيئاً مـما كان يفعله أترابه فى الجـاهلية ، فكأنه يقول لهم : محمد هذا الذى تعرفونه ، وتعرفون ماضيه وسيرته فيكم هو رسول الله ، وكأن علة الإيمان بالرسول أنه محمد .

وسبـق أن بيَّنا كيف عـصمـه الله من الزلل ؟ وكيف عـصمـه من انكشـاف عورته ؟ لذلك ورد على لسانه ﷺ وهو يجادل قومه : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

يعنى : أنتم تعرفون عنى كل شىء ، تعـرفون أنِّى لا أكذب ، ولم يسبق لى أنْ وقفت خطيباً فيكم ولا شاعراً . إذن : لماذا تُكذِّبوننى ؟ .

وكلمة ﴿هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ [ق] ليستْ تكراراً للتعجب فى ﴿بَلْ عَجِبُوا .. (٢)﴾ [ق] بل عـجيبٌ بالـذى قيل ، عـجـيبٌ قالهـا الكافرون ، وقـد شرحهـا القرآن فى قـوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

فردَّ عليهم : ماذا تريدون ؟ قـالوا : نريده ملَكاً ، فقال لهم : إذا كان ملَكاً فسوف يأتيكم فى صورة بشر ، إذن : ستظل الشبهة كما هى .

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

هنا نقلوا المسألة من الاعتراض على بشرية الرسول إلى التشكيك فى عملية البـعث بعد الموت ، وهكذا أصبح لدينـا جوابان للقسم ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق]

الجواب الأول : إنك لمنذر والثـانى : لتبعـثُنَّ ، الأول : أخذناه من

قوله : ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ .. ②﴾ [ق] والثانى : من قوله سبحانه : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾ [ق]

ومعنى ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾ [ق] أى : رجوع إلى الحياة بعد أنْ نموت ونصير تراباً ، هذا أمر بعيد عن أذهانهم ، لماذا ؟ وأنتم عندكم آثار سيدنا إبراهيم وإسماعيل وبقايا الديانات السابقة ، وتعرفون الله وتعترفون أنه خالقكم وخالق السموات والأرض .

فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حكى القرآن قوله : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ⑳⑥⓪﴾ [البقرة]

وقلنا : إن السؤال هنا ليس شكاً من سيدنا إبراهيم فى قدرة الله على إحياء الموتى ، إنما سؤال عن الكيفية فقط ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ٢٦٠﴾ [البقرة]

فأراه الله سبحانه الكيفية ليستْ قولاً إنما فعلاً وتجربة مشاهدة ، يُجربها هو بنفسه ، وكأن الله تعالى يقول له ولنا : أن إحياء الموتى ليس صعباً ولا معجزاً لى ، بل إذا أردتُ أُعدِّى قدرتى إلى عبد من عبادى ، فيفعل ذلك بإذنى .

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ[1] إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ [البقرة]

(١) ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ.. ٢٦٠﴾ [البقرة] أى أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً . وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم أى : وقطعهن . [تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥] .

هذا أثر من آثار قدرة الله يمنحه لعبد من عباده .

وفى قصة سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩)﴾ [آل عمران]

والقرآن يرد على منكرى البعث ، فيقول :

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾

يعنى : لِمَ تعجبون وتنكرون البعث بعد الموت ، والله علم مُكوِّناتكم وجزئيات وعناصر هذا الجسم وكمية كل عنصر منها ، ويعلم ما تأخذه الأرض منكم وقادر على جمعه وإعادته كخَلْقه الأول هو هو ، وإن كانت العناصر التى خرجتْ منه لا تزال خارجة ، إذن : نحن نختلف باختلاف عناصر التكوين ، لا باختلاف مجموع العناصر .

ومعنى ﴿قَدْ عَلِمْنَا .. (٤)﴾ [ق] أى : أن هذه العملية تقوم على علم وعلى دراية لا مجرد كلام ، ثم تستند إلى توثيق آخر : ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق] فهذا العلم مُؤيّد بكتاب مسجَّل مسطور مشهود يحصى فيه كل شىء .

فإنْ قلتَ : فما فائدة الكتاب بعد العلم ؟ نقول : علم الله واسع ، وهو صفة من صفاته تعالى ، وهو سبحانه لا ينسى ، لكن يكتب فى كتاب ليكون الكتابُ حجةً على مَنْ أنكر ، كما فى مسألة الحسنات والسيئات .

فالله تعالى يعلمها ويُحصيها ، ولا يحتاج مَنْ يُذكِّره بها ، لكن يكتبها للعبد لتكون حجة عليه يوم يقول له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق] مبالغة على وزن فعيل ، وهي هنا بمعنى فاعل . أي : حافظ لكل شيء ، مسجل لكل صغيرة وكبيرة ، وهو أيضاً محفوظ فلا تمتد إليه يد فتختلس منه شيئاً ، أو تغير فيه شيئاً .

لذلك قال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

وقال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

والذي يحاول التشكيك في البعث أو نَقْضه هم الناس المستهترون المسرفون على أنفسهم ، فهؤلاء لو صَحَّ البعثُ وصَحَّ الحساب والجزاء ، فستكون العاقبة بالنسبة لهم سوداء ، فحظهم إذن أنْ يُشككوا في البعث ، وأنْ يُكذِّبوه ، بل الدين كله في نظرهم كذب .

وتأمل مثلاً إفلاسهم في الحجة حين يقولون في تكذيبهم بالبعث : لو أن رجلاً مات وزُرعت فوق بقاياه شجرة تفاح مثلاً ، فسوف

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير آية ٧٨ سورة الواقعة : في المكنون قولان : أحدهما مستور عن الخلق . قاله مقاتل . والثاني : مصون . قاله الزجاج . قال الشوكاني في فتح القدير : قيل محفوظ عن الباطل وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة . وقال مجاهد وقتادة : هو المصحف الذي في أيدينا .

تتحل عناصره وتتغذّى منها هذه الشجرة ، فسوف يأتى مَنْ يأكل منها .

وبذلك تصله بعض عناصر الأول ، فإذا مات الثانى فكيف تُبعث هذه العناصر من الأول أم من الثانى ؟

وهذه شبهة واهية ، وللرد عليها نقول : لو أن رجلاً وزنه مثلاً مائة كيلو ، وأصابه مرض أنقص من وزنه النصف حتى صار شبحاً ، ثم مَنَّ الله عليه بالشفاء حتى استعاد صحته ووزنه الأول ، فهل عادت إليه نفس عناصره الأولى ؟

أبداً ، لأنه يأكل عناصر أخرى غير التى فارقته لكن تبقى الشخصية وتبقى المعنويات المميزة لها ، وحين تعود تعود كما كانت هى هى .

إذن : المسألة ليست مسألة نفس العناصر ، إنما مسألة إعادة شخص بعينه . وما دام الحق سبحانه قال : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. (٤)﴾ [ق] فهو سبحانه قادر على جمعها وتكوينها من جديد ، بقوله تعالى : كُنْ فيكون .

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

فهمنا من قولهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق] أنهم مُنكرون للبعث لا يُصدِّقون أنهم سيُبعثون بعد الموت ، وهذا الإنكار لا يغير من الواقع شيئاً ، فالبعث حَقّ وسيحدث لكنهم يكذبون به لأنه ليس فى صالحهم .

لذلك قال هنا ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ .. ۝٥﴾ [ق] والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً مهما طرأتْ عليه من أحداث ، فسوف تمضى الأحداث والوقائع ويبقى الحقّ ثابتاً .

والحق سبحانه أعطانا مثلاً محسوساً للحق وللباطل ، فقال سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً(1) وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ [الرعد]

كذلك سيذهب إنكارهم وتكذيبهم وتبقى الحقيقة ويبقى الحق ثابتاً لا يتغير ، وفى القرآن آيات كثيرة تحمل هذا المعنى ، اقرأ : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ۝٤٠﴾ [التوبة] فـ (كلمة) الأولى مفعول به ، أما الأخرى فهى مبتدأ لإنشاء كلام جديد غير معطوف على الأول .

فالأولى مجعولة ، والأخرى أمر ثابت أزلاً ، جعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله عليا بداية ، يعنى : لم تكُنْ سُفلى فجعلها عليا ، هذا يعنى أن الحق شىء ثابت أزلاً وباقٍ لا يتغير .

وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق] معنى مريج . أى :

---

(١) جفأ السيل غثاءه : رماه وقذفه . ويقال : جفأت القِدْر: أى رمت زبدها عند الغليان . ومن عادة الطهاة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب . قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ۝١٧﴾ [الرعد] أى : لا ينتفع به ويلقى بعيداً أو يذهب ضياعاً . [القاموس القويم ١/ ١٢٤] .

مختلط ، فهم مذبذبون متـرددون ، مرة : تعجبوا وقالوا ﴿ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾ [ق] ومرة أنكروا ، ومرة كذَّبوا ، فـالأمر بالنسبة لهم مخـتلط من قولـهم : مرج الخـاتم فى الإصبع إذا كـان واسعاً سـهل الحركة .

والدليل على أنهم فى أمر مـريج أنهم استقبلوا سـيدنا رسول الله ﷺ بمجـموعـة من الاتهامـات ، كلما خـاب سعـيهم فى واحـدة قالوا بالأخرى ، لأن القرآن لهم بالمرصاد يرد كيدهم عن رسول الله .

لذلك سمعناهم يقولون : ساحر ، شاعر ، مجنون ، كاهن .

إذن : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾ [ق] لا يدرون ماذا يـقولون ، فكلما قالوا تهمة كشف القرآن كذبها ، فالحق شىء واحد ، لذلك نراه ثابتاً ، أما الباطل فمتعدد لذلك لا يثبت .

وهذه المسـألة نشاهدها فى الشـهـادة أمام القاضـى ، فشاهد الحق يأتى قوله واحداً لا يتغـير لأنه يصف واقعاً ، أما شاهد الزور فـيغير ولا يصمد أمام محاورات القاضى ، وسرعان ما يقع وينكشف كذبه ، لأنه لا يصف واقعاً ، إنما يؤلف الأحداث من عنده .

ثم ينقل الحــق سـبحـانه وتـعـالى مـجـالَ الحـديث إلى الآيات الكونيـة التى تثبت قـدرة الله تعالى وتمسّ مـسألة الـعقيـدة ، فحـين نُصـحـح لهـؤلاء عقـيـدتهم ونعطفهم إلى الإيمـان بالله سيـفكرون فى رسالة محمد ، ويهتدون إلى الحق .

لذلك تـرك الحــديث عن تكذيبــهم لرسـول الله ولـلبــعث ، إلى الحديث عن الآيات الكونية فى السموات والأرض .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾

الاستفهام فى ﴿أفلم ينظروا .. ﴿٦﴾﴾ [ق] غرضه الحثّ على النظر والتأمل فى خلْق السموات وما فيها من آيات ومعجزات ، لأن هذه الآيات هى دليل القدرة ، وكلمة ﴿بَنَيْنَاهَا.. ﴿٦﴾﴾ [ق] دلتْ على أن السماء على اتساعها مبنية ، ومع اتساع هذا البناء لا نجد له عمداً ترفعه .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾﴾ [الرعد] إذن : طالما ليس لها عَمد تحملها ، فهى ممسوكة من أعلى ، ولا يمسك هذه السماء إلا قوة عظمى هى قدرة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]

وهذه الفكرة رأيناها فى بناء الكبارى الطويلة التى ليس لها قواعد وأعمدة تحملها ، فيعلقونها من أعلى ، وتُسمّى الكبارى المعلّقة .

والحق سبحانه وتعالى يُقرِّب لنا هذه المسألة بقوله : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ(١) وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ

---

(١) الطير الصوافّ أى التى تصف أجنحتها فلا تحركها ، باسطات أجنحتها فى الطيران . [لسان العرب – مادة : صفف] ثم يقول بعدها (ويقبضن) أى يثنين ويطوين أجنحتهن .

شَيْءٍ بَصِيرٌ ⓳﴾ [الملك] فكما يمسك الطير في السماء يمسك السموات أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه .

ثم لم يقف الأمر عند بناء السماء ، بل ﴿وَزَيَّنَّاهَا .. ⓺﴾ [ق] بما فيها من الكواكب والنجوم التى تُضىء ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⓺﴾ [ق] يعنى : ليس فيها شقوق ولا فتوق ، بل نراها مستوية ملساء ، انظر إليها وهى صافية تجد روعة الألوان .

وبعد أنْ حدَّثنا عن الآيات العليا فى السماء يُحدِّثنا عن آياته سبحانه فى الأرض ، وإذا كانت الآيات فى السماء بعيدة عنا ، فالآيات فى الأرض قريبة منا وتحت إدراكاتنا .

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. ⓻﴾ [ق] بسطناها وجعلناها مستوية صالحة للمعيشة ، والمد هو البسط ، والشىء المنبسط الممتد ليس له نهاية ، وهذه صفة الأرض ، فأينما سرتَ تجدها أمامك منبسطة ليس لها حافة تنتهى عندها ، وهذا الامتداد فسَّر لنا كروية الأرض .

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ.. ⓻﴾ [ق] هى الجبال الثابتة التى تثبت الأرض ، فلا تميد ، كما قال سبحانه ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⓻﴾ [النبأ] أى : هى للأرض مثل الأوتاد للخيمة ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا .. ⓻﴾ [ق] أى فى الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⓻﴾ [ق] من النبات والزوج أى الصنف ، وهو فرد معه مثله .

فالنبات لكى يعطى إنتاجاً لابدَّ له من زوجين ذكر وأنثى ، كما فى الإنسان والحيوان ، لذلك قال تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ㊾﴾ [الذاريات] لأن التناسل لا يتم إلا بهما .

ومعلوم أن التلقيح فى النبات يتم بواسطة الفراشات والحشرات

الطائرة التى تنقل حبوب اللقاح من عنصر الذكورة لعنصر الأنوثة ، لذلك لما كثُرتْ الحشرات فى أحد البساتين وضعوا لها المبيد الحشرى فماتت ، فلاحظوا أن الأشجار فى البستان لم تزهر ولم تثمر ، لماذا ؟ لأن الفراشات والحشرات التى تلقح الزرع ماتت .

وقد لاحظوا أن الحشرات تتلوَّن بلون الزهرة التى تلقحها ، بحيث يكون بينهما توافق بديع فى الألوان ، فلا تكاد ترى الفراشة وهى على الزهرة ، وهذه الألوان فى تناسقها مظهر من مظاهر الإبداع فى الخلق .

وقوله : ﴿ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ [ق] أى : جميل حسن المظهر .

وقد فهم العلماء من قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ.. ۝٧ ﴾ [ق] أن الأرض غير ثابتة ، وأنها تدور ، فلو كانت الأرضُ مخلوقةً على هيئة الثبات ما احتاجتْ إلى الجبال الرواسى لتثبتها فلا تميل بأهلها .

وهذه كلها كانت من غيب السموات والأرض كشفه الله لنا بتقدّم العلوم وتطور الحضارات ، لذلك نقرأ مثلاً : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ۝٨٨ ﴾ [النمل] نعم السحاب يمر ويتحرك بحركة الهواء ، فكيف تتحرك الجبال وهى راسية مستقرة مُثبتة على سطح الأرض ؟

إذن : الجبال لا تتحرك إلا مع حركة الأرض ، ولأنك ستتعجب من هذه الحقيقة ، قال الحق بعدها ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. ۝٨٨ ﴾ [النمل] فما دام الفعل لله والصنعة لله ، فلا تتعجب ولا تستبعد الأمر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ .. ۝٨ ﴾ [ق] أى : أن هذه

الآيات الكونية فى السموات وفى الأرض تعطى بصيرة للناس ، وتُذكِّرهم بقدرة الخالق سبحانه ليتفكروا فى خَلْق هذا الكون وما فيه من هندسة وإبداع .

والتبصرة هى الآية الثابتة ، و﴿ وَذِكْرَىٰ .. ﴿٨﴾ ﴾ [ق] هى الظاهرة تأتى وتتغير ، مثل الأرض تكون جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرتْ .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق] كثير الرجوع إلى الله بالتوبة ، ويأخذ من آيات الله فى الكون دليلاً على قدرته تعالى ، فيذعن لها ويؤمن بها .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(١) ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ(٢) لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله ﴿ وَنَزَّلْنَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [ق] مادة نزل أتت بلفظ أنزلنا ونزَّلنا ، أنزلنا للشىء ينزل جملة واحدة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر] أى : أنزلناه فى هذه الليلة جملة ، ثم نزل به الروح الأمين مُتفرقاً حسب الأحداث ، فقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) حب الحصيد أى حب ما يُحصد كالشعير والقمح والأرز . والزرع محصود وحصيد وحصيدة وحصَدٌ . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

(٢) الباسقات : الطويلات العاليات . يقال : بسقت النخلة بسوقاً : طالت . [لسان العرب - مادة : بسق] .

كذلك الماء لا ينزل من السماء جملة واحدة ، إنما ينزل متتابعاً متفرقاً ، فقال : ﴿وَنَزَّلْنَا.. ⑨﴾ [ق] وقوله : ﴿مِنَ السَّمَاءِ .. ⑨﴾ [ق] أى : من جهة السماء ، لأن المطر فى السحاب وأصله من الماء المالح فى الأرض ، حيث تتم عملية البخر ويتكثف بخار الماء فى السحاب فيتكوَّن الماء الذى يسوقه الله تعالى بقوة الهواء حيث ينزل حينما يصادف الأماكن الباردة .

وقال عنه ﴿مَاءً مُّبَارَكًا .. ⑨﴾ [ق] لأن الله بارك فيه وجعله صالحاً للشرب ولسقى النبات ، فهو عذْب سائغٌ للشاربين .

وساعة ينزل هذا الماء المبارك على الأرض تهتز الأرض وتُخرج ما فيها من نبات ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ .. ⑨﴾ [ق] جمع جنة ، وهى المكان المليء بالأشجار التى تجنُّ مَنْ يسير فيها . أى : تستره فسُميتْ جنة ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. ⑦⑥﴾ [الأنعام] يعنى : ستره بظلمته .

ومعنى ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨﴾ [ق] أى : الحب الذى يُحصد مثل القمح والشعير والذرة والأرز ، وهو يُزرع كل عام ويُحصد ليزرع من جديد ، أما الجنات فهى الشجر الدائم الذى يعمر لعدة سنوات ويثمر ، فنجمع منه الثمار فقط وتبقى الشجرة كما هى للعام التالى .

وقوله : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ .. ①⓪﴾ [ق] عاليات مرتفعات ، والعلو فى النخل من عجائب الخَلْق ودقة الإبداع ، لأننا رأينا العواصف تقتلع بعض الأشجار الضخمة ، لكن لم نَرَ نخلة وقعتْ من العاصفة فجأة كما تقع الشجرة . لكنْ إذا ضعفت النخلة نراها تميل شيئاً فشيئاً على فترات حتى تصل إلى الأرض ، ففيها رِفْعة ، وفيها شموخ .

وذكر الحق سبحانه النخل بعد شجر الجنات وحبّ الحصيد لأن النخل يجمع الصفتين معاً لأنْ يعطى ثماره مثل الشجر كل عام ، لكن إذا لم يلقح جاءت الثمار كما يقولون : صيّص يعنى بلح لا ينفع ولا فائدة فيه فيُقطع ويُرمى .

ومعنى ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق] الطلع كوز أخضر يتفتح وتخرج منه السباطة ، والسُّباطة هذه تحتوى على الشماريخ التى تحمل حبات البلح ، ومن عجائب الخَلْق أنك ترى هذه الحبات مُنضدّة ، يعنى : مرصوصة بنظام دقيق فى الشمروخ الذى يحملها ، فلا تجد مثلاً بلحة أمام الأخرى ، لكن موزَّعة على الشمروخ بالتساوى على شكل رِجْل غراب كما يقولون .

إذن : الحق سبحانه أعطانا طرفاً من آياته فى السموات والأرض ، وقلنا : أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، ومع عِظَم خَلْق السموات والأرض ، إلا أن المظروف فيهما أعظم .

والإنسان فى هذه الظرفية له خصوصية لأنه خليفة الله فى الأرض ، فالناس باعتبار أنهم مظروف ليس لأحد منهم حَظٌّ أوفر من الآخر ، فهم فى هذه الظرفية سواء ، لأن الظرف مهمته حماية المظروف فيه فيستوى فى الحماية ورقة بخمسين مع الورقة بمائة ، ويستوى الذهب والفضة والحديد ، فالصيانة للجميع وإنْ كان المصون مختلفاً .

كذلك الإنسان له حظه من الصيانة مع أن قيمة الناس تختلف ، وهذا الاختلاف جاء لحكمة أرادها الحق سبحانه لصالح المجتمع كله : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فالناس منهم القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، العالم والجاهل ، والذكى والغبى يتم بينهم التكامل فى حركة الحياة ، وقلنا : ماذا لو

أن الناس جميعاً تخرجوا فى الجامعة ؟ فمَنْ إذنْ سيقوم بالأعمال الدنيا ، إذن : لابدّ أنْ يوجد ناس للقمة ، وناس دونهم للخدمة ، وإلا ما استقامتْ حركة الحياة .

ومع هذا الاختلاف فى القيمة من حيث عمل كل إنسان وإجادته لعمله يبقى أننا جميعاً عيالُ الله وعبيده ، ليس منا من هو ابن الله ، فليلزم كلٌّ منا أدبه وحدوده ، فكلٌّ منا مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، يعنى (مفيش حد أحسن من حد) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

فقد أنبت سبحانه جنات وبساتين ومزروعات ، منها ما يعطى حباً يكون قوتاً للناس وهو ما يحصد مثل القمح مثلاً ، وأنبت أيضاً نخلاً عالياً باسقات فى جو السماء تعطى الخير للناس لأجيال طويلة .

لذلك قال تعالى : ﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] وهو رزق لكل عباد الله مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، لأنه خلق الجميع ولابد أن يتكفل لمن خلق برزقه الذى يعيش به ، حتى ولو لم يؤمن به سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] الضمير فى (به) يعود على الماء المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴿٩﴾ ﴾ [ق]

هذا الماء ﴿ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] أى : أحيينا به أرض بلد ميْت . وهى الأرض الميتة الجدباء الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

والحق سبحانه جعل إحياء الأرض الميتة دليلاً ومثلاً حياً على

البعث والإعادة بعد الموت ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾ [ق] ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) ﴾ [الزخرف]

ومثل قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾ [الروم] أى كمثل ذلك تُخرجون وتبعثون ، فمن أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها . فالأرض تكون ميتة هامدة جرداء لا أثر فيها لحياة ، فلما ينزل عليها الماء ويسقيها المطر تتحرك وتهتز وتزيد فتنغلق الشقوق التى فى التربة بفعل العطش ثم تنبت من كل زوج بهيج ، فهى نموذج حىٌّ مشاهد للخلق وللحياة .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ[(١)] وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ
لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ[(٢)] وَقَوْمُ تُبَّعٍ[(٣)] كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) ﴾

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : اختلفوا فى أصحاب الرس على خمسة أقوال :
أحدها : أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة فبعث الله إليهم نبياً من ولد يهوذا بن يعقوب فحفروا له بئراً وألقوه فيه فهلكوا . قاله على عليه السلام .
الثانى : أنهم قوم كان لهم نبى يقال له : حنظلة بن صفوان ، فقتلوا نبيهم فأهلكهم الله . قاله سعيد بن جبير .
والثالث : أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها وكانت لهم مواشى وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فتمادوا فى طغيانهم فانهارت البئر فخُسف بهم وبمنازلهم . قاله وهب بن منبه.
الرابع : أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار ، قتلوه فى بئر لهم ، وهو الذى قال : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾ [يس] .
والخامس : أنهم قتلوا نبيهم وأكلوه . قاله ابن السائب .

(٢) قال الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) : روى أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف » وقد أرسل شعيب إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة ، وقد أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة .

(٣) قوم تبع أناس سكنوا اليمن ، وسموا بالتبع لأنهم يتبعونه ، والتبع المقصود فى هذه القصة استناداً إلى روايات لم يتسن التأكد من صحتها هو أسعد أبا كرب . وذكر ابن الجوزى فى زاد المسير « قالت عائشة : لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه ، وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبد النار ، فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه » .

هذه تسلية لرسول الله ، وتخفيف عنه لما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وقد عرضتْ الآياتُ موقفهم أولاً ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۝٢﴾ [ق] ثم كذَّبوا بالبعث الذى أخبر به ، فقالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق]

فأراد الحق سبحانه أن يعرض على رسوله موكب الرسالات السابقة عليه ، وكم حدث فيها من تكذيب لإخوانه الرسل .

وكأنه يقول له : يا محمد لست بدعاً فى ذلك ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. ۝١٢﴾ [ق] أى : قبل قومك كذَّب ﴿قَوْمُ نُوحٍ .. ۝١٢﴾ [ق] مع أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك كذَّبوا ولم يؤمن معه إلا القليل[1] منهم .

لكن هل تركهم الله ؟ لا بل انتقم منهم بالغرق الذى أبادهم عن آخرهم ، فما كان الحق سبحانه ليترك أهل الفساد وأهل التكذيب ومصادمة الرسل دون عقاب ، بل يُملى لهم ثم يأخذهم بلا هوادة .

فقوم نوح عليه السلام كانوا يسخرون منه ، وهو يصنع السفينة، فيقول لهم : سيأتى اليوم الذى نسخر نحن منكم كما تسخرون منا ، وكأنه على ثقة من نصر الله وتأييده لدعوته ، وكما كذب قوم نوح كذب ﴿أَصْحَابُ الرَّسِّ ..۝١٢﴾ [ق]

والرسُّ اسم بئر معروفة ﴿وَثَمُودُ ۝١٢﴾ [ق] وهم قوم سيدنا

---

(١) قال تعالى فى سورة هود عن نوح عليه السلام : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود] ذكر ابن الجوزى فى تفسيره (زاد المسير) ثمانية أقوال فى عددهم : ومنها أن نوحاً حمل معه ثمانين رجلاً معهم أهلوهم . رواه عكرمة عن ابن عباس . ومنها أنهم كانوا ثلاثين رجلاً ، وأنهم كانوا ثمانية على اختلاف بين المفسرين .

صالح ﴿ وَعَادٌ (١٣) ﴾ [ق] قوم سيدنا هود ﴿ وَفِرْعَوْنُ .. (١٣) ﴾ [ق] وقصة فرعون مع سيدنا موسى معروفة ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ .. (١٣) ﴾ [ق] أى قومه ﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ .. (١٤) ﴾ [ق] والأيكة الحديقة كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان ، وسكان هذه الحديقة هم قوم سيدنا شعيب .

﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ .. (١٤) ﴾ [ق] تبع كان ملكاً من ملوك اليمن يُقال له أبو كرب الحميرى . وكل هؤلاء المكذبين كانوا أصحاب حضارة وأهل نعمة ورفاهية ، لكن بعد أنْ كذَّبوا الرسل وخالفوا منهج الله بدّل الله حالهم ، وقلبَ أوضاعهم فأهلكهم بذنوبهم .

لذلك يقول هنا ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) ﴾ [ق] أى : لما كذَّبوا رسلى حَقَّ عليهم ما وعدتهم به من العذاب ووجب لهم الهلاك.

وفى آية أخرى فصل ذلك الانتقام فقال : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ (١٥) ﴾

عاد السياق هنا إلى مناقشة المنكرين للبعث الذين قالوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق] عاد إلى هذا الموضوع ليقول لهم : لِمَ تنكرون البعث ؟ أليس أمامكم الخلْق الأول ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ..(١٥) ﴾ [ق] أى : هل عجزنا عنه وهل أعيانا ؟ أبداً بل قدرنا عليه وأنشأناه من العدم .

والخلق الأول خلق السموات والأرض وخلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام والقادر على الخَلق بداية قادر على إعادته من باب أوْلَى .

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⦗١٥⦘﴾ [ق] أى : فى خلْط وتردد ، كما قال عنهم فى الآيات السابقة ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ⦗٥⦘﴾ [ق] أى : مختلط .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١) ⦗١٦⦘﴾

بعد أنْ حدثنا الحق سبحانه عن آياته الكونية فى السموات والأرض يُحدِّثنا عن آياته فى خلْق الإنسان ، وقد بيَّن لنا الحق سبحانه أن آيات السموات والأرض أكبر من الآيات التى فى خلْق الناس .

---

(١) حبل الوريد : هو حبل مرتبط بالقلب يسمى فيه الوتين ، وإلى الظهر ويسمى فيه الأبهر ، وإلى الذراعين والفخذين ويسمى فيهن الأكحل والنسا ، وفى الخنصرتين الأسلم وهو نهر الجسد ، وفى العنق اثنان هما الوريدان مكتنفان لصفحتى العنق فى مقدمهما . [تفسير أطفيش فى تفسير الآية] فالغالب فى كلام المفسرين أن (أى حبل الوريد) هو عرْق مرتبط بالقلب يسرى فيه الدم إلى كل أجزاء الجسم . ولكن ذهب الدكتور أحمد المزين رئيس مركز الإعجاز العلمى للبحوث والدراسات إلى أن (حبل الوريد) المقصود فى الآية هو ما يعرف بجذع المخ (Brain Stem) فهو حبل (عصب) ليس مجوفاً ، ووظيفته نقل السيالات العصبية بين نصفى الدماغ ثم إيصالها إلى النخاع الشوكى ، فهو أقرب شىء لمكان تولد الفكرة (الوسوسة) المذكورة فى الآية ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ..⦗١٦⦘﴾ [ق] ، وهو حبل وعصب واحد .

﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ..(٥٧)﴾ [غافر] ووعدنا سبحانه بقوله ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ.. (٥٣)﴾ [فصلت] آفاق السموات والأرض ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ .. (١٦)﴾ [ق] وأكد لهم الكلام بـ (اللام) و بـ (قد) لأنهم مُنكرون لهذه الحقيقة مُكذِّبون بها ، وهذا الإنكار جحود منهم ، لأنه سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧)﴾ [الزخرف]

وما دام الحق سبحانه قد قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ .. (١٦)﴾ [ق] فلا يتأتى أن يقال أنه من الممكن أن يتم استنساخ الإنسان ، فالإنسان الذى يكوّن أسرة من أب وأم لا يمكن استنساخه أبداً ، إنما يستنسخه مَنْ خلقه فقط .

بدليل أنه خلق آدم وأخذ منه ضلعاً جعل منه حواء ، أما أنتم فلن تستطيعوا هذا ، قد تستطيعون استنساخ نبات أو حيوان ، فإنه ليس مطلوباً من هذه الكائنات أن تكوّن أسرة .

فالمطلوب من النبات أو الحيوان التكاثر فقط ، أما الإنسان فليس مطلوباً منه التكاثر فقط بل مطلوب منه القيم أيضاً ككائن فى مجتمع .

فالإنسان يسعى لتكوين أسرة وله مواصفات فيمن يتزوجها ، وكيف يعيش معها وكل منهما يقوم بمهمة فى التربية تناسبه ، هو يكدح خارج البيت وهى تقوم بمهمتها فى البيت ومهمتها أعلى وأهم من مهمته .

لذلك نجد اللقيط شقياً فى حياته ، لأنه ليس له أب ينسب إليه ، أما من له أب فابنه محسوب عليه ومسئول عنه أمام المجتمع ، يقوم

له بأمور معيشته ودراسته ، فلو فرضنا أنه من الممكن أن يكون هناك إنسان مستنسخ فترى كيف تكون حياته ؟

فالله هو خالق الإنسان ومُبدعه ، والخالق هو الأعلم بمن خلق ، والأعلم بأسراره وما يصلحه ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. (١٦) ﴾ [ق] يعنى :لا نعلم ظواهر عمله فحسب ، إنما نعلم بواطنها ، ونعلم ما يختلج فى نفسه من خواطر وأفكار .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

الذى يعلم دقائق الأمور وخفاياها ، كالصانع يعلم دقائق صنعته ، فالساعة مثلاً حين تتعطل منك لا تعرف فيها شيئاً ، فتذهب بها إلى الساعاتى ، وبمجرد أنْ ينظر إليها يعرف مكان العطل بها ويُصلحه بحركة بسيطة جداً .

فالحق سبحانه خلق الإنسان ، فالإنسان صنعته وإبداعه ، لذلك يعلم خفايا نفسه لا مجرد ظواهر عمله ، لأن ظواهر العمل معروفة للناس ، فلا مزية فى معرفتها ، أما ما تُوسوس به النفس فهو أمر غيبى عن الآخرين لا يطلع أحدٌ عليه ولا يعلمه إلا الله ، وهذه من آيات الله فى الأنفس ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وسمَّى الخواطر التى ترد على البال وسوسة ، وهى فى الأصل صوت الحلى ، والوسوسة تكون مرة من النفس ومرة من الشيطان ، لذلك لا تكون إلا بشرٍّ ، وقد بيَّن الإمام علىٌّ الفرق بينهما حينما سأله سائل : كيف أعرف مصدر هذه الوسوسة ، أهى من النفس أم من الشيطان ؟

فقال : النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، أما

الشيطان فيريدك عاصياً على أيِّ صورة ، فإنّ خالفته فى معصية زين لك الأخرى وهكذا حتى يوقعك .

والنفس هى الأصل فى الوسوسة ، لأننا لو أخذنا معصية إبليس الأولى وقلنا مَنْ وسوس له بها ؟ نفسه ، والشاعر لما نظم هذا المعنى قال : إبليس لما عصى مَنْ كان إبليسه ؟

فالمسألة إذن راجعة للنفس ، وإبليس يستغل شهوة النفس وينميها ويُزينها لصاحبها ، والعجيب أن هذه الوساوس حينما تلح على الإنسان تُغرقه فىَ الهموم والتخيلات التى لا أساسَ لها ، فينشغل بأشياء لم تحدث يتصور أنها حدثت ، أو أحداث ماضية يعيدها من جديد .

وهكذا تحاصره الهموم فتكلمه تجده ساهياً أو يمشى يُكلِّم نفسه ، والعاقل هو الذى لا يترك نفسه نهباً لهذه الوساوس ، ويعلم أن له رباً يعلم ما توسوس به نفسه .

رب كريم يفرج الكروب ويزيل الهموم ، العاقل هو الذى يعلم أن ما مضى فات والمؤمل غيب ، ولك الساعة التى أنت فيها .

وخُلق المؤمن أنْ يكون عنده رصيد من إيمانه يعصمه ، فإنْ عزَّتْ عليه الأسباب لجأ إلى المسبِّب ، فهو أبداً لا ييأس ولا يستسلم .

قلنا : لو أن رجلاً معه جنيه واحد لا يملك غيره وضاع منه لا شكَّ أنه يحزن ، خاصة إذا كان غريباً مثلاً ، لكن لو ضاع منك جنيه وفى البيت عشرة ، فالحزن يكون أقلّ ، فما بالك إنْ كان معك رصيد من رب العالمين ؟

لذلك يقولون : لا كرب وأنت رب . وهذا الرصيد الإيمانى رأيناه فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فلما ضاقت به أسبابه قال : ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق] حبل الوريد عرقان فى الرقبة يحملان الغذاء إلى الجسم كله ، وإذا انقطع الوريد انتهت الحياة ، والكلام هنا فيه كناية عن قُرْب الحق سبحانه من عبده ، وكأنه يقول له : أنا قريب منك وأعرف تفاصيلك ، وأعرف وسوسة نفسك .

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن علمه محيط لا يعلم مجرد عمل الجوارح ، إنما يعلم ما يدور فى النفس ، يعلم خلجاتها وأفكارها قبل أنْ تترجم إلى عمل . إذن : العلم بالوسوسة أوْلَى من العلم بالجوارح وعملها ، لكن قد يقول العبد : أختبئ فلا يرانى أحد .

فبيَّن الله له أنه إذا اختبأ من الناس فلا يختبئ من الله ، ولا يخفى عمله على الملكين الكاتبين اللذين يتلقيان عمله ويحفظانه ، ملك عن يمينه يكتب الحسنات ، وملك عن شماله يكتب السيئات .

ومعنى ﴿قَعِيدٌ (١٧)﴾ [ق] يعنى : كلٌّ منهما قاعد له بالمرصاد متفرغ له يرقبه ولا يغيب عنه ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق] فإنْ قلت ما دام أن الله تعالى عالم بعمل العبد ، ولا تخفى عليه خافية ، فلم يكتب عمله ولم يُسجِّله عليه ؟

قالوا : يكتب الأعمال لتكون حجة على صاحبها يوم القيامة ، فكما أن الله تعالى سيُنطق الجوارح لتشهد على صاحبها ، كذلك سينطق هذا الكتاب . واقرأ : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

وقال سبحانه : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١)﴾ [فصلت] وقال : ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ (٢٩)﴾ [الجاثية]

ومن رحمة الله بعباده في كتابة الأعمال أن الحفظة تكتب الحسنة بعشر أمثالها ، وتكتب السيئة بواحدة ، تكتب الحسنة بمجرد أنْ تفكر فيها[1] ولا تُكتب السيئة إلا بعد الوقوع فيها ، بل وتعطيك فرصة لعلك تتوب أو تراجع نفسك .

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩)﴾

معنى ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ .. (١٩)﴾ [ق] غشْيته أو الغيبوبة التي تأخذ الإنسان وهي وقت الغرغرة وخروج الروح ، وسُميت سكرة الموت لأنها مقدمة للموت ، وقوله : ﴿بِالْحَقِّ .. (١٩)﴾ [ق] لأن الحق هو الموت ، فهو حق واجب لكل مخلوق ، وسَهْم أُطلق إلى كل مولود ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » [أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٦ - وأحمد في مسنده (٦٨٩٨ ، ٨٩٥٧ ، ١٠٠٦١)] .

لذلك يموت الإنسان جنيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شاباً ، ويموت شيخاً .

ومن آيات الله فى الموت أن أبهمه زماناً ، وأبهمه مكاناً ، فجاء الإبهام أوضح بيان ، لأن الإبهام جعلك تنتظره فى كل وقت ، وجعلك تستعد له بالتوبة والعمل الصالح ، جعلك تستحى من الله أنْ يفاجئك الموت وأنت على معصية .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ .. ⁽١٩⁾﴾ [ق] أى : الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ⁽١٩⁾﴾ [ق] أى : تميل عنه وتخاف منه ، نعم كلنا يخاف الموت ويبعده عن نفسه ، يتصور أنّ كل الناس سيموتون إلا هو .

لذلك ورد فى الحديث : لا أرى يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت[1] .

والابتعاد عن شبح الموت له حكمة مرادة للحق سبحانه وتعالى ، فلو استحضر كلٌّ واحد منا حقيقة الموت ما هنىء له عيش ولا قرَّ له قرار ، وما انتفع أحد منه بعمل .

إذن : الأمل فى الحياة هو الأَوْلَى ، الأمل هو الذى يعمر حركة الحياة ، حب الحياة هو الذى يأخذنا لعمارة الحياة ، المهم أن هذا الأمل لا يُنسيك الموت ، فكُنْ على استعداد له بالتوبة والاستغفار إنْ بدر منك ذنب .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ⁽٩٩⁾﴾ [الحجر] وعزاه لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وفيه زيادة (ثم لا يستعدون له) من قول عمر . وذكره الميدانى فى (مجمع الأمثال) من قول الحسن البصرى .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ[(١)] ﴿٢١﴾ ﴾

هنا يعطينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُنفخ فى الصور ، قالوا : هى النفخة الثانية التى يقوم الناس لها من قبورهم . والصُّور هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ق] أى : الذى توعدناكم به وخوَّفناكم منه . والوعيد عكس الوعد ، الوعيد يكون بشرٍّ آت والوعد بالخير . والموت لا يخاف منه إلا صاحب الأعمال السيئة ، كامتحان آخر العام لا يخاف منه إلا التلميذ المهمل أما المجتهد فيفرح به .

كذلك صاحب الأعمال الصالحة يفرح بلقاء الله ، لأنه قادم على الجزاء الأوفى من الله ، لذلك حين يموت الرجل الصالح نقول : اللهم ألحقنا به .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق] سائق يسوقها إلى أرض المحشر ، وشهيد يشهد عليها بما عملتْ .

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) اختُلف فى معنى السائق والشهيد فى الآية على أقوال :
– والسائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل . قاله ابن عباس .
– السائق الملك والشهيد العمل . قاله أبو هريرة .
– السائق قرينها من الشياطين ، سُمى سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها . قاله ابن مسلم .
– السائق والشهيد ملكان . قاله مجاهد .

(نقله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٤١٣) .

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٢٢) ﴾ [ق] في غفلة ونسيان لهذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ .. (٢٢) ﴾ [ق] أي : كشفنا عنك غطاء الغفلة .

﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق] أي : حاد ونافذ يستطيع أنْ يدرك الأمور على حقيقتها ، أي : أمور الآخرة وما فيها من بعث وحساب وجزاء .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ﴾

معنى ﴿ قَرِينُهُ .. (٢٣) ﴾ [ق] أي : الملك المقارن والملازم له عن يمينه وعن شماله يُسجِّل عليه كل أعماله وكل نَفَس من أنفاسه ، يأتي ويقول : ﴿ هَـٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) ﴾ [ق] هذا ما عندي لهذا العبد ، وهذا ما سجلته عليه جاهز ومُعد .

كما نرى مثلاً رجل البوليس حينما يُقدِّم تقريراً للنيابة يقدم فيه الأدلة ويقول : هذا ما عندي وقد انتهت مهمتي وعلى النيابة الحكم في المسألة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] هذا أمر من الحق سبحانه وتعالى لكل من السائق والشهيد أنْ يُلقيا في جهنم كلَّ (كفار) شديد الكفر متمكن فيه .

والكفر إما كفر للنعمة كما حدث من أهل سبأ ، فقال الله فيهم :

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ..(١٧)﴾ [سبأ] أى : كفروا نعمة الله ، أو كفر المنعم سبحانه وهو كفر الألوهية .

وكلمة ﴿كَفَّارٍ .. (٢٤)﴾ [ق] صيغة مبالغة من كافر ، أى كفر مرة واحدة إنما كفار يعنى يتكرر منه الكفر ، لذلك وصفه بعدها بأنه ﴿عَنِيدٍ (٢٤)﴾ [ق] أى : عنيد فى كفره مُصرٌّ عليه مُتمادٍ فيه .

والكفر فى اللغة هو السَّتْر ، وكفر النعمة يأتى على قسمين : ستر النعمة فى مكانها ، بمعنى أنهم لم يذهبوا إليها بجهد العمل والسعى والاستنباط ، أو أنهم جمعوها وأتوا بها فى جيوبهم ثم بخلوا بها على المحتاجَين .

كذلك كلمة ﴿عَنِيدٍ (٢٤)﴾ [ق] فيها مبالغة نقول معاند وعنيد ، فالعنيد هو الذى يعاند كلما دعوْتَه للحق ويُصر على موقفه ، ولا شكَّ أن دعوة الرسول للناس بأنْ يؤمنوا تتكرر دائماً ، لكن العنيد يعاند ولا يقبلها ولا يهتدى ، ويتمادى مُتمسكاً برأيه ، لا يقبل حجة ولا يقبل نقاشاً .

إذن : كفر بالنعمة وكفر بالمنعم .

وقوله تعالى : ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥)﴾ [ق] هذا هو الوصف الثالث للكافر العنيد ، فبالإضافة إلى شدة كفره ، وعناده ، هو ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ .. (٢٥)﴾ [ق] ومناع أيضاً صيغة مبالغة من مانع ، فهو كثير المنع للخير يمنعه حتى عن نفسه بعد أنْ منعه عن الآخرين حين وقف فى وجه الدعوة للإيمان ، وحين منع ماله ولم يعط المحتاجين .

ثم هو بعد ذلك كله ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥)﴾ [ق] فلم يكتف بمنع

الخير ، بل تعدى على الخير عند غيره فأخذه دون وجه حق ، أخذه مرة بالسرقة ، ومرة بالرشوة ، ومرة بالخطف والغصب ، ومرة بالتدليس ، ومرة بالغش .. إلخ .

فهو إذن مُعتد بأيِّ وجه من وجوه التعدى ، وهو ﴿مُّرِيبٍ (٢٥)﴾ [ق] أى : شاكّ مُرتاب فى هذا اليوم ، ولو كان مؤمناً به وبالحساب والجزاء ما فعل ذلك ، لو كان يؤمن بالمقابل لأعطى ولم يمنع .

ومن صفاته أيضاً ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٢٦)﴾ [ق] الخطأ هنا فى القمة فى مسألة الإيمان بالله ، والله يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ..(١١٦)﴾ [النساء] لذلك كان الجزاء ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)﴾ [ق]

إذن : عندنا نوعان من العذاب : عذاب مطلق لم يُوصف بأنه شديد فى قوله تعالى : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ .. (٢٤)﴾ [ق] وهذا لمن عصى الله وارتكب من الكبائر ما دون الشرك بالله .

ثم عذاب يُوصف بأنه شديد لمن أشرك بالله تعالى ، ذلك لأن مرتكب الكبيرة ينطق بلا إله إلا الله ، ويمكن أن يتوب لأن كلمة التوحيد لها أثر فى حماية النفس حتى فى العاصى .

أما المشرك فلا ينطق بكلمة التوحيد ، وليس لها أثر فى نفسه ، ولو أدخلنا هذا مع هذا لكانت كلمة التوحيد ليس لها معنى ولا أثر .

والمغفرة فى قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء] قد تكون المغفرة مُعجَّلة له ونهائية وهو حى ، وذلك لمَنْ تاب وأناب وبدّل عمله السيء بالعمل الصالح .

فيدخل تحت قوله تعالى : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا

﴿ فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

وإما أنْ تُؤخر له المغفرة ، فيُعذَّب فترة فى النار ، ثم تتداركه رحمة الله وتشمله بركة لا إله إلا الله ، فتُخرجه من النار كرامة لكلمة التوحيد .

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧) ﴾

القرين هنا بمعنى الصاحب والملازم له الذى زيَّن له الضلال سواء من الجن أو من الإنس ، وهذا القرين يقول معتذراً لنفسه ومُدافعاً عنها ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) ﴾ [ق] يريد أنْ يتبرأ من صاحبه الضال ويتركه فى المأزق الذى وقع فيه .

والقرآن الكريم شرح لنا فى أكثر من موقف هذا الحوار الذى دار بين التابع والمتبوع ، ممَّنْ سلكوا طريق الضلال ، وكيف أن كل طرف منهما يُلقى باللائمة على الآخر .

يقول تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) ﴾ [الصافات]

كذلك يتبرأ الشيطان ممن اتبعه ، فيقول : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : لا أحدَ منّا يستطيع أنْ يدافع عن صاحبه .

﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُنهى هذا الحوار وهذه الخصومة بين الضال والمضل ، وينهى هذه المعركة ويقول لهما ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ .. ٢٨ ﴾ [ق] لأن الخصومة لا تنفعكم الآن فلا يلقى كُلٌّ منكم بالمسئولية على الآخر ، فأنا أعلم بكم ، أعلم بالذنب وبالمذنب ، بالضال وبالمضل .

فلا فائدة إذن من هذه الخصومة ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ٢٨ ﴾ [ق] أى : قدمتُ لكم الوعيد فى الدنيا وبيَّنتُ لكم المنهج والحلال والحرام ، والجزاء عليه فى الجنة أو فى النار .

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ .. ٢٩ ﴾ [ق] يعنى : تخاصمكم الآن لن يغير شيئاً فيما قضيته ، ولن أرجع فى كلامى ، والمراد قوله تعالى :
﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ٢٤ ﴾ [ق]

وهذا قطع للعشم والرجاء وتيئيس لهم من رحمة الله ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩ ﴾ [ق] يعنى : قضائى حَقّ وعدل تحكمه حكمة لا جبروت وظلم .

فهذه المدافعة وهذه المخاصمة بينكم لن تشفع لأحد منكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩ ﴾ [ق] كلمة (ظلام) صيغة مبالغة من ظالم ، فقولنا : فلان ظلام يعنى أنه من باب أوْلى ظالم لكن فى النفى ، فنَفْى ظلام لا تنفى ظالم .

إذن : فقوله تعالى ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩ ﴾ [ق] نفتْ ظلاَّم

لكن لم تنْفِ ظالم ، فهل يعنى هذا إثبات صفة ظالم لله تعالى ؟

نقول : قد تكون المبالغة فى تكرار الحدث ، فحين نقول مثلاً فلان أكول قد يكون لا يأكل كثيراً ، إنما يأكل رغيفاً واحداً لكن يأكل عدة مرات فى اليوم .

كذلك هنا الحق سبحانه لا يتحدث عن واحد ، إنما عن الناس جميعاً عن العبيد كلهم ، وعلى هذا المعنى يكون نَفْى (ظلاّم) نفياً لظالم أيضاً .

وقد يكون المقصود نفى الحدث نفسه ، لأن الظلم قدرة ظالم على مظلوم ، إذن : فالظلم يتناسب قوةً وضعفاً مع قوة الظالم ، فلو فرضنا أن الحق سبحانه وتعالى يُوصف بالظلم ، تعالى الله عن ذلك - لكان ظلمه قوياً شديداً ، فنقول : ظلاّم لا ظالم .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

سبق فى الآيات قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ق] وهنا يسأل الحق سبحانه جهنم ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] وأيضاً سبق الوعد من الله أن يملأ جهنم ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة]

إذن : لابدَّ أنْ يُوفيها هذا الوعد ، فالسؤال هنا ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] سؤال إقرار ، ويأتى الجواب ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] يعنى هى امتلأتِ ، لكن تريد المزيد ، فأين تضعهم فيها ؟

تذكرون أننا قلنَا زمان أن الخالق سبحانه أزلاً خلق الجنة لتسع

الناس جميعاً لو آمنوا ، وخلق النار لتسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، وبذلك تخلو أماكن المؤمنين فى النار ، وتخلو أماكن الكافرين فى الجنة ، فالنار تقول ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق] لتملأ الأماكن الخالية فيها .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) ﴾

بعد أن تحدثت الآيات عن جهنم والعياذ بالله تذكر هنا المقابل وهو الجنة ﴿ وَأُزْلِفَتِ .. (٣٢) ﴾ [ق] أى : قُرِّبت من المتقين ، لأنهم بشِّروا بها فى الدنيا ، وبأن الله تعالى لا يخلف الميعاد .

أما الآن ونحن فى موقف الآخرة فهى تقرب منهم ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) ﴾ [ق] أى : أزلفتْ منهم إزلافاً غير بعيد .

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا ..(٣٢) ﴾ [ق] إشارة إلى ما تقدَّم من تقريب الجنة للمتقين ﴿ مَا تُوعَدُونَ .. (٣٢) ﴾ [ق] أى : وعد الله به ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ (٣٢) ﴾ [ق] أوَّاب صيغة مبالغة نقول : آيب وأوَّاب يعنى كثير الأوْب والرجوع إلى الله إنْ حصلت منه معصية ، فسرعان ما يندم عليها ويتوب .

والحق سبحانه وتعالى شرح لنا هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ .. (١٧) ﴾ [النساء] يعنى : لا يسعوْنَ إليها ولا يرتبون لها .

﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء]

والأوَّاب كثير الرجوع إلى الله بالتوبة ، لا يعنى أنه كثير الخطايا ، إنما إنْ حدثت منه غفلة عن الطاعة سارع بالتوبة ، لأن الذى يرجع فى توبته من الذنب ثم يعود إليه وتتكرر منه هذه ، فقد شبَّهه رسول الله بالمستهزىء بربه ، وهذه صفة لا تليق بالأوَّاب .

ومعنى ﴿ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ق] هى أيضاً صيغة مبالغة من حافظ ، والحفيظ هو كثير الحفظ لحدود الله وحُرمات الله ، يحفظ نفسه من الوقوع فى المعصية ، بل يحفظ نفسه من الاقتراب منها .

وهذا هو معنى الحديث الشريف : « احفظ الله يحفظك »(1) وحِفْظ الله يكون بحفظ حدوده والوقوف عند أوامره ونواهيه .

ومن صفات المتقين الذين وعدهم الله هذا الوعد ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق] الخشية معناها الخوف وهو على نوعين : تخاف وأنت تكره مَنْ تخافه وتلعنه لأنه أقوى منك ، أو لأنه يذلُّك ويقهرك ، فأنت تخافه وتحتقره ، وهذا خوف العباد من العباد .

وهناك خوف بحب وهيبة وإجلال على حَدِّ قول الشاعر :

أخافك إجلالاً وما بك قدرة ... علىَّ ولكن ملْءُ عين حبيبها

(1) عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٤٠) وأحمد فى مسنده (٥٣٧ ، ٢٦٢٧ ، ٢٦٦٦) عن ابن عباس .

فـأنت تحب مَنْ تخـافـه ، وتعلم أن له جـمـيـلاً عندك ، وأنك لا تستطيع أنْ تُوفـيه حقـه ، وهذا هو الخوف من الله . ويسـاعدنا على فهْم هذا المعـنى قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(1) سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..﴿٢٨﴾﴾ [فاطر]

الحق سبحانه هنا لـم يأت بحكم شرعى يلزمنا به أو يُخوِّفنا من التـهاون فـيه ، إنمـا تحدث عن آيات كـوْنه ، أرادنا أنْ نبحث فـيهـا ونتأملها ، وأنْ نُنقب عن أسرارها وما فيها من جمال .

فكلما نظرنا فى آيات الكون من حولنا ازددنا لله خـشية ، ومهابة وإجلالاً لعظمتـه ونعمته علينا ، والعلمـاء هم أوْلَى الناس بهذا النظر ، وأقرب الناس إلى خشية الله وتقديره حَقَّ قَدْره .

وتأمَّـل هنـــا الأداء الـقـرآنى : ﴿مَّنْ خَـشِيَ الرَّحْـمَـٰـنَ بِالْغَـيْبِ ..﴿٣٣﴾﴾ [ق] فاختـار صفة الرحمة ، ولم يقل مَنْ خـشى القهار أو الجبار ، لأن الخـشية هنا مغلَّفة بالحب وبالرحمـة والتعظيم والإجلال لله الذى نخافه ونخشاه .

ثم قيد هذه الخشية بأنها ﴿بِالْغَيْبِ ..﴿٣٣﴾﴾ [ق] يعنى : ليست معلنة أمام الناس ، فـالمؤمن الحق يخشى الله فى سِرِّه قـبل جهره ، وفى خلْوته قبل جلوته ، يخافه بينه وبين نفسه .

---

(١) الغربيب : الشـديد السواد وجمـعه غرابيب . [النهـاية فى غريب الأثر] وهو تشبـيه بلون الغراب . ومن الجبـال غرابيب سود وهى ذوات الصخر الأسـود . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : « وللمفسرين فى المراد بالغرابيب ثلاثة أقوال : أحدها : الطرائق السود . قاله ابن عباس . والثانى : الأودية السود . قاله قتادة . والثالث : الجبال السود . قاله السدى .

أما ضعيف الإيمان فيخاف الله أمام الناس ، وإذا كان فى جمع منهم تحدَّث عن الحلال والحرام ، لكن إذا خلا بنفسه انتهك حرمات الله .

إذن : فخشيته من الله فيها رياء ويخالطها شرك ، لذلك وصف المتقين ، ووصف أهل الجنة بأنهم يخشون الله بالغيب .

ومن معانى الغيب أيضاً أن المؤمن لمّا تُخوِّفه عذاب الله وتذكر له النار وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا يخاف منها ، ويؤمن بوجودها وهو لم يرها ، فهذه خشية بالغيب ، لأن النار بالنسبة لنا الآن غيب وما صدَّقنا بوجودها إلا لأن الله أخبرنا بها .

والمؤمن يأخذ الخبر عن الله كأنه واقع يراه بعينه ، ويلمسه بحواسه ، فالخبر من الله أصدق من رؤية العين . وهذه المسألة أوضحناها فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل]

فالخطاب هنا لسيدنا رسول الله ، وهو لم يَرَ حادثة الفيل ، فقد وُلد فى هذا العام ، فلماذا لم يخاطبه بقوله : ألم تعلم وعدل عنها إلى : ألم تر ؟ قالوا : لأن الخبر من الله أصدق من رؤية العين ، نعم لأن الرؤية قد تخدعك ، أما إخبار الله فصدْق مطلق .

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)﴾ [ق] أى : قلب أخلص لله وصدق فى الطاعة ، والقلب هو موضع الإيمان ، والله تعالى - كما ذكرنا - يريد منا القلب لا القالب ، فالقالب يمكن أنْ تقهره على أنْ يؤمن ، أما القلب فلا يأتى إلا بالحب والطواعية .

لذلك جعل الحق سبحانه الإيمان أمراً اختيارياً لا إجبار فيه ، وإلا لو شاء سبحانه لأجبر الخلق جميعاً على أنْ يؤمنوا به سبحانه ، كما أجبر السموات والأرض ، لكن أراد لعباده أن يأتوه طواعية واقتناعاً .

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥ ﴾

أى : ادخلوا الجنة ﴿بِسَلامٍ .. ٣٤﴾ [ق] سلامة خالية من المنغِّصات ، ولا تنتقل إلى غَمٍّ أو ضيق أبداً بعد ذلك . وهذا القول ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ.. ٣٤﴾ [ق] هو قول الملائكة حين يلقونهم بالسلام .

وكذلك يقولها لهم الحق سبحانه فى قوله : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٥٨﴾ [يس] والذى يلقاه ربه بالسلام فلا شقاءَ له بعدها أبداً .

أو ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ .. ٣٤﴾ [ق] أى : مسلِّمين على إخوانكم ، تقولون لهم : السلام عليكم كما كنتم تُسلِّمون عليهم وتُحيونهم بها فى الدنيا ، كذلك فى الآخرة تُحيون بها مالكاً على باب الجنة ، وتحيون بها إخوانكم .

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ٣٤﴾ [ق] ذلك إشارة إلى يوم القيامة ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ ٣٤﴾ [ق] يوم البقاء والدوام والنعيم الذى لا ينقطع ولا يزول ، وهذا هو الفرْق بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

نعيم الدنيا مهما كان يؤرقه على صاحبه أمران : أنْ يفوت النعيم بالموت ، أو يفوته النعيم بالفقر أو المرض ، أما نعيم الآخرة فسالم من كلِّ المنغصات .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا .. (٣٥) ﴾ [ق] أى : فى الجنة . وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يقولون : كيف يثبت لهم مشيئة فيما يريدونه وقد ورد : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[(١)] .

والمشيئة تعنى أنهم يعرفون ما يريدونه ؟

قالوا : يشاء ما كان يعلمه ويتلذذ به من نعيم الدنيا ، فى حين أن نعيم الآخرة غيره تماماً ليس له منه إلا الأسماء ، أما حقيقة الشىء فتختلف ، لذلك قال بعدها ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق]

وقد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله سبحانه :

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ..(٢٥) ﴾ [البقرة]

يعنى : إذا اشتاقت نفسه مثلاً لأنْ يأكل المانجو يجدها غير ما عرفه فى الدنيا ، فإنْ طلبها فى اليوم التالى وجدها غير التى أكلها فى اليوم الأول وهكذا ، فهى متشابهة لكن ليست هى هى .

إذن : جعل لهم مشيئة فيما يعرفون من نعيم الدنيا وفيما يشتهونه منها ، أما فى الآخرة فشىء آخر بدليل « فيها ما لا عين

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦ ، ٤٤٠٧ ، ٦٩٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠ ، ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وفى رواية مسلم زيادة : مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] .

رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

لأنك إذا اشتهيتَ شيئاً طلبته باسمه ، والاسم فرع لمعرفة المعنى ، وما دام أنها أشياء غريبة عنا فنحن إذن لا نعرفها ولا نعرف لها اسماً .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ(١) هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

(كم) هنا خبرية تفيد الكثرة ، أى كثيراً ما أهلكنا ﴿ قَبْلَهُم .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [ق] أى : قبل قومك قريش ﴿ مِّن قَرْنٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [ق] هم الجماعة الذين عاشوا فى زمن محدود ، وقدَّروه بمائة عام .

وقد يزيد القرن فى المعنى عن هذا إذا ارتبط بنبى مثل قوم نوح عليه السلام ، فقد اقترنوا جميعاً فى نبوته التى استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالقرن من الاقتران ، سواء أكان الاقتران فى زمن ملِك أو نبى أو حدث .

وفى آية أخرى بيَّن الحق سبحانه كيف أهلك الأمم المكذبة بهم قبلهم ، فقال سبحانه :

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير آية الأنعام ٦) : القرن اسم أهل كل عصر وسُموا بذلك لاقترانهم فى الوجود ، وللمفسرين فى المراد بالقرن سبعة أقوال أنه (أربعون سنة - ثمانون سنة - مائة سنة -- مائة وعشرون سنة - عشرون سنة - سبعون سنة) . أما القول السابع فهو أهل كل مدة كان فيها نبى أو طبقة من العلماء قلّت أو كثرت ، بدليل قوله ﷺ « خيركم قرنى » يعنى أصحابى « ثم الذين يلونهم » يعنى التابعين .

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..(٤٠)﴾ [العنكبوت]

وكل هؤلاء كانوا أشد من قريش قوة وبطشاً ، وأين هم من إرم ذات العماد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ؟ وأين هم من فرعون ذى الأوتاد .

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ..(٣٦)﴾ [ق] تنقلوا فيها وسافروا خلالها ، والتنقُّل دليل القوة والتمكين ، وأنهم غير مشغولين بأمور حياتهم .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن الانتقال والسير فى الأرض قد يكون للاعتبار كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ..(٦٩)﴾ [النمل] وقد يكون لطلب الرزق والسياحة كما فى قوله تعالى :
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ..(١١)﴾ [الأنعام]

إذن : ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ..(٣٦)﴾ [ق] ساروا خلالها للمتعة وللانتفاع ، حيث لم يكتفوا بما فى أوطانهم ، بل جابوا أوطاناً أخرى ، ولا يفعل ذلك إلا القوى ، أما الضعيف فلا يبرح مكانه ويرضى بالقليل .

وفى موضع آخر قال عنهم ﴿وَأَثَارُوا[1] الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ..(٩)﴾ [الروم]

---

(١) أثاروا الأرض أى قلبوها للحرث والزراعة كما قال الفراء . وقيل : لاستنباط المياه . واستخراج المعادن وغير ذلك . (تفسير الألوسى الروم آية ٩) قال الشوكانى فى فتح القدير : « ولم يكن أهل مكة أهل حرث » . وذكر الزمخشرى فى تفسير الكشاف أن الثور سُمى ثوراً لإثارته الأرض ، وسميت البقرة بقرة لأنها تبقرها أى تشقها .

وكلمة نقب تدل على البحث عن غير الظاهر عن المستور في باطن الأرض . إذن : لم يكتفوا بالظاهر من النعم وبحثوا عن المستور منها .

وقوله : ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] أى : ملجأ يلجأون إليه ويحميهم من العذاب ، والمعنى أن هؤلاء مع ما هم فيه من القوة والتمكين والسير في جنبات الأرض لما نزل بهم العذاب لم يجدوا لهم ملجأ يحميهم ، ولا مأوى يدفع عنهم عذاب الله .

وكلمة ﴿مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] من حاص فهو حايص . نقولها حتى في العامية يعني : حائر يذهب إلى هنا ، ويذهب إلى هناك ، فلا يغيثه أحد ، فلا مهرب ولا مفرّ .

وجاء بالمعنى المراد في صيغة الاستفهام ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] لتجيب أنت وتقر بالواقع ، هل وجدوا ملجأ يلجأون إليه من العذاب ؟ والجواب لا .

وهذه الآية وردت لتسلية سيدنا رسول الله والتخفيف عنه لما يلاقيه من عنت قومه وعنادهم ، كأنه تعالى يقول لنبيه : لا تحزن يا محمد وخُذْ أسوة بإخوانك من الرسل السابقين ، فالغلبة لك في نهاية الأمر .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ
أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٣٧)﴾ [ق] أى : في قصص الأمم السابقة الذين أخذهم الله ﴿لَذِكْرَىٰ .. (٣٧)﴾ [ق] تذكير لكم كان يجب عليكم أنْ تعتبروا بهم ، وقد بلغكم خبرهم ، إما بمشاهدة

آثارهم وبقايا ديارهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

وإما بلغكم بسماع خبرهم من الكتب السماوية ، والسمع والبصر أهم وسائل الإدراك فى الإنسان ، لذلك قال هنا ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق] يعنى : سمع وشاهد .

وقوله سبحانه : ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ..(٣٧)﴾ [ق] أى : قلب واعٍ متأمل ومدرك غير لاه ولا غافل ، وإلا فما فائدة السمع لمنْ ليس له هذا القلب ، إنه يسمع من هنا ويُخرج من هنا ، فلا يستفيد بما يسمع .

وكلمة ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ..(٣٧)﴾ [ق] فيها كناية عن الاهتمام بالمسموع ، فلم يقل مثلاً لمن يسمع : إنما ألقى أذنه وأنصت ليستمع بحضور قلب ليعى المسموع ويستقبله بما يناسبه من البحث العقلى .

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق] وشهيد صيغة مبالغة على وزن فعيل تدل أيضاً على الاهتمام بما يشاهده وعلى الانتفاع به ، فهو يسمع ويشاهد بقلب حاضر وفهم واعٍ بعيد عن الغفلة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس أن اليهود أتت النبى ﷺ ، فسألت عن خلق السماوات والأرض فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق السماوات يوم الأربعاء والخميس ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشجر والقمر . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش . قالوا : قد أصبت لو تممت ثم استراح ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فنزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩)﴾ [ق] .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ[1] ﴿٣٨﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا أنه خلق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما من الآيات الكونية فيما مجموعه ستة أيام ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق] ما أصابنا من تعب ولا نَصَب .

وهذه الآية لها نظائر فى القرآن الكريم دلتْ على أن أيام الخَلْق ثمانية أيام ، اقرأ : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت] إذن : معنا الآن يومان .

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] هكذا يكون المجموع ستة أيام ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]

إذن : المجموع الظاهر ثمانية أيام ، وهذا جعل بعض المستشرقين يتهمون الآيات بالتضارب ، أهى ستة أيام أم ثمانية . وهذا الاتهام وليد عدم فهمهم لأساليب اللغة ومراميها .

فالحق سبحانه تكلم أولاً عن خَلْق الأرض كجرم مستقل ، ثم تكلم عن خَلْق ما يتبع الأرض فى تمام أربعة أيام ، فالزمن هنا متداخل ، واليومان الأولان داخلان فى تتمة الأربعة ، لأنها فى خلق شىء واحد هو الأرض .

---

(١) اللغوب : الإعياء والتعب . ذكره البغوى فى تفسير الآية ، وقال الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب : أى ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة .

لذلك بعد أنْ تحدَّث عن خَلْق الأرض قال سبحانه : ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ [فصلت] أى : استوتْ تتمة الأربعة أيام مثل لو قلت : سرْنا من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين . إذن : ليس فى الآيات تعارض ، بل هى منسجمة مع بعضها البعض .

ومن القضايا التى أثاروها حول هذه الآية قولهم : إن كان الحق سبحانه ينفذ إرادته ولا يحتاج فى الفعل إلى معالجة ، فلماذا لم يخلق هذا الكون بكلمة كُنْ ، ولا يستغرق الخلق ستة أيام ؟

وقلنا فى بيان ذلك أن هناك فرقاً بين خَلْق الشىء وبين جَعْل مُقدِّمات للخلق ، ثم يدور الشىء فى نفسه ويتفاعل إلى ما يصير إليه .

ووضحنا هذا بصناعة علبة الزبادى ، حيث نأتى باللبن والخميرة ونخلطهما ، ثم نجعل هذا الخليط تحت درجة حرارة معينة ، وبعد مدة تتفاعل هذه المكونات وتعطينا الزبادى .

إذن : عالجت هذه المسألة فى عدة دقائق لكنها تفاعلت فى عدة ساعات ، حتى صار إلى ما نريد بعد أنْ وضعنا فيه الأصول والمواد التى تكوِّنه ، كذلك فى مسألة خَلْق الكون فى ستة أيام طبعاً من الأيام التى نعرفها .

ومعنى اللغوب هو القصور الذى يأتى بعد التعب من العمل ، إذن : النَّصَب والتعب يصاحب العمل ، واللغوب قصور واسترخاء بعد الانتهاء ، فإذا نفى الأقل فالأكثر من باب أوْلى لم يحدث .

إذن : المراد لم يحدث القصور ولم يحدث التعب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] والسِّنَة غفلة تسبق النوم ، فنَفْى السِّنة يعنى نفى النوم من باب أوْلى .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُسلِّي رسوله ﷺ بعدما لاقى من إيذاء قومه . يقول له : باشر أمر دعوتك ولا تحزن لما يقولون ، ولا تيأس من نصرك عليهم ، لأن رسول الله وصحابته لما اشتد بهم الإيذاء استبطأوا النصر .

وفي ذلك قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ..﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة] وهنا يقول له ﴿ فَاصْبِرْ ..﴿٣٩﴾ ﴾ [ق] لأن كل صبر على بلاء وإيذاء بأجر ومنزلة ، فكلما ازدادوا في الإيذاء اصبر على أذاهم ، فهم يزدادون إثماً وأنت تزداد أجراً .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ[1] بِحَمْدِ رَبِّكَ ..﴿٣٩﴾ ﴾ [ق] أي : نزِّه ربك تعالى عن كلِّ نقص ، وعن كل ما لا يليق به سبحانه من صفات يتصف بها خَلْقه ، فالله له يد لكن ليستْ كأيدينا ، وله سمع ولكن

(١) اختُلفَ في معنى التسبيح هنا على أربعة أقوال :
الأول : هو تسبيح الله تعالى في الليل . قاله أبو الأحوص .
الثاني : إنها صلاة الليل كله .. قاله مجاهد .
الثالث : إنها ركعتا الفجر . قاله ابن عباس .
الرابع : أنها صلاة العشاء الآخرة . قاله ابن زيد .
[نقله القرطبي في تفسيره ٩/٦٤٢٤] . قلت : كلها أقوال محتملة ، فالتسبيح بالذكر في الليل يعضده ما جاء في الصحيح : « من تعارَّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » الحديث . والصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله [عادل أبو المعاطي]

ليس كسمعنا ، فخذ هذه الصفات في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الإسراء]

لذلك الحق سبحانه وتعالى استهلّ خبر الإسراء والمعراج بقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١)﴾ [الإسراء] أي : نزّه الله عن صفات النقص ، ونزّه الله عن مشابهة خَلْقه ، لأن في القصة خرقاً للنواميس التي يعرفها الخَلْق .

إذن : لا تستبعد هذا الحدث لأنه منسوب إلى الله لا إلى البشر ، فمحمد لم يقُلْ : سريتُ بل قال : أُسْرِى بي .

والسرعة هنا في قطع المسافة تُحسب بقوة الفاعل ، فأنت تسافر من القاهرة إلى الإسكندرية بالحصان في عشر ساعات ، وبالسيارة في ثلاث ساعات ، وبالطائرة في نصف ساعة ، وبالصاروخ في عدة دقائق .

وهكذا تتناسب السرعة مع فاعلها ، فكلما ازدادت القوة قل الزمن ، فإذا كان صاحب السرعة هو الحق سبحانه وتعالى ، فالزمن هنا لا يُذكر ، وكوْن رسول الله استغرق في هذه الرحلة ليلة ، فهذا لأنه تعرَّض لمرائي عدة استغرقتْ هذا الوقت .

ومعنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (٣٩)﴾ [ق] أي : سبِّح ربك تسبيحاً مقروناً بالحمد على النعم ، لذلك تجد أن لفظ التسبيح يأتي دائماً مقروناً بنعمة من نعم الله ، وآية لا يستطيعها أحد سواه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١)﴾ [الإسراء] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

لذلك رأينا على مَرِّ التاريخ الكفار والمشركين والملاحدة يعبدون

أصنامهم وآلهتهم ويقدسونها ، ومع ذلك لم يقُلْ أحد لمعبوده : سبحانك أبداً لأنها لا تُقال إلا لله .

كما أن لفظ الجلالة الله لم يُسمِّه أحد رغم وجود الملاحدة ومُنكرى الألوهية ، لكن لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمى ولده هذا الاسم ، لأنه يخاف أنْ يُسمِّى ولده الله .

لذلك قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] إذن : أمران لم يجرؤ أحد عليهما لعظمة الله سبحانه ، حتى فيما للخَلْق فيه اختيار .

كما نفهم من قوله تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ.. (٣٩)﴾ [ق] أن السُّبحانية هذه من النعم التى تستوجب الحمد ، فكونُ الحق سبحانه مُنزّه عن الشبيه ، مُنزه عن المثيل ، مُنزه عن الشريك ، هذه من أعظم النعم على العباد .

فلو أن لله تعالى مثيلاً أو شريكاً أو نظيراً لفسدتْ حياتنا ، ولَشقينا نحن بهذه المثلية ، وما هنىء لنا عيش .

لذلك يقول تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢)﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] يعنى : سبِّحه تسبيحاً دائماً لا ينقطع ، فهذه الأوقات المذكورة تستوعب اليوم والليلة ، لأن من الناس مَنْ

يعمل بالنهار وينام بالليل ، ومنهم مَنْ يعمل بالليل وينام بالنهار ، فهذا انقطع تكليفه بالليل ، وهذا انقطع تكليفه بالنهار .

وهذه الآية لها نظائر فى آيات أخرى لكن لكل منها معنى ، يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] فهنا قال ﴿ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ق] وهناك قال ﴿ غُرُوبِهَا .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] فقالوا : إذن : ما الفرق بينهما ؟ وأيهما أبلغ ؟

نقول : كلٌّ لفظ منهما بليغ فى موضعه ، فالشمس حين تغرب ، منا مَنْ يشاهد آية الغروب ، ومنا مَنْ لا يشاهده لغيم أو غيره ، ويحكم بالغروب بشواهد أخرى تدل عليه .

لذلك فى رمضان مثلاً ، كثيرٌ منّا لا يرى غروب الشمس ، ومع ذلك يفطر لأن لديه أدلة أخرى على الوقت . إذن : قوله تعالى ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ..﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] لمن شاهد الغروب ، وقوله : ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ق] لمن لم يشاهده .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ..﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] فالأوْلَى لمن يريد أنْ يسبح فى وقت واحد من الليل ثم ينام ، والأخرى لمَنْ أراد أنْ يُسبّح ثم ينام ، ثم يُسبِّح ثم ينام ، يعنى مرات متعددة أثناء الليل .

ومعنى ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق] يعنى : عقب الصلوات ، وقد بيَّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ كيفية التسبيح عقب الصلوات .

﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ(١) ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾

المنادى هنا إسرافيل الملَك المكلَّف بالنفخ فى الصور ، والمراد بالصيحة النفخة الثانية التى تُخرج الناس من القبور للبعث ، الحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [ق]

والكلام هنا يأتى بعدما تعرّض له رسول الله من الإيذاء بالقول وبالفعل ، فكأن ربه عز وجل يُواسيه ، يقول له : إنْ كانوا فعلوا ذلك فانتظر هذا اليوم يوم ينادى عليهم المنادى يوم يقفون للحساب والجزاء .

واستمع لما يحدث منهم فى هذا الموقف ، وكيف سيندمون ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً ، ويشتم بعضهم بعضاً ، كما يقولون فى المثل الفلاحى (بكره نقعد على الحيطة ونسمع الظيطة) يعنى : انتظر يا محمد وسوف تسمع بهم .

---

(١) أكثر المفسرين على أن المكان القريب المقصود به صخرة بيت المقدس على ما روى عن يزيد ابن جابر وكعب الأحبار وابن عباس وقتادة ، وهى على ما رُوِى عن كعب أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً قال الألوسى فى تفسير (روح المعانى) فى تفسير الآية أن مثل هذا لا يُقبل إلا بوحى ، ثم إن كون صخرة بيت المقدس وسط الأرض مما تأباه القواعد فى معرفة العروض والأطوال ، ومن هنا قيل : المراد قريب ممن يناديهم . فقيل : ينادى من تحت أقدامهم . وقيل : من منابت شعورهم فيسمع من كل شعرة : يا أيتها العظام النخرة . أ هـ

قلت : بهذا يكون تأويل الشيخ الشعراوى الآتى بعد سطور هو الصواب فى تفسير الآية (سيكون قريباً من كل واحد كأنه ملازمه وكأن كل واحد منا معه مناديه) [عادل أبو المعاطى]

وقوله ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق] أى : أن المنادى سيكون قريباً من كل واحد كأنه ملازمه ، وكأن كلَّ واحد منا معه مناديه ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ..﴿٤٢﴾﴾ [ق] أى النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ .. ﴿٤٢﴾﴾ [ق] الحق الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويُكذِّبون به وهو البعث .

وقد حكى القرآن قولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الرعد] وقوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق] أى : البعث والخروج من القبور ، والنفخة الثانية ستكون بعد موت جميع الخلائق بالنفخة الأولى .

لذلك كان سيدنا رسول الله دائماً يقرأ بسورة (ق) فى العيدين لقوله تعالى فيها ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق] والخروج مُستحب فى العيدين حتى الحائض تخرج ليس للصلاة ، إنما لتشهد الخير وجماعة المسلمين فى هذا اليوم .

ولذلك سَنَّ لنا رسول الله أنْ تكون صلاة العيدين فى الخلاء ، لأنها صلاة يحضرها مَنْ لا تصح الصلاة منه .

كما أن فى القراءة بسورة (ق) فى العيدين إشارة إلى أن يوم العيد والخروج والفرحة والزينة ينبغى ألاَّ تُنسينا يوم الخروج الأكبر ، يوم القيامة .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾
يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ
عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

بعد أنْ قال سبحانه ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق] يقرر هذه الحقيقة ويأتى بالنتيجة ، فيقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ .. ﴿٤٣﴾﴾ [ق]

ولأن البعض ينكر هذه الحقيقة أكدها سبحانه بتكرار الضمير .

﴿إِنَّا نَحْنُ .. (٤٣)﴾ [ق] فهو وحده سبحانه القادر على ذلك ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)﴾ [ق] أى : المرجع والمآب ، فالبداية منا والنهاية إلينا .

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا .. (٤٤)﴾ [ق] أى : يخرجون منها مُسرعين لأنهم يستجيبون للصيحة فى وقت واحد فيخرجون مُسرعين دون تأخير .

﴿ذَلِكَ .. (٤٤)﴾ [ق] إشارة إلى ما يحدث فى ذلك اليوم من تشقُّق الأرض وخروج الناس من قبورهم مُسرعين ، وجمعهم فى مكان واحد للحشر ، وهذا الحشر ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)﴾ [ق]

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾

وما دام أننا أعلم بهم وبما يقولون فدَع الجزاء لنا ، لأنك إنْ جازيتهم تُجازيهم على قدر قوتك ، ونحن نجازيهم على قدْر قوتنا ، ولن نرحمهم ولن يفلتوا من العقاب ، إذن : اترك لنا هذه المسألة فنحن أقدر على تأديبهم .

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. (٤٥)﴾ [ق] فمهمتك البلاغ فلا تتعب نفسك معهم ، ولا تكلف نفسك فوق طاقتها ، كما عاتب الحق سبحانه

بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [(١)] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③﴾ [الشعراء]

ومعنى ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ .. ㊺﴾ [ق] أى : تجبرهم على الإيمان ، لأنى لو أردتُ ذلك لأجبرتهم على الإيمان كما أجبرت غيرهم ، إنما أنا أريدهم طواعية مختارين .

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ .. ㊺﴾ [ق] فهذه مهمتك أنْ تُذكِّر الناس بهذا القرآن .

ثم قيَّد التذكير هنا بقوله : ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ ㊺﴾ [ق] أى : يخاف وعيدى وإنذارى ، ولا يخاف الوعيد إلا مؤمن وعنده استعداد وقابلية للتلقِّى والاستجابة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين الفعل والقابل للفعل ، فليس كل مَنْ يستمع القرآن سواء ، فمن الناس مَنْ يستمع ويثمر فيه السماع فيستجيب ، ومنهم مَنْ يستمع دون وعى ودون تأمل ، فكأنه لم يسمع شيئاً .

لذلك قال تعالى فى وصفهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..⑯﴾ [محمد]

فهذا السماع عمل الجارحة فقط بلا قلب يستقبل ويعى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ㊹﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد لكن المستقبل مختلف ، منهم مَنْ يستمع

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ٥٦/١] قال الفراء : أى مُخرج نفسك وقاتل نفسك . وبخع الوجد نفسه إذا نهكها . [لسان العرب – مادة : بخع] .

بقلب واعٍ ونفس صافية وذهْن خالٍ من الضد ومن العقائد الفاسدة فيتأثر ويستجيب ، ومنهم مَنْ يستمع بقلب معاند وذهن مشغول بعقائد مخالفة تمنعه من الاستجابة .

لذلك قلنا لمن يفاضل بين أمرين : ينبغى أنْ تُخرجَ الجميع من قلبك ، ثم تخلو مع نفسك وتفكر وتبحث فى الأمرين .

قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ] فالتفكير الجماعى تفكير غير منظم ولا يصل إلى الصواب غالباً .

تذكرون أننا قلنا فى توضيح اختلاف الأثر للفعل الواحد أنك تنفخ فى يدك فى الشتاء للتدفئة وتنفخ فى الشاى مثلاً لتبرده .

فالحق سبحانه وتعالى هنا خَصَّ بالتذكير ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق] لأنه صاحب القلب الواعى والذهن الخالى من المخالف الخالى من الغش ومن الضلال ، وهذا هو المستقبل الصحيح للقرآن .


سورة الذاريات

سورة الذاريات[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾

الواو هنا واو القسم ، فهذه أقسام يقسم بها الحق سبحانه ، ونحن لا نقسم إلا بالله لأنه لا توجد عند المؤمن عظمة فوق عظمة الله ، أما الحق سبحانه فيقسم بما يشاء من مخلوقاته لأنه سبحانه أعلم بأوجه العظمة فيها ومواطن الحكمة في كل قسم منها .

فمثلاً يقسم سبحانه فيقول ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] فلماذا أقسم سبحانه بالضحى والليل إذا سجى بالذات ، ولم يقسم بشيء آخر ؟

---

(١) سورة الذاريات هى السورة رقم (٥١) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٦٠) آية . وهى سورة مكية فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٦٤٢٩/٩) . نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية فهى السورة رقم (٦٦) فى ترتيب نزول القرآن . (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١) .

جاء هذا القسَم رداً على كُفار مكة عندما فتر الوحى عن رسول الله فرحوا وقالوا : إن رب محمد قد قلاه[1] .

فالقسم هنا له مغزى ومناسبة ، فالضحى محلُّ الحركة والعمل ، والليل محل الراحة والسكون ، وكل منهما لا يستغنى عن الآخر .

فهنا إشارة إلى الحكمة من فتور الوحى ، كأنه يقول لهم : تأملوا فى الزمن الذى يشملكم ، وكيف أنه ليل للراحة ونهار للعمل ، وكلٌّ منهما يكمل الآخر .

كذلك مسألة الوحى لما نزل على رسول الله بداية الأمر كان شاقاً عليه مُرهقاً له ﷺ ، وقد وصف رسول الله هذه المشقة فقال عن الملَك « ضمَّنى حتى بلغ منِّى الجهد »[2] ولما عاد إلى بيته قال : « زملِّونى زملُونى » « دثرونى دثرونى » .

فكان فتور الوحى عن رسول الله فرصة يستريح فيها من العناء ، ويشتاق فيها لمباشرة الملَك من جديد ، فشبَّه نزول الوحى أولاً بالنهار وفتوره بالليل .

هنا الحق سبحانه يقسم بالذاريات ، وهى الرياح ، والرياح قوة وطاقة ضرورية للحياة فى هذا الكون ﴿ذَرْوًا ۝١﴾ [الذاريات] أى :

---

(١) أورده الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودّعه ، فأنزل الله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] . وقد أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٣٢٢٢ ، ٥٥٥٨) من حديث جندب .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٤٥٧٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١) من حديث عائشة رضى الله عنها ، ولفظ الحديث (غطَّنى) .

تذرو الأشياء وتحركها ، والذاريات هى التى تحمل بخار الماء إلى مواطن تكوّن السحاب .

فقال بعدها ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ②﴾ [الذاريات] وهى السُّحب تحمل الماء وتتجمع حتى تصير ثقيلة ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. ㊸﴾ [النور]

والوقر : الحمْل الثقيل ، يقول سبحانه : ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ⑫﴾ [الرعد] ثم إن هذه السُّحب بعد أنْ تتكوَّن لا تقف فى مكانها إنما تحركها الرياح .

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③﴾ [الذاريات] أى : السُّحب تجرى جرياً خفيفاً ، وتسبح فى الفضاء فى خفَّة ونعومة .

وقوله : ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا .. ④﴾ [الذاريات] أى : التى تقسِّم هذه السحب ، وتسُوقها إلى مواطن سقوطها ، كما قال سبحانه : ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. ㊸﴾ [النور] ثم يأتى جواب هذه الأقسام الأربعة :

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥﴾

أى : ما تُوعدون من البعث والحساب ﴿لَصَادِقٌ ..⑤﴾ [الذاريات] حق

---

(١) يزجى سحاباً : يسوقه برفق . ومنه قوله تعالى ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. ㊻﴾ [الإسراء] أى يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر . ودقت السحابة : أمطرت . ومعنى أن الودق يخرج من خلاله ، أى من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

وواقع ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الذاريات] الدين يعنى يوم الدين ، يوم الجزاء على الأعمال ﴿ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الذاريات] جَارٍ وحادث لا شكّ فيه .

لكن ما مناسبة القسَم بهذه الأشياء على صدق يوم الدين ؟

قالوا : حين تنظر إلى الكون الذى نعيش فيه تجد أن الخالق سبحانه خلق فيه كل شىء وكل المقومات هذه كما هى فى كون الله منذ خلقها الله ، وهى باقية إلى يوم القيامة ، بحيث لا يُعاد فى الخَلْق إلا الإنسان .

خذ مثلاً الماء أو الهواء اللذين أقسم الله بهما تجد الماء هو هو منذ خلق اللهُ هذا الكون ، لا يزيد ولا ينقص ، لأنه يدور فى دائرة تعود به إلى الماء الطبيعى الذى خلقه الله .

فأنت مثلاً تشرب فى رحلة الحياة عدة أطنان من الماء مثلاً ، هل تبقى فيك ؟ أبداً إنما تخرج منك على هيئة بول وعرق وخلافه وتعود مرة أخرى إلى مصدرها ، وهكذا حتى القدر القليل الذى يتبقى فى جسم الإنسان تمتصه الأرض بعد موته ويعود إلى المياه الجوفية .

إذن : هنا إشارة إلى أنك تُولد وتموت وتعود ونأتى بك مرة أخرى ، فخذ من الكون المادى حولك دليلاً على إمكانية إعادتك مرة أخرى ، خذ المادى المشاهد دليلاً على صدق الغيب الذى أخبرك الله به ، إذن : لا تستبعد أن الشىء الذى يفنى يعود مرة أخرى .

ثم يقول سبحانه :



هذا قسَم آخر يقسم الحق سبحانه بالسماء ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات] من مادة (حَبَكَ) نقول مثلاً : هذا الشيء محبوك يعنى : صُنع بدقة لا زيادةَ فيه ولا نقصان ، وهكذا السماء نراها ملساء مستوية ليس فيها شقوق ولا فطور ، لأنها خُلقتْ بدقة وإحكام، وقالوا ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات] أى : الطرق التى تسلكها الكواكب فى سَيْرها .

وجواب هذا القسم ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ [الذاريات] والكلام عن كفار مكة المعاندين لرسول الله الذين اختلفت أقوالهم فيه كأنَّ الحق سبحانه يعطيهم إشارة إلى أن القول يجب أنْ يكون واحداً قصداً لا التواءَ فيه ، كما فى خَلْق السماء خَلْقاً محكماً لا اختلافَ فيه .

كما قال : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا[1] الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن] فالسماء استوت واستقامت لأنها خُلقت بميزان الحق ، فإن أردتم أنْ تستقيم أموركم فأقيموها على وفق هذا الميزان ، وإلا اختلفتم واختلفتْ أقوالكم .

ومعنى ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات] أى : يُصرف عنه أى عن رسول الله وعن الإيمان به ﴿مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات] صرفته الشياطين عن الإيمان ، فمن مهمة الشيطان أنْ يصرف أهل الحق عن الحق ، وأنْ يُزيِّن لهم الباطل ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

(١) أخسر الميزان : أنقصه . أى لا تنقصوا فى المكيال والوزن . وقال أبو عمرو : الخاسر الذى ينقص المكيال والميزان إذا أعطى ، ويستزيد إذا أخذ . [بتصرف من القاموس القويم ١٩٣/١ ، ولسان العرب] .

لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾
ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

معنى ﴿ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الذاريات] أى : الكذابون ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف] لكن كيف يقول ﴿ قُتِلَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الذاريات] وهم أحياء ؟ قالوا : المراد هنا لُعنوا منى وأبعدوا عن رحمتى ، والقتْل يُخرجك من نعيم الدنيا ، أما اللعن فيُخرجك من رحمة الله فى الآخرة ويُدخلك فى عذابه والعياذ بالله .

كأنه سبحانه يقول لهم مَنْ تقتلون ومَنْ تلعنون ، بل أنتم الذين ستُقتلون وتُبعثون وتُحاسبون ، وأنتم الذين ستُلعنون وتُطردون من رحمة الله .

ثم يصفهم سبحانه بقوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الذاريات] يقولون : غمره الماء إذا شمله وأغرقه ، فكأن هؤلاء غمرهم الجهل حتى غرقوا فيه فأعماهم ، ومعنى ﴿ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الذاريات] غافلون لاهون منصرفون عما يُراد منهم .

ومثل هؤلاء لا نجاة لهم يوم القيامة ، هذا اليوم الذى يُكذِّبون به ويسألون عنه سؤال الشك والاستهزاء ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الذاريات] متى هذا اليوم ؟

فيبينه الله لهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)﴾ [الذاريات] يوم الدين الذى تكذبون به هو هذا اليوم الذى ستُلْقون فيه فى جهنم وتذوقون فيه العذاب ألواناً ، جزاء استهزائكم وسخريتكم .

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ..(١٤)﴾ [الذاريات] ذوقوا آثار فتنتكم فى الدنيا ، والنار أيضاً تُسمّى فتنة حين تُصهر المعدن مثلاً لتنقيه وتُخرج شوائبه .

فيوم الدين الذى تسألون عنه سؤالَ استهزاء وإنكار له هو يوم تُفتنون على النار وتُحرقون بها كما يفتن الذهب والحديد ، وإنْ كان الذهب والحديد يفتن ليخرج منه خبثه وشوائبه فيصير صلْباً فأنتم تفتنون على النار لتعذَّبوا بها وتُقاسوا الآلام التى لا تنتهى .

﴿هَـٰذَا (١٤)﴾ [الذاريات] أى : عذاب يوم القيامة ﴿الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾ [الذاريات] واستعجالهم له نتيجة تكذيبهم به ، فلو آمنوا بأنه حَقٌّ ما استعجلوه .

وقد حكى القرآن قولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأحقاف]

إذن : سؤالهم عن يوم الدين ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢)﴾ [الذاريات] استهزاء به وإنكار له ، لأنهم لا يؤمنون بشىء غيبى أخبر الله عنه ، مع أنهم أخذوا النعم المادية التى أنعم الله بها عليهم ، وخلق بها النفع لهم ، لكنهم أخذوا النعمة ولم يلتفتوا إلى المنعم ، بل اغتروا بالنعمة فقالوا ما قالوا من إنكار واستهزاء .

لذلك نجد آيات كثيرة تجادلهم بالحجة وبالبرهان ، وتثبت لهم أن

القيامة حق ، فلما قالوا : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ [الإسراء] رد عليهم : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

فلأنهم استبعدوا إحياء العظام نقلهم نقلة أعلى من العظام ، فالعظام لها أصل فى الحياة ، فيقول لهم : حتى لو كنتم جماداً حجارة أو حديداً مما يتصف بالصلابة ولا صلةَ له بالحياة ، فنحن قادرون على إحيائكم .

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن المعاندين لرسول الله المكذبين بالقيامة يذكر سبحانه المقابل ، وقلنا فى ذكر المقابل توضيح للصورة ، والضد يظهر حُسْنه الضد ، فيقول سبحانه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ[2] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾

---

(١) الرفات : الحطام من كل شىء تكسَّر . والرفات : الدُّقاق . [لسان العرب مادة : رفت] قال مجاهد فى تفسير آية الإسراء ٤٩ رفاتاً أى تراباً . وقال ابن عباس : رفاتاً أى غباراً . [تفسير ابن كثير ٣/٤٤] .

(٢) السَّحَر : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحار . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ .. (١٥)﴾ [الذاريات] (إن) تفيد توكيد الكلام ، و (المتقين) جمع المتقى ، والتقوى كما قلنا أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية ، لذلك نجد القرآن يقول مرة : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ..(١٨)﴾ [الحشر] ومرة يقول ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ ..(١٣١)﴾ [آل عمران]

والمراد : الزموا طاعة الله ، وتجنّبوا معصيته وأسباب عذابه ، لأن الله تعالى صفات جمال وصفات جلال ، والتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية من صفات الجلال التى تزجر المخالف وترده عن الشر .

فمن صفات الجمال أن خلق لنا ما ننتفع به فى الدنيا ، ومن ذلك النار ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

لكن هذه النار التى تنتفعون بها فى الدنيا وتُعد نعمة من نعم الله عليكم احذروها فى الآخرة ، لأنها ستكون أداة تعذيب ، ستكون جنداً من جند الله لقهر المخالفين ، فاتقوها . إذن : المعنى واحد : اتقوا الله ، واتقوا النار .

وتلاحظ هنا أن ﴿الْمُتَّقِينَ .. (١٥)﴾ [الذاريات] فى زمان التكليف وهى جمع و ﴿جَنَّاتٍ .. (١٥)﴾ [الذاريات] فى زمن الجزاء وهى جمع ، وكذلك ﴿وَعُيُونٍ (١٥)﴾ [الذاريات] فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إن لكل مُتّق جنة وعيناً تجرى خلالها ،

(١) تورون أى تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها . [ابن كثير فى تفسيره ٤/٢٩٦] . وأورى الزند إيراء : خرجت ناره . وأورى القادح زنده : أخرج منه النار . فهو لازم ومتعد . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] .

نعم جنة خاصة به ، لأن القاعدة إذا قُوبل الجمع بالجَمع اقتضى القسمةَ آحاداً .

كما يقول المدرس مثلاً للتلاميذ : أخرجوا كتبكم ، والمراد أنْ يُخرِجَ كلٌّ منهم كتابه ، لكن نجد فى سورة (الرحمن) يقول سبحانه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فكيف نجمع ونُوفِّق بين الآيتين ؟ قالوا : لأن سورة الرحمن جاء الخطاب فيها للثقلين الجن والإنس ، فالمعنى : ولمَنْ خاف مقام ربه من الإنس أو الجن جنة ، جنة للإنس وجنة للجن .

أو أن المعنى : له جنتان بالفعل ، وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه خلق الجنة على فرض أنْ يؤمن جميعُ البشر ، وخلق النار كذلك تكفى للبشر جميعاً إنْ لم يؤمنوا .

وقلنا : هناك لا توجد أزمة مساكن ، فإذا دخل أهلُ النار النارَ فرغتْ أماكنهم فى الجنة فورثها المتقون ، فكأنه أخذ جنته وجنة الكافر الذى تركها ، وذهب إلى النار .

والجنة هى البستان المليء بالأشجار متشابكة الأغصان بحيث تستر مَنْ يسير فيها وتُجنّه ، أو أن فيها كلَّ مقومات الحياة بحيث لا يحتاج إلى الخروج منها ، كما نقول فى كلمة قصر يعنى : قصرك فى مكانه عن الأمكنة الأخرى ، فلا تخرج منه إلى مكان آخر لتلتمس أسباب الحياة ..

وقال : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الذاريات] أى : عيون الماء ، لأن الجنات الأصل فيها الخضرة والنماء والثمار ، وهكذا الأشياء

وليدة وجود الماء ، فالعيون فى الجنات لاستبقائها ودوامها كجنة .

لذلك لما تحدَّث القرآن الكريم عن أنهار الجنة وتوفير الماء اللازم لها قال مرة ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] وقال مرة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.. (١٢) ﴾ [الصف]

فمن هنا تفيد أن الماء ذاتى فيها ، حتى لا نظن أن الماء الجارى الذى يمرُّ بها قد ينقطع فيقول لك : اطمئن فماء الجنة مضمون لأنه نابع منها .

وقوله سبحانه : ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٦) ﴾ [الذاريات] يعود السياق هنا إلى الماضى ويُحدِّثنا عن الحيثية ، فهؤلاء المتقون نالوا هذا الجزاء ، لأنهم أخذوا منهج الله برضا وقبول .

﴿ آخِذِينَ ..(١٦) ﴾ [الذاريات] جمع آخذ اسم فاعل ، وهو الذى يتناول الشىء بعشق ولهفة ، ويأخذه برضى وقبول ، والإنسان لا يمدُّ يده ليأخذ إلا لشىء فيه نفع له على خلاف شىء يُرْمى عليك فتأخذه وأنت كاره .

فكأن هؤلاء سمعوا منهج الله ، وعلموا أن فيه قوامَ حياتهم وصيانة حركتهم ونجاة آخرتهم فأخذوه ، أخذوه بلهفة وحب وعشق ، أخذوه بقوة كما قال تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ..(٦٣) ﴾ [البقرة]

فالقوة فى الأخذِ تدل على أن الآخذ يقدر المنفعة الجميلة التى ينالها ، ثم إنك أخذتَ وغيرك ترك ، فأحسنتَ وأساءوا ، مع أنك مختار ولك مطلق الحرية تأخذ أو تترك .

لقد أحسنتَ وأنت قادر على الخير وعلى قبول الشر ، فكونُكَ تسمع وحى الله وتطيع وتتحمل التكاليف عن رضا وقبول ، فأنت أهلٌ لهذا الجزاء .

ثم تبين الآيات أن الأخذ هنا أخذٌ مقيد ، لا نأخذ كل شيء وكل ما يأتينا بل نأخذ ماجاءنا من ربنا وخالقنا ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٦)﴾ [الذاريات] واختار هنا صفة الربوبية لأنها عطاء ، فالرب هو الذى خلق من عَدَمَ وأمدَّ من عُدْم ، وأبقى لك مُقوِّمات الحياة بقيوميته ، نقول : فلان قائم على الأمر يعنى : مهتم به لا يتركه لغيره .

فالله بحكمته وقدرته خلق ، وبقيوميته استدام الخير ، لذلك ساعة يأتيك الخير تذكر الربوبية التى منحتك . والربوبية أسبق فى حياة الإنسان من الألوهية ، لأن الله تعالى أعطاك وأمدَّك قبل أنْ تُخلق وما كلّفك إلا بعد سنِّ البلوغ .

وما دُمت قد أخذتَ عطاء الربوبية وتمتعتَ به فقد وجب عليك أنْ تأخذ عطاء الألوهية ، وكما أخذتَ العطاء الأول بحب ورغبة وعشق ، فعليك أنْ تأخذ العطاء الآخر أيضاً بحب ورغبة وعشق ، لا يليق بك أن تأخذ الأول وتترك الثانى وتتنكر له لأنك لو تأملت عطاء الألوهية لوجدته أنفع لك من عطاء الربوبية وأدوم .

فعطاء الربوبية الأول أعطاك مقومات الحياة الدنيا وهى موقوتة فانية ، أعطاك مقومات القالب الزائل ، أما عطاء الألوهية فعطاء يضمن لك الآخرة الباقية ويحيى فيك الروحُ الباقية التى لا تفنى . إذن : فأيّهما أحقُّ بالأخذ ؟

لذلك الحق سبحانه وتعالى حينما حدثنا عن هذه المسألة قال سبحانه : ﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ[1] وَرِيشًا[2] وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف]

فاللباس الذى يوارى السوأة يمثل الضروريات والريش للزينة والكماليات ، وهذا قصارى ما نأخذه فى الدنيا . ثم يلفت الأنظار إلى ما هو أهم ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف] خير من نعيم الدنيا وزينتها وزخرفها ، لأن هذا زائل وهذا باقٍ دائم ، لباس الدنيا يسترك فى الدنيا ، ولباس التقوى يسترك فى الدنيا وفى الآخرة .

ولما كان لعطاء الألوهية هذه الأهمية لم يُعطه الله إلا لمن آمن به مختاراً ، فلم يكلف إلا المؤمن ، لذلك نقرأ دائماً فى مجال التكاليف ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]

ثم تذكر الآيات صفة أخرى من صفات المتقين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] أى : ما استحقوا هذه المنزلة إلا لأنهم ﴿ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] والإحسان درجة

---

(١) السوءات جمع سوْءة ، وهى العورة ، وما يقبح إظهاره وينبغى ستره . [القاموس القويم ١/ ٣٣٤] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٠٧) : « اللباس ستر العورات وهى السوءات والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات . وقال ابن عباس : الريش المال وهكذا قال مجاهد وعروة وغير واحد ، وقال ابن عباس : الرياش اللباس والعيش والنعيم » .

ومنه قولنا فى العامية : رجل مريِّش أى غنى . ومنها بالإنجليزية Rich .

عالية من درجات الإيمان عرَّفها العلماء فقالوا : الإحسان هو ما جاء في حديث رسول الله ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

والإحسان هو الزيادة في الطاعات فوق ما أمرك الله به ، لذلك نزلت هذه الآية في مكة قبل أنْ تُفرض الزكاة في مكة ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] ولم يقل حق معلوم ، فالحق المعلوم هو الزكاة وقد فرضت بالمدينة ، أما الصدقة فكانت في المرحلة المكية .

إذن : معنى الإحسان أنهم ذهبوا إلى مراتب الإحسان قبل أنْ يُكلَّفوا بها ، وهذا يعني أن مراتب الإحسان فطرية وطبيعية ، وفي إمكانك ولا تكلفك ، وهكذا كل أمور الطاعة والاستقامة تأتي طبيعية لا تكلُّف فيها على خلاف المعصية .

لذلك نقول : إن المستقيم مثلاً يوفر ثمن الجلوس على القهاوي وشرب الدخان والقهوة والمخدرات والمسكرات ، فالاستقامة من الناحية الاقتصادية أوفر لصاحبها .

حتى في عمل الجوارح تأتي الاستقامة طبيعية ، أما المعصية فتحتاج إلى تكلُّف وتلصُّص واحتيال ، لذلك في الاشتقاق اللغوي عبَّر القرآن عن الطاعة بـ (كسب) وعن المعصية بـ (اكتسب) .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨ ، ٤٤٠٤) وكذا مسلم في صحيحه (١٠، ١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرجه مسلم في صحيحه (٩) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فالكسب أمـر طبيعى ، و (كـسب) على وزن فعل ، أما (اكـتسب) ففيها افتعال وهى على وزن افتعل ، وهذا الافتعال تراه مثلاً فيمن يحتال لينظر إلى مـا حرَّم الله عليـه ، كيف يتلصص ويُسـارق الناسَ النظرات ، كذلك تراه فيمن يذهب إلى المسجد ومَنْ يذهب إلى الخمارة وهكذا .

وقد عرَّف العلماء درجة الإحسان فـى العبادة ، فقالوا : الإحسان أنْ تؤدى ما فرضـه الله عليك من العبادة ، وتزيد عليـها من جنس ما فرض الله ، فالمؤمن يؤدى الصلوات الخـمس والمحسن يؤديها ويزيد عليها ما استطاع من النوافل .

المـؤمن يؤدى الزكـاة بمـقدار نـصف العـشر أو ربع العـشـر ، والمحسن يؤدى فوق ذلك وهكذا .

إذن : المـحسن هنا له مـعنيان : أنـه أحسن قـبل التكليف وبادر بعمل الخـيرات قبل أنْ تُفـرض عليه ، أو أدَّى ما فُـرِض عليه ثم زاد على ما فرض من جنس ما فرض الله عليه .

ثم يصف الحق سبحانه وتعـالى المحسنين بقوله : ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** (١٧) ﴾ [الذاريات] والهجـوع هو : الثبـات عن الحركة فى الخير وعدم عمل الشر ، ونقول للولد المشاغب الذى تزيد حركته : اهجع . يعنى : كُفَّ عن الحركة المزعجة .

ومن هنا قـالوا : نوم الظالم عـبـادة ، نعم عبـادة لأنه يكفُّـه عن الظلم ، فهؤلاء لهم أنْ يصلُّوا العشـاء ويناموا بعدها إلى الفجر ، لكن حبـهم للطاعة جعلهم لا يهجـعون من الليل إلا قليلاً ، ونَفْى الهـجوع نَفْىٌ للنوم من باب أوْلَى .

والإحسـان نتيجة لحب العـبد لربِّه ، فالله أحـسن إليك حين كلَّفك وحيَّاك بهذا التكليف ، فعليك أنْ ترد التـحية بأحسن منها ، فإنْ كلَّفك

بخمس صلوات تجعلها عشراً ، وإنْ كلَّفك بنصف العشر أو بربُعْ العشر فى الزكاة تجعلها أضعاف ذلك ، وهكذا فى سائر العبادات وأوجه الخيرات .

ولما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « هو أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك » والذى تراه يكون حاضراً ليس غيباً ، وتصوَّر أنك أجير عند رجل يجلس خلفك يراقبك ويرصد كل تحركاتك ، هل تستطيع عندَه إذن أنْ تتهاون فى عملك أو تقصر فيه ؟

كذلك حال المحسن فى عبادته ، وقد ورد فى الحديث القدسى : يا عبادى إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات] الأسحار جمع السَّحَر ، وهو آخر الليل وقبل طلوع الفجر ، حيث يظهر ضوء بسيط يخيَّل للإنسان أنه ضوء الشمس وهى لم تطلع بعد ، ولذلك يُسمَّى ضوءاً تخيلياً .

ومنه كلمة السِّحر ، فالسحر قلْبٌ للحقائق بطريق التخيُّل ولا حقيقة له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..(١١٦) ﴾ [الأعراف]

ووقت السَّحَر من أفضل الأوقات للاستغفار ، لكن ممّ يستغفر

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم فى شرح الحديث (١٨) من قول أبى الجلد قال : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ، إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

هؤلاء الذين وصفهم ربهم بالتقوى ، وأنهم أخذوا ما آتاهم ربهم ، وأنهم نالوا درجة الإحسان ، وكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ؟

إذن : ليس لهم ذنوب يستغفرون الله منها ، قالوا : إن لهؤلاء استغفاراً يليق بدرجة الإحسان ، فهم لا يستغفرون الله من ذنوبهم ، بل يستغفرونه للتقصير الذى يظنونه فى عباداتهم وأعمالهم وكأنهم استقلُّوا ما فعلوه ورأوه دون ما يستحق الله تعالى من التقدير والعبادة . وهذا من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وقوله تعالى :﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] نسب إليهم المال ، فقال ﴿ أَمْوَالِهِمْ .. (١٩) ﴾ [الذاريات] لأنه يتملكه الآن وإنْ كان فى الحقيقة مال الله ، والإنسان مستخلف فيه إلى حين .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .. (٧) ﴾ [الحديد]

والإنسان خليفة لله فى الأرض ، وعليه بمقتضى هذه الخلافة أنْ يطيع أمر مَن استخلفه بأنْ يعطى السائل والمحروم من مال الله المستودع عنده ، يعطى العاجز غير القادر على العمل والكسب ، حتى لو يعطيه شكراً لله الذى منحه القوة ليعمل ، فى حين أن غيره عاجز محروم من هذه القوة .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا بذلك إنما يُؤمِّن حياة ومستقبل القادر وغير القادر على العمل ، لأن الدهر يتقلب بالناس ، وأحداث الحياة دائمة التغيير ، وربما أصبح القادر اليوم غير قادر غداً ، وعندها يجد مَنْ يمد إليه يد المساعدة .

لذلك قلنا : إن الشارع الحكيم علمنا أنْ نعمل على قدر الطاقة

لا على قدر الحاجة ، فحينما تعمل على قدر الطاقة التى وضعها الله فيك فإنك ستأخذ حاجتك وتتصدَّق على غير القادر أنْ يعمل ، ولو توفر لنا هذا التضامن وهذا التأمين لَعاش الإنسانُ لا يهاب أحداث الحياة ولا يخشى الفقر عليه وعلى ذريته من بعده .

وقوله تعالى : ﴿ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲ ﴾ [الذاريات] السائل هو المحتاج وتضطره الحاجة لأنْ يسأل الناس ، ومثله المحروم هو أيضاً محتاج لكنه يتعفف عن المسألة فيحرم وربما يجوع أو يهلك ، وهو فى هذه الحالة يكون آثماً فى حقٍّ نفسه ، لأن الله تعالى شرع له أنْ يسأل ، فهو محروم من التملك أولاً ، وحرم نفسه ثانياً من السؤال الذى شرع له .

ومن هنا حثَّ الإسلام على التعارف وعلى حضور الجماعات التى يتعارف فيها الناس ، ويسأل بعضهم عن بعض ، ومن خلال هذا التعارف نعرف المحتاج فنساعده ونعرف المريض فنزوره ، وهكذا .

وأحد الصالحين جاءه سائل فأعطاه حاجته ، ثم دخلتْ عليه زوجته فوجدته باكياً ، فقالت له : ما يُبكيك وقد أعطيته حاجته ؟ فقال : أبكى لأنِّى تركته حتى يسألنى .

إذن : الواجب أنْ يصل الحق إلى أصحابه دون سؤال ؛ واجب على الغنى أنْ يكفى الفقير مذلة السؤال .

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ⑳ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ㉑ ﴾

الأرض هى الأرض التى نعيش عليها وهى مفردة ، وفى الحقيقة هى أراض متعددة ، كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ⑫ ﴾ [الطلاق] فهى إذن سبع أرْضين .

قالوا : لأن الأرض بيئات متعددة من حيث الطقس حرارة وبرودة ، ومن حيث التربة وما تحويه من عناصر وما تُخرجه من خيرات . ومن هنا تعددت الأراضى ، لذلك العلماء يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام كذا .

فالحق سبحانه أعطى كل أرض ما يصلحها لنبات معين يناسب السكان عليها ، والعيب أننا ننقل إنتاج أرض إلى أرض أخرى لا يصلح لها ، ولو صلح للسكان هنا لكان موجوداً عندهم .

لذلك نجد النبات فى غير أرضه تصيبه الآفات ، فلو نظرنا مثلاً إلى حزام الموز تجده في أماكنه قوياً لا تصيبه آفة ولا عطب ، فإذا نقلته إلى غير أرضه كثرتْ فيه الآفات وأصابه العطب .

كأن الخالق سبحانه يقول لنا : هذا ليس مخلوقاً لبيئتك ، بل له بيئته التى يجود فيها ، حيث تتوفر له مقومات نموه .

والآيات جمع آية ، وهى العلامة الدالة على قدرة الخالق سبحانه ، وأول الآيات فى الأرض نلحظها فى توزيع رقعة الأرض بين الماء واليابسة ، الماء منه عَذْب فراتٌ ، ومنه ملح أُجَاج .

العذب نشرب منه ، ونسقى الزرع والدواب ، والمالح نأخذ منه الأسماك ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر]

والأرض فيها الخصب السهل الصالح للزراعة ، ومنه الصحارى والجبال ، وفى كل منها الخيرات التى تناسبه . ومن الآيات فى الأرض أن الماء ثلاثة أرباع اليابسة ، والحكمة من ذلك أنْ تتسع رقعة

الماء ، وتتسع رقعة البخر التى تعطينا بعد ذلك المطر الذى يكفى للشرب وللزراعة .

إذن : الماء المالح هو مخزن الماء فى الأرض ، وجعله الله مالحاً ليحفظه من العطب ويصونه من التغيُّر ، يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا[1] ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾ [الأعراف]

ومن الآيات فى الأرض أن مجارى المياه العذبة أعلى مستوى من مجارى المياه المالحة ، ولو أن المالح كان أعلى لأفسد المياه العذبة ولمَا انتفعنا بها ، يقول تعالى : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[2] لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن]

ومن عجائب القدرة فى خَلْق النبات أنْ تجد أجود أنواع النخيل والتين مثلاً على الشواطىء المالحة كما فى العريش وغيرها ، وهذه من طلاقة القدرة التى لا تخضع للأسباب ، إنما تفعل ما تريد ، فمن الماء المالح نأكل أشهى وأحلى الثمار .

---

(١) أقلَّ الشيء : حمله ورفعه . فالرياح ترفع السحاب وتحمله وتسوقه إلى مناطق أخرى .

(٢) البرزخ : الحاجز بين الشيئين . ومعنى أن (بينهما برزخ لا يبغيان) أى بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلاً منهما فى مجراه فلا يبغى ولا يطغى على الآخر فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبقي العذب عذباً ولكن بينهما من الأرض برزخ قبل التقائهما يحفظ كلاً منهما فى مجراه ، وأما من يفسر الآية بأن بينهما حاجزاً من القدرة يمنع امتزاج أحدهما بالآخر فيبقى العذب عذباً والملح ملحاً فهذا ليس تفسيراً علمياً ولا يطابق الواقع ، فبعد ميلين أو ثلاثة أميال من مصب النهر على الأكثر لا نجد قطرة واحدة من الماء العذب وأحياناً بعد ميل واحد إذا كان البحر هائجاً ، وإلا لشرب الناس الماء العذب وهم مسافرون فى البحار . ولكن الأنهار حين تصب فى البحار يبقى الماء العذب طافياً لخفته مسافة قصيرة ثم ينمحى ويمتزج بالماء الملح امتزاجاً تاماً » .

ومن الآيات فى الأرض الجبال : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر] والجبال كما قلنا هى مخازن الخصب ، ومخازن القوت ، ومخازن للخيرات الكثيرة من المعادن والأحجار الكريمة .

وسبق أن أوضحنا أن الحق سبحانه نثر الخيرات ووزّعها على الأرض كلها ، بحيث إذا أخذنا من الأرض قطاعاً من محيط الأرض إلى مركزها لوجدنا فيه من الخيرات ما يساوى القطاع الآخر ، فهذا به معادن ، وهذا بترول ، وهذا مزروعات ، وهكذا .

ومن الآيات فى الأرض أنْ تجد التربة واحدة وتُسقى بالماء الواحد ، ومع ذلك تعطى مختلف الثمار ومختلف الطعوم ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ[1] وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]

نعم يعقلون قدرة الله فى الخلق ، وأن هذه الآيات مخلوقة لقادر حكيم قيوم .

وهنا قال ﴿آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات] أى : الذين يوقنون بذلك ويؤمنون به ، فأعظم درجات العلم هى العلوم الكونية التى تبحث فى الكون ، وتستدل بآياته على قدرة الله .

---

(١) صنوان : جمع مفرده صِنْو بكسر الصاد ، والصُّنو بضمها : المثل . وهو إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد قيل لكل واحد منها صنو . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤) قلت : منه حديث رسول الله « العم صنو الأب » لأنهما من أصل واحد . [عادل أبو المعاطى]

اقرأ مثلاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[1] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

لاحظ أنه تعالى لم يذكر هنا حكماً شرعياً يتعلق بصوم ولا صلاة ولا زكاة . إذن : المراد بالعلماء هنا علماء الطبيعة والكونيات الذين يبحثون فى النبات والحيوان والإنسان والجماد ، ويستدلون بالقدرة على القادر سبحانه ، ويأخذون بأيدى الخلق إلى ساحة الإيمان بالخالق ، وهذه حقيقة تنفعهم فى الدنيا وفى الآخرة .

والمتأمل لقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ [الذاريات] يفهم منه أن الإنسان إذا نظر فى الكون من حوله ويستدل منه على وجود الخالق سبحانه ، لذلك أوقع الكافرين فى الفخ عندما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الزمر]

نعم لم يقولوا غير ذلك لأنها مسألة واضحة وضوحَ الشمس ولم يدعها أحد لنفسه ، وكيف يدعيها وقد خُلق رضيعاً لا يقدر على شيء فكيف يقول : خلقتُ نفسى ، وقد طرأ على الكون كما هو فكيف يدعى أنه خلقه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] أى : كما أن فى الأرض آيات كونية دالة على قدرة الله ، كذلك فى أنفسكم

---

(١) غرابيب : جمع غربيب وهو الشديد السواد . ووصفها بـ (سود) للتأكيد .

آيات ، فإذا لم تصل إلى آيات الكون من حولك فانظر فى نفسك التى بين جنبيك .

وقال تعالى : ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] لأن آيات الكون من حولك إنْ بعُدَتْ عليك فإن آيات نفسك قريبة منك ، وأوْلَى بالنظر والتأمل .

والآيات فى النفس كثيرة ، خُذْ مثلاً درجة حرارة الجسم تجدها واحدة هى ٣٧° لمن يعيش عند القطب المتجمد ، ولمَنْ يعيش عند خط الاستواء ، ولا تستقيم حركة الأعضاء والجوارح إلا عند هذه الدرجة ، ولو زادت لاختلَّ نظام الجسم كله واضطربت حركته .

أما فى داخل الجسم فكل جهاز من أجهزته له درجة حرارة تناسبه دون أنْ يحدث استطراق حرارى فى الجسم الواحد كما نعلم ، فإذا كانت الحرارة العامة فى الجسم ٣٧° فإن حرارة العين مثلاً تقف عند تسع درجات لا تزيد عنها ، ولو زادت عن ذلك لانفقأت العين .

أما الكبد فلا يؤدى دوره فى الجسم إلا عند أربعين درجة ، والعجيب أن هذا التفاوت داخل جلد واحد وجسم واحد ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

كذلك لو تأملتَ الدم الذى يجرى فى العروق ، التنفس ، القلب ، المخ ، العظام كل شىء فى جسمك فيه آية ، بل آيات حين تتأملها تقول : سبحان الخالق المبدع ، سبحان مَنْ له طلاقة القدرة .

إذن : لا حجة لمَنْ لم يؤمن بعد ما رآه من الآيات فى نفسه وفى الكون من حوله .

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى فى البلاغة أسلوبَ قصر ، بتقديم الجار والمجرور على المبتدأ ، فالرزق فى السماء فقط لا فى غيرها ، الرزق يأتيك من أعلى من الله ، والرزق كل ما يُنتفع به ، فالمال رزق ، والصحة والعافية رزق ، والعقل رزق ، والأمن رزق .

ومعنى أن الرزق فى السماء . أى : أنه أمر وتقدير أزلىّ مكتوب فى اللوح المحفوظ ، فإنْ أردتَ الحياة المادية التى نعيشها ، فهى أيضاً مصدرها الماء النازل من السماء ، لأنه قوام الحياة ومصدر القوت .

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] أى فى السماء أيضاً ، فكل شىء مقدور ومكتوب فى اللوح المحفوظ ، كل صغيرة وكبيرة ، وشاردة وواردة ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

إذن : ما دامت الأرزاق مُقسَّمة عند الله ، وما دام كل شىء مكتوباً أزلاً ، فأجملوا فى الطلب ، ولا تنشغلوا بمسألة الرزق ، إلا أنْ تذهب إليه وأنْ تسعى فى طلبه ، فأنت لا تخلقه ولكن تذهب إليه كما قال سبحانه : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا[1] وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ .. (١٥) ﴾ [الملك]

فالمشى والسعى سببٌ للرزق المقسوم لك أزلاً ، وهذا الدرس تعلمناه من السيدة هاجر أم إسماعيل لما تركها سيدنا إبراهيم هى

---

(١) مناكب الأرض : طرقها وجبالها وجوانبها وأنحاؤها . والمنكب من الأرض الموضع المرتفع . قال الأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح فى القاموس القويم (٢/٢٨٤) : « فى ذكر المناكب حث على احتمال المشقة فى سبيل الرزق » .

وولدها عند الكعبة وانصرف فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لن يُضيِّعنا[1] .

فهى واثقة أن الرزق عند الله ، وما كان سعيها سبعة أشواط بين الصفا والمروة إلا نموذجاً للسعى ، فكأن الحق سبحانه أراد أنْ يجعلها شاهداً على صدق هذه الآية ، فلما استنفدت السيدة هاجر أسبابها فى السعى عادتْ إلى وليدها مطمئنة بقولها : إن الله لن يضيعنا .

وعندها ضرب الوليدُ الأرضَ برجله فتفجَّرت من تحتها زمزم ، وبعد ذلك جعلها الله لنا مشعراً من مشاعر الحج والعمرة ليُذكِّرنا دائماً بهذه الحقيقة ، وهى أن الرزق عند الله ، لكن السعى إليه مطلوب ، والحركة فى اتجاهه سببٌ من أسبابه .

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

حكى الأصمعى[2] أنه قابل يوماً أعرابياً ، فسأله الأعرابى : من

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] عن ابن عباس قال : جاء نبى الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر ، فوضعهما بمكة فى موضع زمزم ، فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات : من أمرك أن تضعنى بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع ولا أنيس ولا زاد ولا ماء ؟ قال : ربى أمرنى . قالت : فإنه لن يضيعنا .

(٢) الأصمعى هو عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى ، أبو سعيد راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان . نسبته إلى جده أصمع ، ومولده ووفاته فى البصرة ، كان كثير التطواف فى البوادى يقتبس علومها ، وله تصانيف كثيرة ، توفى عام ٢١٦ هجرية [الأعلام للزركلى] .

أين ؟ فقال : من أصمع[1] ، قال : من أين أتيتَ ؟ قال : من المسجد ، قال : وماذا تصنعون فيه ؟ قال : نقرأ قرآن الله ، قال : فاقرأ عليَّ .

فقرأتُ عليه سورة الذاريات حتى وصلتُ إلى قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] فأتى بأدوات الصيد التى كانت معه فكسرها ، وقال : مادام رزقى فى السماء والله لا يكذب .

قال الأصمعى : فخرجتُ مع هارون الرشيد للحج ، فلقيتُ هذا الأعرابى لكنه كان هذه المرة نحيفاً مُصفرَّ اللون فقلتُ له : ألستَ فلاناً ؟ قال : ألستَ الأصمعى ؟ قلت : نعم ما الذى صيَّرك إلى هذا ؟

فقال : اقرأ علىَّ ما قرأته سابقاً فقرأتُ عليه إلى قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات] فتعجب وقال : ومَنْ أغضب الجليل حتى ألجأه أنْ يقسم . وظلَّ يرددها ، فما انتهى من الثالثة حتى فاضتْ روحه معها .

وحكيت مرة أننى كنتُ أحج أنا والشيخ أحمد أبو شقرة ، فعَنَّ لنا أنْ نصعد إلى غار حراء ، فقال لى : نريد دليلاً يرشدنا فقلت له : نحن نعرف الطريق وسِرْنا ، لكن وجدنا أنهم كسروا الطريق المؤدية إلى الغار فضللنا .

ثم تنحَّى صاحبى عنى جانباً ليبول ، وفجأة قال لى : انظر يا شيخ . فنظرتُ . فإذا بحشرة أتتْ وأخذت تشرب من بوله ، فقلت :

---

(١) أصمع : من قبائل بنى سعد بن قيس من غطفان .

سبحان الله وكأننا ضللنا الطريق لنسقى هذه الحشرة ، ثم مرَّ بنا رجل عرف أننا ضللنا الطريق فأرشدنا .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقسم بذاته سبحانه ، وربوبيته للسماء والأرض ، لأن السماء ينزل منها المطر ، والأرض تستقبل هذا المطر ، وتنبت به النبات الذى به قوام المعيشة والحياة .

وقوله : ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٢٣)﴾ [الذاريات] أى قوله تعالى : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ [الذاريات] هذا قول حقٌّ لا شك فيه ، لأنه تقدير أزلى سُجِّل فى اللوح المحفوظ .

ثم يعطينا مثالاً يُجسِّم لنا هذه المسألة ، فيقول ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات] فكما تدرك أنك تتكلم ، وكما أنك متأكد من هذه الحقيقة ولا تشك فيها لأنك تباشرها بنفسك ، فكذلك لا تشكّ فى مسألة الرزق ، وأنه من عند الله وثقْ بهذا الخبر ، لأن الذى أخبرك به صادق .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥)﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولأنه خبر هام وعجيب بدأه الحق سبحانه بهذا الاستفهام ﴿هَلْ أَتَاكَ ..(٢٤)﴾ [الذاريات] وهل تلازم دائماً الشىء العجيب الذى يستحق أنْ نلتفت إليه .

ويشوِّقنا الحق سبحانه إلى معرفته ، كما فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف] يُشوِّقنا لنقول : نعم يا رب دلنا .

ولأن قصة ضيف سيدنا إبراهيم قصة عجيبة قال الله عنها ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ .. (٢٤)﴾ [الذاريات] أى نبأ ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات]

وسيدنا إبراهيم أبو الأنبياء كرَّمه الله بقوله : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] .. (١٢٠)﴾ [النحل] لأن فيه من الفضائل ومن خصال الخير ما يوجد فى أمة بأكملها ، لأن الله تعالى وزع الفضائل على الخَلْق جميعاً ، فأنت لك فضيلة ، وغيرك له فضيلة ثانية وثالثة وهكذا .

هذا ليتكاتف الخَلْق ويتعاون الناس ، وإلا لاستغنى بعضنا عن بعض ولحدث التفكك فى المجتمع ، لذلك تجد العاقل لا يحتقر أحداً مهما رأى نفسه أفضل منه لأنه يعلم ميزان المساواة بين الخَلْق فى هذه الفضائل ، فيقول فى نفسه : إنْ كنت أفضل منه فى شىء فلا بدَّ أنه أفضل منى فى شىء آخر .

وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته . فلا تحتقرن طاعة مهما قلَّتْ ، فإن الله قد غفر لرجل لأنه سقى كلباً يأكل الثرى من العطش .

وأخفى غضبه فى معصيته فلا تحقرن معصية مهما صَغُرَتْ ،

---

(١) عن ابن مسعود أنه سُئل : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه والفريابى وسعيد بن منصور والحاكم فى مستدركه وصححه . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى المراد بالأمة هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الأمة الذى يعلم الناس الخير .

الثانى : أنه المؤمن وحده فى زمانه . قاله مجاهد .

والثالث : أنه الإمام الذى يُقتدى به . قاله قتادة ومقاتل .

فإن الله تعالى أدخل امرأة النـار فى هرَّة حبستها ، فلا هى أطعـمتها وسَقَتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش[1] الأرض . وأخفى أسراره فى خلقه فلا تحقرن عبداً ما »[2] .

والإمام على رضى الله عنه يقـول : عندما ترى مَنْ هو أدنى منك فى شىء فتحَسَّر ، لأنك لا تعرف الفضيلة التى فضَّل بها عليك ، ولا بدَّ للخَلْق أنْ يعى هذه الحقـيقة لأنهم أمام الله سواسـية ، والله تعالى لم يلد ولم يولد ، وخَـلْقه عـنده سواء ، لا يتـفـاضلون إلا بالتـقـوى والعمل الصالح .

كلمة ﴿ حَدِيثُ .. (٢٤) ﴾ [الذاريات] يعنى الخبر المـتداول ، وفيه حقيقة أو حكمة ، لذلك يتداوله الناسُ ويهتمون به ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ .. (٢٤) ﴾ [الذاريات] جاءت كلمة (ضيف) مفردة مع أنهم كانوا جمعاً من الملائكة ، فلم يقل ضيوف ولا أضيـاف ، إنما اختار اللفظ المفرد ، فقال : (ضيف) .

قالوا : لأن (ضـيف) تُطلق على المفـرد والمثنى والجـمع ممَّنْ

---

(١) الخشاش بالكسر : الحشرات. قال أبو عبيد : هوام الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها . [لسان العرب - مادة : خشش] .

(٢) وجدت نحو هذا فى الزهد الكبير للبيهقـى (٢/٢٧٢) (رقم ٧٦٧) أن أبا الحسن يحيى ابن الحسـين القاهرى قال : قـدمت مصر فجـئت إلى حلقة ذى النون فرآنى وفى اسـتظهار على الحاضرين فقال لى : « لا تفعل فإن الله تعالى أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى غضبه فى معـصيته ، وأخـفى رضاءه فى طاعته ، وأخـفى ولايته فى عباده ، فـلا تحقرن شيـئاً من معاصيه فلعله أن يكون فـيه غضبه ، ولا تحقرن شيئاً من طاعـته فلعله يكون فيه رضاؤه ، ولا تحقرن أحداً من خلق الله فلعله أن يكون ولياً من أوليائه » .

استدعيته إلى بيتك أو جاءك فصار ضيفاً عليك ، والمستضيف ينبغى أنْ يعامل الأضيافَ جميعاً معاملة واحدة ويستقبلهم بوجه واحد لا يُفضل أحداً على أحد ، ولا يحتفى بأحد دون الآخر .

فكأنهم عنده شخص واحد لا يميز أحداً ، لا فى مجلسه ولا فى نظره إليهم ، لذلك عبَّر القرآن عنهم بصيغة المفرد ، فهم فى حكم الرجل الواحد .

وقد علمنا سيدنا رسول الله ﷺ هذا الدرس ، فقد روى عنه ﷺ أنه كان يُسوى بين جُلسائه حتى فى نظره إليهم[1] حتى ليظن كل منهم أنه لا يوجد فى المجلس غيره .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة تستخدمُ المفرد وتريد به الجماعة ، ذلك حينما يكون توجههم واحداً وهدفهم واحداً ، وحينما يجتمعون على أمر الله ، وأمر الله دائماً واحد لا اختلافَ فيه ، والجماعة حينئذ فى حكم الواحد .

اقرأ هذا مثلاً فى قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى وسيدنا هارون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الشعراء]

إذن : ضيف يعنى أضياف ، ومعنى ﴿ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ [الذاريات] جمع مكرم ، وهو الذى يقع عليه الكرم من غيره ، والفاعل مُكرِم

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٧٨٦٨) من حديث هند بن أبى هالة فى حديث طويل فى وصف رسول الله ﷺ : « وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه » وكذا فى الشمائل المحمدية للترمذى (١٦٨) عن على . وبنحوه أبو الشيخ الأصبهانى فى أخلاق النبى وآدابه (٢٢) .

والمفعول مُكرَم ، فوصف الملائكة بأنهم مكرمون فمَنْ أكرمهم ؟

قالوا : لها معنيان : أكرمهم الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

أو مُكرمون أكرمهم سيدنا إبراهيم حينما أعدَّ لهم طعاماً وباشر خدمتهم بنفسه لا بعبيده ، وجعل امرأته تشاركه فى خدمتهم ، مع أن المرأة مستورة وأكرمهم بأنْ بادرهم بالتحية .

ثم إنه لم يقدم لهم الطعام الحاضر ، إنما أكرمهم وذبح لهم عجلاً مرة وصفه بأنه سمين ، ومرة وصفه بأنه حنيذ[1] وهذا كمال فى الوصف ، فهو سمين فى ذاته . أى : ليس هزيلاً فى تكوينه . وهو حنيذ ، والحنيذ هو أفضل أنواع الشواء عندهم ، فهو من حيث طريقة طهيه حنيذ مشوى ، وهذا منتهى الإكرام .

وقوله : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ.. (٢٥) ﴾ [الذاريات] أى : الملائكة فى صورة بشر ﴿ فَقَالُوا سَلامًا .. (٢٥) ﴾ [الذاريات] فردّ عليهم ﴿ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) ﴾ [الذاريات] أى : غير معروفين لنا ، ويقال : إنه قالها فى نفسه ولم يجهر بها .

ونلاحظ هنا فرقاً بين سلام الملائكة وردّ السلام من سيدنا إبراهيم ، لأنهم حيَّوْه بقولهم ﴿ سَلامًا ..(٢٥) ﴾ [الذاريات] هكذا بالنصب فردَّ عليهم ﴿ سَلامٌ .. (٢٥) ﴾ [الذاريات] بالرفع ، هم بادروه

---

(١) حنذ اللحم : شواه على الحجارة ، فهو حنيذ أى مشوى ، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ فى الماء . [القاموس القويم ١/١٧٥] . وقال فى لسان العرب (مادة : حنذ) : هو الذى يقطر ماؤه وقد شُوى . قاله شمر .

بالسلام ، لأن القادم قد يخشى المقدوم عليه منه ، فبادروه بالسلام ليأمن جانبهم .

وكلمة ﴿ سَلامًا ..(٢٥)﴾ [الذاريات] بالنصب دلَّتْ على أنها مفعول لفعل مقدّر أى : نسلم عليك سلاماً ، والجملة الفعلية تدل دائماً على حدث سيحدث ، وهو الأمر الذى جاءوا من أجله .

أما ردُّ السلام فكان بالرفع ﴿ سَلامٌ.. (٢٥)﴾ [الذاريات] أى : سلام عليكم ، فهى جملة اسمية ، والجملة الاسمية تدلُّ على الثبوت ، وهو حال المستقبل سيدنا إبراهيم .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ(١) فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦)
فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) ﴾

معنى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِه ..(٢٦)﴾ [الذاريات] أى : ذهب خُفْية من الضيوف إلى امرأته ، لأن العادة ساعة يدخل الضيف يقوم المضيف ليعدَّ له ما يكرمه به ، فيقول له الضيف : اجلس والله ما أنت قايم ، لذلك تسلَّل سيدنا إبراهيم خُفْية من أضيافه ليُعدَّ لهم الطعام دون أنْ يشعروا به ، ودون أنْ يقولوا له اجلس لا نريد شيئاً .

فلما جاءهم بالعجل السمين المشوى قرَّبه إليهم وقدَّمه أمامهم ليأكلوا ، فرأى أنهم لا يُقبلون على الطعام كعادة الناس ، قال لهم

---

(١) راغ إلى أهله : أى مال إلى أهله فى إخفاء من ضيفه لئلا يعوقوه عن إحضار الطعام لهم شأن الرجل الكريم . وراغ إلى الشىء : مال إليه سراً فهو قد حاد عن الناس حتى لا يروه . [القاموس القويم ١/٢٨١]

﴿أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧)﴾ [الذاريات] يحثهم على الأكل ، لكنهم لم يأكلوا ولم تمتدَّ أيديهم إلى الطعام فأحسَّ بالخوف منهم :

﴿ فَأَوْجَسَ(١) مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ(٢) فَصَكَّتْ(٣) وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾

لما بدت على إبراهيم علامات الخوف بادرته الملائكة تُطمئنه ﴿لا تَخَفْ ..(٢٨)﴾ [الذاريات] ثم بشَّروه بغلام عليم هو سيدنا إسحاق ، ووصفه بأنه عليم يعنى يبلغ فى العلم مبلغاً ، لكن كيف ذلك وسيدنا إبراهيم رجلٌ عجوز وامرأته سارة عقيم لا تلد .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ .. (٢٩)﴾ [الذاريات] فى ضجة وصيحة شديدة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ..(٢٩)﴾ [الذاريات] لطمتْه مُتعجبة من هذه

---

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . والوجس : الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك . [لسان العرب - مادة : وجس] .

(٢) الصَّرة : أشد الصياح . وقيل لامرأة : أى النساء أبغض إليك ؟ فقالت : التى إن صخبت صرصرت . والصرة : الضجة والصيحة والجَلَبة . [لسان العرب مادة : صرر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٧٤) : أى فى صرخة عظيمة ورنة وهى قولها : يا ويلتى .

(٣) صكت وجهها أى ضربت بيدها على جبينها . قاله مجاهد وابن سابط . وقال ابن عباس : لطمت أى تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب . [ابن كثير فى تفسيره ٤/٢٣٦] .

البشرى ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) ﴾ [الذاريات] يعنى : كيف ألد وأنا عجوز عقيم .

إذن : قاستْ المسألة بمقياس الأسباب البشرية ، فالأسباب البشرية تقول أنها مستحيل أنْ تلد ، لكن لله تعالى مقياساً آخر ، ولقدرة الله كلام آخر نطقتْ به ملائكة الله .

﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾ [الذاريات] كلمة ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ .. (٣٠) ﴾ [الذاريات] يعنى : ما دام قد قال سبحانه فهو أمر واقع لا شكَّ فيه ، لأن قدرة الله فوق الأسباب .

وهذا التعجب من السيدة سارة لما بُشِّرتْ بإسحق ، رأيناه من السيدة مريم لما بُشِّرت بعيسى عليه السلام ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ..(٤٧) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾ [الذاريات] الحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه ، والعليم هو الذى يحيط علمه بكل شىء ، ويعلم أنه إذا أمر بشىء أطاعه ولم يمتنع عليه .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾

﴿ قَالَ .. (٣١) ﴾ [الذاريات] أى : سيدنا إبراهيم عليه السلام للقوم الذين دخلوا عليه ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ .. (٣١) ﴾ [الذاريات] يعنى : ما شأنكم ؟ وما حكايتكم ؟ وما الأمر الخطير الذى جئتم من أجله ؟

كلمة الخطب تدل على الأمر الخطير وحدث هام أراد أنْ يعرف ما هو وهل هو متعلق به أم بغيره ؟

وهذه الكلمة جاءت بهذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ..(٥١) ﴾ [يوسف] أى : الأمر العجيب الذى حملكن على هذا الفعل .

وقالها سيدنا موسى لما رأى ابنتىْ سيدنا شعيب قد خرجتا لسَقْى الغنم ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا.. (٢٣) ﴾ [القصص] أى : ما الذى ألجأكنَّ للخروج ، فكأنه أمر عجيب غير عادى . إذن : هذه الكلمة وُضعت للأمر الخطير الذى يدعو إلى الدهشة والتعجب .

فردَّ الملائكة ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [الذاريات] وهنا اطمأن سيدنا إبراهيم ، وعرف أن الأمر لا يتعلق به ، والقوم المجرمون فى هذا الوقت هم قوم لوط ، ثم بيَّنوا مهمتهم ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) ﴾ [الذاريات]

ومفهوم أن الحجارة تختلف عن الطين ، الحجارة فيها صلابة وقساوة تختلف قوة وصلابة حسب نوع الحجر بداية من المرمر ، ثم الجرانيت والرخام والجير .

فكيف تكون الحجارة من طين ، وهما وصفان فى الظاهر متناقضان ؟ قالوا : هو طين أحْمِى عليه فى النار حتى صار صلْباً قاسياً ، كما نفعل مثلاً فى صناعة الفخار .

ومعنى ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾ [الذاريات] أى : مُعلَّمة ، فكلُّ حجر منها يحمل اسم صاحبه وعنوانه ، فهو مُخصص له لا

لغيره ومُوجَّه إليه لا يخطئه .

وقوله ﴿عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤)﴾ [الذاريات] دلّ على أنها نزلتْ من السماء وليستْ من حجارة الأرض ، وأنها مُعلَّمة من عند الله جاءت هكذا جاهزة ، ونحن مهمتنا أنْ نرميهم بها بأسماء أصحابها ، فلا يختلط حجر بحجر .

ومعنى ﴿لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات] المسرف هو الذى تجاوز الحدَّ فى المعصية فكأن هناك حدوداً للأمور ، وحدوداً للحلال وحدوداً للحرام ، وقد بيَّنها الحق سبحانه ، وعلَّمنا كيف نقف عند هذه الحدود ، فقال تعالى فى الحلال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وقال فى الحرام ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] أى : قفْ عند حدود الحلال لا تتجاوزه إلى غيره ، أما الحرام فإياك أنْ تقربه . احذر مجرد الاقتراب منه ، لأنك لو اقتربتَ منه تُوشك أنْ تقع فيه فهى حماية لك .

كما قال سبحانه لآدم ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] وقال ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢)﴾ [الإسراء] ففى الحرام لا يمنعنا من الفعل ، بل يمنعنا من الاقتراب من أسبابه .

ففى أىِّ شىء أسرف هؤلاء المجرمون المسرفون ؟ أسرفوا فى فعل مُحرَّم يناقض الطبيعة النقية التى خلقها الله ؛ لأن الله تعالى لما أراد أنْ يجعل خليفة فى الأرض خلق آدم وخلق معه زوجه ليتم التكاثر ، وتأتى القبائل التى تعمر الأرض ، لأن عمارتها لا تقوم

بواحد أو اثنين إنما تحتاج إلى جمهرة من الناس .

ثم جعل التكاثر أيضاً في كل شيء يريد له النمو والاستمرار ليخدم هذا الخليفة ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات]

فإذا كان الإنسانُ سيتكاثر فلا بدَّ أنْ تكبر رقعة الأرض التي يعيش عليها ويتكاثر النبات الذي يعيش عليه ، قال تعالى : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. ﴿١﴾﴾ [النساء] إذن : نحتاج إلى زرع يتناسب وهذه الزيادة .

والمتأمل في مسألة التكاثر هذه في النبات وفي الإنسان يجدها بحسب أهمية الشيء ومدى الاستفادة منه والانتفاع به . قلنا مثلاً : حينما تزرع الفجل يمكن أنْ تأكل منه بعد عشرة أيام ، والخيار بعد أربعين يوماً ، والتمر بعد أربعة أعوام .

فكل شيء قبل أن يعطيك يأخذ منك على قدر أهميته ، فإنْ أردتَ الإنسان فإنه ولا شكَّ يحتاج إلى كثير من الجهود والتبعات ، لذلك ربطه الخالق سبحانه في مسألة التكاثر بلذة جامحة تفوق كلَّ لذة أخرى يشعر بها الإنسانُ في كُلِّ جوارحه تفوق لذة العين حين ترى ، والأذن حين تسمع ، واللسان حينما يتذوق ، والأنف حينما يشم ، واليد حينما تلمس ، لأن الجوارح لكل منها مهمته ووجهته .

أما لذة الجنس فهي تستغرق الجوارح كلها ، ولولا أن الخالق سبحانه ربط التكاثر بهذه اللذة ما أقبل أحدٌ عليه ولا تحمَّل تبعاته .

ولك أنْ تتصور الفرق بين تربية طفل وتربية حَمَل أو عجل مثلاً ، الحَمَل يقوم ويمشي خلف أمه بعد عدة دقائق من ولادته ، والطفل

يمشى بعد عام ونصف العام .

ومَشْيه يأتى على مراحل ، فبعد عدة شهور يستطيع أنْ يجلس ، وبعد عدة شهور أخرى يحبو ثم يقف ثم يمشى .

لذلك نرى طفولة الإنسان أطول طفولة فى المخلوقات كلها ، ومن هنا ربط الخالق سبحانه عملية التكاثر فى الإنسان بهذه اللذة الجارفة التى لا يستطيع الإنسانُ مقاومتها لتكون حافزاً له على التكاثر ، وإلا ما أقبل على تحمُّل هذه المسئولية وهذه المعاناة .

ومن هنا أيضاً اهتم الإسلام بتكوين الأسرة ، ووضع لها من الضوابط ما يكفل لها النجاح ، فهذه الغريزة لا تأتى هكذا كما فى الحيوانات ، إنما جعل لها قواعد لاختيار الزوجة الصالحة ، وحَثَّ على اختيار ذات الدِّين ، وجعل فترة للخطوبة ليتعرَّف كلٌّ طرف على الآخر .

وأباح لكل منهما أنْ ينظر إلى الآخر ليختار كلٌّ من الزوجين ما يناسبه ويُرضى ذوقه ورغبته فى الجنس الآخر ، ثم شرع المهر وعقد القران ، كل ذلك لتكون نواة الأسرة قوية متينة ، مُعدَّة لاستقبال الحياة بكلِّ ما فيها من تبعات ومسئوليات .

والجريمة التى ارتكبها هؤلاء القوم واستحقوا بها ما حاق بهم من ألوان العذاب أنهم صرفوا هذه الغريزة التى جعلها الله فى الإنسان عن وجهها الحلال إلى وجه آخر محرم لا فائدة منه ولا ثمرةَ له .

وجه ينافى الفطرة السليمة والأذواق المستقيمة ، فكانوا يأتون الذكران بدل أنْ يأتوا النساء كما أحل الله ، ومعلوم أن الإتيان مقصور على مكان الحرث والاستنبات .

﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ[1] أَنَّىٰ شِئْتُمْ ..(٢٢٣)﴾ [البقرة]

إذن : فعلتهم هذه كانت إسرافاً منهم على أنفسهم ، ومجاوزة للحد الذى شرعه الله ، والإتيان فى غير المحلِّ يستوى فيه إتيان الرجل وإتيان المرأة فكله محرم .

ولما كان هذا الفعل زنا يستحق الرجم رجمهم الله لا بحجارة من الأرض ، إنما بحجارة من السماء تنزل على كلٍّ واحد منهم باسمه تخصُّه دون غيره ، بحيث لم تُبْقِ منهم أحداً وأبادتهم عن بكْرة أبيهم .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾

أى : قبل أنْ ينزل بهم العذاب أخرجنا مَنْ كان فى القرية من المؤمنين ، والمعنى : ما قلنا لهم اخرجوا ، إنما هيأنا لهم سبيل الخروج بخواطر قذفناها فى نفوسهم ، فخرجوا ولم يُصبْهم العذاب .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا .. (٣٦) ﴾ [الذاريات] أى : فى القرية ﴿ غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ [الذاريات] إذن : تكلم أولاً عن المؤمنين ثم عن المسلمين ، ومعلوم أن الإيمان أعم من الإسلام ، فالإيمان أمر عقدىّ ،

---

(١) الحرث : المزدرع . وكنى به ها هنا عن الجماع ، فسماهن حرثاً لأنهن مزدرع الأولاد كالأرض للزرع . ومعنى ﴿ أنى شئتم ﴾ أى كيف شئتم مقبلة أو مدبرة وعلى كل حال إذا كان الإتيان فى الفرج ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطية والسدى وغيرهم . وهناك قول آخر أى : إن شئتم ومتى شئتم وهو قول ابن الحنفية والضحاك . قاله فى زاد المسير لابن الجوزى .

والإسلام أمر سلوكى ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

والإيمان والإسلام يلتقيان فى أنك لا تُسلم زمامك فى التكليف إلا لمَنْ آمنتَ بحكمته فى التكليف ، أما إنْ نافق المؤمنُ أو راءى فموضوع آخر ، لذلك قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ[1] آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] فردَّ عليهم ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : الإسلام الظاهرى ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

إذن : هنا قال فى الناجين المؤمنين والمسلمين ، وفى موضع آخر قال : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] لأن الأهلية على حقيقتها ليستْ أهلية الدم والنسب ، إنما أهلية الدعوة ، أهلية اتباع بدليل قول النبى ﷺ : « سلمانُ منَّا أهل البيت »[2] .

وسيدنا نوح لما قال لربه عز وجل : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود] قال له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧) ﴾ [الذاريات] أى : فى القرية والمكان الذى حدثت فيه هذه العملية ، قالوا :

---

(١) الأعراب هم أهل البوادى والصحارى فليسوا من أهل الحضر فى القرى والأمصار ، وفيهم غلظة وقسوة قد يكون ناتجاً عن بيئتهم وبيوتهم التى يسكنون فيها من خيام فى العراء ، ومنهم : ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾ [التوبة] .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٦١٦ ، ٦٦١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٥٩٠٨) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٠٦) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٢٩٥٦) من حديث كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده .

الآية الباقية بعد هلاكهم هى الحجارة التى أهلكهم الله بها ما تزال موجودة ، ومَنْ يراها يقول : هذه ليست من حجارة الأرض ، بل هى نوع آخر هى الحجارة التى نزلتْ على هؤلاء المجرمين فأهلكهم الله بها . وهكذا تظل هذه الآية باقية لردْع كلّ مَنْ تُسوِّل له نفسه أنْ يفعل فعلهم .

وقالوا[1] : بل الآية التى تركها الله شاهداً عليهم هى عَيْنٌ مُنتنة ، لا يطيق الإنسانُ أنْ يشمَّها .

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ[2] وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن طرف من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام تُحدثنا الآن عن سيدنا موسى عليه السلام ، لماذا ؟ لأن القرآن كثيراً ما يأتى بإبراهيم وموسى فى قرن واحد لما بينهما من

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : أى تركنا علامة للخائفين من عذاب الله تدلهم على أن الله أهلكهم . وقال فى تفسير آية العنكبوت ٣٥ : فى الآية ثلاثة أقوال : أحدها : أنها الحجارة التى أدركت أوائل هذه الأمة . قاله قتادة . والثانى : الماء الأسود على وجه الأرض . قاله مجاهد . والثالث : الخبر عما صُنع بهم .

(٢) قوله (بركنه) قال مجاهد : بأصحابه . وقال أبو عبيدة : (بركنه) و (بجانبه) سواء ، إنما هى ناحيته . قاله ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية . وقال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة وجوه : أحدها : بجموعه وأجناده . قاله ابن زيد . الثانى : بقوته . قاله ابن عباس . الثالث : بجانبه . قاله الأخفش . الرابع : بميله عن الحق وعناده بالكفر . قاله مقاتل . ويحتمل خامساً بماله لأنه يركن إليه ويتقوى به .

تشابه فى مسيرة الدعوة إلى الله .

اقرأ : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] وقال : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم]

فالقرآن يربط بينهما لأن سيدنا إبراهيم أول ما تعرَّض فى أمر الدعوة تعرَّض للرجل الذى حاجَّه فى ربه ، ويبدو من سياق القصة أنه ادَّعى الألوهية بدليل قوله ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة]

وبعد ذلك كان لإبراهيم مواقف فى إظهار آيات الله للناس ، فهو أول مَنْ علَّمهم أنْ ينظروا فى الآيات الكونية ، ثم كانت له مواقف مع عبدة الأصنام ، خاصة مع أبيه آزر ، ثم جاءت أحداث إلقائه فى النار ، ثم رُزِقَ الولد ، وابتُلِى بالأمر بذبحه ، ثم جاءت قصة بناء البيت ، إلى آخر أحداث قصته .

لذلك قال الله فى شأنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة] أى : أدّاها كاملة لا بالمنطق العادى فى الأشياء ، إنما بمنطق الإجادة والإحسان ، لذلك مدحه ربُّه فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل] أى : يجمع من خصال الخير ما لا يتوفر إلا فى أمة كاملة .

كذلك مَرَّ سيدنا موسى، عليه السلام بمواقف وابتلاءات مشابهة

---

(١) قال الشوكانى فى (فتح القدير) : اختلف العلماء فى تعيين الكلمات . فقيل : هى شرائع الإسلام . وقيل : ذبح ابنه . وقيل : أداء الرسالة . وقيل : خصال الفطرة . وقيل : هى قوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة] . وقيل : بالطهارة . قال الزجاج : هذه الأقوال ليست متناقضة لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم .

فى رحلة دعوته لفرعون الذى ادَّعى الألوهية ، فقال لقومه : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨)﴾ [القصص]

الواو فى ﴿وَفِي مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [الذاريات] عاطفة ، فالمعنى فى موسى آية من آيات الله معطوفة على قوله تعالى : ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات] كذلك فى موسى آيات ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾ [الذاريات] أى : بحجة واضحة بيِّنة .

وسبق أنْ أوضحنا أن السلطان قد يكون سلطانَ قوة وقهر تخضع المقابل ، أو سلطانَ برهان وحجة يقنعه .

سلطان القهر يقهر القالب ، وسلطان الحجة يقنع العقل ويستميل القلب ، وموسى عليه السلام لم يكُنْ يملك إلا حجةَ الإقناع ، ولا قوة له على فرعون يقهره بها ، فأعطاه الله سلطاناً مبيناً يقنع به فرعون ، وهو الآيات والمعجزات التى صاحبتْ دعوته .

والمعجزة لا تؤتى ثمارها فى القوم إلا إذا كانت من جنس ما نبغوا فيه وأتقنوه ، ولو تحداهم بشيء لا يعرفونه ما كان للتحدى معنى ، لذلك كانت معجزة سيدنا رسول الله ﷺ القرآن ، لأن العرب نبغوا فى البلاغة والفصاحة ، فتحدَّاهم بما نبغوا فيه .

أما قوم فرعون فقد نبغوا فى السحر فكانوا سحرة ، لكن مُكرهين على السحر بدليل أن فرعون لما استدعاهم من الآفاق لمقابلة موسى بسحرهم قالوا ﴿أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١)﴾ [الشعراء] لأن الأعمال التى كانوا يعملونها كانت سُخْرة بدون أجر ، كما رأينا مثلاً فى بناء الأهرامات .

والأصل فى دعوة سيدنا موسى أنه ما جاء ليدعو فرعون إنما ليأخذ منه بنى إسرائيل ، ولينقذهم من بطشه ، هذا هو الأصل لكن جاءتْ دعوته لفرعون على هامش هذا الأصل وتابعة له ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

فقبل أنْ يدعو موسى بنى إسرائيل كان عليه أنْ يخلصهم من فرعون واستبداده بهم ، ومعلوم أن فرعون اضطهد بنى إسرائيل لأنهم ساعدوا الهكسوس لما أغاروا على مصر وتعاونوا معهم ضد فرعون ، حتى انتصر الهكسوس وألغوا الفرعونية وجعلوها ملكية .

لذلك عرفنا أن الهكسوس دخلوا مصر فى عهد سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن القرآن لما تكلَّم عن حكام مصر تكلم عن فرعون ، لكن لما ذكر يوسف ذكر لفظ الملك ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ .. (٥٠) ﴾ [يوسف] ولم يأت بلفظ الفرعون .

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُخلِّص بنى إسرائيل من قبضة فرعون أرسل موسى لهذه المهمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ [الذاريات] أى : فرعون أعرض عن موسى ودعوته ﴿ بِرُكْنِهِ .. (٣٩) ﴾ [الذاريات] أى : أعرض بسبب ركنه . أى : قوته وسلطانه وجبروته واستعلائه فى الأرض . أو برُكْنه يعنى بجانبه .

وحين تُعرض عن إنسان تعطيه جانبك ، ثم تدير له ظهرك بعد أنْ كنتَ فى مواجهته ، وهذه المسألة صوَّرها القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. (٣٥) ﴾ [التوبة]

وبهذا الترتيب يكون الإعراض عن طالب الحاجة ، حيث يُعرض أولاً بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، وهكذا يكون الكَيُّ يوم القيامة جزاءً وفاقاً ، وعلى قَدْر حركات الامتناع عن الخير .

وقوله : ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الذاريات] تأمل التناقض حتى فى الاتهام ، فالساحر له قدرة على ترتيب الأشياء ، وعنده ذكاء بحيث يُخيِّل للناس رؤية الأشياء على خلاف ما هى ، أما المجنون فعلى خلاف ذلك ، لأنه لا يُرتِّب الأشياء ، ولا قدرةَ له على السيطرة على مراداته ونزوعه ، لكنه تخبُّط الباطل وإفلاسه .

ثم ينتقم الحق سبحانه من فرعون ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ(١) وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الذاريات] أخذهم الله بأنْ ألقى فى نفوسهم حبَّ اللحاق بموسى وأغراهم بذلك حتى تبعوهم وخاضوا البحر خلفهم .

فأطبق الله عليهم الماء فأغرقهم بعد أنْ نجَّى موسى وبنى إسرائيل ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الذاريات] ألقيناهم فى البحر (وهو) أى فرعون ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الذاريات] أى : فعل ما يُلام عليه من عُتوه وجبروته وادعائه للألوهية .

والمعنى : أن الله تعالى لم يُهلكه وجنودَه بظلم أو جبروت ، إنما أهلكهم بما يستحقون من العذاب .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

(١) اليم : البحر الذى لا يُدرك قعره ولا شطاه . ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء . [لسان العرب – مادة : يمم] .

أيضاً هنا الواو عاطفة تعطف ﴿وَفِي عَادٍ .. (٤١)﴾ [الذاريات] على ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات] وعلى قوله ﴿وَفِي مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [الذاريات] والمعنى : وفي عاد آية لكم ، فكأن القرآن يُسلِّي سيدنا رسول الله يقول له : لا تحزن من عناد قومك لك ، ووقوفهم في وجه دعوتك .

فالعاقبة لك ، ومصيرهم سيكون مثل مصير أمثالهم من المكذِّبين للرسل السابقين ، فلك فيهم عبرة .

﴿وَفِي عَادٍ .. (٤١)﴾ [الذاريات] أتى باسم القبيلة ولم يذكر النبي. وفي موضع آخر قال : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥)﴾ [الأعراف] فذكر القبيلة لأنه يتحدث عن سوء عاقبتها وما نزل بها لما كذَّبتْ نبيها ، وعاد عند الأحقاف .

وقد قال الله فيهم : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] ثم ذكر بعدها ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢)﴾ [ص]

فكأن حضارة عاد كانت أقوى وأعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب ، لأن الله أهلكهم بالريح فدفنتهم تحت الرمال ، ولا عجب في ذلك فهذه منطقة رملية إذا هبَّتْ فيها عاصفة فيمكن أنْ تطمر قافلة كاملة تبتلعها الرمال .

لذلك نجد آثار هذه الأمم حفائر تحت الأرض[1] .

---

(١) من هذه الأمم أمة عاد التى قال الله عنها : ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] فعن طريق أحد مكوكات الفضاء استطاعت ناسا الوصول لوجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التى تملأ حوض الربع الخالى ، وقد أثبتوا أنها قلعة ذات ثمانية أضلاع سميكة الجدران بأبراج فى زوايا مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقطرها ٣ أمتار (إرم ذات العماد) [مجلة تايم الأمريكية ١٩٩٢/٢/١٧] .

ومعنى ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات] أى : الريح المدمرة المهلكة ، لأن الريح قد تهبُّ ليِّنة سلسة رقيقة ، وتسمى النسيم ، وقد تشتد فتكون إعصاراً مدمراً ، فهى آية من آيات الله تكون نعمة وتكون نقمة .

الريح هى الهواء الذى نتنفسه ، وهو أهم عنصر فى عناصر استبقاء الحياة ، ولو مُنع عن الإنسان يموت ولو نَفَس واحد ، والهواء عنصر أساسى فى تكوين الماء وبه تسير السُّحب وينزل المطر ، وبه يحيا الحيوان والنبات وهو الذى يُلقِّح الثمار والمزروعات .

وسبق أنْ قلنا إن الريح تأتى فى الشر وفى الهلاك ، أما الرياح بالجمع فتأتى فى وجوه الخير ، فقال هنا ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات] أى المدمِّرة ، وقال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

ووصف الريح هنا بأنها عقيم ، لأنها لا فائدةَ منها ولا تأتى بخير ، لا مطر ولا لقاح ، إنما تأتى بالشر والخراب .

وقوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] معنى (تذر) أى : تترك ومثله الفعل تدع ، وكل منهما مضارع ليس له ماض فى اللغة إلا فى قراءة : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] فى قراءة (مَا وَدَعَكَ) بفتح الدال من غير تشديد .

أما الفعل (يذر) فليس له ماضٍ ، فهذه الريح لا تأتى على شىء ولا تمر على شىء إلا أهلكته وتركته ﴿ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] وهو الشىء الجاف الذى تفتت وصار هباءً تذروه الرياح .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

معنى ﴿ وَفِي ثَمُودَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الذاريات] أى : وآية أيضاً فى ثمود، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الذاريات] أى : اذكر إذ قيل لهم ﴿ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الذاريات] وهذا تهديد لهم ووعيد بعد ما فعلوه مع نبى الله صالح ، يقول لهم تمتعوا إلى حين ، فسوف يعاجلكم العذاب ، وسيأخذكم الله أخْذَ عزيز مقتدر .

ومع هذا التهديد والتوعُّد ظلوا على عنادهم ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات] فلم يُجد معهم التهديد ، والعتو يعنى : مالوا عن أمر ربهم وتركوه وهجروه .

وهذا الفعل (عتى) عُتواً يتعدى بـ (على) كما فى قوله تعالى : ﴿ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] وهنا تعدَّى بعن ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات] فقد عتوا عن الأمر لا على الآمر ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات] الصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى تصاحبه إما نار حارقة ، أو ريح مدمرة .

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الذاريات] أى لِهول ما نزل بهم فزعوا فزعاً أقعدهم ، فلم يستطيعوا القيام ولا الهرب من باب أولَى ، فالصاعقة صعقتهم وأفقدتهم القوى ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الذاريات] يعنى : لم يستطيعوا نصر أنفسهم ، ولم ينصرهم

أحد ، ولم يدافع عنهم أحد .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾

وقوم نوح أيضاً آية وعبرة ﴿مِّن قَبْلُ .. (٤٦)﴾ [الذاريات] قبل فرعون وقبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾ [الذاريات] خارجين عن طاعة الله مُكذِّبين لنبيه نوح عليه السلام .

وقد بسط القرآن قصتهم فى مواضع أخرى بالتفصيل ، وأن نوحاً لبث فى دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وأنهم صَمُّوا آذانهم عن دعوته واستغشوا ثيابهم ، وأصرُّوا واستكبروا استكباراً إلى أنْ يئس منهم نوح فدعا عليهم .

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

وهنا أجمل القول فيهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾ [الذاريات] أى : خارجين عن طاعة الله من قولنا : فسقت الرطبة عن قشرتها . أى : انسلختْ منها .

والرطب هو البلح اللين الذى توفر له الماء ففيه مائية ، لذلك جعله الله تعالى طعاماً للسيدة مريم ، فقال سبحانه : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ..

(١) قال ابن قتيبة : ديَّاراً أى أحداً . يقال : ما بالمنازل ديَّار أى : ما بها أحد وهو من الدار . أى : ليس بها نازل داراً . قاله ابن الجوزى فى زاد المسير . وقال الماوردى : فيها وجهان . أحدهما : أحداً . قاله الضحاك ، والثانى : من يسكن الديار . قاله السدى .

(٢٦)﴾ [مريم] أى : كانت الرطب بالنسبة لها طعاماً وشراباً فى آنٍ واحد .

فهذه صورة بيانية تُصوِّر شرع الله بالغشاء الذى يحمى الثمرة ، فالشرع يحمى المؤمن كما تحمى القشرة الثمرة ، فاحذر أنْ تخرج عن هذا الغشاء الذى يسترك ويحميك ويُزينك .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ(١) لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾

السماء يُراد بها كلّ مَا علانا ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ .. (٤٧) ﴾ [الذاريات] أى بقوة واقتدار وحكمة والبناء يتطلب العملية التى فيها مكين . ثم قال ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا .. (٤٨) ﴾ [الذاريات] أى : مهَّدناها وبسطناها .

فالسماء فيها صفة الثبات ، فقال ﴿ بَنَيْنَاهَا .. (٤٧) ﴾ [الذاريات] والأرض صفتها التغيير ، فالمرتفع منها يصير إلى منخفض والتضاريس عليها يطرأ عليها التغيير ، فقال ﴿ فَرَشْنَاهَا .. (٤٨) ﴾ [الذاريات] وهيأناها على وضع يُريح سكانها كما نُهيء للطفل فراشه ، فلا يكون فيه ما يقلقه .

﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) ﴾ [الذاريات] من كلمة المهد ، وهو الفراش

---

(١) زوجين : أى صنفين ونوعين مختلفين . قال مجاهد : يعنى الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٤٥٣] .

المريح ، وحتى فراش الطفل دائماً مـا ننظفه ونغيره من حين لآخر ، فكذلك الأرض من صفتها التغيُّر وعدم الثبات .

وقوله سبحانه ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات] وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] هذه الكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] جعلتنا ننتظر زوجية لا نعرفها .

ومع تقدم الـبحث العلمى وجـدنا زوجية فى الـذرة ، ووجدنا أن المطر لا يتكوَّن إلا إذا حـدث له تلقـيح ذرى ، وعرفـنا الزوجيـة فى التيار الكهربائي ، ووجدوها حتى فى الجمادات .

وما يزال فى جُعْبة العلماء الكثيـر ، وكلها مسائل كانت العقول لا تطيقهـا قبل ذلك ، لأن الأمة العربيـة التى نزل فيها القـرآن كانت أمة أمية ، ليس عندها شىء من الثقافة ، ولو كُشفتْ لهم هذه الأمور ربما ضاقوا بها وانصرفوا بسببها عن أصل الدعوة .

لذلك الحق سبحـانه وتعالى يعطيهم برقيـة موجزة فى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣)﴾ [فصلت] ليظلّ الباب مفتوحاً يستوعب كل التطورات ويحتاط لكل جديد .

فالسين دلتْ على المستقبل و(نريهم) مضارع يفيـد الاسـتمرار ، فهذه الاكتشـافات باقية ، ومعينها لا ينضب إلى يوم القيامة .

---

(١) الأفق : الناحيـة . وخط التقـاء السماء بالأرض فـى رأى العين ويستـعار لمـدى الاطلاع والذكاء فيقال : هو واسع الأفق وجمـعه آفاق . قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣)﴾ [فصلت] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

وإذا كانت عمليــة التكاثر فى الغالب والجمهـرة أنها تأتى من ذكر وأنثى ، فالحق سبحانه يحتـفظ لنفسه بطلاقة القدرة ، ويعطينا نماذج من البشر جاءتْ على غير هذه القاعدة .

وكـأنه سـبحـانه يقـول لنا : إياكم أنْ تظنـوا أننى أقف عند هذه الأسبـاب بل أخلق ما أشــاء ، أخلق من زوجين ، وأخلق بـلا زوجين أصلاً ، وأخلق من زوج واحد .

يعنى : استوعبت طلاقة القدرة فـى هذه المسألة كلّ أوجهها ، ثم ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً .. (٥٠) ﴾ [الشورى] فيتوفر الزواج ، لكن لا يأتى التكاثر .

ولأن مـسألة خلق الأزواج كلهـا مسـألة عـجيـبة اسـتهلهـا الحق سبـحانه بقـوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ..(٣٦) ﴾ [يس] يعنى : لا تتعجب لأنك أمام قدرة الله ، وتنزه سـبحانه عن أنْ تقيسه بشىء آخر .

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ ﴾

هذا أمر بالفرار ، والفرار أى الهـرب يكون من مخُوف يقبل عليك وأنت تخاف منه ، وتريد أنْ تنجو بنفسك منه وتفر إلى مأمن يحميك ، وهذه العملية عناصرها فارٌّ ، ومفرور منه ، ومفرور إليه .

والمخـاطبون هنا من الله تعالى هم عبـاده يقول لهم ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الذاريات] من أى شـىء يفرون ؟

إذا كان الفرار إلى الله ، فهم يفرّون من كل ما يناقض الله ، ومن كلِّ ما يخالف شرعه ، يفرون من إبليس الذى ينازع الله فى التكاليف ، يفرون من شهوات نفوسهم ، يفرون إلى الله من الأهواء والنزوات ، يفرون من العذاب إلى النعيم المقيم .

إذن : معنى الفرار هنا الانتقال من شيء مخيف إلى شيء آمن ، ولن تجدوا لكم ملجأ آمن لكم من حضن خالقكم سبحانه ، ففيه الأمن والراحة والسعادة والنعيم ، حتى العقوبة حينما يُشرِّعها على المخالفة يُشرِّعها من أجل أنْ تعودوا إليه وتفروا إلى ساحته .

فهو سبحانه حريص عليكم لأنكم عباده وصنعته ، وكلٌّ صانع يحرص على سلامة صنعته وحمايتها مما يتلفها .

ونحن بدورنا نتعلم من ربنا تبارك وتعالى هذا الدرس فنتقن أعمالنا ، كما علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يُتقنه »[1] .

فإتقان الصَّنعة يزيد النغمة الإيمانية العقدية فى الكون ، ويكفى أن كل مَنْ يرى صنعتك يقول : الله الله ، فتكون أنت سبباً لذكر الله ، وهذه النغمة لا يرددها الإنسان فحسب ، إنما يرددها الكون كله ويطرب لها ، فالإنسان ما هو إلا فرد فى هذه المنظومة الذاكرة .

إذن : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ..(٥٠) ﴾ [الذاريات] تعلقوا بحبله ، واستمسكوا بهديه ، وكونوا فى جانبه ، كونوا مع شرعه ، سيروا

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٩٠٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٠٨٠ ، ٥٠٨١ ، ٥٠٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

معه حيث سار ، كما يقولون عندنا فى الفلاحين (اتشعلق فى ربنا وحط رجلك زى ما أنت عايز) فما دُمْتَ فى جنب الله فلن يضرك شىء ، وصدق القائل :

يا رب حُبك فى دمى وكيانى نورٌ أغر يذوبُ فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى أنا لا أخافُ وفى رضاك أمانى

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [الذاريات] المتكلم هنا رسول الله فهو النذير من عند الله ، وقال ﴿نَذِيرٌ.. (٥٠)﴾ [الذاريات] لأن الفرار يناسبه الإنذار لتفرّ مما يخيفك إلى ما يُؤمِّنك . و﴿مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [الذاريات] أى : نذارتى لكم واضحة ، وحجتى بيِّنة ظاهرة .

﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾ [الذاريات] أى : لا تتخذوا إلهاً إلا الله تأتمرون بأمره ، ومعلوم أن الذين عبدوا الأصنام أو عبدوا ما دون الله تعالى ، عبدوها لأنها لا أوامرَ لها ولا تكاليف ولا منهجَ ، لذلك كانت عبادتها باطلة .

أما الله تعالى فهو الإله الحقّ الذى يستحق أنْ يُعبد وأنْ يُطاع فى أمره ونهيه ، والنهى فى ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٥١)﴾ [الذاريات] متعلق بالأمر فى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠)﴾ [الذاريات] حيث لا إله غيره ، ولا ملجأ لكم إلا هو .

وهذا هو الدين الحق الذى ارتضته الفطْرة السليمة منذ كُنَّا فى مرحلة الذر ، وأخذ الله علينا هذا العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ..(١٧٢)﴾[الأعراف] وما شذَّ الخَلْق عن هذا العهد إلا بسبب الغفلة أو وسوسة

الشيطان ونزغات وشهوات النفوس ، وما عبد الكفارُ الأصنام إلا لإرضاء فطرة التدين فيهم ، عبدوها تديناً بها ؛ إرضاء للفطرة ، وارتياحاً لعدم التبعة ؛ لأنها لا أمر لها ، ولا نهى .

وعلى العاقل قبل أنْ يقدم على العمل أنْ يستحضر عواقبه والجزاء عليه ، فحينما يُقبل على المعصية يتصوَّر العذاب الذى ينتظره عليها ، وحينما يكسل عن الطاعة يتصوَّر النعيم الذى أُعدّ له ، ولو فعل الناسُ ذلك ونظروا فى العواقب لفرُّوا من المعصية إلى الطاعة .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات] أى : كما حدث لمَنْ تقدم ، وحصل لهم ما حصل من نزول العذاب بهم بالصاعقة وبالريح العقيم فانتظر أنْ ينزل بهم مثل هذا ، فما هم عنه ببعيد ، ولا تحزن فلستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات]

وسبق أن اتهموا رسل الله بالسحر وبالجنون ، فاصبر ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

يعنى : إن لم ينزل بهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة .

وقد رحم الله هؤلاء المكذِّبين لرسوله رغم كفرهم وعنادهم تقديراً لوجود رسول الله بينهم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً على هداية قومه مهما حدث منهم ، وكان يناجى ربه دائماً يقول : أمتى أمتى[1] .

وسبق أنْ بيَّنا بطلان هذا الاتهام ، فالنبى لا يكون أبداً ساحراً ولا مجنوناً ، فهاتان الصفتان أبعد ما تكونان عن وصف النبى ، لأنه قدوة فى السلوك وما شاهدتم عليه أبداً علامة من علامات السحر أو الجنون .

ولو كان ساحراً لسحركم فآمنتم به كما آمن غيركم ، ولو كان مجنوناً لما استطاع ترتيب الأمور على هذه الصورة ولما بلَّغكم رسالة ربه ، ثم إن الاتهام بالسحر ينافى الاتهام بالجنون ، فكيف جمعتم عليه هاتين الصفتين ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ .. ۝ ﴾ [الذاريات] كأن الأمم المكذِّبة على مَرِّ التاريخ أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول : قولوا للنبى ساحر ومجنون ، وكأنه اتفاق مسبق بينهم وإصرار منهم على تكذيب الرسل ، والتمادى فى اللدد والعناد .

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاصى أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي .. ۝ ﴾ [إبراهيم] . وقال عيسى عليه السلام " ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾ [المائدة] فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك . فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم . فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : «إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك» أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٠١) والنسائى فى السنن الكبرى (١١٢٦٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٥١٥) وفى الأوسط (٩١٤١) وابن أبى حاتم فى تفسيره (٧٠٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك يُضـرب الله عنهم وعن اتهـاماتهم ، ويقـول : ﴿ بَلْ هُمْ قَـوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ [الذاريات] أى : دعْكَ من هؤلاء ، فهم قوم طاغون . أى : متجاوزون للحدود[1] .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾

معنى ﴿ فَـتَـوَلَّ عَنْهُمْ .. (٥٤) ﴾ [الذاريات] أعـرض عنهم ودَعْك منهم ، فـأنت غـير مطالب بأن تحـملهم على الإيـمان ، ومـا عليك إلا البلاغ وفقط ، وفى أكـثر من موضـع خاطب الحق سبحانـه نبيه بهذا المعنى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

أنت سـتهلك نفـسك من أجلهم وحرصـاً على هدايتهم ، والهـداية ليست مهـمتك ، مهمتـك البلاغ والهداية من الله ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

يعنى : لو شئتُ لجعلتُهم مؤمنين قـهراً كإيمان السماء والأرض ، لكننى أريد إيمانَ القلب لا إيمانَ القالب .

﴿ فَـمَا أَنتَ بِـمَلُومٍ (٥٤) ﴾ [الذاريات] يعنى : لا لوم عليك فى عدم إيمـانهم ، وإنْ حـدث لوْم لرسـول الله فـهـو لـوْم له لا عليـه ، لوْم

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٥٥) : « أى لم يُوص بعضهم بعضاً بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الكفر » .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

لصالحه ورحمة به ﷺ ، كما لامه ربّه فى مسألة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم[1] فقال تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣)﴾ [عبس] لامه لأنه كلَّف نفسه فوق طاقتها ، وأعرض عن هذا المؤمن حِرْصاً منه على هداية صناديد قريش[2] .

وقوله سبحانه : ﴿وَذَكِّرْ .. (٥٥)﴾ [الذاريات] يعنى مهمتك أنْ تُذكِّر الناس بالله وبمنهج الله ، ذكِّر وفقط ، ذكِّر مَنْ جاءك ومَن انصرف عنك ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات] ، فالمؤمن هو الذى ينتفع بالتذكير ويتمسَّك بالإيمان .

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[3] ﴿٥٦﴾
مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم ، صحابى شجاع كان ضرير البصر ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ فى المدينة مع بلال وكان النبى يستخلفه على المدينة يصلى بالناس فى عامة غزواته ، حضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٣] .

(٢) الصناديد : جمع صنديد وهو الملك الضخم الشريف . وقيل : السيد الشجاع . والصناديد : سادات الناس وهم حماة العسكر [لسان العرب – مادة : صند] وقال فى تاج العروس للزبيدى : « كل عظيم غالب صنديد . فهو الغالب لمن عاداه وعارضه » .

(٣) قوله : ليعبدون . أى : ليوحدون . وقال على رضى الله عنه : أى إلا لآمرهم بالعبادة . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى إلا ليقروا لى بالعبادة طوعاً وكرهاً . وقال مجاهد : إلا ليعرفونى . [ذكره القرطبى فى التفسير ٩/٦٤٥٦] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ .. (٥٦) ﴾ [الذاريات] الخَلْق هو إيجاد المادة من عدم وتصويرها على غير مثال سابق ، والخَلْق بهذه الصورة لا يكون إلا لله وحده ، ومع ذلك لم يحرم خَلْقه من هذه الصفة ، فأعطاهم صفة الخَلْق على قدرهم .

وقال سبحانه عن نفسه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فأنت خالق حينما تبرز للوجود شيئاً جديداً لم يكُنْ من قبل ، كالذى يصنع الكوب مثلاً من الرمل يُسمَّى خالق لأنه أوجده ، نعم هو خالق ولم يُحرم ثمرة جهده .

أما الحق سبحانه فهو أحسن الخالقين ، ومعلوم أن البشر يخلقون من مادة موجودة ، أما الحق سبحانه فيخلق من غير موجود ، البشر يخلقون مادة جامدة لا حياةَ فيها ، أما الخالق سبحانه فيخلق خَلْقاً حياً مُتجدداً ينمو ويكبر ، إلى غير ذلك من الوجوه فى هذه المسألة ، فنحن نخلق لكن الله أحسنُ الخالقين .

ثم إن الحق سبحانه خَصَّ هنا الجنَّ والإنس فى مسألة العبادة ، ولم يذكر خَلْقاً آخر أعظم هم الملائكة ، قالوا : لم يذكر الملائكة فى هذا المقام لأنهم خُلقوا للعبادة وليس لهم اختيار فيها ، فهم مخلوقون بدايةً ، ومُهيَّئون لعبادة الله ، وجُبلوا على ذلك ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

والحديث هنا عن الخَلْق المختار الذى ينتظر منه الطاعة ، وينتظر منه العصيان . فإنْ قلتَ : فلماذا قدَّم الجن على الإنس فى هذه المسألة ؟

قال بعض العلماء : قدَّم الجن على الإنس ، لأن العبادة إما سرية

وإما جهرية ، وعبادة الجن سرية لأننا لا نراهم ، والعبادة السرية أفضل لأنها لا يدخلها الرياء ، أما عبادة الإنس فجهرية فى الغالب ويدخلها الرياء .

وهذا القول يمكن الردّ عليه بأن عبادة الجن سرية بالنسبة لنا ، لأننا لا نراهم لكن جهرية بالنسبة لجنسه ، ويمكن أيضاً أنْ يدخلها الرياء ، فهم يرى بعضهم بعضاً .

لكن يمكن توجيه المسألة توجيهاً آخر ، فنقول : لو أنك قرأتَ القرآن باستيعاب لوجدتَ أن الجن خُلقوا قبلنا ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الحجر] فقدَّمه على الإنس لأنه خُلق قبلهم .

ثم إن معظم انصراف الإنس عن العبادة بسبب الشيطان وهو من الجن ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] ولهذا قدِّموا علينا فى مسألة العبادة .

والأسلوب فى قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات] أسلوب قصر . أى : قصر خَلْق الإنس والجن على العبادة ، فهى العلة الوحيدة لهذا الخَلْق ، ما خلقهم لشىء آخر سوى عبادته سبحانه .

والعبادة تعنى طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وهذه العبادة بهذا المعنى هى العبادة الحق ، وهى مطلوب الله من العباد ، لذلك لا يقبل الله إلا ما كان له خالصاً .

وهذه العبادة الحق لا يأتى بها كُلُّ الخلق ، بل يأتى كُلٌّ منهم على قدر روحه وعلى قدْر نظره للإله الحق الذى يعبده .

والناس كبشر متفاوتون فى هذه المسألة ، وأعلاهم فيها هم الرسل ، وأفضل الرسل خاتمهم محمد ﷺ ، فهو الذى حقَّق العبادة على وفْق مراد الحق سبحانه منها .

لذلك البعض يغالى فيقول : ما خُلق الكون كله إلا من أجل محمد ﷺ ، ونقول : يكفى أنه ﷺ أحسنُ عابد لله ، لأن العبادة معنى ، والمعنى لا يتحقق إلا بعابد حَقٍّ ، وهو الذى يؤدى المراد لله .

وهذا العابد الحق لا يأتى من الناس العاديين ، إنما يأتى من الأنبياء وسيد الأنبياء وخاتمهم سيدنا رسول الله ، فهو خير مَنْ حقق العبادة لله .

إذن : علَّة الخَلْق هى العبادة ، والله تعالى مُنزَّه فى أفعاله عن العلة ، فهو سبحانه يفعل ما شاء لما شاء فيما شاء . والعلة الممنوعة فى أفعاله تعالى العلة التى تعود عليه سبحانه .

أما العلة التى تعود على غيره فلها تعليل ، فالعبادة ليستْ له سبحانه إلا لمصلحة الخَلْق جميعاً ، لأنها هى التى تسعدهم فى الدنيا وتُنجيهم فى الآخرة ، ولا يعود على الله منها شىء ، لأنه سبحانه الغنى عن خَلْقه ، فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم .

فقد خلق الخَلْق بكامل صفات الكمال فيه ، فلم يزدد بهذا الخلق صفة لم تكُنْ له من قبل ، فهو خالق قبل أنْ يخلق ، ورازقٌ قبل أنْ يرزق ، ومُسبَّح قبل أنْ يُوجد ما يُسبِّحه .

وإذا كانت العبادة كما قلنا طاعة العابد للمعبود فى أمره افعل ولا تفعل ، فهى بهذا المعنى تشمل حركة الحياة كلها ، ولا تقتصر على

الصلاة والصيام والزكاة كما يريدها البعض من الذين يعزلون الدين عن حركة الحياة .

يقولون : لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة . وهذا قول باطل وغير صحيح ، والذين فعلوا ذلك يريدون أنْ يجعلوا لأنفسهم سلطة زمنية تخضع لأهوائهم ليفعلوا ما يريدون .

لقد تعمدوا عدم الارتباط بمنهج السماء فى إدارة شئون الأرض ، لأن منهج السماء يقيد حركتهم ، ونسُوا أنه أيضاً يقيد حركة المحكومين لمصالحهم .

إذن : منهج الله شمل الحياة كلها ، من قمة لا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[1] ، ولو كان الأمر كما يقولون أنترك القاتل فلا يُقتل ، ونترك الزانى فلا نقيم عليه الحد ، ونترك شارب الخمر ، ونترك المفسدين يفسدون ، ونترك الناس لا يتناهون عن منكر فعلوه ؟

إذن : ماذا يريدون من تعطيل شرع الله وعزله عن حركة الحياة ، الحق سبحانه جعل العبادة لصالح الخلق ، تنظم حركة حياتهم وتسعدهم .

ودائماً فى هذه المسألة نذكر الحديث القدسى : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٥١) وكذا الترمذى فى سننه (٢٥٣٩) والنسائى فى سننه (٤٩١٩) وابن ماجه فى سننه (٥٦) .

وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً »[١] .

فكيف نُقصي دين الله عن حركة حياتنا ، وقد تدخل في أبسط الأمور ، فدخل رجل عاص الجنة لأنه سقى كلباً[٢] ، ودخلتْ امرأة النار في هرة حبستها[٣] ، فما بالك بالإنسان الذي كرَّمه الله ، أنهتم بسياسة الكلاب ونترك سياسة البشر ؟

وورد أيضاً في الحديث القدسي : « يا بن آدم ، خلقتُك لعبادتي فلا تلعب »[٤] يعني جدّ في حركة الحياة ، لأن اللعب حركة بلا فائدة وبلا مغزى ، والله يريد لحركة العباد أنْ تكون حركة نافعة ذات مغزى .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٦٧٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٩٣) والحاكم في مستدركه على الصحيحين (٧٧١٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٢٣) من حديث طويل عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه .

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (١٦٨) وأحمد في مسنده (١٠٣٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفَّه فجعل يغرف له به حتى أرواه ، فشكر الله له فأدخله الجنة .

(٣) أخرج البخاري في صحيحه (٢١٩٢ ، ٣٠٧١ ، ٣٢٢٣) وكذا مسلم في صحيحه (٤١٦٠) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار . قال : لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستيها ، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض » . وهذا لفظ البخاري .

(٤) أورده ابن كثير في تفسيره لآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات] قال : في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن جدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » ، وهو من الإسرائيليات كما قاله ابن تيمية في مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/١٨٨) .

فلو أنك أخذت جانب العبادة وأهمها الصلاة مثلاً ، ألستَ تحتاج لإقامة هذا الواجب إلى ستر العورة كيف ؟ ثياب تلبسها ، كيف تصل إليك هذه الثياب ؟

تأمل من أول زراعة القطن إلى أنْ يصلك ثوب تلبسه ، إنها رحلة طويلة من السعى والعمل والجد ، يشترك فيها آلاف يخدمونك فى هذه المسألة .

إذن : حركة الحياة ليست هى الصلاة فحسب ، بل كل ما يعيننى على أداء الصلاة وكل ما يعيننى على أداء الزكاة والصوم والحج .

إذن : العبادة أمر شائع فى كل حركة الحياة ، فكيف نفصل الدين عن حركة الحياة كلها ، فضلاً عن أنْ نفصله عن سياسة أمر الخَلْق وتدبير شئونهم ؟

وقوله سبحانه : ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات]

أى : ما أريد من خَلْقى أنْ يرزقونى ، نعم لأنه هو سبحانه الرزاق المتكفّل بأرزاق كُلِّ الخلق ، فكيف ينتظر منهم رزقاً ، وهو يرزق مؤمنهم ، ويرزق كافرهم ؟ كيف وهو موجود سبحانه قبل أنْ يُوجدوا ، وله صفات الكمال كلها قبل أنْ يخلقهم .

ومن باطن هذا الرزق يرزق الناسُ بعضهم بعضاً ، فرزق هذا من يد هذا ، والحق سبحانه وتعالى يشجع العبد على أنْ يعطى فيقول له : حينما ترزق عبدى فكأنك رزقتنى ، وحينما تعطيه كأنك أعطيتنى .

ذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الناس واستدعاهم إلى الوجود ،

وتكفَّل لهم بالرزق ، فيد الله ممدودة لخَلْقه بخَلْقه ، لذلك سمَّى الصدقة على الفقير قرضاً ، فقال : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..(٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وفى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضتُ فلم تعدنى ، فيقول العبد : يا رب كيف أعودك وأنتَ رَبُّ العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده . يا بن ادم استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : لقد استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندى ... »[1] .

إذن : فعل الخير يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد العبد ، والحق سبحانه وتعالى لو أراد لأنزلَ رزقه إلى عباده مباشرة ، لكن جعله من أيدى الناس لأيدى الناس ليزرع بينهم الألفة والمودة والمحبة ، ويشيع بينهم التراحم وعدم الاستكبار ، فالله يريد للمجتمع أنْ يتكاتف وأنْ يتعاون .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) ﴾ [الذاريات] فعطف الطعام على الرزق ، لماذا ؟ سبق أنْ بيَّنا أن الرزق هو كلّ ما يُنتفع به ، وعلى هذا فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والكرم رزق ، والصحة رزق وهكذا ، فالرزق هنا الرزق العام لذلك خَصَّ بعده الطعام لأنه أظهر شىء فى الرزق ، وبه تقوم الحياة وتستبقى . قالوا : ولم يذكر الشراب لأنه داخل فى الطعام .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٦١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٨٧٩) وابن حبان فى صحيحه (٢٦٨ ، ٩٤٩ ، ٧٤٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات] السياق هنا يؤكد على هذه الحقيقة ليرسخها فى الأذهان ، ليطمئن كلٌّ منا على أن رزقه مضمون ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ .. (٥٨) ﴾ [الذاريات] فاستخدم إن ثم الضمير المنفصل هو ﴿ ذُو الْقُوَّةِ .. (٥٨) ﴾ [الذاريات] أى : صاحب القوة . وهذا يعنى أن الذات شىء ، والقوة شىء منفصل عنها .

وفى موضع آخر يتكلم عن القوة والغلبة فيقول : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] فالقوة هنا فى الذات ، فلم يقل هنا ذو قوة . لأن المقام مقام بيان للغلبة فى وجه المعاندين .

لذلك قال ﴿ قَوِيٌّ .. (٢١) ﴾ [المجادلة] والقوى هو الذى يغلب ، لكن قد تتكاتف عليه قوى أخرى تغلبه ، فقال ﴿ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] يعنى : غالب لا يُغلب أبداً . وهنا قال ﴿ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات] أى : الشديد فى قوته ، لأن القوة قد يصيبها الوهن فتضعف .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا[1] مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) ﴾

من أساليب القرآن أنْ يذكر المتقابلات ، فبعد أنْ تكلم عن المؤمنين يتكلم عن كفار مكة ، فهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ

(١) قال الفراء : الذَّنوب فى كلام العرب : الدلو العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى النصيب والحظ . وقال ابن قتيبة : أصل الذَّنوب الدلو العظيمة وكانوا يستقون فيكون لكل واحد ذنوب . [زاد المسير لابن الجوزى] . وقد ذكر الماوردى فى تفسيره أربعة أوجه : أولها : عذاباً مثل عذاب أصحابهم . قاله عطاء . الثانى : سبيلاً . قاله مجاهد . الثالث : الدلو . قاله ابن عباس . الرابع : النصيب .

﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٥٩)﴾ [الذاريات] ظلموا بتكذيبهم وعنادهم لرسول الله ووقوفهم فى وجه الدعوة ، فاستحقوا أنْ يكون لهم ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ .. (٥٩)﴾ [الذاريات] أى : نصيب من العذاب مثل نصيب أصحابهم من المكذِّبين فى الأمم السابقة عاد وثمود وفرعون .

والذَّنوب هو الدلو الذى نُخرج به الماء من البئر ، والحبل الذى يُشدُّ به الدلو يسمى الرِّشَاء ، فإنْ كان الماء كثيراً خرج الدلو ثقيلاً بطيئاً ، لذلك قالوا :

وأبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها .

والشاعر العربى يُعبر عن هذا المعنى ، فيقول :

وإذا امْرؤ مدح امرءاً لِنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءَه

لو لم يقدّر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءَه

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الرشاء ، كذلك بُعْد النوال عند الممدوح يستدعى طول المديح .

إذن : استخراج الماء بالدلو كانت عادة عربية ، وإن كان الذَّنُوب يُصب له الماء ليشربوا فى الدنيا ، لكن الذنوب هنا سيصب عليهم العذاب صبَاً .

كما قال تعالى : ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩)﴾ [الحج] يصب على المكذبين من قريش ، كما صبّ على قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، لأن الكفر ملة واحدة على مرِّ العصور .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن عذاب قوم لوط قال : ﴿وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[1] مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً[2] عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود] فالعذاب الذى نزل بالسابقين ليس بعيداً عن اللاحقين .

وهنا أكد على هذا المعنى فقال : ﴿فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩)﴾ [الذاريات] لأنه واقع بهم لا محالة وغير بعيد عنهم ، والمسألة مسألة وقت وأوانٍ ينتظرهم .

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

كلمة (ويل) قالوا : واد فى جهنم[3] ، وقالوا : ويل . يعنى : هلاك وعذاب ولَعْن من الله لهؤلاء الذين خرجوا عن طاعته ولم يُؤدوا المهمة التى خُلقوا من أجلها وهى عبادة الله وحده .

فلما استغنوا عن الله استغنى اللهُ عنهم ، فأبعدهم من رحمته وخلَّدهم فى عذابه ، فلا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها .

لذلك حكى الله عنهم : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

---

(١) السجيل : الطين المتحجر . [القاموس القويم ١/٣٠٤] وهى كلمة معربة أصلها سنك وكِلْ أى حجارة وطين . [لسان العرب - مادة : سجل] والسجيل المنضود أى المتتابع المنتظم السقوط عليهم . [القاموس القويم ٢/٢٧١] .

(٢) مسومة عند ربك : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٣) ويل : كلمة مثل ويح ، إلا أنها كلمة عذاب . والويل : حلول الشر . وقيل هو تفجع . والويل الحزن والهلاك والمشقة من العذاب . وقد جاء فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً » [لسان العرب - مادة : ويل] .

مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وقال عنهم : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ..﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الذاريات] أى : يومهم الذى وعدهم اللهُ به وحذَّرهم منه ، فالله تعالى لم يأخذهم على غِرّة ، ولم يتركهم فى غفلة ، إنما بيَّن لهم العواقب . فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ..﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت]

سُورَةُ الطُّورِ



سورة الطور(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) ﴾

نلاحظ أن مطلع سورة (الطور) يتشابه ومطلع سورة (الذاريات) قبلها ، ففى الذاريات يُقسم الحق سبحانه : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) ﴾ [الذاريات] وجواب القسم ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) ﴾ [الذاريات]

وهنا يقسم الحق سبحانه : ﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) ﴾ [الطور] وجواب القسم : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) ﴾ [الطور] فكلاهما يقسم على صدق الإخبار بيوم القيامة ، وما فيه من العذاب الذى لا يُرد ولا يُدفع .

---

(١) سورة الطور هى السورة رقم (٥٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٩ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . نزلت بعد سورة السجدة وقبل سورة الملك ، فهى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب نزول القرآن . [انظر الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٢٧] .

وحينما نتأمل المقسَم به فى الموضعين نجده فى سورة الذاريات أقسم بأشياء مادية ، أقسم بالرياح والسُّحب التى تحمل الماء الذى يُحيى الأرض .

وفى الطور أقسم بأشياء روحية قيمية ، فالمادة تسعدك فى الدنيا ، والقيم تُسعدك فى الدنيا والآخرة ، والدنيا مهما طالتْ تنتهى إلى الآخرة الباقية التى لا نفادَ لنعيمها .

لذلك خاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..(٢٤) ﴾ [الأنفال] يخاطبهم وهم أحياء يُرزقون ، إذن : يقصد حياة أخرى غير هذه الحياة ، يقصد حياة القيم ، حياة النعيم الدائم الذى لا يزول .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] الحيوان أى : الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها فناء .

لكن لماذا أقسم الحق سبحانه هنا بالطور ؟ قالوا : لأن الرسل كُلِّموا بالوحى ، أما موسى عليه السلام فكلَّمه الله مباشرة بالكلام المباشر من على هذا الجبل ، ومن هنا كانت لجبل الطور منزلة خاصة .

ذلك لأن بنى إسرائيل قوم عندهم لدد وعناد فى الخصومة ، ويميلون إلى المادية فى كل شىء حتى فى الدين ، لذلك قالوا لموسى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة] فلو قال لهم : إن الوحى أتانى سِراً ما صدّقوه .

قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ① ﴾ [الطور] الواو هنا واو القسم ، فالحق سبحانه يقسم بالطور أى جبل الطور . وقلنا : إن الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، والطور وردتْ فى القرآن عشر مرات لعظم هذا المكان عند الله .

ومن على جبل الطور كلم الله سيدنا موسى ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ② ﴾ [الطور] كتاب أى مكتوب وهو التوراة وفيها الألواح . ومسطور يعنى : كتابة منظمة فى سطور (مش منعكش) .

وقوله : ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ③ ﴾ [الطور] الرقّ : كل ما يُكتب فيه من جلد ، وهو أول ما كتبوا فيه أو عظم أو غيره ﴿ مَّنْشُورٍ ③ ﴾ [الطور] مبسوط غير مطوى أو مُغلق ، مثل تاجر القماش ينشر لك الثوب ويعرضه عليك ، وهذا يعنى أنه ثوبٌ جيد لا عيبَ فيه ولو كان فيه عيب ما نشره ، وما أعطاك الفرصة لتتفقده .

فالحق سبحانه نشر كتابه وعرضه على الخَلْق ليقرؤوه ، وهذا يعنى أنه كتاب مُحكم دقيق ، لا عيبَ فيه ولا خلل .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ ﴾

معنى ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ ﴾ [الطور] قسم بالبيت وهو الكعبة ، وهذا دليل على وجود أُناس فى هذا الزمن استجابوا لمنهج الله وذهبوا إلى البيت وعَمرُوه . وقالوا : البيت المعمور فى السماء وتطوف به الملائكة .

وكأن الله تعالى يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أنى أترجى فيكم لتؤمنوا ولتأتوا إلى عمارة بيتى ، فعندى البيت المعمور فى السماء السابعة يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، مَنْ دخله مرة لا يدخله أخرى[1] وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

ومعنى ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ ﴾ [الطور] أى : السماء سقف مرفوع بلا عمد ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ ﴾ [الطور] كلمة مسجور لها معنيان : مسجور يعنى مليء بالماء ، والبحر قسمان : مالح وعذب .

والعجيب أن الله تعالى قال عنهما ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا .. ۝١٢ ﴾ [فاطر] فلا نأكل الفسيخ من البحر المالح ، إنما نأكل منه السمك كالذى نأكله من الماء العَذْب ، فملوحة الماء لم تؤثر فى طعم السمك .

المعنى الآخر : مسجور يعنى مشتعل ، نقول : سجره يعنى : صيَّره ناراً تشتعل ، ومعلوم أن الماء والنار من المتناقضات ، فهذه البحار التى تزخر بالماء تأتى يوم القيامة وقد اشتعلتْ ناراً بعد أنْ تبخَّر ما فيها من ماء .

ثم يأتى جواب القسم :

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٦٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظه « رُفع لى البيت المعمور فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم » الحديث بطوله .

أى : عذاب الآخرة واقع أى حادث لا شكَّ فيه ، لأن الذى وعد به وأخبر به هو القوى والقادر الأعلى الذى لا يردُّ أحدٌ كلمته ، ولا يقف أحدٌ ليمنعه عن إرادته ، فالله سبحانه ليس له نِدٌّ وليس له شريك ، وليس له نظير ولا معارض .

وما دام الأمر كذلك ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ⑧﴾ [الطور] أى : لا أحدَ يستطيع أنْ يدفع عذاب الله إنْ وقع ، ولا يمنعه إنْ جاء موعده ، ومتى موعده ؟[1] .

يقول :

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ⑩ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ[2] يَلْعَبُونَ ⑫﴾

الحديث هنا عن يوم القيامة ، وفيه تمور السماء موراً ، فهذه السماء وهذا السقف المرفوع المحفوظ ، وهذا البناء المحكم الذى قال الله فيه ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ .. ㊼﴾ [الذاريات] أى : بقوة وإحكام ،

---

(١) قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ فى أسارى بدر ، فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب (والطور) إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ⑧﴾ [الطور] فكأنما صُدع قلبى ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٤٦٣] .

(٢) فى خوض يلعبون : أى فى تردد فى الباطل واندفاع فيه يلهون لا يذكرون حساباً ولا يخافون عقاباً . والمعنى : أنهم يخوضون فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء . وقيل : يخوضون فى أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة . [فتح القدير للشوكانى] .

وقال : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ [النبأ]

هذه السماء تمور يعنى : تتحرك وتضطرب أو تتقطع ، كما يحدث للقماش القديم المهترئ ، وفى موضع آخر عبَّر عن هذا المعنى بقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾ [المعارج]

وهذا يعنى أن بناء السماء تهدَّم وتفككتْ أوصاله كما تهدَّم كل شىء فى الكون ، حيث لم يَعُدْ لها مهمة ، فمهمة السماء فى الدنيا أنها كانت من أسباب الحياة الدنيا .

أما فى الآخرة فلا حاجة للأسباب ، لأننا هناك نعيش بالمسبِّب سبحانه ، لا حاجة لنا فى هذه الأسباب التى نحيا بها .

لذلك يقول سبحانه فى هذا اليوم : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : لسنا فى حاجة إلى الشمس ، لأننا نستضىء بنور ربِّ الشمس ومسبِّبها سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطور] كما قال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير] هذه الرواسى الثابتة كالأوتاد على ضخامتها تسير وتتحرك ، ثم تتفتتْ وتتناثر .

قال سبحانه : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج] أى : الصوف المندوف المتناثر ، نعم فلم يَعُدْ لها مهمة ، كانت مهمتها تثبيت الأرض ، والآن تهدَّم كلُّ هذا النظام وتفكك .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الطور] ويل لهم ، لأنهم أخذوا بالأسباب وانتفعوا بها ونسوا المسبب ، فها هى الأسباب تفنى ولم يَبْقَ إلا مُسبِّبها الله الذى كفرتم به وكذَّبتم رسله ، والآن لا يأخذ خير المسبب إلا من آمن به وصدق رسله ساعة بقاء الأسباب .

لذلك نقول : إياك أنْ تغترَّ بالأسباب مهما طاوعتك ومهما أعطتْك ، واعلم أن وراء الأسباب مُسبِّبها .

تذكرون أن باكستان فى فترة من الفترات خططتْ لزراعة مساحات واسعة من القمح ، وجاءت دراسة الجدوى تُبشِّرهم بالاكتفاء الذاتى ثم التصدير حتى لأمريكا ، وفعلاً زرعوا القمح حتى قارب على الاستواء ، فنزلتْ عليه آفة أفسدته ، وفى هذا العام استوردوا القمح لأنهم اعتمدوا على الأسباب ونسُوا المسبِّب سبحانه .

أيضاً فى قصة قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ..﴿٧٨﴾﴾ [القصص] فلما اغتر بعلمه وفَهْمه تركه الله وقال : احفظ مالك أيضاً بعلمك ، ثم جاءته الطامة التى لا يستطيع أنْ يدفعها ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ..﴿٨١﴾﴾ [القصص] فأين عنديتك الآن ؟

نعم ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الطور] الذين كذَّبوا بالله الموجد الأعلى وكذَّبوا رسله ، وظنوا أن الحياة الدنيا هى الغاية ، وهى نهاية المطاف كما يقول الذين يؤمنون بالطبيعة ويكفرون بالله .

لذلك زاد فى تعريفهم ، فقال : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الطور] وفى موضع آخر قال : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ..﴿٤٢﴾﴾ [المعارج]

والخوض يكون فى الماء ، وفيه إشارة إلى التخبُّط وعدم الهدى ، فأنت مثلاً حينما تسير على قدميك على الأرض تستطيع أنْ تتحسَّس مواضع قدمِك ، وتشعر بأماكن الخطر فى الطريق لأنك تسير فيه على هدى وبصيرة .

لكن حينما تسير فى الماء فأنت لا تعرف أين تضع قدميك ولا

تأمن العطب ، لذلك حين نتأمل القرآن الكريم نجده لم يستخدم الخوض إلا فى الباطل ، فقال : ﴿ثم ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ [الأنعام] وقال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ..(٦٨)﴾ [الأنعام]

وقد عبَّر القرآن عن هذا المعنى ، فقال : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)﴾ [الذاريات] كأنهم فى ماء يغمرهم ويتخبطون فيه .

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾

الفعل ﴿يُدَعُّونَ .. (١٣)﴾ [الطور] من دعَّ نقول دعه . أى : دفعه بشدة وعنف حتى كفأه على وجهه ، ومنه قوله سبحانه : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)﴾ [الماعون] أى : يدفعه بقسوة .

فالذى جاءه يتيم جاءه ليطلب منه حاجة تقيم حياته ، وكان بوُسْعه أنْ يُعطيه أو يردّه ويسكت عنه دون أذىً ، لكنه دعَّه ودفعه وآذاه ، لذلك استحقَّ هذا الجزاء .

كذلك الحال هنا مع هؤلاء المكذِّبين ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾ [الطور] أى : يُساقون إليها دَفْعاً شديداً قوياً ، دَفْعاً فيه إهانة لهم ، ومن الذى يدفعهم نحو النار ؟ إنهم الملائكة .

ووالله لو كانوا بشراً لكان كافياً فى إذلالهم ، كما ندفع المجرم فى الدنيا إلى باب السجن مثلاً ، فما بالك حين تدفعهم ملائكة العذاب

إلى داخل النار ، فإذا دخلوها تتلقَّاهم ملائكة أخرى لهم معهم مهمة أخرى : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر]

إذن : الدَّعّ هنا يتناسب وقوة الملائكة ، فكيف يكون ؟ ومن الإهانة لهم أنْ يقابلهم الملائكة بهذه الحقيقة : ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور] أصبحتْ عياناً تشاهدونها ، وتقاسون حرَّها .

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا[1] فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

تأمل هذا التوبيخ والتقريع ، فقد كانوا يتهمون الرسول ويقولون ساحر ويقولون للقرآن سحر ، فالآن يخاطبهم بنفس كلمتهم ، يقول لهم ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا .. ﴿١٥﴾﴾ [الطور] أي : هذا العذاب الذي تُقاسُونه أهو سحر ؟

السحر تخييل لا تتألمون منه ، لكنكم تتألمون . إذن : ليس سحراً بل هو حقيقة ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور] إما هذه وإما هذه .

﴿اصْلَوْهَا .. ﴿١٦﴾﴾ [الطور] ادخلوها أي جهنم ، وذوقوا حرّها وعذابها .

﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .. ﴿١٦﴾﴾ [الطور] هذه أول مرة نرى الصبر لا فائدة منه ، وليس له أجر ، إنه صبر هؤلاء على حرِّ جهنم .

(١) صلى النار : قاسى حرّها . وأصلاه الله النار : أدخله إياها . ومنها قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر] أي : سأدخله النار . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [الطور] يستوى عندنا صبرتم أو لم تصبروا ، فالأمران سيان ، ولن تخرجوا منها أبداً ، وهذا ليس ظلماً لهم إنما جزاءً وفاقاً .

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الانفطار] لم نأت بشىء من عندنا ، إنما هى أعمالكم نُوفيكم إياها ، فأنتم الذين وضعتم أنفسكم هذا الموضع .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ(١) بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

ذِكْر المتقابلات سمة من سمات الأسلوب القرآنى ، ومظهر من مظاهر عظمته ، فكما قلنا : الضد يظهر حُسْنه الضد ، لذلك كثيراً ما نقرأ هذه المتقابلات كما فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ تكلَّم عن الكافرين وجزائهم فى جهنم والعياذ بالله يُحدِّثنا سبحانه عن المتقين وما ينتظرهم من النعيم .

فساعة نقرأ هذه الآيات ونستحضر الصورتين المتقابلتين يقول

---

(١) فكِه : مرح ومزح وتحدث بالفكاهات والطرائف فهو فاكه . والفاكه : الناعم العيش . [القاموس القويم ٢ / ٨٨] .

المؤمن : الحمد لله أن إيمانى أنقذنى من هذا المصير المخزى .

ويقول الكافر : يا حسرتى لقد أبعدنى الكفر وحرمنى هذا النعيم .

فالمقابلة تُفرح المؤمن وتُحزن الكافر ، تُعز المؤمن وتُذل الكافر ، لذلك قال تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ .. (١٧)﴾ [الطور] معنى التقوى أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية ، وقلنا : إن الحق سبحانه قال : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨)﴾ [البقرة] وقال ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..(٢٤)﴾ [البقرة] والمعنى واحد هو أنْ تجعلَ بينك وبين صفات الجلال لله وقاية ، وحين تقى نفسك من النار فإنك تقى نفسك من الله ، لأنها جُند من جنود الله .

وتلاحظ هنا ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور] (المتقين) جمع و (جنات) جمع . وهذا يعنى أن لكلِّ مُتَّق جنة خاصة به ، كما لو قلنا للتلاميذ : أخرجوا كتبكم . أى : ليُخرج كلٌّ واحد منكم كتابه ، فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً .

لذلك قلنا فى آية الرحمن : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن] فكيف نجمع بينهما ؟ قالوا : جنتان ، لأن الحديث هنا عن الإنس والجن الثقلان ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١)﴾ [الرحمن]

فالمراد : مَنْ خاف مقام ربه من الجن له جنة ، ومن خاف مقام

ربه من الإنس له جنة[1] .

وحرف الجر ﴿فِي جَنَّاتٍ .. (١٧)﴾ [الطور] يعنى : أن الجنات ظرف والمتقين مظروف ، الجنة محيطة بالمتقى ، ثم قال ﴿وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور] لأن مَنْ فى الجنة ليس بالضرورة أنْ يكون فى نعيم .

كما نرى مثلاً الباشا يجلس فى حديقة منزله ، وفيها الأشجار والزهور والثمار ، وعنده العامل يقصف الأشجار يُقلِّمها ويرويها ، فالحديقة نعيم فقط لصاحبها ، لكنها ليستْ نعيماً لمَنْ يعمل فيها .

أما هؤلاء المتقون فهم فى جنات وفى نعيم ، فهم يتنعَّمون فيها ، لذلك أكّد الحق سبحانه هذا المعنى ، فقال بعدها : ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ..(١٨)﴾ [الطور] أى : فاكهين بما هم فيه من النعيم ، وفاكهين يعنى : فرحين . هذه إضافة أخرى لأن الإنسان قد يكون فى جنة وفى نعيم لكنه غير فرح بما هو فيه .

وهذه المسألة رأيناها مثلاً فى مصر بعد الثورة ، حيث رأينا الباشا فلان عنده الحدائق والبساتين وفيها ألوان الفاكهة والثمار ويأكل منها ، لكنه غير فرح بها ويُنغِّصها عليه خوفُ التأميم ، لأنهم كانوا يأخذون الأرض منهم ويُؤممونها للدولة ، فهو فى جنة ، وفى

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فى هاتين الجنتين أربعة أوجه :
أحدها : جنة الإنس ، وجنة الجان . قاله مجاهد .
الثانى : جنة عدن ، وجنة النعيم . قاله مقاتل .
الثالث : أنهما بستانان من بساتين الجنة وروى ذلك مرفوعاً .
الرابع : أن إحدى الجنتين منزلته ، والأخرى منزل أزواجه وخدامه . كما يفعله رؤساء الدنيا .
ويحتمل خامساً : أن إحدى الجنتين مسكنه ، والأخرى بستانه .
ويحتمل سادساً : أن إحدى الجنتين أسافل القصور ، والأخرى أعاليها .

نعيم ، لكنه غير فاكه بها .

ومعنى ﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٨) ﴾ [الطور] أى : بالمسبِّب لا بالأسباب .

فالمتقون فى جنات وفى نعيم وهم فرحون به فاكهون بما آتاهم ربهم ، وفوق ذلك وقبله : ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) ﴾ [الطور] وهذا من تمام النعمة ، فيمكن بعد أنْ يدخل الجنة يخاف أنْ يخرج منها إلى النار .

فيقول له : لا لأن الذى يدخلها يبقى فيها لا يخرج منها ، أو وقاهم عذاب الجحيم بداية قبل أنْ يدخلوا الجنة كما قال سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [الطور] وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) ﴾ [النساء] أى : فى الجنة كلوا منها واشربوا هنيئاً مريئاً .

فالهنىء هو الطعام أو الشراب تتناوله فتجد له طعماً ولذة تمتعك لحظة تأكل أو تشرب ، لكن ربما أحسستَ بعدها بآثار غير مرغوب فيها ، كأنَّ بعده حموضة فى المعدة مثلاً أو غازات وانتفاخات وغير ذلك .

فهو إذن هنىء لكن ليس مريئاً ، فالله يصف طعام الجنة وشرابها بأنه هنىء ومرىء . يعنى : يمرى عليك ولا تجد له آثاراً ضارة .

وإنْ كان طعام الجنة وشرابها ليس فيه شىء من هذا لأن الإنسان هناك لا يأكل عن جوع ، بل يأكل تفكُّهاً ، وحتى لو لم يأكل لا فرق .

ثم يذكر سبحانه ألواناً أخرى من ألوان النعيم .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ[(١)] وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

الاتكاء هيئة من هيئات الجلوس ، لا يجلس على مقعدته إنما يجلس على جنب ، وهى جلسة تدل على الراحة والطمأنينة ، وأنه لا يوجد شيء يُنغصها .

أما المهموم والعياذ بالله فتجده فى جِلْسته قلقاً لا يكاد حتى يسند ظهره إلى مسند ، لماذا ؟ لأن عنده ما يشغله حتى عن الراحة فى الجلسة .

فقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] دلَّتْ على هدوء البال وخُلُوّه من المنغِّصات والهموم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] جمع سرير ، وهو ما يُجلس عليه . ولفظه يدل على السرور ﴿ مَّصْفُوفَةٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] منظمة مُنسّقة ، موصولاً بعضها ببعض .

لذلك لما ذهبنا إلى فرنسا شاهدنا هناك فنادق غاية فى الروعة والجمال والراحة ، اندهش منها الناس ، فقلت لهم : تندهشون من هذا الذى أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

ومعنى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] أى : قرناهم بالحور العين ، والفعل زوّج يتعدَّى بنفسه تقول : زوَّجتُ فلاناً فلانة ،

---

(١) سرر مصفوفة . أى : وُضع بعضها إلى جانب بعض . [زاد المسير لابن الجوزى] وقال الرازى فى مفاتيح الغيب : « يحتمل أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لأن قوله (مصفوفة) يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة » .

لأن الزواج هنا مصلحة متبادلة يتمتع بها الزوج والزوجة معاً .

أما فى تزويج الحور العين فهى مصلحة من جانب واحد ، فالمؤمن فى الجنة يتمتع بالزواج بالحوراء ، أما هى فليس لها متعة فى ذلك ، فقال ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾ [الطور] فتعدّى الفعل بالباء .

ومعنى : الحور العين ، جمع حوراء وهى شديدة بياض العين وشديدة سوادها ، والعِين جمع عيناء ، وهى واسعة العينين فى جمال وملاحة .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[(١)] وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا .. (٢١)﴾ [الطور] أى : آمنوا بالله وحده لا شريك له ، وأنه واحد أحد ، واعتقدوا ذلك ، واحد أى ليس معه غيره ، وأحدٌ أى فى ذاته ، وأحد ليس له أجزاء ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص]

---

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الله يدخل الذرية بإيمان الآباء الجنة . قاله ابن عباس .

الثانى : أن الله تعالى يعطى الذرية مثل أجور الآباء من غير أن ينقص الآباء من أجورهم شيئاً . قاله إبراهيم .

الثالث : أنهم البالغون عملوا بطاعة الله مع آبائهم فألحقهم الله بآبائهم . قاله قتادة .

الرابع : أنه لما أدرك أبناؤهم الأعمال التى عملوها تبعوهم عليها فصاروا مثلهم فيها . قاله ابن زيد .

والإيمان لا يكون كاملاً إلا إذا صحبه عملٌ بمقتضى هذا الإيمان ، عمل بالمنهج الذى وضعه لك مَنْ آمنت به ، لذلك قرن فى مواضع كثيرة بين الإيمان والعمل الصالح ، فقال : ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١١)﴾ [الطلاق]

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ .. (٢١)﴾ [الطور] فالرجل آمن وعمل صالحاً واتبعتْه فى هذا ذريته من بعده ، آمن مثله ، لكن عمله دون عمل أبيه وأقلّ منه ، فالحق سبحانه بكرمه ورحمته بالذرية ، وكرامةً للأب المؤمن يرفع إليه ابنه إلى المرتبة الأعلى .

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] ما نقصناهم شيئاً ، زدنا الأبناء ولم ننقص الآباء ، لأن شرط الإيمان متوفر فى الاثنين ، أما العمل فإنْ قَلَّ يُجبر تفضّلاً من الله وتكرّماً .

معنى ذرية هى النسل المتسلسل ، فذرية الرجل أولاده وأولاد أولاده ، فالأب من الذرية ، والابن من الذرية ففيها تسلسل النسب ، والذرية قسمان : ذرية قبل التكليف وذرية بعد التكليف . والمراد هنا الذرية المكلَّفة والمطلوب منها الإيمان والعمل الصالح . وكلمة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] أى : أىّ شىء مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾ [الطور] رهين صيغة مبالغة على وزن فعيل ، وهذا الوزن يأتى فعيل بمعنى فاعل مثل رحيم أى : راحم . وتأتى فعيل بمعنى مفعول مثل قتيل أى : مقتول .

وهنا رهين بمعنى مرهون من الرهن ، والرهن كما تعرفون شيء عينى يجعله المحتاج للمال عند صاحب المال ضماناً له حتى يقضى دَيْنه ، فالرهن موقوف على المال حتى يعود إلى صاحبه ، كذلك العبد يوم القيامة مرهون بعمله محبوس عليه .

أو نقول : رهين بمعنى راهن فاعل أى : راهن عمله إنْ خيراً وجده خيراً ، وإنْ شراً وجده شراً .

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الطور] يعنى : أن هذا عطاء جديد فوق ما سبق وزيادة عليه ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور] أى : فى الجنة يتنازعون الكأس أى : يتجاذبونه . وهذا التجاذب ليس عن خلاف أو بغضاء ، إنما عن موادعة وملاطفة وأنْس ، فكأنهم يشربون فى متعة وانسجام وتدلُّل .

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور] الكأس هو الوعاء الذى يُشرب فيه الخمر ، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان ممتلئاً فإنْ كان فارغاً فهو كوب[1] .

---

(١) قال الثعالبى فى فقه اللغة فيما نقله السيوطى فى المزهر (١/١٤١) : باب الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها : لا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب وإلا فهى زجاجة . ولا يقال مائدة إلا إذا كان عليها الطعام ، وإلا فهى خوان . ولا يقال كوز إلا إذا كان له عروة وإلا فهو كوب . ولا يقال قلم إلا إذا كان مبرياً وإلا فهو أنبوبة . ولا يقال خاتم إلا إذا كان فيه فص وإلا فهو فتخة ... » وهكذا .

ومعنى ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا .. (٢٣) ﴾ [الطور] اللغو : العمل الذى لا فائدة منه ، وهو الكلام الساقط الذى لا معنى له لكن لا إثم فيه ﴿ وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣) ﴾ [الطور] لا إثم فيه ولا يجرّك إلى محرم .

وهذه ميزة خمر الآخرة ، والفرق بينها وبين خمر الدنيا ، أن خمر الدنيا تذهب بالعقل وتحمل شاربها على الهذيان وفقدان العقل ، وبالتالى يحدث منه اللغو ، ويحدث منه الإثم .

أما خمر الآخرة فمنزّهة عن هذا ، لذلك وصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] إذن : صفَّاها الحق سبحانه من عيوبها ، فليس لها من خمر الدنيا إلا الاسم ، وإذا رأيتَ الذى يشرب الخمر تراه (يدلقها) فى حلقه هكذا مرة واحدة لماذا ؟ لأنها كريهة الطعم والرائحة .

أما فى الآخرة فيتذوقها ويتمتع بلذتها ، فإذا كانت خمر الدنيا بهذه الصفة فلماذا يشربونها ؟ حين تسأل يقول لك : لأنسى همومى وأحزانى ومشاكلى .

وهذا عجيب لأن الله تعالى لا يريد منَّا أنْ ننسى الهموم والأحزان ونفر منها ، إنما يريد منا أنْ نُعايشها ونعرف أسبابها ، ونحاول التغلب عليها . إذن : لا فائدة من نسيانها وسترها .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ(١) كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) ﴾

---

(١) ذكر الماوردى فى تفسيره للآية (الطور ٢٤) : فيه وجهان (نقلاً عن ابن بحر) :
أحدهما : أن يكون الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقرَّ الله بهم أعينهم .
الثانى : أنهم من أخدمهم الله إياهم من أولاد غيرهم .

أى : يطوف عليهم فى الجنة غلمان بكئوس الشراب . والغلمان جمع غلام وهو الولد الصغير جميل الصورة . وفى موضع آخر قال تعالى فى وصفهم : ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ .. (١٩) ﴾ [الإنسان] يعنى فى سِنٍّ صغيرة ثابتة لا يكبرون عنها ، لأن الغلام إذا كبر صار إلى الشيخوخة ، أما هؤلاء فيقفون عند هذه السِّن ولا يكبرون .

ومعنى ﴿ لَّهُمْ .. (٢٤) ﴾ [الطور] أى : مخصصين لخدمتهم ، لأن اللام تأتى للملكية وتأتى للاختصاص ، تقول : المال لزيد يعنى ملكه . واللجام للفرس . أى : يخصه لأن الفرس لا يملك اللجام ، وكلمة (لهم) دلَّتْ على أن هذا الساقى يخدمهم دون أجر يأخذه منهم ولا منفعة .

وقوله سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) ﴾ [الطور] يعنى : هؤلاء الغلمان فى البياض والصفاء أمثال اللؤلؤ ، واللؤلؤ مشهور بصفائه وبياضه ولمعانه ، فما بالُكَ إذا أضيف إلى ذلك أنه مكنون . أى : مصُون ومحفوظ فى أصدافه ، قالوا : لأنه حين يخرج من أصدافه يتعرَّض للغبار وللأتربة التى تشوب صفاءه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) ﴾

الكلام هنا ما يزال عن أهل الجنة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطور] يتسامرون ، أو يسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الطور] أى : فى الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور] الإشفاق الخوف ، والخوف يكون بكراهية المخوف منه ، ويكون هيبة وتعظيماً لمن تخاف منه .

والمراد هنا خوف الهيبة والتعظيم لأنهم خائفون من الله ، لكن لماذا ؟ قالوا : يخافون التقصير فى عبادة الله ، نعم أطاعوا وأدّوا حَقَّ الله لكن ما عبدوا الله حقَّ عبادته ، فهو يستحق أكثر من هذا .

إذن : خوفهم فيه رجاء وفيه أمل فى الله أنْ يتدارك هذا التقصير ، لذلك قال الله تعالى عن الملائكة : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء] وهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم] ، ومع ذلك قال عنهم : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ..﴿٥٠﴾﴾ [النحل] أى : خوفَ مهابة وتعظيم .

أو يكون المعنى ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور] أى : يخافون الموت أنْ يُفرقهم ويُشتِّت شملهم بعد اجتماع ، فإذا بهم فى الآخرة أحسن مما كانوا فيه فى الدنيا . أو خائفين من عذاب الله فى الآخرة .

ومعنى ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴿٢٧﴾﴾ [الطور] أى : تفضّل علينا وأعطانا فوق ما نستحق فضلاً منه تعالى وتكرُّماً ، منَّ علينا منّاً لا يعقبه ضرر ، ولا يعقبه عذاب ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور] السموم والعياذ بالله هى اللهب الخالص ، وسُمِّىَ السَّموم لأنه ينفذ من مسامّ الجسم .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يذكر هنا حيثية دخولهم الجنة ونجاتهم من النار ، فالسبب أنهم كانوا كثيرى الدعاء ، لم يقولوا بأعمالنا ، ولكن بدعائنا وتضرُّعنا ورجائنا فى الله ، ندعوه رباً رحيماً ، براً كريماً ، ونطمع فى رحمته التى سبقت غضبه .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] فاستجاب لنا استجابة ظهرتْ آثارها فى أننا دخلنا الجنة ، وصِرْنا إلى أفضل مما كنا فيه بدون تعب ولا هَمٍّ ولا حزن ، صِرْنا إلى نعيم لم يكُنْ يخطر لنا على بال .

و ﴿ الْبَرُّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] واسع الكرم والإحسان ﴿ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] كثير الرحمة بخَلْقه تعالى ، لأنه ربهم وخالقهم والمتكفِّل بهم ، خلقهم من عدم وأمدهم من عدم ، ولم يُكلِّفهم إلا بعد البلوغ واستواء العقل إلى غير ذلك من النعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ[1] وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ أنْ يُذكِّر قومه . والتذكير أنْ تعيد ما أخبرت به وتكرره مراراً ، والتذكير لا يكون إلا للنسيان ، وهذه

(١) كهن الرجل : صار كاهناً كهانة : أخبره بالغيب على سبيل الظن والتخمين وكانت شائعة فى الجاهلية ، وقد رموا النبى ﷺ بها فنفاها الله بقوله عنه ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ..﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

طبيعة البشر التى جبلهم الله عليها .

والتذكيـر ينفع من وجوه عدة : أولاً ينفع المذكّـر لأنه حين يُكرِّر التذكـرة لا يُحرَم ثوابهـا ، ثم ينفع المؤمن الـذى تُذكره ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]

فأحداث الحـياة تمر على المؤمن ، ويمكن أنْ تُضـبِّب عنده صفاء العقيدة ، فالتذكير يزيل هذا الضباب ويمسح غبار الغفلة والنسيان .

لذلك كان سيـدنا معاذ كثـيراً ما يسأل سـيدنا رسول الله ﷺ عن المسائل الفائتة .

فقـال ﷺ : « تُعرَض الفـتن على القلوب كالحـصير عـوداً عوداً ، فأيّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيّما قلب أُشْرِبها نُكتتْ فيه نكتـة سوداء ، حتى تكون عـلى قلبين : أبيض مـثل الصفـا لا تضرُّه فتنة ما دامت السـموات والأرض ، وآخر كالكوز[1] مجخياً[2] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً »[3] .

كذلك التذكير لا مـانعَ أنْ ينفع الكافر بدليل أن صناديد الكفر فى مكة آمنوا بالتذكير ، المهم أنْ يصادف التذكيرُ قلباً صافياً ليطفىء فيه حمية الجاهلية .

---

(١) كلمة الكوز كلمة عربيـة صحيحة . قاله ابن سيده . وهى من كـاز الشىء : جمعه . وهو إناء من الأوانى له عُرْوة بعكس الكوب فهو بلا عروة . [لسان العرب - مادة كوز - بتصرف] .

(٢) المجخى : المـائل عن الاستقامة والاعـتدال ، فشبّه القلب الذى لا يعى خـيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [لسان العرب - مادة جخا] .

(٣) أخـرجه مـسلم فى صـحيـحه (٢٠٧) وأحـمد فـى مسنده (٢٢٣٤٣) وأبو عـوانة فى مستخرجه (١١٢) من حديث حذيفة بن اليمان .

وقد رأينا هذه المسألة فى قصة إسلام سيدنا عمر[1] ، وكان جباراً فى الجاهلية ، ومع ذلك لما سمع القرآن تأثر به ورقَّ له قلبه ، لأنه لما لطم أخته حتى سال الدم من وجهها تحركتْ عنده عاطفةُ الأخوة وما يلزمها من الحنان ورقة القلب ، فلما انفتح قلبه دخله نور الهدى فأسلم ، إذن : نفعه التذكير .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] الحق سبحانه ينفى عن رسوله هذه التهمة التى اتهموه بها ، وأكد هذا النفى باستخدام أسلوب الخطاب .

﴿ فَمَا أَنتَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] واستخدام الباء فى ﴿ بِكَاهِنٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] يعنى : ما فيك شىء من الكهانة أبداً ، والكاهن هو

---

(١) ذكر ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/٣٢) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين .. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامهم وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً ﷺ على دينه فعليك بهما . فرجع عمر عائداً إلى أخته فاطمة وعندها خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها .. فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى كنتم تقرأون آنفاً ، انظر ما هذا الذى جاء به محمد . ولم ترض أخته إلا أن يغتسل قبل أن يمس الصحيفة فاغتسل فلما قرأ منها شيئاً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فذهب إلى رسول الله حيث هو وأصحابه فأسلم .

العرّاف الذى يدّعى علم الغيب ، وكانوا كثيرين فى هذا الوقت .

وكانت لهم خِلْقة شاذة عن الخلق ، فمثلاً كان منهم (شِقّ أنْمار) له نصف عين ، ونصف أنف ، ونصف فم ، ونصف يد ، ونصف رِجْل .

ومثل هذا ربنا رضى له شيئاً من الصفاء ، فكان الشياطين ينزلون عليه ويُوحون إليه بأشياء من استراق السمع قبل بعثته ﷺ ، وقبل أنْ تُغلَق السماء فى وجوههم ، فكانوا يغرُّون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل يزيدونه من عندهم فيضلونهم .

وهؤلاء الكهان كانت لهم كلمة مسموعة ، وكان الناس يستشيرونهم ويأخذون برأيهم فى كلِّ أمور دينهم ودنياهم .

وسيدنا رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن هذه الصفة ، كذلك نفى عنه صفة الجنون ، والمجنون الذى لا عقلَ له ، ولا يستطيع أنْ يُرتِّب الأشياء ولا أنْ يُدبر حركة حياته .

فهل شاهدتم شيئاً من هذا على رسول الله ، وقد عُرِفَ بينكم برجاحة العقل وحُسْن التصرف والصدق والأمانة ؟ كيف وقد مدحه الله بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ .. ۝٢٩ ﴾ [الطور] أى أن نعم الله عليك كثيرة ، ومنها أنك لستَ كما يقول ، لا كاهن ولا مجنون ، أو ذكِّر بنعمة ربك لا بنعمة الكاهن ولا بنعمة المجنون . ثم ينفى عنه تهمة أخرى ، فيقول :

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾[1]

قالوا عن رسول الله بعد أنْ أعيتهم الحيل ولم يجدوا صَدىً لقولهم : كاهن ومجنون قالوا (شاعر) ولم يفلحوا فى هذه أيضاً ، لأن رسول الله جاء فى أمة أفصح ما يكون . عندهم ملكة البلاغة ودقّة الأداء اللغوى والبيانى ، فهم أدرى الناس بالشعر ، ويعرفون أن ما جاء به محمد وما يتلوه عليهم ليس شعراً وما جرَّبوا عليه شيئاً من هذا قبل بعثته .

لذلك قال تعالى فى إبطال دعواهم : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

أين عقولكم المفكرة ، فقد عشْتُ بين أظهركم أربعين سنة ما جرَّبتم علىَّ قول الشعر ، فهل تفجَّر عندى بعد الأربعين ، ومعلوم أن العبقريات تأتى فى العقد الثانى من العمر .

ثم ما الذى كان يضمن لى أن عندى عبقرية تأتى بهذا الكلام قبل

---

(١) قال قتادة : قال قوم من الكفار : تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان . قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر . أى يهلك عن قريب كما هلك من قبل من الشعراء . [تفسير القرطبى ٩/٦٤٧٢] .

أنْ أموت ؟ ثم أنا لا أقول لكم هذا كلامى أنا .

إنما هو من عند الله بوحى من الله لا يُعطى لكاهن ، لأن الكاهن إنما يتلقَّى عن الشياطين ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ..(١٢١) ﴾ [الأنعام] ولا يُعطى لمجنون ، ولا يُعطى لساحر ولا لشاعر .

فلما فشلوا فى هذه أيضاً قالوا ﴿ أَسَاطِيرُ[1] الأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم] وقالوا : إنْ محمداً يختلف إلى[2] رجل من أهل الكتاب يُعلِّمه هذا الكلام ، لكن فضحهم القرآن وبيَّن كذبهم وتضارب أقوالهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

إذن : هذا كله عناد ولدد فى الخصومة لا يثبت أمام العاقل المتأمل .

ومعنى ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ [الطور] ننتظر ما يجرى عليه من أحداث الحياة ومباغتة الموت الذى يُريحنا منه ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ [الطور]

فالأمر هنا ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا .. (٣١) ﴾ [الطور] أمر للتهديد ، كما تقول لخصمك (أعلى ما فى خيلك اركبه) يعنى : افعل ما شئت ، والمعنى : مهما فعلتَ فلن تنال منى شيئاً .

---

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة وهى الأحاديث التى لا نظام لها أو لا أصل لها . فهى حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهى أكاذيب لا تصدق بزعمهم . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

(٢) يختلف إلى فلان : يتردد عليه ويجلس إليه من وقت لآخر .

فالله يقول لهم : تربَّصوا كما تريدون ، فلنْ تنالوا منا ولنْ تكيدوا لنا ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

وسبق أنْ جرَّبتم ، آذيتمونا بالكلام فلم تنالوا منّا ، وآذيتمونا بالفعل فما تخلينا عن رسالتنا ، آذيتمونا بالمكر والتبييت على قتلنا ، فردّ الله كيدكم فى نحوركم ، ولما لم تفلحوا فى الكيد الظاهر ذهبتم إلى الكيد الخفى واستعنتم علينا بالجن وبالسحرة ، فما وصلتُم إلى بُغيتكم ، وخيَّب الله سعيكم .

إذن : تربَّصوا كما شئتُم ، واعلموا أننا أيضاً نتربَّص بكم ، وقد شرح الله تعالى هذه المسألة فى آية أخرى ، فقال سبحانه ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) ﴾ [التوبة]

أى : ماذا تنتظرون فينا إما النصر عليكم ، وإما أنْ نُقتل فننال الشهادة وكل منهما حُسْنى ، ونحن ننتظر فيكم : إما أنْ يُعذِّبكم الله فى الآخرة بكفركم ، أو يُعذِّبكم بأيدينا حينما ننتصر عليكم . فتربصوا بنا فلن تصلوا من الكيد لنا إلى شىء ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم(١) بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) ﴾

---

(١) كلمة (الأحلام) لها هنا معنيان :

الأول : العقول . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله . أى لم يصحبها بالتوفيق .

الثانى : الأذهان . لأن العقل لا يُعطى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة والذهن يقبل العلم جملة ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . [بتصرف من تفسير القرطبى ٩/٦٤٧٤] .

معنى الأحلام : العقول ، والعقول حينما تأمرهم ﴿ بِهَـٰذَا .. (٣٢) ﴾ [الطور] أى : بهذا العناد ومصادمة دعوة الله دليلٌ على فساد هذه العقول وفساد هذا التفكير ، لأن العقول لو تُركَتْ للفطرة التى جُبلَت عليها ولو تحررتْ من الأهواء ما انتهتْ إلا إلى الإيمان بالله ورسوله ، وما وقفت هذا الموقف .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) ﴾ [الطور] الحق سبحانه وتعالى كرر (أم) هنا فى عدة مواضع ليعرض كلَّ المواقف والاحتمالات التى مرُّوا بها ، ومعنى ﴿ طَاغُونَ (٣٢) ﴾ [الطور] متجاوزون للحدِّ فى الكفر وفى العناد ومصادمة الدعوة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ (٣٤) ﴾

﴿ تَقَوَّلَهُ .. (٣٣) ﴾ [الطور] اختلقه وأتى به من عند نفسه ، ولما لم تنطل هذه الفرية قالوا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وهنا يرد عليه الحق سبحانه ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾ [الطور] يعنى المسألة ليست مسألة قرآن من عند محمد ، إنما المسألة أنهم لا يريدون أنْ يدخلوا ساحة الإيمان ، هكذا ظُلْماً وعناداً واستكباراً عن قبول الحق دون نظر ودون تأمل أو تفكير .

فكلُّ هذه التهم التى حاولوا إلصاقها برسول الله أو بكتابه يعرفون

أنها باطلٌ أتوْا بها من عند أنفسهم ، ليصرفوا محمداً عن دعوته ، وهم يعلمون أنه صادق ، وأن القرآن حَقٌّ ، وأنه من عند الله ، لكنهم لا يريدون أنْ يؤمنوا .

لذلك يُعلّمهم الحق سبحانه كيفية التفكير السليم الموصِّل إلى الحق ، فيقول لهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ[1] ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

أي : اتركوا التفكير الجماعي والكلام الجماهيري ، لأنه لا يُوصِّل إلى الحق .

إذن : إذا فكرتم وأعملتم عقولكم بطريقة صحيحة فلابدَّ أنْ تصلوا إلى حقيقة ، هي أن محمداً صادق فيما جاءكم به .

والقرآن لا يدعوهم إلى التفكر إلا إذا كان هذا التفكّر سيصل بهم إلى هذه الحقيقة ، لذلك نقرأ كثيراً ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس] ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام]

وقوله سبحانه : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور] يعني : إنْ كان القرآنُ مختلقاً كما يدَّعون فليأتوا بقرآن مثله أي مختلق ، وهم أقدر الناس على الكلام والبيان ، وأكثر الناس فصاحة ، ولهم أسواق للخطابة وللشعر ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور] أي : في هذا الادعاء .

---

(١) قال الشوكاني في فيض القدير (آية ٣٤ سورة سبأ) : هي قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، لأن الاجتماع يشوِّش الفكر . وقال الألوسي في (روح المعاني) « فإن في الازدحام على الأغلب تشويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام وقلة الإنصاف » .

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى يسوق لهم البراهين العقلية التى تثبت صدق رسوله فى البلاغ عن الله ، ويتعجب من فعلهم ، وكيف يكفرون بالله ويعاندون دعوة رسوله .

لذلك يسأل : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الطور] كيف والخلق إيجاد من عدم ، فهل جاءوا إلى الكون هكذا دون خالق ؟ والعقل يقول : إنه لا يمكن أنْ يوجد شىء إلا بموجد حتى فى أتفه الأشياء .

فى هذا الكوب الذى نشرب فيه الآن كوب كريستال شفاف بعد أنْ كنَّا نشرب فى الصاج أو الفخار ، هل يعقل أن نقول إن هذا الكوب وُجِد هكذا بدون مُوجد ؟ إذن : لابد لهذا الخَلْق من خالق .

ثم ينتقل إلى جزئية أخرى فى مسألة الخلق : ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور] أى: الخالقون لهذا الخَلْق ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]

نعم لا يستطيعون أنْ يقولوا غير هذا ، لأن الإنسان طرأ على كون بديع فيه شمس وقمر ونجوم وأرض وماء وهواء وسماء وجبال ، فكيف يقول : أنا الذى خلقته وهو أقدم منه ، ولا يستطيع أنْ يقول خلقتُ نفسى ، ولو قالها فمن الذى خلق أباك وسلسلها إلى أن تصل إلى آدم عليه السلام .

إذن : هذا التسلسل المنطقى لا بدَّ أنْ يصل بنا إلى خالق خلق ولم يُخلق ، هو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك قال بعدها : ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور] فإذا لم يستطيعوا خَلْق أنفسهم فهم من باب أوْلى ما خلقوا السموات والأرض .

وسبق أن قلنا : إن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد لنفسه ، والقضية تسلم لمن ادعاها إلى أنْ يظهر له معارض ، ولم يقُلْ أحد أنه خلق السماوات والأرض .

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ[1] أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾

يعنى : أهُمْ يملكون خزائن الأرزاق ، فيرزقون مَنْ يريدون ، ويحرمون مَنْ يريدون ، أو يملكون خزائن الرحمة فيرحمون مَنْ يريدون ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾ [الطور] أصحاب السلطة والسيطرة والأمر والنهى والغلبة .

والجواب : لا هذه ولا هذه ، لأن الله تعالى فقط أمسك عنهم المطر فجاعوا ، حتى أكلوا أوراق الشجر والعلهز[2] ، وهو الدم

(١) قال ابن الجوزى فى (زاد المسير) فيه ثلاثة أقوال :
أحدها : المطر والرزق . قاله ابن عباس .
والثانى : النبوة . قاله عكرمة .
والثالث : علْم ما يكون من الغيب . ذكره الثعلبى .

(٢) العلهز : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير فى سنى المجاعة . قاله الجوهرى فى (الصحاح) مادة : علا . وقال أبو الهيثم : العلهز دم يابس يُدق به أوبار الإبل فى المجاعات ويؤكل . قاله النووى فى تهذيب اللغة مادة علهز .

المخلوط بالوبر ، ثم ذهبوا يستسقون(١) بعم النبى ﷺ .

واعترفوا أن الخزائن خزائن الله وليس لهم من الأمر شىء ، بدليل أنهم مرة أغنياء ومرة فقراء ، مرة أقوياء ومرة ضعفاء .

إذن : ليس عندهم خزائن شىء ، الخزائن عند مَنْ تكرهه وتكذب به . كذلك ليس لهم غلبة ولا سيطرة على مقاليد الكون ولا إدارة الأمور ، بدليل أن القلة المؤمنة هزمتهم على كثرتهم يوم بدر ، وأسرتْ صناديدهم وجاءوا يُفاوضون رسول الله على أنْ يَفْدوهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول لهم : أعندكم ﴿ سُلَّمٌ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الطور] أى : مَرْقى ومصعد تصعدون به إلى السماء فتأتون بمثل ما أتى به محمد ، إذن : هذا إقرار منك بأن السماء فيها شىء ، لكن ينقصكم السُّلم تصعدون به ، والذى ليس عنده سلم أتاه الوحى من السماء إلى عنده .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الطور] أى : إنْ كان عندهم

---

(١) عن أنس قال : كانوا إذا قحطوا على عهد رسول الله ﷺ استسقوا بالنبى ﷺ فيستسقى لهم فيسقون ، فلما كان زمن عمر رضي الله عنه قحطوا فأخرج عمر العباس يستسقى به فقال : اللهم إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبيك استسقينا به فسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . ، قال : فسقوا . أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى ، وابن حبان فى صحيحه .

مستمع فليأتِ بحجة واضحة يغلب بها محمداً .

وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) ﴾ [الطور] الآية تُسفِّه أحلام القوم فى مسألة البنات ، فقد كانوا يحتقرون الإناث ويفضلون الذكور .

وقد سجَّل القرآن عليهم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. (٥٩) ﴾ [النحل]

وذكر وأدهم للبنات فقال : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ [التكوير] ثم نسبوا لله الأدنى ولأنفسهم الأعلى ، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر يبين الحق سبحانه تعديهم فى هذه المسألة فيقول : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] أى : قسمة جائرة ظالمة . فكيف يكون لله الخالق الجنس الأدنى ولكم الجنس الأعلى ؟

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾

ما زالت الآيات تتساءل عن سبب إعراض هؤلاء القوم وتكذيبهم

(١) كظم : سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ فهو كظيم . ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أى كربه وأحزنه وأسكته وشقّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] .

لمنهج الحق ، فهل سألهم رسول الله أجراً على دعوته لهم ، فأثقل عليهم ذلك ولم يقدروا على أدائه ؟

والمَغْرم هو المال الذى يُدفع فى غيرِ جناية أو حَقٍّ ، ومعنى ﴿ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور] مُتعبون لا يقدرون عليه .

وقد سجل القرآن فى عدة مواضع أن الرسل لم تطلب أجراً على دعوتهم للناس ، وأن أجرهم فى ذلك على الله الذى بعثهم ، قال تعالى : ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٧٢) ﴾ [يونس]

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ[1] فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) ﴾

أم اطلعوا على الغيب فوجدوا أنهم أسياد فى الآخرة كما كانوا أسياداً فى الدنيا ، وأن آخرتهم ستكون أفضل من دنياهم ، كالذى قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف] والمعنى : أن دعوتك يا محمد لا تهمهم فى شىء ، لأنهم سيدخلون الجنة على أية حال ومن أىِّ طريق !!

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) ﴾

أى : يريدون بك كيداً ، والكيد هو الاحتيال والتدبير فى الخفاء لإلحاق الضرر برسول الله ﷺ ، وخطورة الكيد أنه يُدبَّر فى خفاء فلا

---

(١) (أم عندهم الغيب) فيه قولان :

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس . قاله ابن عباس .

والثانى : أعندهم علم الغيب فيعلمون أن محمداً يموت قبلهم ، فهم يكتبون أى يحكمون فيقولون : سنقهرك . ذكره ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية ٤١ الطور .

تراه لتـواجهـه ، لذلك هو دأب الضعـيف العـاجز الذى لا يقـدر على المواجهة .

وحين ينتهز الفرصة لا يضيعها كما قال الشاعر :

وضعيفة لما أصابت فرصة قتلت وتلك طبيعة الضعفاء

وقوله سبحانه : ﴿ **فَالَّذِينَ كَفَرُوا** .. (٤٢) ﴾ [الطور] أصحاب الكيد والتدبير ﴿ **هُمُ الْمَكِيدُونَ** (٤٢) ﴾ [الطور] كما قال سبحانه ﴿ **وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ** .. (٤٣) ﴾ [فاطر] لأنهم حـين يكيدون يُخـفون كـيدهم عن أمـثالهـم من الناس ، لكن حينمـا يكيـد لهم الله فلا أحـدَ يستطيع ردَّ هذا الكيد ، فكيده سبحانه بالكافرين أليم وشديد .

ومعنى ﴿ **هُمُ الْمَكِيدُونَ** (٤٢) ﴾ [الطور] أى : الواقع عليهم الكيد ، فهى اسم مفعول .

والدليل على أن الله خيَّب سعيهم أنه أبطل كيدهم لرسول الله ، بل وجعـل كيدهـم ينقلب عليهم ، فـهم كادوا لرسـول الله ليلة الهـجرة ، وأجمعوا على قتله وتآمروا عليه بـحيث يتفرَّق دمه بين القبائل ، ومع ذلك التدبير والاحتيـال هُزِىء بهم وألقى التراب على رؤوسهم ، ونجا هو ولم يُصبْه أذى .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) ﴾

هذا استفهام آخر : ما الذى صرفهم عن دعوة الله ؟ ألهم إله غير الله الإله الحق ، ولـو كـان أين هـو من مـسـألة خَلْق السـمـاوات والأرض ؟ ولماذا سكتَ ولم يردّ ؟

والحق سبحانه وتعالى يناقشهم فى هذه المسألة ويقول : ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

ثم يأتى عَجُز الآية ليوضح الاستفهام فى أولها ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ .. (٤٣) ﴾ [الطور] تعالى وتنزَّه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) ﴾ [الطور] وعما يدَّعُون ، لأن الله واحد أحد فَرْد صمد ، ليس له ولد ، وليس له شريك ، وليس كمثله شيء .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾

﴿ كِسْفًا .. (٤٤) ﴾ [الطور] جمع كسفة ، وهى القطعة العظيمة من السحاب . ومعنى ﴿ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾ [الطور] يعنى : مجموع بعضه فوق بعض ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[1] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

انظر كيف تخدعهم الظواهر الكونية ، حيث يظنونها نعمة فإذا بها نقمة وعذاب ، فحينما يرونَ قطع السحاب تمرّ بهم يظنون أنها تحمل المطر والخير ، فإذا بها تسقط عليهم عذاباً .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] أى : سحاب يسقينا ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

---

(١) الودق : المطر . وهو المطر كله شديده وهيِّنه . وودقت السماء : أمطرت . وأصل كلمة (ودق) أى دنا . فهو نزول الماء وقربه إلى الأرض .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] دعْهم واتركهم ، والمعنى أنه لا فائدة منهم ولا أملَ فيهم ، فاتركهم ولا تُحمل نفسك في سبيل هدايتهم ما لا تطيق ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ..﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل]

إذن : فاتركهم ﴿ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] أى : تصيبهم الصاعقة والهلاك ، والمراد يوم القيامة ، ثم يزيد هذا اليوم بياناً فيقول : ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] أى : كيدهم لرسول الله وتآمرهم عليه .

﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] ليس لهم ناصر من الله ولا دافع يدفع عنهم العذاب ، لأن الأمر لله وحده فى هذا اليوم .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ(١) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

(١) هناك أقوال كثيرة فى ماهية العذاب الأدنى من عذاب يوم القيامة :

– أى : لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذاب فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة . أى قبله وهو قتلهم يوم بدر .

– هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . قاله ابن زيد .

– هو الجوع والجهد . قاله مجاهد .

– عذاب القبر . [فتح القدير للشوكانى] .

المراد هنا كفار مكة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وحرموها من نعمة تدوم فى الآخرة إنْ هم آمنوا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] فهؤلاء لهم ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧) ﴾ [الطور] أى قبل عذاب الآخرة سيلحق بهم العذاب فى الدنيا ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [الطور]

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ (٤٩) ﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ بالصبر لحكم الله وقضائه ، وهو أمر مصحوب بهذه الرعاية وهذه العناية التى ما اختصَّ بها إلا سيدنا رسول الله وسيدنا نوح عليهما السلام ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ..(٢٧) ﴾ [المؤمنون]

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه : اصبر يا محمد على أذى القوم وأنت تحت نظرنا وفى رعايتنا وحفظنا ، فلا تهتم لما يفعلون .

وهذه المكانة خصّ بها أيضاً سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

إذن : فقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٤٨) ﴾ [الطور] منزلة أعلى تناسب مقام سيد الأنبياء محمد ﷺ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) ﴾ [الطور] أى : سبِّحه تسبيحاً مقروناً بالحمد ﴿ حِينَ تَقُومُ (٤٨) ﴾ [الطور] أى : حين تقوم من مجلسك تقول : سبحان الله والحمد لله ، فهى

كفارة لما قد يكون حدث فى مجلسك وهى تطهير للمجلس وخاتمة له ، والقعود والجلوس بمعنى واحد وهيئة واحدة ولكن القعود يكون عن قيام ، والجلوس يكون عن اضطجاع ، نقول : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائماً فقعد .

أو ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور] أى : حين تقوم من نومك فتُسبِّح الله وتحمده على أنْ أعاد عليك روحك ، وأعاد إليك نشاطك بعد النوم ، وقد علّمنا رسول الله ﷺ أنْ نقول عندما نقوم : سبحان الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور[1] ، وأن نقرأ عند القيام من المجلس سورة العصر فهى كفارة لما حدث فيه[2] .

كذلك ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الطور] أى : سبِّح ربك آناء الليل ، فى أوله وفى آخره ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور] أى فى وقت السَّحَر حينما تغيب النجوم ، فالمعنى سبِّح ربك فى كل هذه الأوقات فهو تسبيح موصول ، ذلك لأن الله أنعم عليك وخصَّك بنعم تستوجب هذا التسبيح وهذا الحمد .

---

(١) عن حذيفة بن اليمان قال : كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : باسمك أموت وأحيا . وإذا قام قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٨٣٧ ، ٥٨٣٩) وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث البراء بن عازب (٤٨٨٦) .

(٢) عن أبى مدينة الدارمى وكانت له صحبة قال : كان الرجلان من أصحاب النبى ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر : ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر] ثم يسلم أحدهما على الآخر . [أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط ٥٢٨١] .


سُورَةُ النَّجْمِ

سورة النجم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ (٢) إِذَا هَوَى (٣) ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝٢ ﴾

---

(١) سورة النجم هى السورة رقم (٥٣) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٦٢ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن البصرى وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. ۝٣٢﴾ [النجم] وقيل : إن السورة كلها مدنية . ولكن قال القرطبى فى تفسيره (٦٤٨٣/٩) : « الصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال : هى أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة » .

(٢) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : فى المراد بالنجم خمسة أقوال :

أحدها : أنه الثريا . رواه العوفى عن ابن عباس . وابن أبى نجيح عن مجاهد .

ثانيها : الرجوم من النجوم يعنى ما يرمى به الشياطين . قاله ابن عباس .

الثالث : أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة . قاله ابن عباس ومجاهد أيضاً .

الرابع : نجوم السماء كلها . وهو مروى عن مجاهد أيضاً .

الخامس : أنها الزهرة . قاله السدى .

(٣) معنى هوى فى الآية يتوقف على معنى (النجم) .

- فعلى قول من قال (النجم) : الثريا . يكون (هوى) بمعنى غاب .
- ومن قال (النجم) هو الرجوم . يكون هويها فى رمى الشياطين .
- ومن قال (النجم) القرآن يكون معنى (هوى) نزل .
- ومن قال (النجم) نجوم السماء كلها ففيه قولان :

أحدها : أن هُوِّيها أن تغيب .

والثانى : أن تنتثر يوم القيامة . [زاد المسير لابن الجوزى] .

الحق سبحانه وتعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته وهنا يقسم بالنجم ، فالواو واو القسم (النجم) مُقسَم به ، والنجم يُطلق فى اللغة على معنيين : النجم الذى فى السماء كالشمس والقمر .

وقد قال الله فيه ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] أى : فى سيرهم ليلاً ، والنجم هو العُشْب الذى لا ساقَ له وترعاه الإبل فى الصحراء .

وقد جمع الحق سبحانه المعنيين فى قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن]

وجمعهما الشاعر فقال :

أرَاعِى النجْمَ فِى سَيْرِى إليْهَا وَيَرْعَاهُ مِنَ البيدا جَوَادِىَ

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى ، فالشمس والقمر دلَّتْ على نجم السماء ، والشجر دَلَّ بالمصاحبة على نجم الأرض ، والجميع يسجد لله ويخضع له أعظم شىء وأدنى شىء ، الكل فى الانقياد سواء .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة] فالقسم بالنجم قسَم بآية عظيمة من آيات الله ، والقسَم بالنجم هنا يخصُّ حالة من حالاته .

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) ﴾ [النجم] أى : سقط ، فالنجم علامة فى السماء تهدى السائر وتدلُّه ، فإذا سقط امتنعتْ الهداية ، وامتنعت الفائدة ، لكن محمداً ﷺ ما ضلَّ وما غوى .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وهذا هو جواب القسم ،

(١) حسب الشىء يحسبه : عدَّه . وأحصاه حساباً وحسباناً . قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : سيرهما بحساب دقيق ونظام ثابت . [القاموس القويم ١/ ١٥٢] .

وكأنه سبحانه يقول : وإنْ سقط النجم الذى يهدى السائرين ، فنجم محمد لا يسقط أبداً ، نجم السماء يهدى للماديات وهى موقوتة ، ونجم محمد يهدى للقيم وللمعنويات وهى باقية دائمة .

ومعنى ﴿ مَا ضَلَّ .. (٢) ﴾ [النجم] أى : ما حاد عن الحق ولا مال عنه ، ولا عدل عن سبيل الهدى ﴿ صَاحِبُكُمْ .. (٢) ﴾ [النجم] هو محمد ﷺ ، وصاحب القوم واحد منهم مُحبَّب إليهم ذو مكانة بينهم ﴿ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] الغواية هى الاعتقاد الباطل ، فما اعتقد محمد اعتقاداً باطلاً أبداً حتى قبل بعثته .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ (٦) ﴾

هذه الآيات امتداد لجواب القسم ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وهنا يقسم الحق على صفة أخرى لسيدنا رسول الله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [النجم] النطق هو القول ، أى ما يقول عن هواه ، ولا يأتى بشىء من عنده ولا باجتهاده .

﴿ إِنْ هُوَ .. (٤) ﴾ [النجم] أى : ما هو والمراد القرآن الكريم الذى نطق به محمد ﴿ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم] أى : من عند الله ، وهذا أسلوب قصر : ما القرآن إلا وحى وليس شيئاً آخر .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم] الذى علّمه محمداً وأوحاه إليه ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم] وهو أمين الوحى جبريل عليه السلام . والقُوَى جمع قوة ، فله قُوى متعددة تناسب مهمته ، له قوة ذكاء فى

---

(١) المرَّة : القوة . وأصل المرَّة : إحكام الفَتْل . وإنه لذو مرة : أى عقل وأصالة وإحكام . [لسان العرب - مادة : مرر] .

الاستقبال ، وقوة فى الحفظ . وقوة فى الإرسال والإلقاء ، وليس لديه هوى يغير ما جاءه ولا خيانة ولا كذب . وهذه الصفات هى التى حمتْ القرآن من التغيير كما غُيِّرتْ الكتب السابقة .

وقد حكى الله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩) ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم] فسَّرها فى آيات أخرى فقال ، حتى قبل نزول القرآن : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ [(١)] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير] هذه كلُّها صفات جُمعَتْ لجبريل عليه السلام .

وهنا قال : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) ﴾ [النجم] أى صاحب (مرَّة) وهى القوة فى كل ما يتناوله ، وهى الدقة التى لا تخطئ ، والمَرَّة صفة تقوى الشىء ، ترونَ الحبل مثلاً عندما يُفتل يكون فَتْله مناسباً لمهمته ، فحبل الغسيل مثلاً غير الحبل الذى يُشدُّ به شراع المراكب .

كذلك مهمة سيدنا جبريل مع سيدنا محمد ، أنْ يؤدى هذه المهمة بقوة ودقة وذكاء بحيث يأتى رسول الله بصورة مقبولة لا تُرد ، صورة فيها تشويق لتلقِّى الوحى ولا تردها طبيعة محمد البشرية ، كذلك كان للكلام حلاوة لأنه كلام الله ليس كلام البشر ، وله ظواهر تدل عليه وعلى مصدره الإلهى .

---

(١) كتاب مكنون : أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

وأول ما جاء الوحيُ رسولَ الله أجهده ، لأنها المرة الأولى التي تلتقى فيها الطبيعة البشرية بالطبيعة الملائكية ، لذلك تصبَّب عرقاً وبرد وقال : زملونى دثرونى ، إذن : أثَّر فى جسده ونفسه ، حتى أنه خاف أنْ يكون ما حدث له شيئاً من مسٍّ الشيطان .

ولما أخبر السيدة خديجة بالأمر وكان لها فطنة فى هذه المسألة فقالت له : عندما يأتيك أخبرنى ، فلما جاءه الوحى أخبرها فجلستْ على ركبته وقالت : أتراه ؟ قال : نعم ، فكشفتْ عن صدرها وقالت : أتراه ؟ قال : لا ، قالت : إذن هو ملَك وليس شيطاناً(١) .

وتأمل هنا حصافة السيدة خديجة وما تتمتع به من فقه قبل نزول الإسلام ، وكأنَّ الحق سبحانه أعدَّ للإسلام أناساً من الرجال والنساء يستقبلون خبره الأول ويؤيدونه ويُصدِّقونه دون أنْ ينتظروا معجزة يرونها ليصدِّقوه ، لأن معجزة رسول الله عندهم كائنة فى شخصه وفى سيرته بينهم ، معجزته بالنسبة لهم فى صدقه وأمانته وكرمه ومروءته .

ويكفى أنْ نذكر فى هذا المقام موقف الصِّديق لما قالوا له : إن

---

(١) أورده ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/١١٧) من حديث إسماعيل بن أبى حكيم مولى آل الزبير أنه حدث عن خديجة أنها قالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك . قال : نعم . قالت : فإذا جاء فأخبرنى به فجاء جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . قال فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . ثم على الفخذ اليمنى ثم فى حجرها كل ذلك يقول نعم . فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا قالت : يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان .

صاحبك يدَّعى أنه نبيٌّ ويُوحى إليه ، فقال الصِّدِّيق وكان عائداً من سفر : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، إذن : دليل صدقه فى نظر الصديق أن يقول ، مجرد أن يقول يكفى قوله ليصدق .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [الفتح] يعنى : يكفى فى تعريفه أنه (محمد) الذى تعرفونه هو رسول الله ، فمنزلة رسول الله بين قومه لا تحتاج إلى وصف ولا إلى تعريف فوق ذلك .

وكان المنتظر منهم أنْ يقولوا : ومن أوْلَى بالرسالة منه ، لكنهم قالوا كما حكى القرآن ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

ومن معانى ﴿ذُو مِرَّةٍ .. (٦)﴾ [النجم] أى : صاحب الخُلُق الحسن والمنظر الحسن الجميل ، فكان يأتى رسول الله بالمنظر الحسن الذى يحبه ، وكان ﷺ يحب النظر إلى دحية الكلبى[2]

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنه لأصدقه بما هو أبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٣ ، ٦٢١٣) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) دحية الكلبى : هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبى ، صحابى بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام ، حضر كثيراً من المواقع ، شهد اليرموك ، ثم نزل دمشق وسكن المزّة وعاش إلى خلافة معاوية . توفى عام ٤٥ هجرية . (الأعلام للزركلى ٢/٣٣٧) .

فكان يأتى على صورته[1] .

إذن : معنى ﴿ذُو مِرَّةٍ .. ⑥﴾ [النجم] أى : فيه كل الصفات الطيبة التى تجعله مقبولاً غير مردود ، وهو موصوف مع ذلك بالقوة ، فلما ظهر لرسول الله بصورته الحقيقية ظهر فى صورة طائر جميل له أجنحة .

كما قال تعالى : ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. ①﴾ [فاطر] ويكفى فى بيان قوته أنه ضرب قرى لوط بريشة واحدة من جناحه فدكها وجعل عاليها سافلها .

وما أدراك بمَنْ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤﴾ [النجم] فالمتعلّم يشرُف بشرف المعلم ، كما نرى مثلاً خطيباً مُفوّهاً لا يلحن[2] فى خطبته لحناً واحداً ، فنقول : نعم فالذى درس له فلان .

كذلك الذى علَّم رسول الله هو جبريل بكلٍّ ما عنده من صفات القوة والذكاء والأمانة والصدق .. ﴿ذُو مِرَّةٍ .. ⑥﴾ [النجم]

ومعنى ﴿فَاسْتَوَىٰ ⑥﴾ [النجم] علَّمه جبريل حتى استوى

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٥٧) عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : يأتينى جبريل عليه السلام على صورة دحية الكلبى . قال أنس : وكان دحية رجلاً جميلاً أبيض . وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٣٦١) عن عائشة أن رسول الله ﷺ سمع صوت وثبة شديدة ، فخرج إليه فاتبعته أنظر فإذا هو متكىء على عرف برذونه وإذا هو دحية الكلبى - فيما كنت أرى - وإذا هو معتم مرخ من عمامته بين كتفيه ، فلما دخل علىَّ رسول الله ﷺ قلت : لقد وثبت وثبة شديدة ثم خرجت ، فذهبت أنظر فإذا هو دحية الكلبى . قال : أو رأيته ؟ قلت : نعم . قال : ذاك جبريل أمرنى أن أخرج إلى بنى قريظة » .

(٢) لحن فى كلامه : أخطأ . قال الزمخشرى فى أساس البلاغة مادة لحن : « لحن فى كلامه إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ أو صرفه عن موضوعه إلى الإلغاز » .

رسول الله ونضج في عملية التحصيل الكافي لهداية العالم ، فحمَّله هذه المهمة ليهدي الناس ، ومنه قوله تعالى في سيدنا (موسى) : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص]

لكن كان الوحي في أوله يثقل على رسول الله كما قال سبحانه : ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل] فأراد الحق سبحانه أنْ يريح رسوله من هذا التعب ليعطيه الفرصة ليتذوق حلاوة ما ألقى إليه ويشتاق إليه من جديد ، فيكون الوحي أخفَّ على قلبه وتهون عليه معاناته .

ومعلوم أن الإنسان عادة يتحمل المشاق في سبيل ما يحب ، لذلك لما فتر الوحي عن رسول الله ستة أشهر ، فأخذها أعداء الدعوة فرصة وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] ، سبحان الله ، الآن وفي المصيبة يعترفون برب محمد .

لذلك ردّ الله عليهم ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[2] ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

أي : ما ودعك ربك يا محمد وما قلاك ، إنما أراد لك أنْ ترتاح .

ثم أعطاه مثالاً من واقع حركة الكون ، فما أنت بالنسبة للوحي إلا مثل الضحى والليل ، فالضحى للعمل ، والليل للراحة ، ثم يعاود من

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره عن قتادة في قوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودَّعه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] .

(٢) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شيء فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

جديد لتقبل عليه فى نشاط وقوة ، كذلك الوحى سيعاودك وسيكون أحبّ إليك وأيسر عليك ، وستكون الآخرة خيراً لك من الأولى .

ثم إن كلمة الوداع ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] تدل فى ذاتها على المحبة ، فلم يقُل هجرك مثلاً إنما ودَّعك ، والوداع يكون على أمل اللقاء كما يودع الحبيب حبيبه عند سفره .

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ(١) أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾

قالوا : الكلام هنا عن رسول الله ﷺ ، حيث كان بالأفق الأعلى فى رحلة الإسراء والمعراج ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم]

يعنى : رآه مرة فى الأرض ومرة فى السماء ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] أى : أنه ﷺ بعد أن استوى وبلغ الغاية التى تؤهله لأداء رسالته فى البلاغ عن ربه تعرَّض لكثير من المتاعب والأذى من قومه بالقول وبالفعل فى مكة حتى لجأ إلى الطائف فأغروا به سفهاءهم ، ورموه بالحجارة حتى أدْمَوا قدميه .

وفى نفس العام ماتت زوجه خديجة التى كانت تُخفف عنه عناءَ ما يلاقى من قومه ، ومات عمه أبو طالب الذى كان يحميه ويدفع عنه عداوة قريش .

---

(١) قاب قوسين أى : قدر قوسين عربيتين ، أو قدر ذراعين . [القاموس المحيط] والقاب ما بين مقبض القوس والسِّية ، ولكل قوس قابان . [مختار الصحاح (مادة قوب)] .

لذلك سُمِّى هذا العام بعام الحزن كما تعلمون ، حتى أنه ﷺ لما عاد من الطائف عاد مكسور الخاطر ، ولم يجد فى مكة مَنْ ينزله فى داره ، وكما عزَّ عليه النصير فى الطائف عَزَّ عليه الجوار فى مكة ، إلى أن استقبله المطعم بن عدى وكان كافراً ، فأنزله فى جواره ، مما يدلنا على أن الله تعالى قد يؤيد رسوله ودعوته حتى بالكفار .

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يجبر خاطر نبيه ، وأنْ يُعوِّضه عن أذى أهل الأرض له ، فقال له : إنْ كانت هذه حفاوة أهل الأرض بك فسأريك حفاوة أهل السماء فأخذه فى رحلة الإسراء والمعراج لتكون تخفيفاً عنه ﷺ .

وهناك رأى الأفق الأعلى ، وكان قاب قوسين أو أدنى من مقام ربه عز وجل ، وهذه هى المراد من قوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى]

وبعد ذلك نصر الله دينه وأيَّد نبيه ، وتساقط أهل الكفر وصناديد قريش ، واحداً بعد الآخر ، حتى أن خالد بن الوليد يقول لعمرو بن العاص : يا عمرو لقد استقام الميسم لصاحبك . يعنى : استتبَّ الأمر لمحمد وعَلاَ نجمه ولم يَعُدْ له منازع[1] ، فليس هناك فائدة إلا أنْ نذهب إليه ونؤمن به ، بعدها فُتحتْ مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

إذن : الكلام هنا ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) ﴾ [النجم] أى : رسول الله

---

(١) أخرجه الحارث فى البغية باب (٢٧) حديث (١٠٣٣) باب إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٢٩٩ ، ٥٩٤٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٨١/٤) وعزاه لأحمد والطبرانى وقال : رجالهما ثقات .

دنا من مقام ربه ومن سدرة المنتهى . ومعنى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ [النجم] أى : مقدار قوسين . والقوس هو أداة الرمى المعروفة ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ [النجم] أو أقرب من ذلك ، فأو هنا تأكيد لمقدار قاب قوسين .

كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ⑭⑦﴾ [الصافات] فالزيادة هنا تؤكد وجود العدد مائة ألف ، بحيث لا ينقص عن ذلك بل يزيد . كذلك قاب قوسين أو أقرب من القوسين .

ومن المفسرين مَنْ يرى أن الكلام هنا عن جبريل ، فيقولون ﴿فَاسْتَوَىٰ ⑥﴾ [النجم] أى : ظهر جبريل لمحمد على صورته الحقيقية وبأجنحته التى تسدّ الأفق ، وقوله : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧﴾ [النجم] دنا جبريل من محمد ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ [النجم] أى : قرب من رسول الله وصار منه على هذه المسافة .

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⑩
مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾

أى : أوحى الله تعالى إلى ﴿عَبْدِهِ .. ⑩﴾ [النجم] محمد ﷺ[1] ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪﴾ [النجم] هذا يعنى أن رسول الله لم يرَ

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦٤٩٣/٩) أقوالاً أخرى :
- قيل : المعنى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ.. ⑩﴾ [النجم] جبريل عليه السلام ما أوحى .
- المعنى فاوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة .
- أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . قاله قتادة .

الله تعالى بعينه ، بل رآه بفؤاده وقلبه ، فموسى سمع الكلام فى الأرض ، ومحمد رأى ببصيرة قلبه فى السماء .

ومعنى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ .. ⦗١١⦘ ﴾ [النجم] تحذير للذين يُشكّكون فى هذه المسألة أو ينكرونها ، لذلك يأتى بعدها بهذا الاستفهام الإنكارى :

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⦗١٢⦘ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⦗١٣⦘ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ⦗١٤⦘ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ⦗١٥⦘ ﴾

الهمزة هنا للاستفهام الذى يُفهم منه الإنكار والتعجُّب من تكذيبهم لرسول الله فيما أخبرهم به بعد رحلة الإسراء والمعراج من صعوده للسماء ورؤيته لربه عز وجل .

والفعل ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [النجم] من المراء وهو الجدل ، لكن جدل بالباطل يُراد منه التكذيب والتشكيك ، ولا يُراد منه الوصول للحق .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⦗١٣⦘ ﴾ [النجم] أى : رأى رسولُ الله جبريلَ مرة أخرى ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⦗١٤⦘ ﴾ [النجم] السدرة : هى شجرة السدر التى عن يمين العرش .

﴿ الْمُنتَهَىٰ ⦗١٤⦘ ﴾ [النجم] أى : عندها ينتهى علم الخلائق ، ولا يتجاوزها أحد من الملائكة فضلاً عن البشر ، وعند هذه السدرة رأى جبريل للمرة الثانية .

وفى هذا المكان من القرب فُرضت الصلاة على سيدنا رسول الله ، والصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت مشافهة ، وهذا يعنى أن رسول الله سمع كلام الله فى هذه المشافهة .

لكن لما سُئِلَ عن رؤيتـه لربه عز وجل قال : « نور أنَّى أراه »[1]

أى : كيف أراه ، تعبير دقيق من رسول الله ، فلمـا نظر لم يجد إلا نوراً ، والنور لا يُرى ، وإنـمـا يُرى به الأشـيـاء ، فـإذا كـان الحق سبحانه نوراً فلا سبيلَ إلى رؤيته سبحانه .

أما الرؤية فى مثل قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] فالكلام هنا عن يوم القيامة ، حيث يُعاد الخَلْق على هيئة أخرى غير هيئتهم فى الدنيا .

وبهذه الهـيئة سوف يتـمكّنون من رؤية ربهم سبحـانه وتعالى ، بدليل أننا بهذه الطبيعة الجديدة فى الآخرة نأكل ولا نتغوّط ، ونشرب ولا نتبوّل ولا نعـرق ، لماذا ؟ لأن الله أعدّنا إعداداً آخـر يناسب نعيم الآخرة .

ثم إننا نأكل فـى الدنيـا من طهـينا وإعـدادنا . وأمـا فى الآخـرة فنأكل من طهى الله ، طـهى بحسـاب دقـيق بحـيث لا يبـقى منه فى الجسم أى فضلات .

كذلك من الإعجاز فى رحلة الإسـراء والمعراج أن رسول الله أعدَّه الله إعداداً خاصاً ليتمكن من الصعود ، فمن المعلوم أن (الأكسجين) ينعدم فى طبقات الجو العليا .

وهذه الحقيـقة قررها القرآن فى قـوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن

---

(١) أخرجـه مسلم فى صـحيحـه (٢٦١) عن أبى ذر قال : سـألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قـال : « نور أنى أراه » . وأخرجـه الترمـذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : هذا حـديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) والطيالسى فى مسنده (٤٧٠) .

يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

ومسألة رؤية الله تعالى مسألة خلافية كَثُر فيها الكلام دون داعٍ ، فرسول الله رأى نوراً ، والرؤية الحقيقية تكون فى الآخرة ، ويجب أنْ نقصر الكلام فى هذه المسألة على ما ورد فيها ، ثم هو علم لا ينفع وجهل لا يضر .

المهم المنهج الذى جاء به ومدى التزامنا بتطبيقه فى حياتنا العملية ، وقمة هذا المنهج الصلاة التى فُرضتْ عليه مباشرة لأهميتها فى حركة الحياة وتقويم المعوج منها .

وسبق أنْ أوضحنا مثالاً وقلنا : إن الرئيس يبعث للموظف تأشيرة افعل كذا وكذا ، فإنْ كان الأمر أهَمّ من ذلك اتصل به تليفونياً ، وإنْ كان أهم استدعاه إلى مكتبه وأخبره بما يريد مباشرة ، هكذا كانت الصلاة .

لذلك نراها واجبة على كُلِّ مسلم ومسلمة لا تسقط أبداً على أية حال خلافاً لباقى العبادات التى تسقط بالأعذار .

والحديث : « بُنى الإسلام على خمس .... »[1] يوضح هذه المكانة ، فالصلاة من عمد الدين وقوائمه التى يقوم عليها ، ويُوضح أيضاً أن هذه الخمس ليست هى كل الإسلام ، بل الإسلام أوسع مجالاً منها ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠ ، ٢١) والإمام أحمد فى مسنده (٤٥٦٧ ، ٥٤١٤) من حديث عبد الله بن عمر .

الإسـلام يشمل حركة الحياة كلـها ، بداية من قمة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[١] .

لذلك نتعـجب من الذين ينادون بفصل دين الله عن سياسـة الدنيا ، ويقولون : لا سياسة فى الدين ولا دين في السـياسة . فهذا قول باطل لا يصح ، وهل يجـوز أنْ نترك القاتـل والزانى والسارق وغيـرهم من أصحاب الجرائم يعربدون فى خَلْق الله دون عقاب أو رادع ؟

ولأهمـية الصـلاة فى حركـة الحيـاة جعلهـا الله كتـاباً موقـوتاً ، ففرضيتها مقـرونة بوقتها ، وهذا الوقت موزَّع على مدى اليوم والليلة ، ليظل المـؤمن على صلـة دائمة بربـه ، وعلى ذكـر دائم للمنهج ، ولا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لعذر مقبول عند الشارع الحكيم .

فمَنْ نام عن صلاة فوقتها حين يستيقظ[٢] ، ومَنْ كان ناسياً فوقته حـين يتذكـر[٣] . وفى هاتين الحـالتـين لا تُقضى الصـلاة إنمـا تصلى حاضراً ، أمـا إذا فاتته الصلاة تكاسلاً وبدون عذر فـلا تُقضَى صلاته لأن لها وقتاً مخصوصاً وقد فوَّته على نفسه بدون عذر شرعى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحـه (٥١) وأحمد فى مسنده (٨٥٧٠ ، ٩٣٧١) والترمذى فى سننه (٢٥٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرج أبو عوانة فى مستـخـرجه (٨٩٠) من حـديث أنـس بن مالك عن النبـى ﷺ قال : « من نام عن صلاة فليصل إذا اسـتيقظ » . وفى فقه هذا الحديث مـا ذكره ابن خزيمة فى صحيـحه (جماع أبواب صـلاة الفريضـة) : « لم يرد ﷺ أن وقتها حين يسـتيقظ لا وقت لها غير ذلك ، وإنمـا أراد أن فرض الصـلاة غير سـاقط عنه بنومه عنها حـتى يذهب وقتها ، بل الواجب قضاؤها بعد الاستيقاظ ، فإذا قضـاها عند الاستيقاظ أو بعده كان مؤدياً لفرض الصلاة التى قد نام عنها » .

(٣) أخرجه أبـو عوانة فى مستـخرجه (٨٩٠) من حديث أنس ، وكـذا أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٣٠٠٦) .

والحكمة من توقيت الصلوات بوقت محدد أن الإنسان لا يدرى متى يُفاجئه أجله ، فليبادر أولاً بآداء صلاته فى موعدها ، والصلاة فيها دوام واستمرار على مدى الساعات ، على خلاف الحج مثلاً ، فهو مرة واحدة فى العمر كله .

نقول : إذن لا داعيَ لأنْ نختلف حول رؤية الرسول لربه عز وجل فى رحلة الإسراء والمعراج ، المهم أنه انتقل إلى مكان أعلى فى التكليف ، كان يُكلف وهو فى الأرض والآن يُكلف وهو فى السماء ، ويكفى أن الله تعالى كلمه دون وحى ، ويكفى أن يقول ﷺ عن رؤيته لربه تعالى : نور أنَّى أراه ؟

ولقائل أنْ يقول : لماذا جاءت الرؤية فى السماء بالذات والله قادر أنْ يتجلى على رسوله ويظهر له وهو فى الأرض ؟ نقول : المكان لا للمرئى ولكن للرائى ، فالرائى لا يرى إلا فى هذا المكان .

كما لو قلت لكم مثلاً ونحن فى المسجد : ظهر القمر ، فقال أحدكم : لكنى لا أراه . أقول له : يراه الذى بالخارج أو فوق السطح .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم] تأكيد للرؤية وترجيح لها وتحذير من التشكيك فيها ، ولم التشكيك إذا كان الأمر كله فى هذه المسألة لله ، ومحمد لم يدّع لنفسه قوة ، بل قال : أُسْرى بى ؟

تذكرون لما تكلمنا عن قوله تعالى : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن] قال بعض العلماء : المراد سلطان العلم .

قلنا : لا بل سلطان من الله القادر على ذلك ، ولو أن المراد سلطان

العلم لما قال تعالى بعدها : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن]

ولولا هذه الآية لكانت السماءُ مفتوحة يسهل للجن اختراقها .

ورؤية رسول الله لجبريل فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم] تعد تشريفاً لجبريل وتشريفاً لرسول الله . والسدرة كما قلنا شجرة النبق ، وهو حب يُؤكل فى حجم الزيتون .

وإذا كان النبق فى الدنيا له شوك فسدرة المنتهى لا شوكَ لها ، فهى كما قال تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ[2] مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] يعنى : لا شوكَ فيه . وقال فى وصف ثمارها أنها كقلال هجر[3] أى : (كالبلاص) الكبير .

ثم لا تعجب من كون هذه الشجرة فى السماء السابعة ، فهذا من طلاقة القدرة ، ألم يجعل شجرة فى جهنم والعياذ بالله ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ ..(٦٤)﴾ [الصافات] أى : شجرة الزقوم ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

---

(١) الشُّواظ ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] وقيل : الشواظ لهب النار ولا يكون إلا من نار وشيء آخر يخلطه . [لسان العرب - مادة : شوظ] .

(٢) السدر : شجر النبق ، ومفردها سدرة . وهو النوع الثانى من السدر ينبت على الماء وثمره النبق أصفر مُز يُتفكّه به ، أما النوع الأول من السدر فهو برى لا ينتفع بثمره ، ولا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ فى الحلق . والعرب تسميه الضال . [لسان العرب - مادة : سدر] .

(٣) قلال : جمع مفرده قُلة . وقلال هجر عظام تسع القلة الواحدة قربتين ، والقلة تسع فَرَقاً أى أربعة أصوع بصاع رسول الله ﷺ ، والصاع خمسة أمداد والمدّ الحفنة بجمع اليدين إلى بعضهما . [لسان العرب وغيره من المعاجم بتصرف] .

الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم] أى : التى يأوى إليها وينتهى إليها الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله ، فكأنها جنة خاصة بهم غير جنة الآخرة التى تكون بعد الحساب .

فالذى مات شهيداً وضحَّى بروحه فى سبيل الله يقول الله له : لا تموت عندى فيُبرئه من الموت مرة أخرى ، كأنه يقول : أنا واهب الحياة وأنا الذى آخذها فإذا أخذها غيرى أكيده بأنْ أجعل الشهيد حياً عندى ، موصولة حياته الدنيا بحياته فى البرزخ .

تذكرون لما تكلمنا عن سيدنا يحيى عليه السلام . قلنا : إن الله تعالى هو الذى سماه (يحيى) ، ونحن حينما نسمى أولادنا نختار الاسم الحسن تفاؤلاً به ، فنسمى ذكى أملاً فى أن يكون كذلك ، ونُسمى سعيداً عسى أنْ يكون سعيداً فى حياته .

لكن قد يأتى الواقع على خلاف ما نتمنى ، نُسميه (ذكى) فيكون غبياً ، أو (سعيد) فنراه فى الواقع شقياً ، ذلك لأننا لا نملك تحقيق ما نتمناه .

فإنْ كان المسمِّى هو الله تعالى فلا شكَّ أن تسميته تطابق الواقع ، لأن الله تعالى لا رادّ لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ، ولا أحد يستطيع الاعتراض على أمره .

فكانت تسمية (يحيى) إشارة إلى أنه سيحيا حياة دائمة موصولة ، والعلماء أصحاب الفهم عن الله فهموا من ذلك أنه سيموت شهيداً ، لأن الشهادة هى التى تضمن له استمرار الحياة ، حيث تصل

حياته الدنيا بحياة الشهادة عند الله .

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⦗١٦⦘ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⦗١٧⦘ ﴾

معنى ﴿ يَغْشَى السِّدْرَةَ .. ⦗١٦⦘ ﴾ [النجم] يغطيها أو يحيط بها ويسترها، و (ما) تفيد الكثرة والشيء العظيم المستحق للتعجب ، فسدرة المنتهى يغشاها الكثير من المخلوقات العجيبة التي لا يعلمها إلا الله .

فهي كما في قوله تعالى قبلها ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⦗١٠⦘ ﴾ [النجم] أي : أوحى إليه بأمور كثيرة عظيمة وعجيبة ، وكما تقول أكرمته ما أكرمته .

وقد ورد من هذه المخلوقات العجيبة حول سدرة المنتهى أشكالٌ وألوانٌ عجيبة من الطيور ، وإذا كنا نرى الكثير من عجائب الخَلْق في الطيور في الأرض وما لها من أشكال جميلة نضعها للزينة في أقفاص في البيوت وما لها من أصوات ، فما بالك بطيور جعلها الله حول هذه السدرة في السماء ؟

وذكر أيضاً جراد من ذهب ، ولجراد الذهب هذا قصة مع سيدنا داود عليه السلام ، فيُروى أنه كان يجلس على سطح منزله يعبد الله ويناجيه ، وذات يوم رأى جراداً من ذهب يُحلِّق فوقه ، ففرش له ثوبه ، فصار الجراد يقع فيه فيأخذه داود ، فقال الله له : يا داود ألم أُغْنكَ ؟ قال : بلى يا رب لكن لا غِنَى لي عن فضلك[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٠ ، ٣١٤٠ ، ٦٩٣٩) والنسائي في سننه (٤٠٦) وأحمد في مسنده (٧٦٩٥ ، ٧٨١٢ ، ٩٩٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو في حق أيوب عليه السلام ، وليس داود . ولفظ البخاري أنه كان يغتسل ، وعند أحمد دون ذكر الاغتسال بل قال : أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب .

وقوله سبحانه : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰﴾ [النجم] أي : ما زاغ بصر سيدنا رسول الله في هذه الرحلة ، و (زَاغ) فعْل بمعنى مال عن القصد ، وزاغ تعطى معنى (راغ) التي وردت في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ㉖﴾ [الذاريات] أي : مال إلى أهله مَيْلاً خفياً لا يدركه الحاضرون .

والفرق بينهما النقطة على الزاي ، لكن المعنى واحد وقريب منه ، قولنا : فلان زوغ . أي : خرج خُفْية بحيث لا يشعر أحد به ، وقريبٌ من هذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا .. ㊸﴾ [النور] أي : يتسللون خُفْية .

وقوله بعدها : ﴿وَمَا طَغَىٰ ⑰﴾ [النجم] ما طغى بصره ولا تجاوز الحدَّ في الرؤية وما مدَّه لغير غايته ، وهنا نتعلم الأدب في النظرة ، وكيف تكون في حدود المسموح به ، كالضيف يدخل بيتك في وجود أهلك وبناتك فلا تمتد عينه ليرى ما لا يجوز له رؤيته .

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱﴾

أي : رأى رسولُ الله ﷺ كثيراً من آيات الله في رحلة الإسراء والمعراج ، آيات في الأرض وآيات في السماء ، وكلمة ﴿الْكُبْرَىٰ ⑱﴾ [النجم] مؤنث جمع كبيرة ، وللمذكر كبير وأكبر . والمعنى أنه ﷺ رأى كثيراً من آيات ربه التي تُوصَف بأنها آيات كبرى ، أو رأى الكبرى من الآيات كلها .

وبعد أنْ حدَّثتنا الآيات وأقسمتْ على صِدْق سيدنا رسول الله في

البلاغ عن ربه ، وذكرت لنا بعض الآيات الكونية والمعجزات تنتقل بنا إلى المقابل ، إلى الحديث عن الأصنام وعُبَّاد الأصنام .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ(١) وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ ﴾

الاستفهام فى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ .. ۝١٩ ﴾ [النجم] بمعنى أخبرونى عن شأن هذه الأصنام التى اتخذتموها آلهة من دون الله ، وقد كانوا يتخذون الآلهة على أشكال شتى ، إنسان أو حيوان أو شجرة ، وربما يتخذون صنماً لا شكلَ له .

و ﴿ اللاَّتَ .. ۝١٩ ﴾ [النجم] صنم على شكل رجل كان عندهم يلتُّ العجين ليريح النساء من هذا العمل الشاق ، ومات ولم يترك خلفاً بعده يقوم بهذا العمل ، فحزنوا لموته ، وصنعوا له تمثالاً تكريماً لذكراه ثم بعد ذلك عبدوه .

و ﴿ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ ﴾ [النجم] اسم شجرة كانوا يعبدونها ، وقد

---

(١) كانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبنى هلال . وقال ابن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه . وقال قتادة : نبت كان ببطن نخلة و« مناة » صنم لخزاعة . وقيل : إن اللات فيما ذكر المفسرون أخذه المشركون مَن لفظ الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من منى الله الشىء إذا قدره .

وقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح (اللاتّ) بتشديد التاء وقالوا : كان رجلاً يلت السويق للحاج - ذكره البخارى عن ابن عباس - فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . [تفسير القرطبى ٦٥٠١/٩ باختصار] .

أمر النبى ﷺ خالداً أن يذهب ويقطعها[1] ، وكان يقول :

يا عُزَّى كفرانك لا غفرانك ... إنى رأيت الله قد أهانك[2]

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] مناة أيضاً اسم صنم لهم ، وقال : ﴿ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] فهى ثالثتهم ولم تكُنْ على شكل إنسان أو حيوان ، فقال ﴿ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] على سبيل تحقيرهم والاستهزاء بهم وبمَنْ عبدوهم .

الحق سبحانه وتعالى جعلهم حكاماً على ما يفعلون وعلى عبادتهم للأصنام ، فقال لهم : أخبرونى عن هذه الأصنام هل تستحق أنْ تُعبد ، هل لها قدرة أو إرادة ، وهى أحجار جئتم بها بأيديكم وصوَّرتموها على صورة تريدونها ؟

ثم إذا سقط الصنم وأطاحت به الريح أقمتموه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه ، فكيف تعبدونها ؟ وأين عقولكم ؟

لكنها طبيعة التديُّن فى الفطرة البشرية ، فقد جبل الخالق سبحانه الإنسان على التدين ، وقبل أنْ يُخلق آدم وهو ما يزال فى عالم الذر

(١) فى عيون الأثر (٢/٢٠٧) أن سرية خالد بن الوليد إلى العزى كانت لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ٨ ليهدمها ، فخرج فى ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوا إليها فهدمها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره . فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها فضربها خالد فجزلها باثنين ورجع إلى رسول الله فأخبره فقال : نعم تلك العزى .

(٢) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية لابن كثير ، وكذا الشامى فى سبل الهدى والرشاد (باب ٥٢) والواقدى فى مغازيه (١/٨٧٣) شأن هدم العزى . وهى فى كل المصادر صنم مبنى وليس شجرة .

وأخذ علينا العهد ونحن فى عالم الذر فى ظهر آدم عليه السلام .

فقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : عبدوا الأصنام لما عندهم من إيمان الفطرة فى النفس ، لكن الإيمان له تبعات ومطلوبات قد تشقُّ على النفس وتقيد حركتها نحو الشهوات ، فيميل الإنسانُ إلى عبادة إله بدون تكليف ليُرضىَ غريزة التدين فى نفسه ، ومن هنا عبدوا الأصنام لأنها آلهة فى زعمهم ، لكن ليس لها مطلوبات وليس لها منهج ، وما عبدوها إلا لراحة مواجيدهم الإيمانية .

ونلاحظ هنا دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ [النجم] لأنهم عبدوا أيضاً الملائكة من دون الله ، لكن لم يذكرها مع اللات والعزى ومناة ، لأن الملائكة لا تُرى .

فلا يصح أنْ يقول : أفرأيتم الملائكة لأنهم لم يروا الملائكة ، إنما سمعوا عنها وآمنوا بها غيباً . وقالوا على كل هؤلاء : شفعاؤنا عند الله ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] إذن : حتى فى كفرهم بالله يتمحّكون فى الله .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) ﴾ [النجم] استفهام للتعجُّب والإنكار عليهم ، حيث نسبوا لله تعالى الملائكة وجعلوها إناثاً لوجود تاء التأنيث بها .

والملائكة مخلوقات لله تعالى نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل ، ولا تُوصف بذكورة ولا بأنوثة .

فهذا تعدٍّ فى الحكم وقسمة سماها القرآن ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] جائرة ظالمة ، لأنكم نسبتُم لأنفسكم الجنس الأعلى ولله الجنس الأدنى ، فالخطأ الأول أنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، والثانى أنهم عبدوها .

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف] . وقال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] أى : وقودها الذى تتأجج به والعياذ بالله .

فالمأزق الذى وقع فيه عُبَّاد الأصنام أنهم قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] ولو قالوا : ما نتقرَّب إليهم إلا ليقربونا إلى الله لكانت مقبولة ، لكن قالوا : (نعبدهم) وهو قول باطل ، فردَّ الله عليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

فإنْ قلتَ : فما ذنب عيسى والعُزير ؟ وما ذنب الملائكة وقد عبدوها من دون الله ؟ والجواب فى نفس الآية ، تأمل ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] فـ (ما) هنا لغير العاقل ولم يقُلْ : ومَنْ تعبدون ، فسيدنا عيسى والعزير والملائكة لا يشملهم هذا الحكم .

وتأمل كلمة ﴿ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] تجدها كلمة غريبة فى

---

(١) حصب جهنم : الحصب كل ما يلقى فى النار لتسعر به ، فتزداد بهم اشتعالاً . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

تركيبها وفى نطقها ولم تتكرر فى مفردات القرآن ، جاءت هكذا عجيبة لتدل على أن فعلهم غريب وعجيب ، وأن قسمتهم هذه جائرة ظالمة ، لأنهم نسبوا لله تعالى وهو الخالق الجنس الأدنى . أى : فى نظرهم هم .

فالعقائد لا تُفضّل الذكر على الأنثى ، فهما سواء فى ميزان الشرع ، ولبيان هذه المسألة اقرأ مثلاً فى قصة السيدة مريم : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا .. (٣٥) ﴾ [آل عمران] أى : محرراً وموقوفاً على خدمة البيت ، والخدمة فى أماكن العبادة خاصة بالذكور ولا تصح لها الإناث .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ..(٣٦) ﴾ [آل عمران] أى : ليس كالأنثى فى آداء هذه المهمة ، فبيَّن الله لها أن الأنثى التى أريدها ستأخذ منزلة لم تأخذها أنثى غيرها .

فالذكر الذى طلبْته ليس كالأنثى التى وهبتُها لك ، لأن هذه الأنثى سيكون لها منزلة فى تاريخ العقائد ، وموقف يرفعها على جميع النساء .

لذلك لما تكلم عن نماذج من النساء قال (امرأة) ولم يُسمِّ إلا مريم ، فقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. (١٠) ﴾ [التحريم] وقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ..(١١) ﴾ [التحريم] ولم يُسمِّها إلا رسول الله ، فقال : هى آسية بنت مزاحمَ .

فالحق سبحانه لم يُسمّ هؤلاء ، فهُنَّ نماذج لحالات مختلفة هدفها واحد وهو حرية العقيدة للمرأة ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يُرغِم أحداً على عقيدة بعينها .

أما مريم فسمَّاها باسمها واسم أبيها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ..(١٢)﴾ [التحريم] لأنها نموذج فريد وحالة خاصة لن تتكرر بعدها . إذن : إبهام الشخصيات له موضعه ، وتعيُّنها له موضعه ، وكُلٌّ له حكمته .

ففى قصة أهل الكهف ذكر قصة الفتية ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾ [الكهف] ولم يُعيِّن القرآن أسماءهم ولا عددهم ، ولم يذكر عنهم إلا وصف الإيمان بالله ، وهذا هو القدر المراد فى قصتهم ولا يُهم بعد ذلك عددهم أو أسماؤهم ، فهو عِلْم لا ينفع ، وجهل لا يضر كما يقولون .

فهم نموذج للفتية المؤمنين المتمسكين بعقيدتهم المجابهة للظلم فى أىِّ زمان وفى أىِّ مكان ، بأىِّ عدد وبأىِّ صورة ، ولو عيّنهم وسمّاهم لكانوا حالة خاصة ليس بالضرورة أن تتكرر .

وأحبُّ أنْ أستدرك الحديث عن مسألة رؤية سيدنا رسول الله لربه ، لأنها مسألة كَثُر فيها الكلام بين المفسرين ، وتباينت فيها الآراء بين مؤيد ومعارض .

وأقول : أولاً إنها مسألة لا تضر أصل العقيدة ، لأنها لا تأتى بشىء جديد إلا أنْ نعرف منزلة محمد من ربه ، فالذين يحبون رسول الله يريدون أنْ يصلوا به إلى مرتبة أنه رأى ربه فيُثبتون له ذلك .

وآخرون مُحبُّون أيضاً لرسول الله لكنهم يريدون أنْ يُجنِّبوا الناس

متاهات الشك ، فيحاولون تخفيف هذه المسألة بأنها رؤية على غير الحقيقة .

ونحن بدورنا نريد أنْ نُبسِّط المسألة تبسيطاً يُيسِّرها على الجميع ، ومن الطبيعى أنْ تختلف آراء العلماء ، وهو اختلاف يُعزِّز الدين فى ذاته ولا يقدح فيه .

والمتتبع لآيات سورة النجم من أولها يجدها تحدثتْ عن الوحى فى موضعين : الأول : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] والمراد : الوحى الذى نزل به جبريل على محمد وهو فى الأرض .

إذن : فقوله تعالى بعدها : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم] ليست بالمعنى الأول ، بل تضيف جديداً ، فالوحى فيها يُقصد به الوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد .

بدليل أن الآية هنا لم تذكر جبريل واسطة الوحى ، ثم أبهمتْ الوحى فقالت : ﴿مَا أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم] والوحى الذى نزل به جبريل معلوم وغير مُبْهم .

كما أن إبهام الوحى هنا يدل على عظمه ، وأنه شىء كثير فوق الحصر ، أو أنه شىء غريب وعجيب كما جاء فى قوله تعالى :
﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]

إذن : نحن أمام نوعين من الوحى ، وإذا كانا بمعنى واحد فما ضرورة أنْ يذهب رسول الله فى هذه الرحلة من الأرض إلى السماء ما دام جبريل ينزل عليه . ويُوحى إليه ؟

نفهم من ذلك أن ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ ﴾ [النجم] عطاء جديد لرسول الله ، لكنه عطاء مُغلّف بالغيب ، فليست كل العقول مهيئة لتقبُّله ، وعلى قدر صفاء النفس يكون الاقتناع بمثل هذه المواقف ، والناس يختلفون كثيراً فى هذه المسألة .

ومن هنا رأينا المؤيد والمعارض ، والحمد لله فهذا خلاف لا يقدح فى العقيدة ، والحق سبحانه وتعالى خاطب الجميع مَنْ اكتفى بالفرائض ، ومَنْ زاد عليها وأوغل فى النوافل ، وجعل لكلٍّ عطاءً يناسبه .

والوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد يقتضى القُرْب ، ويقتضى السماع ، وقد أوضح سيدنا رسول الله الرؤية فقال : نور أنَّى أراه[1] ، فقد رأى ﷺ النور ، وهل بعد ذلك غاية تُدرك ؟

وقد ورد فى أثر ما يؤكد هذا أن رسول الله ضرب على صدر أحد الصحابة حتى أحسَّ برد أنامله . وقال : أعطانى ربى ثلاثة أوعية : وعاء أمرنى بتبليغه وهو الصلاة ، ووعاد خيَّرنى فيه (يعنى : أبلغه لأصحاب الصفاء الذين يحسنون الاستقبال عنى وأكتمه عن الذين لا يُحسنون الاستقبال) ، ووعاءً نهانى الله عنه (وفى هذا الوعاء

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٦١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) .

أمور فوق مدارك البشر جميعاً ولا تتحمله عقولهم فأُمِر رسول الله بأنْ يكتمه) .

والصحابة أنفسهم كانوا يتفاوتون فى فَهْم مثل هذه الأمور ، فسيدنا عمر لما طاف بالكعبة ووقف أمام الحجر الأسود قال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنِّى رأيتُ رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك[1] .

يريد عمر أنْ يلفتنا إلى أن العمل العبادى لا يُؤدَّى لذاته ، إنما ثقة فى الآمر به . أما سيدنا على فعنده لَوْن آخر من الفيض ومن الفهم ، فيأتى سيدنا عمر ويقول له بينه وبينه : يا أمير المؤمنين ، ولكنى أعرف أنه يضر وينفع ، ألا يشهد لصاحبه يوم القيامة .

إذن : ليس بالضرورة أنْ نعلم كلَّ شىء ، والله يقول : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء] مهما كنت ، وعندنا فى حياتنا اليومية نغلف الشىء النفيس فى أكثر من غلاف ، فنضعه فى ظرف ، والظرف فى خزينة مُحكمة ، والخزينة فى مكان خاص ، فما

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٦٣٥) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : حججنا مع عمر بن الخطاب فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك ثم قبّله ، فقال له على بن أبى طالب : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع . قال : بم ؟ قال : بكتاب الله . قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال : قال عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] وإنى أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد » فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لستَ فيهم يا أبا حسن .

بالك إذا كان الأمــرُ خاصاً برؤية الله جَلَّ وعــلا ، فلا بأس أنْ تغلف فى هذه الأساليب ولكل عقل أنْ يتقبَّل منها ما يريد .

ثم فى قوله ســبحانه : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫﴾ [النجم] الوحى يُرَى أم يُسمع ؟ الوحى يُســمع ، فلماذا قــال ﴿عَلَىٰ مَــا يَرَىٰ ⑫﴾ [النجم] إذن : لابد أن يكون هناك رؤية . والــذين لا يقــبلون الــرؤية يستــشهدون بقــوله تعالى : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَــارُ وَهُــوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ..⑩⑬﴾ [الأنعام]

نعم لا تدركه الأبصار ، فقد حدد آلة الإدراك وهى (الأبصار) ، وهذا يعنى أنه لا مانعَ أنْ يدرك بغير الأبصار ، فالمنع هنا للأبصار فقط ، فحين يرد خبر معناه : انعكس بصرى على بصيرتى ، فرأيت مَنْ لا كمثله شىء لابد أن نفهم أن المسألة فــيها تغليف وستْر لأمر نفيس وعجيب .

بل إن المتدبر للآيات يجدها تذهب إلى أبعد مــما تتكلَّمون فيه ، اقرأ : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫﴾ [النجم] وبعدها : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱﴾ [النجم] يعنى : رأى أكثــر من الذى تتكلمون فيه ، فما حالكم لو أخبرناكم بكلِّ ما رأى ؟

وفى قصة سيدنا مــوسى عليه السلام لما قال لربه : ﴿رَبِّ أَرِنِــي أَنظُــرْ إِلَيْكَ قَــالَ لَن تَــرَانِي وَلَــٰكِنِ انظُرْ إِلَــى الْجَبَلِ فَــإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ

فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا.. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

تأمل أولاً ﴿لَن تَرَانِي.. (١٤٣) ﴾ [الأعـراف] ولم يقُلْ : لن أرى ، يعنى : لن ترانى يا موسى وأنت على هذه الهيئة لأنها لا تُمكنك من الرؤية ، لكن تجلى للجبل والتجلِّى يقتضى الرؤية . إذن : الأمر هنا فى الرائى ومدى استعداده للرؤية .

ومحمد مثل موسى فى هذه المسألة ، لكنه لما صعد إلى السماء أخذ شيئاً من الملائكية تُمكنه من الصعود والاختراق ، ملائكية غطَّتْ على بشريته وتغلَّبتْ عليها .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾

ما زال الكلام موصولاً عن الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فيخبر عنها الحق سبحانه ﴿إِنْ هِيَ ..(٢٣) ﴾ [النجم] أى : ما هذه الأصنام ﴿إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أسماء من تأليفكم لأصنام من صُنْع أيديكم .

ومعلوم أن الاسم يُوضع ليدل على مُسمّى ، أما هذه الأصنام فأسماء دون مُسمّى فهى باطلة ، قلتم آلهة وهى حجارة لا تضر ولا تنفع .

﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٢٣) ﴾ [النجم] لأنهم ورثوها عن الآباء والأجداد كما حكى عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : أقرُّوا بخطأ آبائهم ، وأنهم سائرون على منهجهم .

ثم يُبيِّن لهم بُطْلان معتقداتهم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أى : هى من عند أنفسكم ليست من عند الله ، ولا برهانَ ولا دليلَ على صدقها ، وأنتم وآباؤكم لستم مُشرِّعين .

فالتشريع والأمور العقدية لا تُؤخذ عن البشر ، إنما تُؤخذ عن الله ، وهؤلاء لا يتبعون هدى الله ، إنما ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ .. (٢٣) ﴾ [النجم] إن نافية بمعنى : ما يتبعون ﴿ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ .. (٢٣) ﴾ [النجم] لا يتبعون حقائق ولا واقع .

الظنّ نسبة من النسب الكلامية الست التى سبق أنْ بيَّناها ، وهى : العلم والجهل والتقليد والشك والظن والوهم ، فالنسبة الكلامية إنْ كان لها واقع مجزوم به ، ويمكن إقامة الدليل عليها فهى علم ، وإنْ كان لها واقع مجزوم به وليس عليها دليل فهى تقليد .

فإنْ كانت النسبة الكلامية ليس لها واقع فهى جهل ، هذا فى النسبة المجزوم بها ، فإنْ كانت النسبة الكلامية غيرَ مجزوم بها يعنى تحدث أو لا تحدث ، فإذا تساوتْ الكفّتان فهذا الشك ، فإنْ كان الوقوع راجحاً فهو الظن ، وإنْ كان الوقوعِ مرجوحاً فهو الوهم .

والظن يمكن العمل به فى الأمور العادية ، فلو أردنا مثلاً السفر إلى الإسكندرية فقلت لصاحبى : هذا الطريق سهل وعليه متطلبات

السفر . فقال : الطريق الآخـر أظن أنه أفضل لأنه حديث وكذا وكذا ، فيـجوز أنْ أترك اليقـين الذى أعلمه عن الطريق وأسـلك الطريق الآخر المظنون ، لأن الاختيار لو كان خطأ فالضرر الحاصل به قليل .

أما فى مـسائل الدين والعقـيدة فيـجب الأخذ باليـقين لا بالظن ، والحق سبحـانه يخبر عن هؤلاء أنهم اتبعوا الظن فى أمـور العبادة ، فقالوا : إن الله تعالى جلالاً وكبـرياء ، ولا نقدر أنْ نلتحم به ونعبده ، ولكن نعبد شيئاً آخر يُوصِّلنا إليه ويشفع لنا عنده .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أى : فى العقيدة ﴿ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ .. (٢٣) ﴾ [النجم] فى السلوك والعمل يتبعون هوى النفس ، والهوى يُطلق على ما يُذم من مطلوبات النفس .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾ [النجم] اللام للتوكيد و (قد) حرف تحقيق .

يريد سـبحـانه أنْ يؤكد علـى هذه الحقـيقـة ، وهى أن هدى الله جاءهم وبلغهم رسول الله منهج الله ، ومـع ذلك تركوا الحق واليقين ، واتبعـوا الظن وما تهـوى الأنفس ، ولو اتبـعوا الظن والهـوى قبل أنْ يأتيهم منهج الحق لكان لهم عُذر ، أما وقـد فعلوا ذلك بعد أنْ جاءهم الهدى من الله فلا عذرَ لهم ولا حجة .

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) ﴾

أيظنون وقد فعلوا ما فعلوا من الانصراف عن هدى الله إلى ظنون كاذبة ، أيظـنون أن الإنسان يسيـر فى الدنيا علـى هواه ؟ وأن له ما

تمنى حتى لو كانت أمانيه مخالفة لمنهج ربه ؟ الواقع أنه ليس له ذلك ، لأن الدين والعقيدة لا تُؤخذ بالأماني ، والحق سبحانه ليس على هواك .

والتمنِّى طلب شىء لا يمكن الوصول إليه وغير ممكن الحدوث ، والتمنى لا يعنى إلا أنك تحب هذا الشىء الذى تتمناه ، نعم تحبه لكنه لن يحدث ، كما قال الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المشِيبُ

فهم يتمنونْ ذلك ، يتمنون أنْ يكون للإنسان ما يريده وما يحبه دون ضوابط ، فهذه أمنية ، والأمنية شىء يحبه الإنسان ، لكنه لا يتحقق ، لأن الإنسان لا يملك الظروف المتعلقة به ، ولا يملك الأسباب التى تحقق له كلَّ ما يريد ، بل له ربٌّ يُقدِّر الأقدار والأفعال والخير والشر .

وفى آيات متعددة يُبيِّن الحق سبحانه أمنية هؤلاء ، فمن أمانيهم قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[1] ..(٣)﴾ [الزمر] ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن صاحب الجنة فى سورة الكهف : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر قال أحدهم : ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ..(٥٠)﴾ [فصلت] وهكذا تمنِّى الإنسان لنفسه لا يقف عند حدٍّ ، قال تعالى : ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾ [فصلت]

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن الوليد بن المغيرة : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨)﴾ [مريم] لا هذا ولا ذاك ، لأنه ما اطلع على الغيب ، وليس له عند الله عهد بأنْ يعطيه ما يريد .

ثم يردُّ الله عليه : ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾ [مريم]

إذن : ليس للإنسان ما تمنّى ، وكيف يكون له ذلك والأمر كله لله وحده فى الأولى وفى الآخرة ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النجم] هنا أسلوب قصر بتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ ، أى : لله وحده ﴿الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النجم]

فقدّم الآخرة لأنهم قالوا عن الأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فأخبر أن الآخرة لله وحده ، ولا تنفعكم هذه الشفاعة لأنها باطلة ﴿وَالأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النجم] أى : ما يتمنونه فى الدنيا مما لا قدرةَ لهم على تحقيقه .

وقالوا : قدَّم الآخرة على الأولى مع أن الترتيب الأولى والآخرة ، لأن الآخرة هى محلّ النزاع بين مُصدِّق بها ومُنكر لها ، ومحلّ شك فى وقوعها ، لذلك قدَّمها على الأولى للتأكيد على أنها حقّ ، وحقّ آكد من الأولى التى عاينتموها .

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ (٢٦) ﴾

لما اعتقدوا فى الأصنام أنها تشفع لهم عند الله ، وقال : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ.. ③﴾ [الزمر] فردّ الله عليهم بما يُبيِّن بطلان اعتقادهم ، فكيف تنتظرون شفاعة الأصنام عند الله ، والملائكة المقربون والعباد المكرمون عنده سبحانه ليس لهم شفاعة إلا بإذنه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. ㉖﴾ [النجم] أى : كثير من الملائكة ، فكم هنا خبرية تفيد الكثرة ، لأنها تسأل عن عدد لا حصر له ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ㉖﴾[النجم]

إذن : هنا شرطان لقبول شفاعة الملائكة ، الشرط الأول : أنْ يأذن الله للملَك أنْ يشفع ، الثانى : أنْ يرضى عن المشفوع له ، ولا يرضى الله إلا عن أهل التوحيد الخالص ، فهذه كرامة للشافع ، وكرامة للمشفوع فيه .

يقول تعالى فى آية الكرسى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ㉕⑤﴾ [البقرة]

فإذا كان هذا حال الملائكة فى قبول الشفاعة وهم عباد مُكرمون لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، وقال عنهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ⑥﴾ [التحريم] فكيف إذن بشفاعة الأصنام ؟

ونلاحظ على الأداء القرآنى فى هذه الآية أن كلمة ﴿مَّلَكٍ .. ㉖﴾ [النجم] جاءت بصيغة المفرد ، ثم أخبر عن المفرد بصيغة الجمع ، فقال ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ .. ㉖﴾ [النجم] ولم يقل شفاعته .

قالوا : لأن كم الخبرية تفيد الكثرة ، فلما اجتمعت مع المفرد

أعطتْه معنى الجمع ، فالمعنى ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] كثير من الملائكة ، والمناسب أن يقول شفاعتهم ، بصيغة الجمع .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا (٢٨) ﴾

الحق سبحانه يفضح اعتقادهم الكاذب في قولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] وفي اعتبارهم الملائكة شفعاءَ لهم عند الله ، فهذا مجرد كلام وحجج واهية لأنهم في الأصل لا يؤمنون بالآخرة ، فكيف يتحدَّثون عن الشفاعة ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. (٢٧) ﴾ [النجم] أي : الكفار ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) ﴾ [النجم] أي : يدَّعون أن الملائكة بنات الله ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ .. (٢٨) ﴾ [النجم] ما لهم بهذا القول ﴿ مِنْ عِلْمٍ .. (٢٨) ﴾ [النجم]

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : لا علمَ عندهم بخلق الملائكة ، فهم في هذا الادعاء كاذبون يقولون ما لا يعلمون ، والمسألة أنهم يتبعون في هذه القضية ظنهم الباطل ، ظنوا الملائكة إناثاً لوجود تاء التأنيث في الملائكة .

﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] أي : أن ظنهم هذا ظنٌّ باطل لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة ولا يغني عنها ، والحق في

هذه المسألة ما أخبرنا الله به ، لأنه خالقهم والأعلم بهم ، فالظن لا يحلُّ أبداً محلّ العلم القاطع البَيِّن .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أنْ بيَّن الحق سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ موقف خصومه ، وكيف أنهم لا يريدون الحق ، بل يريدون الهوى والظن والشهوات ، يقول له : يا محمد أرح نفسك من هؤلاء ، فلا فائدة منهم .

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً كلّ الحرص على هداية قومه ، وكان يُحمِّل نفسه فى سبيل دعوتهم إلى الحق فوق ما تحتمل ، لذلك خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] وقال له : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى]

وقد بيّنا أن الله تعالى لا يريد منهم قوالب تأتى راغمة ، إنما يريد قلوباً تأتى إليه طواعية واختياراً .

لذلك يقول سبحانه لنبيه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ..﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم] فأعرض : أمر من الفعل عَرَض عارض ، وأعرض مُعرض . والهمزة هنا تُسمّى همزة الإزالة . أى : إزالة العرض ، تعرفون المعرض الدولى الذى نعرض فيه المنتجات ، فصاحب المنتج

عارض يعرضه على الناس ، ويُبيِّن لهم مزاياه فهو عارض .

وهكذا كان سيدنا رسول الله يعرض الهدى ومنهج الحق على قومه ، ويُبيِّن لهم أهدافه ومزاياه ، فلم يكُن منهم إلا الصبر والأذى والإعراض عنه والانصراف .

وظل كذلك إلى أنْ أمره ربه بالإعراض عنهم ، فقال له : ﴿ فَأَعْرِضْ .. (٢٩) ﴾ [النجم] من أعرض ، وهو عكس عرض ، وهمزة الإزالة تُحوِّل الفعل إلى ضده ، فكما انصرفوا عنك فانصرف عنهم ، أعرضوا عنك فأعرض عنهم .

وهمزة الإزالة فى أعرض مثل أعجم . نقول : أعجم الكتاب . أى : أزال عُجْمته ومنه معجم ، وهو الكتاب الذى يُزيل غموض الألفاظ ، كذلك أعرض أى : أزال العرض .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٩) ﴾ [النجم] إذن : هم البادئون بالإعراض عن ذكر الله ، أى : عن القرآن وعن المنهج لأنه يُقيِّد حريتهم فى الشهوات ، المنهج تكليف ، وهم لا يريدون تكليفاً ، يريدون الانطلاق خلف شهواتهم وملذاتهم دون رقيب .

ولو تأمل هؤلاء المعرضون منهج الله لعرفوا أنه فى صالحهم ، لأنه مثلاً حين ينهاك عن السرقة وأنت فرد ينهى الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، كفَّ يدك وكفّ أيدى الملايين عنك .

إذن : قبل أنْ تنظر إلى مشقة التكاليف انظر إلى عطائها . تذكرون الصحابى الشاب الذى أتى سيدنا رسول الله وقال له : يا رسول الله إئذن لى بالزنا ، تصوروا ماذا كان ردّ فعل رسول الله على هذا المطلب الغريب ؟ لم ينهره بل أدناه منه وتبسَّم فى وجهه

وقال لـه : يا أخا العـرب أتحبـه لأختك ؟ فـيقول : لا يـا رسـول الله جُعلْتُ فداك ، فيقول : أتحبه لأمك ؟ أتحبه لابنتك ؟ .

يقول الراوى : حـتى ذكر العـمة والخالة ، والـرجل يقول : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداك ، ثم يقول لـه سيدنا رسـول الله : كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبونه لأخواتهم ولا لأمهاتهم ولا لبناتهم .

فـيـقول الشـاب : فـانصـرفت من عند رسـول الله ، وليس شـىء أبغض إلىَّ من الزنا ، وما هممتُ بشـىء إلا تذكرت أختى وأمى وابنتى[1] .

لذلك الحق سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة يقول عن المتقين : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة] فـالتكاليف الدينيـة والمنهج ليس عـبئـاً عليك ، إنمـا هو دابة تحـملك وتُوصِّلك إلى غايتـك ، فهم على الهدى و (على) تفـيد الاستـعلاء ، فالمنهج هو الذى يحملك ، وهو الذى يسـاعدك ويُسعدك .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩﴾ [النجم] أى : هى غايتهم ، فلا يعملون إلا لها وقد أقروا بذلك فقالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ..۝٢٤﴾ [الجاثية] فالآخرة ليست فى حساباتهم .

لذلك الحق سـبحـانه وتعـالى يُسـفه هذا الرأى ويقـول : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. ۝٣٠﴾ [النجم] أقـصـى ما وصلوا إليـه من العلم الذاتى فقد وقف بهم عند هذا الحد .

---

(١) أخرجه الإمـام أحمد فى مسـنده (٢١١٨٥) والطبرانى فى المعجم الكبـير (٧٥٧٧)وفى مسند الشامـيين (١٠٣٦ ، ١٤٩٤) وكذا البيهقى فى شـعب الإيمان (٥١٨١) من حديث أبى أمامـة رضى الله عنه ، وفيه أن رسـول الله ﷺ دعا للشـاب : « اللهم اغفر ذنبـه وطهِّر قلبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شـىء .

والعجيب أنهم أغلقوا آذانهم وصَمُّوا أسماعهم عن الهدى ، فلم يأخذوا بعلم الله الذى أنزله عليهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ [النجم]

نقف أولاً عند أسلوب القصر ﴿هُوَ أَعْلَمُ ..۝٣٠﴾ [النجم] حيث قصر العلم على الله وحده ، لأن الهداية والضلال أمر فى غالبه غيبى لا يطلع عليه إلا عالم السر وأخفى ، ثم إن الجميع يدَّعى أنه على الهدى ، وأن غيره على الضلال ، لذلك اختصَّ الله بهذا العلم نفسه سبحانه .

وقد جاءت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ [النجم] بعد قوله تعالى لنبيه : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. ۝٢٩﴾ [النجم] فهنا تناسب بين الآيتين ، لأن الله تعالى سبق علمه بخَلْقه مَنْ يضل ومَنْ يهتدى ، مَنْ سيُقبل على الدعوة ، ومَنْ سيعرض عنها .

لذلك قال لنبيه أرح نفسك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..۝٤٨﴾ [الشورى] والحق سبحانه وتعالى أخبر رسوله بمَنْ سيهتدى وبمَنْ سيظل على ضلاله ، فأبو لهب وأبو سفيان وعمرو وخالد بن الوليد كانوا جميعاً فى خندق واحد ضد الإسلام ، فشاء الله أنْ يؤمن أبو سفيان وخالد وعمرو .

أما أبو لهب فقد ظلَّ على كفره ، حتى بعد أنْ نزلت فيه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾

هنا أيضاً أسلوب قصر بتقديم الخبر . أى : لله وحده .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٤٩) ﴾ [الشورى] فالسموات والأرض عجيبة فى ذاتها ، والذى فيها أعجب ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٣١) ﴾ [النجم] وقال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٧٧) ﴾ [النحل]

فهذه مراحل ثلاث فى مُلك الله ، يملك سبحانه الظرف السموات والأرض ، ويملك المظروف أى : ما فى السموات وما فى الأرض وكل منهما عجيب ويملك الأعجب من ذلك ، وهو ما خفى عنا فى ملكوت السموات والأرض .

وهذا يعنى أنك أيها الإنسان لا تزهد فى الاستنباط ، فالكون ملىء بما تعلمه وما لا تعلمه من الآيات والعجائب ، وفيه عطاءات لا تتناهى ولا تنفد ، ما دامت السموات والأرض ، فإذا نفدت العجائب والأسرار بنفاد الدنيا جاءت عجائب وأسرار الآخرة .

ثم يُبيِّن سبحانه أن هذا الملك في السموات والأرض يترتب عليه الجزاء فى الآخرة ، لأن الملك ملكُ الله ، والخَلْق خَلْق الله ، والرسل رسل الله ، والمنهج منهج الله ، فأمامك أيها الإنسان الكون الفسيح وما فيه من آيات كونية تدل على قدرة الخالق سبحانه فاستدل بالخلق على الخالق .

ثم أرسل لك الرسل وأنزل الكتب وشرَّع الشرائع وبيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الحدود ، وبيَّن الجزاء ، فلا بد أنْ ينتهى مُلْك السموات والأرض إلى الجزاء ، والجزاء لا بد وأنْ يكون من جنس

العمل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم]

والآيات ثلاث كما قلنا : آيات كونية تدل على قدرة الله ، وآيات معجزات تدل على صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وآيات الأحكام التى يضمها القرآن الكريم ، فمَنْ لم يعتبر بهذه الآيات ولم يحسن استقبالها فقد أساء فيُجزى بإساءته .

ومن أحسن استقبالها يُجزى بإحسانه وكأنه حيا المكلِّف سبحانه وتعالى بالطاعة فيُحييه الله بأحسن منها ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم] أى : بالأحسن مما قدَّموا ، فإذا كنا قد أمرنا فى الدنيا بأنْ نرد التحية بأحسن منها ، فالله أوْلى بذلك .

وتأمل هنا اللياقة فى التعبير والدقة فى الأداء ، فلم يقُلْ : ليجزى الذين أساءوا بالسوء ، ولكن ﴿بِمَا عَمِلُوا .. ﴿٣١﴾﴾ [النجم] فلم يواجههم بكلمة السوء ، ولكن وضع أمامهم العمل الذى قدَّموه .

وفى هذا إشارة إلى عدل الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران] . ثم يقدم جزاء أهل السوء على جزاء أهل الإحسان ، ليكون الجزاء بالحسنى هو آخر ما يباشر أسماعنا .

ثم تشرح الآيات وتُفصِّل القول فى الذين أحسنوا ، ما وجوه الإحسان فى أعمالهم .

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ (١) فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾

فمن صفات الذين أحسنوا أنهم ﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. (٣٢) ﴾ [النجم] أى : يتركون بالكلية الكبائر من الذنوب ولا يقتربون من هذه المنطقة المحرمة ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ .. (٣٢) ﴾ [النجم] وهو صغائر الذنوب .

فكأنَّ الله تعالى من رحمته بخلقه تكفّل لنا بالصغائر أنْ يمحوها ، وجعل لها (أستيكة) أى ممحاة تزيلها وهى الصلوات الخمس ، شريطة أنْ نجتنب الكبائر .

وفى الحديث : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهنَّ إذا اجتُنبَتْ الكبائر »[٢] فمَنْ فعل ذلك وسار على هذا المنهج كانت له الحسنى ، وكان من أهل الإحسان .

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٢٦) فى سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا يقولون : إذا هلك لهم صبى صغير هو صدّيق ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ..(٣٢) ﴾ [النجم] .

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى وكذا فى شعب الإيمان (٣٤٦٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه (٣٤٤) وكذا (٣٤٢) بلفظ (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر) .

إذن : الإثم والفواحش هى الذنوب الكبيرة التى توعَّد الله مرتكبيها ، والفواحش ما فَحُش من الكبائر وعظم ، وقد جعل الله له عقوبة وحَداً .

أما (اللمم) الذى استثناه الله وعفا عنه فهو لمم . يعنى : صغائر هيِّنة لا يترتب عليها كبيرُ ضرر ، وهذه أيضاً مشروطة بعدم الاجتراء عليها أو المبالغة فيها حتى تصير لك عادة .

وإذا عاملك الله تعالى بهذا المنطق فاستح منه سبحانه أنْ تتجرأ عليه ولو بالصغائر ، لأن الصغيرة إذا أضيفت إلى الصغيرة وكان فى الأمر مداومة وإصرار صارتْ كبيرة ، ثم للعاقل أنْ ينظر فى حَقِّ مَنْ هذه الصغيرة ، إنها فى حق الله ، إذن : فاقصر .

قلنا : إن الكبائر جمع كبيرة ما توعد الله عليه بالعذاب فى الآخرة ، أو أقام عليه الحدَّ فى الدنيا ، وهذا فيما يتعلق بحقوق العباد ، فالله سبحانه قدَّم حقَّ العباد على حقِّه تعالى ، وجعل له القصاص العادل فى الدنيا .

ألا ترون أن الله جعل أداء الدَّيْن مقدَّم على أداء فريضة الحج ؟ ورسول الله ﷺ لم يُصل على جنازة أحد الصحابة لأن عليه ديناً ، وحثَّهم على قضاء دينه أولاً .

حتى أنهم قالوا فى معنى « مَنْ حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[1] قالوا : هذا فيما يتعلق بحقِّ الله ، أما

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٨٣٩) بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كهيئته يوم ولدته أمه » . وعند البيهقى فى شُعبه (٣٩٣٣ ، ٣٩٣٤ ، ٣٩٣٥) وابن حبان فى صحيحه (٣٧٦٤) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٣١٤) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كانما ولدته امه » ليس فى الحديث لفظة « من ذنوبه » وقد أخرجها أحمد فى مسنده (٩٨٨٥) .

حقوق العباد فتظل كما هى ، إلى أنْ يكون الأداء أو القصاص ، ذلك يُحدِثُ الردع ولا يجترىء الناس على التعدِّى وانتهاك الحرمات .

وقد علّمنا رسول الله هذا الدرس فى دعائه : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى »[1] يعنى : إنْ لم أقدر على الوفاء به .

لذلك قلنا فى السارق الذى أسرف على نفسه وتمادى فى هذه الجريمة ، ثم أراد أنْ يتوب ماذا يفعل ؟ لا بدّ أنْ يجهد فى إعادة الحقوق إلى أصحابها ، فإذا لم يقدر يحسب جملة ما سلبه من خَلْق الله ويتصدّق به بنية صاحبه ، وحين يعلم الله منه صدق التوبة ، فقد يتحمل عنه هذه الحقوق رحمة به .

نلاحظ أن الآية عطفت ﴿ الْفَوَاحِشَ .. (٣٢) ﴾ [النجم] على ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ .. (٣٢) ﴾ [النجم] لأنها كلها كبائر ، لكن الفواحش تضيف إلى الكبيرة صفة الفحش والقبح ، فهى أعظم وأشدّ إثماً من الكبائر ، لأنها منكر مستبشع .

(١) أقرب ما وجدته فى هذا بعد طول بحث ما أورده ابن حبان فى (المجروحين) ترجمة إبراهيم بن زيد الأسلمى من حديث أبى هريرة ، وكذا الذهبى فى ميزان الاعتدال (٩٤) وابن حجر فى لسان الميزان ، وأخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (ترجمة شيخه مكى ابن أحمد بن سعدويه) مطولاً ونصه : اللهم أستغفرك وأسألك التوبة من مظالم كثيرة لعبادك علىّ اللهم فأيما خلق من خلقك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى ماله أو بدنه أو عرضه أو دمه قد غاب أو مات نسيته أو فرطته عمداً أو خطأ لا أستطيع أداءها إليه وتحللها منه ، فإنى أسألك يا رباه يا رباه يا سيداه يا سيداه يا سيداه ، أسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت » الحديث . قال ابن حبان فى المجروحين : منكر الحديث جداً يروى عن مالك ما لا أصل له من حديث الثقات ، لا يحل الاحتجاج به بحال .

وقد تكلم العلماء فى الكبائر وربطوا بينها وبين الجوارح التى تُؤدَّى بها ، فعمرو بن عبيد[1] كان عالماً ورعاً يتجنب ما يفعله غيره من العلماء والشعراء من الدخول على الملوك والأمراء لنيْل عطاياهم ، حتى قال فيه الشاعر ، وذلك فى العصر العباسى :

كلُّهُمْ طَالِبُ صَيْدْ   غَيْرَ عَمْرو بن عُبَيْدْ

عمرو بن عبيد وقف عند مسألة الكبائر هذه ، وأراد أنْ يسأل عنها أعلم أهل زمانه بالكتاب والسنة ، فلم يجد أعلم من سيدنا جعفر الصادق[2] بن سيدنا محمد الباقر بن سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الحسين بن سيدنا على بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء .

وكان جعفر الصادق كثير البحث فى آيات القرآن واستيعاب أسراره والتفتيش عن كنوزه ، وكان يستنبط المعانى ويأتى بالدليل عليها .

ومن ذلك قوله : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] فإني سمعتُ الله بعقبها يقول ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]

---

(١) عمرو بن عبيد التيمى بالولاء أبو عثمان البصرى ، شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين ، ولد ٨٠ هجرية وتوفى عام ١٤٤ هجرية عن ٦٤ عاماً . كان جده من سبى فارس وكان أبوه شرطياً للحجاج بن يوسف فى البصرة ، توفى قرب مكة ، من العلماء من يراه مبتدعاً دهرياً .

(٢) هو أبو عبد الله الهاشمى القرشى ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ولد ٨٠ هجرية وتوفى ١٤٨ هجرية عن ٦٨ عاماً ، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، مولده ووفاته بالمدينة . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦]

وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] فإني سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكرَ به ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر] فإني سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ..(٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف] فإني سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ..(٤٠) ﴾ [الكهف]

فهذه (روشتة) وضعها سيدنا جعفر ، أخذها بالدليل من كتاب الله وتشمل كلَّ ما يطرأ على العبد من أحوال . وراح عمرو بن عبيد يسأل سيدنا جعفر عن الكبائر ، كل كبيرة بحسب الجارحة التى تؤديها .

فقال : القلب مطلوب منه ألاَّ يشرك بالله ، وألاَّ ييأس من رَوْح الله ، وألا يأمن مكر الله . ثم أتى بالدليل من كتاب الله على كل واحدة ، ففى مسألة الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء] وفى اليأس من روح الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ..(٥٣) ﴾ [الزمر] وهكذا .

وكبائر اللسان : شهادة الزور ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان] وقذْف المحصنات المؤمنات الغافلات ، واليمين الغموس وهو الحلف على شيء مضى وتعمد مخالفة الواقع ، كذلك من كبائر اللسان السحر .

أما البطن فيتعلق بها شُرب الخمر والعياذ بالله ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا . والفرج يتعلَّق به الزنا . واليدان السرقة والقتل . والرِّجْلان الفرار من الزحف . ولكل من هذه الكبائر دليلها الواضح من كتاب الله .

ومن الكبائر ترك الصلاة وهي كبيرة ، يشترك فيها جوارح كثيرة ، وتَرْكها كبيرة لأنها فُرضَت كما قلنا من الله مباشرة لرسوله ، فهي لا تسقط عن المسلم بحال ، لذلك قُلْنا عنها أنها ركنٌ من أركان الإسلام ، وكذلك هي ركن من أركان المسلم ، لأنها ملازمة له لا تسقط عنه .

أما اللمم فهو ما دون الكبائر من الذنوب ، وتُسمَّى الصغائر مثل النظرة ، لذلك قالوا : لك الأولى وليس لك الثانية[1] ، لأن النظرة الأولى طرأتْ عليك وبها تتعرَّف على الأشخاص .

أما النظرة الثانية ففيها قصد للتمادي ، وهذا يجرُّنا إلى النظرة المحرمة ، فالذي يطيل النظرة الأولى ليقول أنها الأولى التي رخص فيها عليه أنْ يحذر ، لأن المراقب للنظرة هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وحتى النظرة الأولى في الواقع ليست لك ، لكنك معذور فيها ،

---

(١) عن بريدة بن الحصيب الأسلمي ، قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : يا علي ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليست لك الآخرة » . أخرجه أبو داود في سننه (١٨٣٧) وكذا الترمذي في سننه (٢٧٠١) وقال : حديث حسن غريب . وأخرجه أحمد في مسنده (٢١٨٩٦ ، ٢١٩١٣ ، ٢١٩٤٣) .

لأنها طرأتْ عليك ، فهى تلقائية ليس فيها قصد .

وكذلك من الصغائر الضربة الخفيفة التى لا تؤذى ، أو أنْ تعيب على غيرك صفة من صفاته ، أو خُلقاً من خُلقه ، إلى غير هذا من الأمور ، لذلك سماها الله (اللمم) ، وهذا السجل سرعان ما يُغفر بالاستغفار وفعل الطاعات اليومية .

لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. (٣٢)﴾ [النجم] . نعم واسع المغفرة . أى : كثير المغفرة ، لأنه تعالى خلق الإنسان ويعلم مناطق الضعف فيه ، ولما كلَّفه لم يُضيِّق عليه ولم يشقّ عليه ، بل كلّفه على قدر الاستطاعة ، ولم يكلفه إلا بعد سنِّ البلوغ ، فيظل يرتع فى الكون دون تكليف أكثر من عشر سنوات .

ثم بعد أنْ يكلَّف يتحمل عنه الصغائر ، ويُبيِّن له عاقبة الكبائر حتى لا يقربها ، وهذه رحمة من الله بعبده ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥)﴾ [المائدة] فالله واسع المغفرة ، كثير العفو ، سبقتْ رحمته غضبه ، وسبق عفوه عقابه .

ثم تأتى التوبة الكبيرة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ [الأحقاف]

لذلك الذى يعصى ربه عز وجل بعد سنِّ الأربعين يكون (بايخ) ، نعم لأنه وصل للسنِّ التى لا عذر له فى أنْ يتجرأ على الله بالمعصية ،

(١) أوزعنى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

فإذا ما بلغ المسلم فى الإسلام الكِبَر والشيخوخة استحى الله أنْ يعذبه ، وقد شاب فى الإسلام .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢)﴾ [النجم] نعم النشأة الأولى للإنسان لا يعلمها إلا الله ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ..(٥١)﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿أَنشَأَكُم .. (٣٢)﴾ [النجم] خلقكم بداية من طين الأرض ، والمراد خلق آدم عليه السلام وما دُمْنا من الأرض نشأة وهى البداية والأم ، فالابن متعلق بأمه ومردّه إليها .

ثم يذكر سبحانه طَوْراً آخر من أطوار الخلق ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢)﴾ [النجم] فإذا كان آدم خُلق من طين الأرض فنسلُه جاء من التزاوج الذى تنشأ عنه الأجنة فى بطون الأمهات .

﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ .. (٣٢)﴾ [النجم] تزكية النفس يعنى : مدحها وادعاء الصلاح ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾ [النجم] أى : أن الله تعالى أعلم بخفىِّ الأمور وحقيقتها ، أعلم بكم من ساسكم لرأسكم ، ولا يخفى عليه منكم شىء ، فلا مجال إذن لتزكية النفس .

حتى فى حالة مدح الآخرين والثناء عليهم علّمنا أنْ نقول : ولا نُزكى على الله أحداً ، لأن الله تعالى هو الذى يُزكِّى ، وهو أعلم بأهل الطاعة وبأهل التقوى الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ[2] ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ ﴾

قالوا[3] : نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة ، حيث كانت بداية علاقته بدعوة الحق أنْ تولَّى عنها وأعرض عن سماع القرآن ، ثم حَنّ قلبه وأُعجب بما يقوله رسول الله ، فأعطى قليلاً من الأمان لأمر الدعوة واطمأن لها .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس والسدى والكلبى والمسيب بن شريك : نزلت فى عثمان ابن عفان ، كان ينفق ويتصدق فى الخير فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سرح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شيئاً . فقال عثمان : إن لى ذنوباً وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله سبحانه وتعالى وأرجو عفوه . فقال له عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ۝٣٤ ﴾ [النجم] فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢٢٧] قال ابن عطية : « عثمان رضى الله عنه منزه عن مثله » .

(٢) أكدى الرجل : بخل ومنع وانقطع خيره . وأصله من أكدى حافر البئر أن وصل فى أثناء حفره إلى الكدية وهى الأرض الصلبة فينقطع عن الحفر يائساً من ظهور الماء . [القاموس القويم ٢/١٥٦] .

(٣) قاله مجاهد وابن زيد ، أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيَّره بعض المشركين ، وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم فى النار ؟ قال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى ، فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية . [ذكره الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٢٧] .

ثم تذكر عزته ومكانته بين قومه وخاف أنْ يُقال صبأ عن دين الآباء والأجداد فنكص على عقبيه وتراجع . وقالوا : جاءه رجل وحذَّره من الإيمان بمحمد . وقال له : إن كنت خائفاً من العذاب ، فأنا أتحمله عنك مقابل أنْ تعطينى كذا وكذا ، فأعطاه ثم تراجع ومنعه .

وقالوا : نزلتْ فى النضر بن الحارث[1] أيضاً : جاءه رجل وقال له : إن عذاب الله شديد وأنا أتحمله عنك ، وأعطنى خمس قلائص[2] أى : خمساً من الجمال لكنه استكثرها ، فمنع الرجل هذا العطاء . وقالوا أيضاً : نزلت فى صفوان .

هذا معنى ﴿أَفَرَأَيْتَ .. (٣٣)﴾ [النجم] يا محمد ﴿الَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣)﴾ [النجم] أى : أعرض عنك وتركك ومضى ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً .. (٣٤)﴾ [النجم] من العطاء أو من الأمان .

﴿وَأَكْدَىٰ (٣٤)﴾ [النجم] منع عطيته من الكدية يقولون : حفر فلانٌ الحفرة فاستقامتْ له . أى : وجد ما ينتظره منها ، وحفر فلان الحفرة فأكدتْ . أى : لم يجد شيئاً ، أو وجد حجراً كبيراً منعه من الوصول إلى بُغيته ، والحجر هذا يُسمى كدية . ومنه قولنَا : عقبة كأداء . يعنى : تمنعك من الوصول إلى هدفك .

﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥)﴾ [النجم] أطلع على الغيب وعلم

---

(١) النضر بن الحارث ، قاله الضحاك ، أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مآثم رجوعه . (كان صاحب لواء المشركين ببدر وقتل فيها (٢ هجرية) الأعلام للزركلى ٨/٣٣) .

(٢) قلائص : جمع قلوص ، وهى كل أنثى من الإبل حين تركب . وفى التهذيب : سميت قلوصاً لطول قوائمها ولم تجسم بعد . [لسان العرب – مادة : قلص] .

الحقيقة ، أو علم أن هذا الرجل سيَفى فى التحمل عنه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] يعنى : ألم يعلم هذا المعرض عن دعوة الحق ما جاء فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ؟

لكن ماذا يعنى بما جاء فى صحف موسى وإبراهيم ؟ يجيب القرآن ويُفصِّل المجمل فى الاسم الموصول (بمَا) فيقول سبحانه :

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾

هذا الذى ورد فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ [النجم] لا تحمل نفسٌ ذنب نفس أخرى ، فإياك أنْ تظن أن أحداً يتحمل عنك وزرك ، ويقع عليه العذاب بدلاً عنك ، لأن الحساب فى الآخرة بالقسط وبالعدل .

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم] ليس له إلا عمله ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ ، وهذا يقطع الأمل فى الانتفاع بعمل الغير ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر] فأنت لا تنتفع إلا بعملك وسعيك فاجتهد .

وفى آخر سورة الأعلى ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] لكن لما كان المقام هنا مقام الحديث عن الوفاء فيمن قال له : أتحمل عنك ذنوبك ، ذكر

سبحانه صفة الوفاء فى سيدنا إبراهيم ، فقال ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم]

لذلك قال تعالى فى سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ ..(١٢٤)﴾ [البقرة] نعم أتم سيدنا إبراهيم ما أمره الله به غاية التمام ، ونجح فى الامتحان بامتياز مع مرتبة الشرف ، وهذا واضح من قصة بناء البيت ، وقصة ذبح ولده إسماعيل عليهما السلام .

فلما أتمَّ ما أمر به قال الله له : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة] فكانت المكافأة على قدْر الإتمام ، وعلى قدْر صدق الأداء .

وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ [النجم] وقالوا : كيف نجمع بينها وبين قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل] فأيّهما أصح ؟

نقول : كلاهما صحيح ، لأن لكل منهما معنى ، فالأولى تتحدث عن الذنب وعن الشر يرتكبه الإنسان بنفسه فى ذاته ، فهو يحمل

---

(١) فى الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم أقوال كثيرة منها :
أولها : أنها خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . أما التى فى الرأس فالفرق والمضمضة والاستنشاق وقص الشارب والسواك . وفى الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط والاستطابة بالماء والختان . رواه طاووس عن ابن عباس .
الثانى : أنها المناسك . الثالث : أنه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير آية البقرة ٢ .

عقوبة ذلك ، لا يحمله عنه أحد .

أما الآية الأخرى فتتحدث عن الإنسان الذى يُضل غيره ، ضَلَّ فى نفسه وعدَّى ضلاله إلى الغير ، فيتحمل وِزْره ووزر مَنْ أضلَّه بغير علم .

وقد اختلف العلماء حول قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] فقال بعضهم : المعنى أن الإنسان ليس له إلا ما قدّم ، ولا ينتفع أحد بعمل أحد . وقال آخرون : بل ينتفع الإنسان بعمل غيره ، وفى تاريخنا وسُنّة سيدنا رسول الله ما يؤيد ذلك .

ونحن نُرجِّح القول الثانى ، لأن السعى هو مطلق الحركة لغاية ، وهذه الحركة قد تكون بالشر كالذى يسعى فى الأرض فساداً وظلماً ، وقد تكون بالخير كالذى يسعى لإصلاح الكون وصلاحه .

والسعى يختلف باختلاف قوة الساعى ، ومدى إيمانه بقضايا دينه ووطنه ، فواحد يسعى لنفسه ولا يرى إلا ذاته ، وآخر يسعى لأسرته ، وآخر يسعى لبلده ، وآخر يسعى لإسعاد العالم كله ، نعم :

عَلَى قَدرِ أهْلِ العَزْمِ تَأتِى العَزَائِمُ   وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المكَارِمُ

لذلك قالوا : للرجال أوطان تختلف باختلاف هممهم ، فرجل وطنه نفسه ، ورجل وطنه أسرته ، ورجل وطنه بلدته ، ورجل وطنه العالم كله ، وهذه من فلسفة الإيمان الذى يحثّ المؤمن على أنْ يُعدى خيره للناس جميعاً حتى الكافر منهم .

وبهذه الفلسفة ، وبهذا المعنى ينفع الرجل غيره ، والأدلة على هذا الرأى كثيرة ، فسيدنا رسول الله ألم يُبعث للعالم كله ؟ ألم تشمل

رحمته المؤمن والكافر ؟ ألم يقل الله فى حقه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ومن رحمته بأهل الموقف فى الآخرة أنْ يشفع لهم فى أنْ يُعجِّل لهم الحساب ، لأنهم فى موقف يتمنون فيه الانصراف ولو إلى النار . ومن شفاعته ﷺ أنْ يشفع فى أهل التوحيد الذين دخلوا النار أنْ يخرجوا منها ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ثم ألم يأمرنا الشرع بالصلاة على الميت ؟ ولو كانت الصلاة على الميت لا تنفعه لكانت عبثاً ، بدليل أننا ندعو له فيها ، وهذا انتفاع ، لكن المعارضين لهذا الرأى يقولون : وهل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المسلم ، فالمنفعة تأتى من كونه مسلماً ، فإسلامه هو الذى ينفعه .

قلنا لهم : خذوا دليلاً آخر فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] ألم ينتفع الأبناء بصلاح الآباء ؟

قالوا : انتفعوا بصلاحهم لأنهم تحملوا مشقة هذا الصلاح فى الدنيا ، فعوَّضهم الله ما حُرِموا منه فى الآخرة ، بمعنى أن الإنسان المستقيم الذى يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه لا شكّ يضيق على أولاده ، على خلاف الذى يرتع فى الدنيا طولاً وعرضاً ، ولا يلقى بالاً لمسألة الحلال والحرام ؛ فأولاده يكونون أحسنَ حالاً فى المأكل والمشرب والملبس ، وهكذا ، إذن ما يجده أبناؤه الصالحون من نعيم

---

(١) التناهم : نقصناهم . ألته يألته : نقصه ، أى ما أنقصناهم شيئاً من ثواب عملهم . [القاموس القويم ١/٢٣] .

الآخرة ، جاء عوضاً عمّا تحمّلوه فى الدنيا .

أيضاً يُروَى[(١)] عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه مَرَّ على رجل يصلى وحده ، منفرداً ، فقال : ألاَ رجل يتصدَّق على هذا ؟ أى : يصلى معه ليأخذ ثواب الجماعة ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

وسيدنا رسول الله لما امتنع عن الصلاة على الميت المدين[(٢)] كان امتناعه لمنفعة الميت ، وقد انتفع بهذا الامتناع بالفعل ، رسول الله امتنع عن الصلاة عليه ، لأنه قال فى الحثِّ على قضاء الدَّيْن : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه .. »[(٣)] .

ويبدو أن هذا الميت مات وعليه دين لا يستطيع قضاءه ، فأراد رسول الله أنْ يحرك مشاعر الخير فى نفوس الصحابة ليبادروا بسداد دين صاحبهم ، وبالفعل لما قال عليه الصلاة والسلام : صلوا على صاحبكم ، قام أبو قتادة وقال : أنا أسُدُّ عنه يا رسول الله ، عندها

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٨٧) وأحمد فى مسنده (١١١٨٧ ، ١١٣٨٠) والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧١٤) والدارمى فى سننه (١٤١٩ ، ١٤٢٠) كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وهو عند أحمد فى مسنده (٢١١٦٥) من حديث أبى أمامة وفيه زيادة « هذان جماعة » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته . (أخرجه مسلم فى صحيحه ٣٠٤٠) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » .

صلى عليه رسول الله[1] ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ولكى ننهى هذا الخلاف ونحلُّ هذا الإشكال نقول : لو تأملنا الآية : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم] سنجد فيها ما يؤيد رأينا ، فاللام هنا كما يقول أهل اللغة للملك ، كما تقول : ليس لزيد عندى إلا عشرة . هذا هو الحق .

إذن : الله تعالى ذكر العدل ولم يذكر الفضل ، فأنت حين تدخل مطعماً مثلاً لتتناول الغداء وعند الانصراف تقول للعامل : كم الحساب ؟ يقول : كذا وكذا . تقول له (خُذْ وخلى الباقى علشانك) .

هذا بين الناس فى أمور الدنيا الهيِّنة ، فما بالك بأمور الدين والشرع ؟ وإنْ كان هذا عطاؤك فكيف بعطاء الله ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم] فهذا السعى لا يُترك هكذا دون تعقيب عليه ، بل سيُراقب وسيُرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة]

وكلمة (سوف) تدل على المستقبل ، فسعيك لن يذهب هباءً بل عملك فى الدنيا سيراه الله ويراه رسول الله ويراه المؤمنون . أى : فى الآخرة وسوف تنال عليه الجزاء المناسب ، ليس الجزاء بالعدل ، إنما الجزاء بالفضل .

---

(١) عن سلمة بن الأكوع قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة ، فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم ، قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صلِّ عليه يا رسول الله وعليَّ دينه . فصلّى عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٢٧ ، ٢١٣١) وأخرج أبو داود فى سننه نحوه (٢٩٠٢) وكذا الترمذى فى سننه (٩٨٩) .

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] تأمل ، لم يقل : الجزاء العادل ، بل الجزاء بالزيادة والفضل والحوافز ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] والأوفى من صيغ التفضيل التى تدل على الزيادة .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾

إلى ربك المرجع ، وإلى ربك المصير والمنتهى ، والآية فيها أسلوب قَصْر بتقديم الخبر على المبتدأ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾ [النجم] إلى ربك وحده دون سواه تنتهى الأمور فى الآخرة ، فالدنيا ليست هى نهاية المطاف ، وليست هى الغاية ، وهذه مسألة يُقِرُّ بها العقل قبل الشرع .

فلو كانت الدنيا هى الغاية وهى النهاية ، لكانت الحظوة لأهل الشهوات ولأهل الظلم والتعدِّى ، لأنهم حققوا ما يريدون فى الدنيا وعاشوها بالطول والعرض ، ففازوا بمتاع الدنيا ، ولم يعاقبوا عليه ولم يحاسبوا .

إذن : العقل يقول : لا لابدَّ أن هناك يوماً للحساب وللقصاص ، العدل يقتضى ذلك .

ولو أيقن الناسُ بهذه الآية وفهموا هذا المعنى لاستقامتْ أمورهم ، ولفكَّر الإنسانُ مرة وألف مرة قبل أنْ يُقدم على معصية الله أو ظلم الخَلْق ، ولعمل حساباً لهذا المنتهى الذى لابدَّ له أنْ ينتهى إليه .

وهذه الآية أيضاً تدلنا على أن العبد وإنْ خلقه ربه مختاراً يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإن هناك منطقة أخرى قهرية لا اختيار

له فيهـا ، وهل لك اختيار فى غـناك أو فقرك ؟ صحتـك أو سقمك ؟ حياتك أو موتك ؟

إذن : مهمـا كنتَ حراً ومختاراً فـلا غنى لك عن ربك ، ولا ملجأ لك غيـره ، فلا تتمرد عـليه بالعصيـان ، لأن منتهاك إليـه فى الآخرة للحساب ، ومنتهاك أيضاً فى أمور حـياتك الدنيوية إليه وحده ، فأنت فى قبضة قدره لا تستطيع الانفلات منها .

فالذى يتـمرّد على منهج الله أيسـتطيع أنْ يتمـرد على المرض إنْ أصابه ؟ أيسـتطيع أنْ يمتنع عن ملَك المـوت إنْ جاء أجله ، إذن : لك منتهى فى الدنيا قبل منتهى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] أى : خلق فيك الضحك وخلق فـيك البكاء جعلك تُسر وتحزن ، أنت مثـلاً حينما تشاهد عملاً (كوميدياً) تضحك ، (فالكوميديا) سبَّبتْ عندك الضحك ،

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى كتابه (أسباب النزول) ص ٢٢٧ عن عائشة رضى الله عنها قـالت : مر رسـول الله ﷺ بقـوم يضحكون ، فـقـال : لو تعلمـون ما أعلم لبكيـتم كـثيـراً ولضحكتم قليلاً . فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم] فرجع إليـهم فقال : مـا خطوت أربعين خطوة حـتى أتانى جبريـل عليه السلام فـقال : ائت هؤلاء وقل لهم : إن الله عز وجل يقول ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم] .

لكن لم تخلق فيك طبيعة الضحك .

لذلك لما كان فى هذا الفعل شبهة المشاركة أكّد الحق سبحانه تفرّده بالعمل ، فلا دخلَ لأحد غيره فيه ، فقال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٣)﴾ [النجم] فأكّد الضمير المتصل بضمير آخر منفصل ، فهو وحده الذى جعلك تضحك ، بمعنى خلق فيك هذه الطبيعة وجعلك صالحاً لها .

لذلك نجد أن المشاعر والعواطف والأمور الطبيعية فى البشر تتحد فى جميع اللغات وعند كل الشعوب على اختلافها ، فليس هناك مثلاً ضحك عربى ، وضحك إنجليزى أو ألمانى ، ليس هناك بكاء روسى ، وبكاء يابانى .

ففى هذه الأمور يتحد الناس ، حتى فى الإشارة نجدها واحدة على اختلاف اللغات ، الكل يفهمها لأنها أصل التفاهم بين البشر قبل وجود اللغات ، فالإشارة لغة عالمية .

كذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] أكد الضمير المتصل بالضمير المنفصل ، لأن مسألة الإحياء والإماتة فيها شبهة المشاركة ، فقد يظن البعض أن الطبيب مثلاً هو الذى أمات المريض أو أحياه ، أو يظن أن القاتل هو الذى أمات القتيل .

فالحق سبحانه يختصّ لنفسه سبحانه بهذه الأمور له وحده سبحانه دون سواه ﴿أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] فالواقع أن القتيل حين قُتل لم يُمتْه القاتل ، إنما جاء أجله موافقاً لهذه الضربة فمات ، مات لأنه سيموت فى هذه اللحظة حتى لو لم يضربه القاتل .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

.. ﴿ ② ﴾ [الملك] فالموت والحياة خلق لله وحده لا دخلَ لأحد فيهما ، لذلك قال الشاعر :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْره   تَعدَّدَتْ الأسْبَابُ وَالموْتُ وَاحِدُ

وقالوا : والموت من دون أسباب هو السبب . يعنى : مات لأنه سيموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النجم] لاحظ هنا أنه سبحانه لم يقل : وأنه هو ، لأن المسألة لا تحتاج إلى هذا التأكيد ، فقضية الخلق الكل يُسلِّم بها لله ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، وليس فيها شبهة المشاركة من الخَلْق .

ومعنى (الزوجين) أى : النوعين الذكر والأنثى . فالزوج فرد معه مثله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم] فأصل الخَلْق نطفة وهى قطرة المنى .

﴿ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم] أى : تُدفع وتلقى فى رحم المرأة ، فيكون منها الولد بقدرة الله .

وهذه الآية حلَّتْ لنا إشكالاً طال الخلاف فيه بين العلماء ، فقد كان البعض يعتقدون أن المرأة هى المسئولة عن النوع : ذكر أم أنثى . لكن حينما نقرأ هنا ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم] نعلم علم اليقين أن الرجل هو المسئول عن هذه المسألة ، فالنطفة هى نطفة الرجل يلقيها فى رحم زوجته ،

فالزوجة إذن مُستقبلة تعطى ما أخذتْ .

وقلنا : إن المرأة العربيـة قد توصلتْ بطبيعتـها وفطرتها إلى هذه الحقيقة ، فالمرأة الـتى تزوج عليها زوجها لأنها لا تلد له إلا البنات ، قالت :

مَا لأبِى حَمْـــزَةَ لاَيَـأتيـــنَا   يظَلّ فى البَيْــتِ الذى يلَيــنا
غَضْـبَانَ ألاَّ نَلـــدَ البَنــــينَا   تَاللهِ مَــا ذَلكَ فــى أَيْـــدينَا
ونَحْـــنُ كَالأرْضِ لغَارسينَــا   نُعْطِــى لَهُمْ مثْـلَ الذى أُعْطِـينَا

إذن : انتـهتْ المرأة العـربية بفطرتهـا إلى ما انتـهى إليه العلـماء مؤخراً ، ولابد أن نفرِّق بين النطفـة والمنى : النطفة هى السائل الذى يعيش فيـه الحيوان المنوى ، والمنى الميكروب نفـسه الذى يكون منه الولد .

ورحم الله العقاد[1] حينما قال : إن نصف كستبان الخياطة يحوى أنْسَال الدنيـا كلها ، ويمكن أنْ نمـلأ نصف كسـتبان الخـياطة بقـذفة واحدة للرجل ، سبحان الله .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

(١) هو : عـباس مـحـمود العـقاد ، ولـد ٢٨ يونيو ١٨٨٩ م بأسـوان ، تخـرج من المدرسـة الابتدائية سنة ١٩٠٣ م ، كان مولعاً بالقراءة فى مخـتلف المجالات ، عمل فى أعمال كتابية فى عدة محـافظات ، ثم اتجه للعمل فى الصحافـة (صحيفة الدسـتـور) ، دخل فى معارك أدبية مع زكى مبارك والرافعى وبنت الشاطىء . توفى عام ١٩٦٤ م عن ٧٦ عاماً .

يعنى : لا تظن أن الدنيا هى نهاية المطاف ، فالذى أنشأكم هذه النشأة فى الدنيا قادر على إعادتكم فى نشأة أخرى يوم القيامة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]

والخَلْق الجديد سيكون فى الآخرة حين يبعث اللهُ الموتى ، والذى خلق بداية من عدم قادر من باب أَوْلَى على الإعادة من بقايا الخَلْق الأول ، لذلك قال سبحانه : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق]

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم] لاحظ هنا التخصيص والتأكيد بإعادة الضمير المنفصل بعد الضمير المتصل ، وهذا يدلنا على أن مسألة الرزق والغنى والفقر لله وحده لا دخْلَ لأحد فيها ، فهو وحده سبحانه الذى يسوق الأرزاق ، ويجعل هذا غنياً وهذا فقيراً .

إذن : لما وُجدت الشبهة فى أن أحداً يشارك الله فى هذه المسألة جاءت الآية بهذا الأسلوب ، ألا ترى للآية قبلها ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم] هكذا بدون (هو) لأن مسألة النشأة الأخرى ليس فيها شبهة المشاركة .

معنى ﴿أَغْنَىٰ .. ﴿٤٨﴾﴾ [النجم] أغناك أيها العبد بما ملكه لك عما فى يد غيرك ، فالغنى إذن كلّ ما أغناك عن الناس من مال أو قوة أو غيره ﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم] أقنعك وأرضاك بما عندك مهما كان قليلاً .

---

(١) أفعيينا : أى أعجزنا فعيينا بالخلق الأول ، والاستفهام للنفى ، أى لم نعجز ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

وكثيراً ما نرى أناساً ضُيِّق عليهم الرزق ، ومع ذلك تراهم راضين بقسم الله ، بل سعداء به ، ورُبما كانوا أحسن حالاً من الأغنياء ، إذن : هذا عطاء وهذا أيضاً عطاء ، فالقناعة والرضا تساوى الغنى وسعة العيش .

ومن ذلك قالوا[1] : « القناعة كنز لا يفنى » فى حين أن كنز المال ربما يفنى ، فالغنى الحقيقى إذن فى النفس ليس فى العرض . وقالوا ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النجم] من القنية أى : ما يقتنيه الإنسان من المتاع والأثاث ونحوه .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ[2] الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النجم] الشِّعْرى[3] كوكب من الكواكب ، قالوا : إنه من الضخامة بحيث يسع مليون شمس مثل هذه الشمس ، وأنه لو اقترب من الأرض لاحترقتْ ، فكأنه يمد الشمس بالحرارة وهى تمدنا ، فلا نأخذ منها مباشرة مثل التيار الكهربائى .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٣٢) وعزاه للبيهقى فى الزهد عن جابر بن عبد الله ، وأخرجه البيهقى (١١٤) ثم قال : « هذا إسناد ضعيف » . قال الألبانى فى (ضعيف الترغيب والترهيب) (٥٠٠) : « ضعيف جداً » . وقال ابن حجر الهيثمى فى الزواجر (١/٤٨٤) : رفعه غريب .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥١٩) : « إنما ذكر أنه رب الشعرى وإن كان رباً لغيره لأن العرب كانت تعبده . واختلف فيمن كان يعبده ، فقال السدى : كانت تعبده حمير وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبى ﷺ من قبل أمهاته » .

(٣) الشعرى : نجم منه الشعرى الشامية وهو ألمع نجم فى كوكبة الكلب الأصغر ، يبعد عن الأرض بـ ١١ سنة ضوئية . وهناك الشعرى اليمانية فى كوكبة الكلب الأكبر ، وهو أقرب للأرض من الشِّعرى الشامية فهو يبعد ٨ سنوات ضوئية . [الموسوعة الفلكية ص ٢٢٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب] .

فلو أخذنا للبيوت من التيار العالى فى الأكشاك لاحترقتْ الأجهزة والمصابيح فى البيت ، لأن الضعيف لا يستطيع أنْ يستقبل من القوى مباشرة ، بل لابدّ من المنظم أو (الترانس) ، وهكذا تكون الشمس بالنسبة للشعرى .

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ ﴾

معلوم أن عاداً قوم سيدنا هود عليه السلام ، وقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية لما كذّبوا نبيهم ، ومعنى ﴿ عَاداً الأُولَىٰ ۝٥٠ ﴾ [النجم] أن هناك عاداً أخرى ، قالوا : لما نزلت عليهم الريح أهلكتْ الموجودين منهم فى هذا المكان الذى حَلَّ عليه العذاب ، وكان منهم جماعات متفرقة تجمعوا ، والتمسوا مكاناً آمناً ، فذهبوا إلى مكة ، وهذه هى عاد الأخرى .

﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١ ﴾ [النجم] فكما أهلك عاداً أهلك ثموداً بالصيحة ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١ ﴾ [النجم] لم يُبْق منهم أحداً .

كذلك ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ .. ۝٥٢ ﴾ [النجم] أهلكهم الله ، ثم ميَّزهم عن سابقيهم بصفتين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ ﴾ [النجم]

إذن : كان الظلم والطغيان موجوداً فى عاد وفى ثمود ، أما قوم نوح فهم (أظلم) أشد ظلماً (وأطغَى) أشد طغياناً . ويكفى دليلاً على ذلك أنْ نبيهم لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما آمن معه إلا قليل .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ (٥٣) ﴾ [النجم] معطوفة على عاد وثمود وقوم نوح . وهى قرى قوم لوط ، سُميت المؤتفكة ، لأن الله تعالى كفأها رأساً على عقب ، وجعل عاليها سافلها ، لذلك نسمى الكذب إفكاً لأنه يَقلب الحقائق ، ومنه حادثة الإفك التى تناولتْ السيدة عائشة فى سورة النور .

ومعنى ﴿ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] أنها هوتْ وسقطت ، لأن الملائكة رفعتها إلى عنان السماء ثم كفأتها على مَنْ فيها ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم] غشَّاها نزل بها وعَمَّها أو غطاها .

﴿ مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم] ما تعجبية تفيد الكثرة التى تفوق الوصف . أى : غشَّاها أمر فظيع عجيب وهول رهيب . نعم لأن الله تعالى جمع على قوم لوط ألواناً من العذاب فى وقت واحد أو متتابعة بعضها إثر بعض .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا (٨٢) ﴾ [هود] أى : بهلاكهم ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

ومعنى ﴿ مُّسَوَّمَةً (٨٣) ﴾ [هود] أى : مُعلَّمة ، كل حجر عليه اسم صاحبه فلم تكُنْ عشوائية ، بل كانت محسوبة بدقة ، فالحجر ينزل على صاحبه لا يتعدَّاه ، ومثلها الحجارة التى أمطر بها أصحاب الفيل : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) ﴾ [الفيل]

والعجيب بعد أنْ صرح السياق القرآنى بلفظ الحجارة أنْ نسمع مَنْ يقول ، بل هى ميكروب أو فيروس أصابهم جميعاً ، والميكروب له مدة حضانة لينشط بعدها ، أما هذه فنزلت عليهم فى لحظتها[1] .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه على نُصْرة الله له وتأييده الدعوة ، فسنة الله فى الدعوات أنْ ينتهى الأمر بنصرة الحق ، وها هى الأدلة باقية شاهدة على إهلاك المكذّبين ، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] فآثارهم باقية ترونها ليل نهار .

---

(١) عمدة من قال هذا التفسير هو الإمام محمد عبده فى تفسير جزء عم طبعة دار الشعب القاهرة (ص ١٢٠) واعتمد فيما ذهب إليه على قول عكرمة ويعقوب بن عتبة أنه جدرى وحصبة ، وأن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام ، فقال : « قد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه » .

أقول : ليس هناك تعارض بين تفسير الإمامين الشعراوى ومحمد عبده ، فالمشترك بينهما أن هناك طيراً وأنها تحمل حجارة ، فجائز أن يكون هناك من مات بفعل الحجارة مباشرة ، وأنها فى ذات الوقت مسمومة ، فمن لم يمت بها مباشرة مات بفعل ما تحمله من جراثيم بعد يوم أو اثنين أو أكثر . وجائز أيضاً أن يكون الميكروب انتشر وظهر فى أرض العرب كما قالت الرواية ، وهذا يحدث بعد كل الحروب سواء من السلاح المستخدم أو نتيجة تحلل الجثث ، فلا تعارض [عادل أبو المعاطى] .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾ [النجم] بأىِّ نِعَم ربك يا محمد ﴿تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾ [النجم] المراء الشك أو الجدال ، كأنه تعالى يقول له اطمئن فسوف يُتم الله عليك نعمه .

وفى سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] والحديث للإنس والجن ، والرسول ﷺ لما قرأها قال : لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن فكانوا أحسنَ استجابة منكم ، فلما سمعوا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد[(١)] .

إذن : مشروع أن ننفعل للقرآن عند سماعه بما يناسب المقام ، فعند الحمد نحمد الله ، وعند التسبيح نقول سبحان الله . وعند ذكر الجنة ندعو الله بها ، وعند ذكر النار نستعيذ بالله منها وهكذا .

وفرقٌ بين إعجاب صامت مكبوت فى النفس ، وإعجاب منطوق مُعبَّر عنه ، ثم إنك حين تعبر عن تفاعلك مع القرآن باللفظ تكون قدوة فى ذلك لمَنْ يسمعك .

كلمة (أى) هنا تفيد الكثرة و (آلاء) نِعَم جمع (ألىّ) أى : نعمة[(٢)] . والمراء أى : الجدال ويكون بين طرفين يجتهد كل منهما لإقامة حجته على الآخر . والمراء فى اللغة مأخوذ على معنيين : مرو الحبل يعنى فتله لتقويته ، وبحسب مهمة الحبل يكون عدد الخيوط المفتولة . أو مأخوذ من يمرى الناقة . أى : يحلبها ويأتى بكل ما فى ضرعها .

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٣٢) من حديث جابر بن عبد الله وكذا الترمذى فى سننه (٣٢٩١) فى كتاب التفسير ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه للبزار وابن جرير وابن المنذر والدار قطنى فى الأفراد وابن مردويه والخطيب فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر .

(٢) وقد يكون المفرد (إلْىٌ) و(إلىً) .

إذن : تجادل لتقوى حجتك ، أو تجادل لتخرج كلَّ ما فى جعبة الخصم .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾(1)

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا .. (٥٦) ﴾ [النجم] إشارة إلى النبى ﷺ ، وما جاء به من دعوة الحق ، والنذير هو الذى ينذر الناس ويحذرهم من الشر قبل أوانه ﴿ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) ﴾ [النجم] النذر الأولى . أى : التى خلتْ قبل رسول الله من مواكب الرسل السابقين ، فعظمة النذارة فى سيدنا رسول الله أنه آخرُ نذير وخاتم الرسل أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] أى : اقتربتْ الساعة فكأنه ﷺ جاء على فم الساعة ، فبعد أنْ قال ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ (٥٦) ﴾ [النجم] أعقبها ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : «بُعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى»(2) فبعثته ﷺ تُعد من علامات الساعة .

وقد خاطبه ربه تعالى بقوله : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) ﴾ [النازعات] أى : من ذكرى الساعة وعلاماتها . وما دام أزفت الآزفة

(1) فيه قولان : أحدهما : أنه القرآن نذير بما أنذرت الكتب المتقدمة . قاله قتادة . والثانى : أنه رسول الله نذير بما أنذرت به الأنبياء . قاله ابن جريج . [قاله ابن الجوزى فى زاد المسير] . ومثله فى تفسير الماوردى ، وتفسير الكشاف للزمخشرى .

(2) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٨٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢٤٤) من حديث سهل بن سعد الساعدى . فهو حديث متفق عليه .

واقتربتْ فانتبه ، فهذه آخر الرسالات فتعلّق بها وتمسّك بهذا الرسول الخاتم والنذير الأخير الذى ليس بعده نذير فانْجُ به .

ونفهم من معنى ﴿ أَزِفَتِ (٥٧) ﴾ [النجم] اقتربتْ أنها هى التى تسعى إليك وتطلبك بخطوات حثيثة تسرع إليك . وبعد قليل فى أول القمر سيقول : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ (١) ﴾ [القمر]

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾ [النجم] يعنى : إذا جاءت أهوال الساعة لا أحدَ غير الله يستطيع أنْ يدفعها ، فأنت فى أحداث الدنيا وخطوب الحياة قد يوجد مَنْ يكشف عنك الكرب أو يدفع عنك السوء .

أما فى الآخرة فالخطب جلَل ، ليس لأحد قدرة على دفعه ، وإلا كيف يدفعها ، وهى الطامة الكبرى التى تعم الجميع ، كيف يدفع عنك وهو لا يستطيع أنْ يدفعها عن نفسه ؟

إذن : استعدوا لهذا الموقف ، وخذوا لكم دافعاً من الله ، فهو وحده لا شريك له القادر أنْ يدفع عنك فى هذا اليوم .

ولا غرابة فى أزفتْ الآزفة واقتربت الساعة ، وقد ظهرت لنا فى واقع الحياة علاماتها الصغرى التى أخبرنا بها سيدنا رسول الله من وجود نساء فى مجتمع المسلمين كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة[1] البخت المائلة[2] .

---

(١) كأسنمة البخت : أى كظهور الجمال جمع سنام . قال فى لسان العرب : شبَّه رؤوسهن بأسنمة البخت لكثرة ما وصلن به شعورهن حتى صار عليها من ذلك ما يفيئها أى يحركها خيلاء وعجباً .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٨٣١١) والبيهقى فى شُعبه (٥١٢٤ ، ٧٥٥٤) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٦٥٤٩) وابن حبان فى صحيحه (٧٥٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله : إذا أُسندَ الأمر إلى غيـر أهله فانتظر الساعة»[1] ، وقوله : « وإعـجـاب كل ذى رأى برأيه » ،[2] «وأن ترى الحـفـاة العراة رِعَـاء الشاة يتطاولـون فى البنيان »[3] . إلى غـير هذه من الـعلامـات التى شاهدناها بالفعل ، فلِمَ العجب إذن ؟

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢) ﴾

الهمزة هنا استفهام للتـعجب ، فهم يتعجبون من ﴿ هَـٰذَا الْحَدِيثِ (٥٩) ﴾ [النجم] أى : من القـرآن وهو يتـعـجب مـنهم ، يقـول لهم : أتتعجبون من القرآن ؟ الأَوْلَى بكم أنْ تتعجبوا من حالكم وما أنتم فيه من لهـو وغـفلة وانصـراف عن الحق ، وهذا يُفـوِّت عليكم الفـرصـة ويحرمكم خيراً كثيراً .

ونفس الـمـعـنى فى ﴿ وَتَضْـحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) ﴾ [النجم] تضحكون سخرية واستهزاءً ، وكان الأوْلَى بكم أنْ تبكوا على أنفسكم

(١) أخرجه البـخارى فى صحيـحه (٥٧) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قـال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتـها ؟ قال : « إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » . وفى رواية عند البخارى (٦٠١٥) والبيهقى فى سننه الكبرى « إذا أسند » .

(٢) أخرج نعيم بن حماد فى كتاب الفتن عن أبى ثعلبة الخشنى عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت إعـجاب كل ذى رأى برأيه ، فـعليك نفـسك ودع عنك أمر العـوام » وأخـرجه الطبـرانى فى المعجم الكبير (١٨٠٣٣) والبيهقى فى شـعب الإيمان (٩٣٩٧) وابن حبان فى صحيحه (٣٨٦) ولكن ضعفه الألبانى فى صحيح وضعيف الجامع الصغير (٦٠٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحـيحه (٩) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٧٥) ، والترمذى فى سـننه (٢٥٣٥) ، والنسائى فى سننه (٤٩٠٤ ، ٤٩٠٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وعلى ما فاتكم من الخير ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١)﴾ [النجم] لاهون غافلون .

وهذا حال مَنْ قستْ قلوبهم وغلبهم الشيطان والنفس ، تراهم إلى جانب انصرافهم عن الحق يسخرون من أهله ويضحكون استهزاءً بهم .

كما قال تعالى فى تصوير هذا الموقف : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا (٢٩)﴾ [المطففين] سماهم مجرمين ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

نعم ، هذا حال أهل الباطل الذين يقلبون الحقائق فى الدنيا ، لكن الدنيا ليست هى الغاية ، وليست هى نهاية المطاف ، فهناك اليوم الآخر الذى يفصل فيه بين الظالم والمظلوم ، كما قالوا : وعند الله تجتمع الخصوم .

فالله يُطمئن أهل الإيمان : ﴿فَالْيَوْمَ (٣٤)﴾[المطففين] أى : يوم الحساب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)﴾ [المطففين] ومَنْ يضحك أخيراً يضحك كثيراً ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] وعندها نقول : نعم يا رب جازيتهم بما يستحقون .

وقوله سبحانه : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] نلاحظ

(١) فكهين : بطرين أشرين . والفكه : من البطر والأشر والاستكبار والاستهزاء بالآخرين . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

أولاً أسلوب الاختصار فى الأداء القرآنى الذى يترك مجالاً لفطنة المتلقى ، فالمعنى : فاسجدوا لله واعبدوا الله ، لأنه وحده المستحق للعبادة لا شريك له ، فالأمر بالعبادة لا ينصرف إلا إليه سبحانه ، حتى لو لم يُذكر المعبود سبحانه .

الحق سبحانه وتعالى حينما يأمرهم بالسجود والخضوع والطاعة كأنه يقول لهم : كان أوْلَى بكم البكاء والخضوع والتضرع ، وأنْ تتمسكوا بهذا الحق الذى جاءكم ليأخذ بأيديكم ، فهو حبل النجاة فلا تقابلوه بالسخرية .

وهنا ملحظ فى نهاية السورة يأتى الأمر بالسجود ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] كأن الله يتودد إلى عباده حتى الكافرين يقول لهم : يا عبادى أنتم صنعتى وعيالى ، فتعالوا إلى ساحتى .

انهوا الخلاف والمعارضة ، واخضعوا لى بالسجود والعبادة ، فأنا أريد لكم الخير ، وهل هناك صانع يريد الشر لصنعته ؟ لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا بن آدم ، أنا لك محب فبحقِّى عليك كن لى محباً »[(١)] .

ولله المثل الأعلى : أرأيتَ لو أن رجلاً غنياً وسّع الله عليه وعنده ولد فاسد ، فينادى عليه : يا بُنى تعالَ انتفع بمالى ، فأنت أحقُّ به ،

---

(١) أورده القشيرى فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (٦)﴾ [إبراهيم] قال : فى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء وذكره . وذكره إسماعيل حقى فى تفسيره [النحل ٧١] من كلام كعب الأحبار عن التوراة أوله : « يا بن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب » وكذا فى المستطرف (١/ ٦٩) فصل القناعة .

كذلك الحق سبحانه ينادى على الخارجين عن منهجه : تعالوا فالخير ينتظركم .

وإذا كان الأمر فى ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] للكافرين ، فهو أيضاً يكون للمؤمنين : اسجدوا شكراً لله الذى هداكم إلى الإيمان ونجاكم من الكفر .

سُورَةُ القَمَرِ

سورة القمر(١)



﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾

الساعة من أسماء يوم القيامة ، فهى : الساعة ، والحاقة ، والصَّاخة ، والواقعة ، والطامة ، وغيرها ، وكلٌّ وصف من هذه الأوصاف فيه جانب من الفزع والإخافة .

ونلاحظ المناسبة بين أواخر النجم وبداية القمر ، فهناك قال : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ۝٥٧ ﴾ [النجم] وهنا قال ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ . ۝١ ﴾[القمر] وقلنا : إن مجرد بعثة رسول الله ﷺ من علامات الساعة ، نعرف أن الساعة لن تقوم إلا على شرار الخلق حين لا يقال فى الأرض : الله ، الله(٢) .

---

(١) سورة القمر هى السورة رقم (٥٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجمهور ، وهى خمس وخمسون آية ، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص ، فهى السورة رقم (٣٦) فى ترتيب النزول .

(٢) أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٣٥٥٠) أن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشىء إلا رده عليهم . فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر ، فقال له مسلمة : يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله ، فقال عقبة : هو أعلم وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك . فقال عبد الله : أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسُّها مسّ الحرير فلا تترك نفساً فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة .

أما أهل القبور من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى مَنْ مات قبل قيام الساعة ، فكما قلنا إن الزمن فى حقِّهم متوقف ، لأن الزمن فرع الأحداث ، فإذا لم توجد الأحداث لا يوجد الزمن .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] أى : القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] والرجل الذى حاجّ إبراهيم فى ربه أماته الله مائة سنة ، وقال بعد أنْ أحياه الله ﴿ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وقالها أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، لأن هذه هى الفترة التى يمكن أنْ يستغرقها النائم فى نومه ، كذلك ستمر فترة البرزخ على أهل القبور هكذا ، وكأنهم ناموا نوْمة وقاموا منها .

والله سبحانه وتعالى هو مالك الزمن ، وهو القابض الباسط ، يقبضه لمَنْ يشاء ويبسطه لمَنْ يشاء .

ومعنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١) ﴾ [القمر] يعنى : هى قريبة منك على المستوى الشخصى ، فلا تنظر أنت إلى العلامات الصغرى ، ثم إلى العلامات الكبرى وتقول : ما زال الوقت طويلاً بيننا وبين القيامة ، لا ليس كذلك يكون تصور القيامة .

فالقيامة للإنسان هى أنْ يموت ، ليستْ بعد آلاف أو ملايين السنين لقول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : رواه الديلمى عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » . وللطبرانى عن المغيرة بن شعبة قال : يقولون القيامة وإنما قيامة الرجل موته . ومن رواية سفيان عن أبى قبيس قال : شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته . وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات وعزاه لابن أبى الدنيا وقال : هو من قول الفضيل بن عياض ، وفى المقاصد هو للديلمى عن أنس رفعه .

نعم لأنه انتقل من مرحلة الدنيا إلى مرحلة الآخرة ، وانقطع عمله فى الدنيا ، والحق سبحانه أبهم وقت الموت ومكانه ليظل الإنسان على ذِكْر له فى كل لحظة .

وقوله تعالى : ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾ [القمر] انشقاق القمر آية كونية ثابتة بالكتاب والسنة ، فقد ورد أن القمر انشقّ لرسول الله حتى ظهر حراء بين الشقين[1] ، وقد رأى هذه الآية أهل هذا الزمان ممَّنْ تيسر لهم الرؤية فشاهدوه على هذه الصورة .

لا نقول رآه العالم كله ، لأن الآيات الكونية معجزات يُراد منها تثبيت الرسل ، وبيان صدقهم فى البلاغ عن الله ، فليس بالضرورة أنْ يرى هذه الآية كلُّ أهل هذا الزمان ، كيف ونحن الآن مع التقدم العلمى الهائل وتوفر وسائل الاتصال نسمع عن حدوث خسوف أو كسوف فى وقت كذا وكذا ، وفعلاً تنقله القنوات المختلفة ، ومع ذلك ومع الإعلان عن الظاهرة مُقدَّماً إلا أن القليل هم الذين يتمكنون من رؤيتها . والقمر آية ليلية فى وقت معظم الناس فيه نائمون .

ثم إن المعجزات والآيات الكونية للرسل لا يُقصد منها المعجزة الدائمة ، بل معجزة لمَنْ شاهدها ليثبت على إيمانه إنْ كان مؤمناً ، أو يؤمن بالله إنْ كان كافراً .

لذلك قالوا : هى كعود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة ، وهكذا

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٧٩) وعن جبير ابن مطعم قال : انشق القمر ورسول الله ﷺ بمكة ، حتى رأيت حراء بين شقتيه . أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٢٣٦٤) .

كل معجزات الرسل ، فلولا أن القرآن أخبرنا بعصا موسى ما كنا عرفنا عنها شيئاً .

والآيات الكونية هذه خَرْق للنواميس فى لحظتها ، ثم تعود الأمور إلى طبيعتها ، فالقمر انشقّ فعلاً وخرق العادة ، ثم عاد إلى ما كان عليه بعد أنْ رآه كفار مكة المكذبون لرسول الله ، ليس كل الكفار بل بعضهم ، فهذا البعض الذى شاهد المعجزة كافٍ لإثباتها .

وقالوا : معنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ① ﴾ [القمر] أى : ساعة كل إنسان وأجله الذى ينتظره ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر] أى : ينشقّ عنه ويغيب ويعتزل حياته .

وما دام أن الله تعالى قال ﴿ اقْتَرَبَتِ .. ① ﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، ولا تبحث فى هذه المسألة .

والحق سبحانه قال أيضاً : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① ﴾ [النحل] فقال (أتى) بلفظ الماضى كأنه حدث بالفعل فكيف يقول ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ① ﴾ [النحل] قالوا : لأن الله هو الذى قال (أتى) ولا أحدَ يستطيع أن يعترض عليه أو يمنعه أنْ يحقق ما أخبر به .

كذلك فى قوله ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ① ﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، إما ساعة كلّ إنسان حينما يأتى أجله وهذا قريب ، أو الساعة العامة فهى أيضاً قريبة ، لأن انشقاق القمر من علاماتها وبعثته ﷺ من علاماتها .

ويُروى أن المكذبين لرسول الله قالوا له : إنْ كنتَ صادقاً فيما

تخبر به فـأت بآية الآن تدل على صدْقك ، قالوا : الوليد بن المـغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ، والعاص بن ربيعة ، والأسود ابن عـبد يغـوث ، والأسود بن عـبد المطلب ، وربيـعة بن الأسـود ، والنضر بن الحارث .

وكل هؤلاء وغيرهم حـضروا هذه الواقعة ، حـيث دعا رسول الله وسـأل ربه فانفلق القـمـر نصفـين ، نصف على جـبل أبى قبـيس ، ونصف على قينقاع حتى ظهر غـار حراء بينهما ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا سحر ، أمـا أهل التعقل فقـالوا : نسأل المسافـرين فى الصحراء بعيداً عن هذا المكان ، فلما سألوهم قالوا : نعم رأيناه وقال آخرون : لم نره[١] .

وقـد أرجع الإمام على رضى الله عـنه هذا الاختـلاف إلى أن آية انشقاق القـمر آية ليلية ، البعض رآها بالفعل ، والبـعض بل الأكثر لم يرها[٢] .

وباستقـراء الآيات التي وردت في قيام السـاعة وما يسبـقها من علامات ، نقرأ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ ﴾ [التكوير] وغيرها كثير مما يُصوِّر لنا انهدام هذه الكيانات .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور فى تفسـير الآية قال : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعـيم والبيهـقى كلاهما فى الدلائل من طريق مـسروق عن ابن مسعـود قال : انشق القمر على عهد النبى ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسـحر الناس كلهم ، فجاء السفار فسألوهم . فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل الله ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ ﴾ [القمر] .

(٢) قال الألوسى فى تفسيـره (روح المعانى) : « انشقاق القمـر وقع فى الليل وزمان الغفلة وكـان فى زمان قليل ، ورؤية القـمر فى بلـد لا تستلزم رؤيتـه فى جمـيع البلاد ضـرورة اختلاف المطـالع فقد يكون القمـر طالعاً على قوم غائبـاً عن آخرين ومكسوفاً عند قـوم غير مكسوف عند آخرين » .

أما القمر فلم يأت فيه إلا قوله تعالى : ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨﴾ [القيامة] والخسف أهون ، وأقل من تكوير الشمس .

ونفهم من هذا أن حادثة انشقاق القمر فى الدنيا ستُدخر له فى الآخرة ، فلا يحدث له ما يحدث لغيره من النجوم .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ۝٦٨﴾ [الزمر] إذن : هناك مَنْ يُصعق وهناك مَنْ ينجو .

وفى تصوير سيدنا رسول الله ﷺ لموقف القيامة يقول : فلما أفقتُ وجدت أخى موسى آخذاً بعضد العرش . وهذا يعنى أنه عليه السلام لم يُصعق فيمَنْ صُعق - لذلك تعجب رسول الله(١) .

ثم بيَّن أنه صُعق مرة فى الدنيا وهو على جبل الطور : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. ۝١٤٣﴾ [الأعراف] وما كان الله سبحانه وتعالى ليجمع على نبيه موسى الصعقتين ، فلما صُعق فى الدنيا نجّاه من صعقة الآخرة .

وهذا هو الاستثناء ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ۝٦٨﴾ [الزمر]

وهكذا الحال فى مسألة انشقاق القمر ، وهذا يعنى أن الانشقاق كان حقيقياً وآية كونية أخرجتْ القمر عن طبيعته وكيفيته ، لذلك لا يصيبه ما يصيب النجوم الأخرى فى الآخرة .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٢٣٤) أن رسول الله ﷺ قال : « لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش جانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٧٧) كلاهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② ﴾

الآية هنا بمعنى الشيء العجيب الخارق للعادة ، والعظيم الأثر الذى لم يَرَ الناسُ مثله ، فالمراد الآيات الكونية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ⑤ ﴾ [الزمر] وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ㊲ ﴾ [فصلت]

ومع أن هذه الآيات واضحة الدلالة على قدرة الله ووجوب الإيمان به وتصديق رسوله إلا أنهم قابلوها بالإعراض والانصراف ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. ② ﴾ [القمر] أعرضوا حتى عن الآية التى اقترحوها وطلبوها من رسول الله ، حتى جاءتهم كفلق الصبح ، وهذا يدل على استكبارهم عن قبول الحق ، وعنادهم لرسول الله رغم وضوح الآية ، فشدة العناد والكراهية لرسول الله أعمتْ أعينهم عن الحق .

ويكفى هنا أنْ نذكر موقف عمه أبى لهب ، وكان قد زوَّج ولدين من أولاده بنتين من بنات رسول الله ، فلما صدع رسول الله بدعوته ، وحدثتْ العداوة من ناحية عمه آل على نفسه إلا أنْ يُطلِّق ابنتى رسول الله وبالفعل طُلقتا .

وهذه فى حدِّ ذاتها لم تُغظ رسول الله ، لكن غاظه أنْ يمر عليه أحد[1] هذين الولدين ، ثم يتفل ناحيته فدعا عليه رسول الله وقال :

---

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتيبة . ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨) .

أكلك كلب من كلاب الله[1] . فلما سمع أبو لـهب بدعوة رسول الله على ولده توجّس خيفة منها ، لأنه يعلم فى قـرارة نفسه أن ابن أخيه على الحق .

فلما جـاء موعد القـافلة التى سيخرج فـيها ولده للتـجارة أوصى رفاقـه ألاَّ يتركوه ، وقـال لهم : إذا بتُّم فاجـعلوا ولدى فى وسطكم ، فإنى أخشى عليه دعوة محمد .

وبالفعل فى لـيلة من ليالى القافلة جـاءه أسد ، فأخـذه من بينهم فـأكله . والطريف هنا أن رسـول الله قال : كلب من كـلاب الله ، وهذا أسد ؟ قالوا : لأن الكلب إذا نُسب إلى الله فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً .

إذن : هذه آية أخرى حـدثتْ مع هذا الصِّنديد المعاند بشـخصه ، وليـست بعيـدة عنه ، ومع ذلك لم يؤمن ولم يَـرِقّ قلبه لدعـوة الحق التى جاء بها ابن أخيه .

ومن رحمـة الله تعالى بهـذه الأمة أنه سـبحـانه لم يهلك المكذبين منهم ، ولم يستأصلهم كما حدث للأمم السابقـة ، فقوم سيدنا عيسى

---

(١) أخرج البـيهقى فى دلائـل النبوة (٦٢٣) أن أم كلثوم ابنة رسـول الله كانت فى الجـاهلية تحت عتيـبة بن أبى لهب ، وكانت رقيـة تحت أخيه عتـبة ، فلما أنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ [المسد] قـال أبو لهب لابنيه عتبة وعـتيبة رأسى ورؤوسكمـا حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وسأل النبى ﷺ عتبة طلاق رقية وسألته رقية ذلك ، وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية وهى حمـالة الحطب : طلِّقها يا بنى فإنها قد صبت فطلقهـا ، وطلق عتيبة أم كلثوم ، وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم ، فـقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسـول الله ﷺ فشقَّ قميـصه ، فقال رسـول الله ﷺ : « أما إنى أسأل الله أن يسلـط عليه كلبه » قـال عروة بن الزبيـر : أن الأسد لمـا طاف بهم تلك الليلة انصرف عنهم فـناموا وجعل عـتيبـة فى وسطهم ، فأقبل الأسـد يتخطاهم حـتى أخذ برأس عتيبة ففدغه (أى شقّه) .

قالوا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا .. (١١٤)﴾ [المائدة] هذه آية حسِّية اقترحوها ، فردَّ الله عليهم : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾ [المائدة]

كذلك قوم صالح لما عقروا الناقة قال الله فيهم : ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾ [الأعراف]

أما أمة محمد فلم يعاملهم الحق سبحانه هذه المعاملة ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

وقوله سبحانه : ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. (٢)﴾ [القمر] يعنى : أنهم رأوها بأعينهم على الحقيقة ، فلماذا يُكذِّبون بها ؟ قالوا : عناداً وإصراراً على التكذيب ، لأنهم ظنوا أن محمداً يريد من دعوته شيئاً لنفسه يريد الوجاهة والرياسة بين قومه ، يريد علواً فى الأرض .

لذلك لما أرسلوا وفدهم إليه ﷺ قالوا له : يا محمد إن كنتَ تريدُ مُلْكاً ملَّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. إلخ فقال لعمه قولته المشهورة : والله يا عَمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه[1] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٩٥) وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « يا عم لو وُضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبه » . وأورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٤٧٤) والسهيلى فى الروض الأنف (٢/ ٦) .

ثم لم يقفوا عند حَدِّ الإعراض والتكذيب ، بل تعدَّوْه إلى السَّبِّ والإيذاء .

﴿ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر] واتهام الرسل بهذه التهمة أمر قديم وعادة عند جميع المكذِّبين على مَرِّ العصور ، فهؤلاء بعدما عاينوا انشقاق القمر تأبى طباعهم السقيمة أنْ يعترفوا بالحق فيُلفّقون له التهم ، ماذا يقولون ؟

يقولون : هذا ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر] أى : دائم[1] كأن محمداً يأتيهم بسلسلة من أعمال السحر واحدة بعد الأخرى . وقلنا : هذا اتهام باطل وأهون ما يقال فى الرد عليه : إذا كان محمد ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ومعلوم أن السحر تخييل للعين وليس حقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.. ۝١١٦ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ ﴾ [طه] أما الآيات التى جاء بها محمد فكلها حقيقة وعليها دليل هم يعرفونه ويعترفون به .

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾

---

(١) حكى ابن الجوزى ثلاثة أقوال فى معنى ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر] :

الأول : ذاهب . من قولهم : مرّ الشيء واستمر : إذا ذهب . قاله مجاهد وقتادة والكسائى والفراء ، فعلى هذا يكون المعنى : هذا سحر والسحر يذهب ولا يثبت .

الثانى : شديد قوى . قاله أبو العالية والضحاك وابن قتيبة . وهو مأخوذ من المرَّة . والمرّة : الفَتْل .

الثالث : دائم . حكاه الزجاج .

معنى ﴿ وَكَذَّبُوا ..(٣) ﴾ [القمر] أى : كذَّبوا بالآيات الواضحات ، والكذب قولٌ يخالف الواقع وهو صفة مذمومة عند الناس جميعاً ، وهؤلاء كذَّبوا عناداً واتباعاً لهواهم ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .. (٣) ﴾ [القمر]

فالهوى يدعوه لأنْ يكذِّب بالحق ليحقق ما يهواه ، والهوى لا يدعو صاحبه إلى خير ، إنما يدعوه إلى الشر والهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ[1] فُرُطًا (٢٨) ﴾[الكهف] وقال فيهم الحق سبحانه ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ..(٢٣) ﴾ [النجم] فهوى النفس متحكم فيهم مسيطر على تصرفاتهم .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) ﴾ [القمر] كل أمر من الكفر أو الإيمان ، الطاعة أو المعصية ، كلّ أمره مستقر إلى غاية معلومة وأجل يعلمه الله ، وعلم الله بالأشياء أزليّ ، يعنى قبل أنْ يحدث الحدث يعلمه الله وسجلته الكتبة .

فالحق سبحانه حينما قضى بكفر الكافر لم يرغمه على الكفر ، إنما ترك له الاختيار ، لكن لعلمه الأزلى كتب عليه ما سيحدث منه ، وهذه من عظمته تعالى وإحاطة علمه سبحانه بما كان وما يكون وما لم يكن .

وقد ذكرنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

---

(١) قوله ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف] فيه أربعة أقوال :
الأول : أنه أفرط فى قوله ، لأنه قال : إنّا رؤوس مضر ، وإن نسلم يسلم الناس بعدنا . قاله أبو صالح عن ابن عباس .
الثانى : ضياعاً . قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : سرفاً وتضييعاً .
الثالث : ندماً . حكاه ابن قتيبة عن أبى عبيدة .
الرابع : كان أمره التفريط . والتفريط تقديم العجز . قاله الزجاج .

﴿ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَامْرَأَتُهُ[1] حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا[2] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٥ ﴾ [المسد]

فقد نزلتْ هذه الآيات وتُليت على أسماع أبى لهب ، وهو ما يزال فى سعة الدنيا وفى سعة الاختيار[3] ، وكان فى إمكانه أنْ يُكذِّب هذه الآيات ، وأنْ ينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، لكنه لم يفعل ولم يقدر حتى على هذه ، ونفذ فيه حكم الله عليه وعلى زوجته . لماذا ؟ لأن الله تعالى قضاء لا يرده أحد ، وكلمته لا يُعقِّب عليها أحد .

هذا معنى ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ٣ ﴾ [القمر] نعم مستقر ففى علم الله ، فلا تُتعب نفسك يا محمد ولا تُجهد نفسك فى دعوة هؤلاء ، وما عليك إلا البلاغ ، أما الإيمان والكفر فقد سبق فى علم الله أن هذا سيؤمن ومُستقره فى الجنة ، وهذا سيكفر ومُستقره فى النار ..

فهوى هؤلاء المكذِّبين لن يغير من هذا المستقر شيئاً ، لأنه واقع ومُستقر فى اللوح المحفوظ فى أم الكتاب الذى لا يغيره أحد .

---

(١) امرأة أبى لهب : هى أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان بن حرب ، عمة معاوية بن أبى سفيان وكانت تقول : مذمماً عصينا .. وأمره أبينا . وكانت تطرح الشوك فى طريق رسول الله ﷺ ، فكانت شديدة العداوة لرسول الله . وكانت عوراء . قاله أبو بكر بن العربى .

(٢) جيدها : الجيد بكسر الجيم العنق . [القاموس القويم ١/١٣٨] . وقيل : مقدم العنق . وقيل مُقلَّده أى : موضع القلادة منه . وقد غلب على عنق المرأة . [لسان العرب – مادة : جيد] .

(٣) نزلت هذه السورة فى أبى لهب عم النبى ﷺ ، ولم يمت إلا بعد ١٥ سنة بعد نزولها ، وهو أخ غير شقيق لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى محمد ، وقد هلك بعد وقعة بدر بسبع ليال بمرض كالطاعون وبقى ثلاثة أيام حتى أنتن ، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾

الكلام هنا عن المكذبين من كفار مكة ، وكيف أن الله تعالى أخبرهم بخبر الأمم السابقة ، وما آلوا إليه من الهلاك والدمار لما كذّبوا رسلهم ، بل إن آثار هذه الأمم باقية عندهم يمرون عليها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحجر] أى : أن هذه الآثار موجودة بطرق مسلوكة ومعلومة لهم يمرون بها ﴿ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحجر] يقيم الآيات .

ومعنى ﴿ الأَنبَاءِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [القمر] الأخبار مفردها نبأ ، وهو الخبر الهام الذى يترتب عليه الاتعاظ وأخْذ العبرة ، ومن هذه الأنباء ما أخبرهم به من نبأ عاد وثمود وقوم لوط والأحقاف ، وغيرها .

ومعنى ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [القمر] أى : لهم عبرة وعظة فيمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة الذين أهلكهم الله ، فهذا زاجر لهم عن الوقوع فى التكذيب والتصدى لدعوة الحق .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ.. ﴿٥﴾ ﴾ [القمر] الحكمة : وضْع الشىء فى موضعه ﴿ بَالِغَةٌ ..﴿٥﴾ ﴾ [القمر] أى : بلغت الغاية ، فلا حكمة أعلى منها ، لأن الحكمة تختلف باختلاف العقول التى تأتى بها .

إذن : فالبشر يُوصفون بالحكمة التى تناسب عقولهم ، والحق سبحانه له حكمة هى الحكمة العليا ، كما قلنا فى صفة الخَلْق ، فأنت تُوصف بهذه الصفة حينما تخترع شيئاً لم يكن موجوداً ، فأنت خالق والله سبحانه أحسن الخالقين .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى قصة تحريم التبنى مع رسول الله وزيد بن حارثة ، فقال تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

إذن : حكم رسول الله بتبنى زيد قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، ما فعله سيدنا رسول الله عدالة بشرية وتكريم لمن فضّله على أبيه وأهله ، وما حكم الله به من دعوة الشخص لأبيه الحقيقىَ أعدل .

لأنه يعطى للأب الحقيقى حقه ، فهو سببُ الحياة وسبب الوجود المباشر للإنسان ، وفى تقدير الأب تقدير للرب الخالق والمُوجد الأول للجميع .

ولذلك قرن الحق سبحانه بين عبادته وبين بر الوالدين ، فقال فى أكثر من موضع : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۝ ﴾ [النساء] وقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ۝ ﴾ [الإسراء] لذلك جعل عقوق الوالدين من الكبائر[1] ، وهى كبيرة شائعة فى كل الجوارح كما بيّنا .

وقوله : ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝ ﴾ [القمر] النذر : قالوا هى الرسل التى تنذرهم وتحذرهم العذاب وعاقبة التكذيب ، جمع نذير . والمعنى : أنهم لم ينتفعوا بها ، ولم تؤثر فيهم دعوات الرسل .

---

(١) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم عقوق الوالدين . قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس . قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم هو فيها كاذب . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٩) ، وأخرجه أحمد فى مسنده (٦٧٠٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن أكبر الكبائر عقوق الوالدين . قال : قيل وما عقوق الوالدين ؟ قال : يسب الرجلُ الرجلَ فيسبّ أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ(١) إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾

الأمر هنا لسيدنا رسول الله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. ۝٦ ﴾ [القمر] أعرض عنهم ودعهم ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ﴾ [النجم] وهذا يعنى أنهم لا فائدة منهم .

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ [القمر] أى : ينادى المنادى والمراد النفخة الثانية التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ، ومعنى ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ [القمر] أى شىء منكر لا يعرفه الناس ولا عهدَ لهم به لبشاعته وفظاعته ، لذلك تنكره النفس .

لكن ما العلاقة بين ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. ۝٦ ﴾ [القمر] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ۝٦ ﴾ [القمر] قالوا : يعنى أعرض عنهم من الآن ، فلا تقُلْ لهم شيئاً عن هذا اليوم ، وقالوا : المراد تولَّ عنهم ولا تشفع لهم فى هذا اليوم .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ(٢) كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ(٣) ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾

(١) الداعى هنا هو إسرافيل عليه السلام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٢٩) وقال ابن الجوزى فى زاد المسير « الداعى : إسرافيل ينفخ النفخة الثانية » .

(٢) الأجداث : القبور . جمع جدث . قال تعالى :﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ ﴾ [يس].

(٣) هنا قال ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾ [القمر] وفى آية أخرى قال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾ [القارعة] قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٣٠) : « هما صفتان فى وقتين مختلفين :
أحدهما : عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم فى بعض ، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها .
الثانى : فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ، لأن الجراد له جهة يقصدها » .

السياق هنا موصول بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦)﴾ [القمر] ففى هذا اليوم يأتى هؤلاء المكذبون ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ (٧)﴾ [القمر] خُشَّع جمع خاشع .

الحق سبحانه يصف حالهم فى هذا اليوم يوم ينادى عليهم المنادى فيخرجون ﴿مِنَ الأَجْدَاثِ ..(٧)﴾ [القمر] من القبور وهم أذلاء صاغرون ، بصرهم ذليل منكسر ، ينظر إلى أسفل ولا يَقْوى على أنْ يرفع بصره .

إذن : حركة العين للرؤية لها دلالات ولها انفعالات ، وحركة العين ترتبط بحالة صاحبها ، فأهل الحق أعينهم قوية جريئة ، أما أهل الباطل فأعينهم ذليلة منكسرة ، لذلك نعيب على أهل الباطل حينما يتبجحون بباطلهم . نقول : فلان يقول كذا وعينه قوية (يندب) فيها رصاصة ، نعم لأنه خالف طبيعة الموقف الذى يعيشه .

وقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)﴾ [القمر] أى : حين خروجهم من القبور يخرجون منتشرين كالجراد ، والمراد الكثرة والتفرّق هنا وهناك ، وتصوّر لو أخذنا أىّ رقعة من المعمورة كم دُفن فيها جيل بعد جيل من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، فكم فيها من القبور ؟

ثم تأمل بناء الفعل ﴿يَخْرُجُونَ .. (٧)﴾ [القمر] للمعلوم ، فلم يقل يُخرجون للمبنى للمجهول ، إنما يخرجون كأنهم يخرجون بأنفسهم فى وقت واحد بعد أنْ أحيتهم النفخة الثانية بإذن الله فيقومون ويخرجون .

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ..(٨)﴾ [القمر] أى : مسرعين ، ومَنْ

يستطيع فى هذا الموقف أنْ يتباطأ أو يتلكأ ؟ والمهطع هو الذى يمد عنقه إلى الأمام ليندفع فى سيره ، ولك أنْ تتأمل حال هؤلاء فى الدنيا ، وكيف أخذهم الكبر والغطرسة والعناد فأبعدهم عن الجادة ، والآن يأتون منكسرين أذلاء صاغرين مسرعين إلى الغاية التى طالما كذّبوا بها كالمجرم يُساق إلى العقاب .

لذلك قال بعدها : ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾ [القمر] فخصّ الكافرين بهذا القول ، نعم يوم عسر شديد لأنه لا فكاكَ منه ولا مهرب ، ولا مدافع ولا نصير ، وكيف يكون لهم مهرب أو نصير والآلهة التى عبدوها من دون الله ويظنون أنها تشفع لهم سيسبقونهم إلى جهنم .

قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ(١) قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٩٨ ﴾ [هود] وهذا تيئيس لهم وقطع لأملهم .

ثم يترك السياق قريشاً ويُحدِّثهم عن قوم آخرين من المكذِّبين هم قوم سيدنا نوح عليه السلام ، فيقول :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ ﴾

كأنه تعالى يقول لكفار مكة : لستم بعيدين عن هذا المصير الذى آل إليه غيركم من الأمم المكذّبة ، لأنكم لم تقفوا عند حدِّ التكذيب ،

---

(١) يقدم قومه : يتقدمهم إلى النار . قال الشوكانى فى فتح القدير فى تفسير الآية : « أى : يصير متقدماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار . وقال الزمخشرى : « كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه » .

بل آذيتم رسول الله بكلِّ ألوان الإيذاء ، آذيتموه بالقول وبالفعل ، آذيتموه علانية وجهراً ، فلما لم تصلوا إلى شيء آذيتموه بالكيد والمكر والتبييت .

بل استعنتم على إيذائه بكيد الجن فسحرتموه[1] ، وحاولتم قتله بالسُّم فلم تستطيعوا[2] . إذن : أريحوا أنفسكم فدعوة محمد ماضية في طريقها لا يُثنيها شيء ، فانتهوا عن مصادمتها ، وما قومُ نوح منكم ببعيد .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ..(٩)﴾ [القمر] إذن : خذوا منهم العبرة ، وبدأ بقوم نوح لأن سيدنا رسول الله بُعث للناس كافة في كل زمان ومكان ، وسيدنا نوح أُرسل لقومه ، وعمومية رسالته محصورة في هؤلاء ، ليس في الزمان والمكان ، ثم حُصِروا بعد ذلك في أهل السفينة .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٢١ ، ٥٣٢٤ ، ٥٩١٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٥٩) كتاب السحر . قال المازرى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى : « أنكر المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها ، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء ، قال المازرى : وهذا كله مردود لأنه الدليل قد قام على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته فى التبليغ » .

(٢) عن أنس بن مالك أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل : ألا نقتلها ؟ قال : لا . فما زلتُ أعرفها فى لهوات رسول الله ﷺ [أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٢٤) ومسلم فى صحيحه (٤٠٦٠) بأبسط منه] .

ثم إن سيدنا نوحاً عليه السلام لبث في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالتكذيب في قصته واضح ، وقد سلك معهم كلّ سبيل فلم يؤمنوا ، فجعلهم الله عبرة ومثلاً لمَنْ جاء بعدهم من المكذبين .

ألا ترى أن هذه الآية ذكرت تكذيبهم لنبيهم مرتين ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ..(٩)﴾ [القمر] ثم ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا .. (٩)﴾ [القمر] فتكذيبهم فاق كل تكذيب ، لذلك كان سيدنا نوح أطولَ الرسل عمراً ، ودعوته أطول الدعوات .

وقوله سبحانه ﴿ عَبْدَنَا ..(٩)﴾ [القمر] أي : سيدنا نوح ، وهذا تشريف له عليه السلام أن الله تعالى يقول عنه عبدنا ، ومثلها قوله تعالى في قصة إسراء سيدنا رسول الله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١)﴾ [الإسراء]

لذلك فالإخلاص في العبودية يستجلب عطاء الربوبية ، وقلنا : العبودية للبشر مذلة ، والعبودية لله عزّة وشرف ، فالعبد في العبودية للبشر يعطي خيره لسيده ، أما العبد لله فيأخذ خير سيده ، فهي إذن عبودية السيادة .

ثم لم ينتهوا عند التكذيب لنبي الله ، بل تعدوا ذلك إلى الإيذاء ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)﴾ [القمر] فاتهموه بالجنون وقلنا : إنها تهمة واهية مردود عليها ، وإنْ دلتْ فإنما تدل على سفاهة هؤلاء وإفلاسهم .

﴿ وَازْدُجِرَ (٩)﴾ [القمر] أي : أنهم زجروه ومنعوه من إتمام دعوته وتبليغ رسالته .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى
ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ
وَدُسُرٍ[1] ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد هذا الصبر الطويل من سيدنا نوح لم يؤمن معه إلا القليل[2] من القوم حتى يئس من هدايتهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر] أى : انتصر لى منهم لأنى لا طاقةَ لى بهم ، يُقال : انتصر له . أى : أخذ له الحق الذى يعجز أنْ يأخذه بنفسه ، لذلك قال تعالى عن الكافرين ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم] لا ينتصرون لأنفسهم ، ولا يجدون مَنْ ينصرهم .

---

(١) فى الدسر أربعة أقوال (ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير) :
أحدها : أنها المسامير . رواه الوالبى عن ابن عباس . وبه قال قتادة والقرظى وابن زيد .
الثانى : أنه صدر السفينة ، سُمِّى بذلك لأنه يدسر الماء أى يدفعه . رواه العوفى عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وعكرمة .
الثالث : أن الدُّسُر أضلاع السفينة ، قاله مجاهد .
الرابع : أن الدُّسُر طرفاها وأصلها . والألواح جانباها . قاله الضحاك .

(٢) اختُلف فى عددهم على ثلاثة أقاويل :
أحدها : ثمانون رجلاً منهم جرهم . قاله ابن عباس .
الثانى : أنهم ثمانية . قاله ابن جريج .
الثالث : سبعة ، قاله الأعمش ومطر ، وكان فيهم ثلاثة بنين : سام وحام ويافث ، وثلاث بنات له ونوح معهم فصاروا سبعة . [ذكرها الماوردى فى تفسيره لآية هود ٤٠] .

فلما دعا نوح بهذا الدعاء استجاب الله له ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ..(١١)﴾ [القمر] أى السحاب ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر] ينصبّ بغزارة ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ..(١٢)﴾ [القمر] انشقتْ الأرض عن عيون الماء ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ .. (١٢)﴾ [القمر] ماء السماء من أعلى ، وماء الأرض من أسفل ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر] على أمر قدَّره الله وقضاه ، وهو هلاك هؤلاء المكذّبين ونجاة المؤمنين ، فهذا أمر قدِّر أزلاً .

وفى موضع آخر أتى تفصيل هذه القصة ، فقبل أنْ ينصبّ عليهم الماء من السماء ويتفجَّر من عيون الأرض أمره ربه أنْ يصنع السفينة ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود] لأنها أول سفينة تُصنع على وجه الأرض ، ولا عهدَ للناس بهذا الشيء ، فعلَّمه الله كيف يصنعها .

ويُقال : إن الله تعالى أعطاه أول الخيط الذى يقوده فى صناعتها حينما أراه جذوع الشجر تطفو على سطح الماء ولا تسقط ، وهذه لها قانون خاص بالحجم والكثافة ، فلما رأى نوح هذه الظاهرة فاهتدى إلى أنْ يجمع الجذوع ويجمعها إلى بعضها بالحبال ، ثم اهتدى إلى فكرة المسامير .

وهنا قال : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر] والمراد السفينة . والدُّسُر هى المسامير التى يجمع بها ألواح الخشب ، وبعد أن انتهى من صنع السفينة ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر]

وقوله سبحانه ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا .. (١٤)﴾ [القمر] أى : السفينة تجرى على صفحة الماء ﴿بِأَعْيُنِنَا.. (١٤)﴾ [القمر] بقدرتنا ورعايتنا

وحفظنا ومراقبتنا ، ومنه قوله تعالى فى سيدنا موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] ولولا عناية الله ، ما كان لهذه السفينة أنْ تستقر على هذا الموج المتلاطم .

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) ﴾ [القمر] أى : أن هذه السفينة وما كان من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين جزاء لنوح الذى كفر به قومه وكذَّبوه ، فهو الذى كُفر أى كُفر به ، فجزاؤه والذين آمنوا معه أنْ أنجاه الله وأنجى المؤمنين به .

ويجوز أن تكون جزاء لمَنْ كَفر[1] وجزاؤهم الإغراق .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) ﴾

الكلام عن السفينة ﴿ تَّرَكْنَاهَا آيَةً .. (١٥) ﴾ [القمر] عبرة وعظة للأمم بعد نوح ، قالوا : والترك قد يُراد به تركناها قصة تُتلى فى كتاب محفوظ إلى يوم القيامة هو القرآن ، يقصُّها على الناس على مَرِّ العصور ، ليأخذوا منها العبرة .

أو : تركناها آية باقية بعينها فى المكان الذى استقرتْ عليه بعد أن جَفَّ الماء ، وهو جبل الجودى[2] الذى قال الله فيه ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى

(١) قرأها : لمن كان كفر . يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد نقله القرطبى فى تفسيره (٦٥٢٣/٩) .

(٢) الجودى : جبل فى تركيا يقع فى جنوب شرق تركيا بالقرب من الحدود العراقية السورية . وهو يقع إلى الشمال من مدينة زاخو بحوالى ٢٠ كم ، والشواهد أن هذا الجبل هو المقصود كثيرة ، فأسماء القرى والمدن المحيطة بها منسوبة إلى نوح عليه السلام ، فأول قرية تقع إلى الجانب الشمالى من الجبل تسمى هشقيان اى قرية الثمانين وهو عدد من كانوا مع نوح . [موقع زاخو التى بها جبل الجودى] .

الْجُودِيِّ .. (٤٤)﴾ [هود] ويقال : إنه موجود فى تركيا ، وأظنكم قرأتم بحثاً فى هذه المسألة ، يثبت وجود آثار فى هذه المنطقة ، وقد يكون هذا إلهاماً من الله لنصل إلى هذه الآية العجيبة التى أنجى اللهُ بها المؤمنين وأغرق الكافرين .

ولأنها آية ينبغى التأمل فيها والاعتبار بها ، يقول سبحانه : ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥)﴾ [القمر] أى مُتذكر ، مُفكر فيها ، متعظ بها ؟

ثم يعود السياق لمخاطبة سيدنا رسول الله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)﴾ [القمر] استفهام لتقرير الحقيقة ، الحق سبحانه يسأل رسول الله ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)﴾ [القمر] أى : إنذارى . فهناك إذن علاقة بين العذاب والنذر .

فالحق سبحانه لم يظلمهم ولم يأخذهم على غفلة ، إنما قدَّم لهم الإنذار ، وأى إنذار بعد دعوة استمرتْ ألف سنة إلا خمسين عاماً أنذرهم فيها نوح بعذاب الله ، وكما يقولون : قد أعذر من أنذر ، مَنْ أنذرك فقد قطع عذرك ، فلا عذرَ لك بعد ذلك .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾

اللام للتوكيد ، وقد حرف تحقيق ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤكد على هذه الحقيقة ، وهى أن القرآن سهل ميسَّر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..(١٧)﴾ [القمر] يسَّرنا قراءته وتلاوته ، ويسَّرنا الاستماع إليه ويسَّرنا فهمه وتذوقه والانفعال به .

فالقرآن هو الكتاب الوحيد الذى تزداد له حباً كلما كررته ،

وتزداد له فهماً وتذوقاً واستكشافاً لكنوزه ، فعجائبه لا تنتهى ، وعطاءاته لا تنفد ، لأنها فيوضات المتكلم بهذا القرآن .

لذلك يقول ﷺ عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه ، ولا يخْلَق عن كثرة الرد »[(١)] ذلك لأنك حين تتكلم تعطى كلامك من المعانى على قدرك ، وعلى قدر كمالاتك الأدبية والعقلية .

فإذا كان المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى فإن عطاءاته لا تتناهى ، وما دام ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ، فسوف يظل القرآنُ بكْراً يعطيك من فيوضاته إلى يوم القيامة .

ثم إن كلام الله صفته وصفة الكامل كاملة ، لذلك قال عن القرآن ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت]

وقالوا فى القرآن :

بيَّن فيه كُلَّ شَىء ... وَمِنْه آخذ قدْرَ ذِهْنِه كُلّ تَال

ولو تأملتَ مثلاً تفسير القرآن على مرِّ العصور لوجدتَ عجباً ، فلو كان التفسير مقصوراً على أحد لكان رسول الله الذى نزل عليه

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول وفى الحارث مقال .

القرآن أوْلَى بتفسيره ، لكنه ﷺ ترك هذه المهمة .

ولو فسّره رسول الله لمَا كان لأحد أنْ يزيد عليه ، لكن تركه للأجيال يأخذ منه كلّ جيل على قدر إدراكه وتطوره ومستجداته وما تصل إليه من أسرار ، كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

ولو أن القرآن أعطى جيل الصحابة مثلاً كلّ عطاءاته لاستقبلتْ باقي الأجيال القرآن بلا عطاء ، والله يريد عطاء الله دائماً إلى يوم القيامة .

فقال ﴿ سَنُرِيهِمْ..(٥٣) ﴾[فصلت] يقرأها كلّ جيل بهذه الصيغة المستقبلية ، مهما أخذوا من عطاءات ، لأنهم يأخذون من معين لا ينضب .

ومن التيسير فى قراءة القرآن أنْ يقرأه العربى والأعجمى ، وتتعجب وأنت فى الحرم حينما تسمع القرآن من أناس أعاجم لا يعرفون من العربية جملة واحدة ، ومع ذلك يقرأون القرآن بلسان عربى ، نعم يتعتعون فيه ويجدون فى قراءته مشقة ، ولولا أنهم يجدون له لذة ما تحملوا هذه المشقة فى القراءة .

ثم يقرأه الطفل الصغير ، بل ويحفظه وهو فى سنِّ السابعة ، ولو أتيتَ له بأىّ كتاب بشرى لما استطاع أنْ يحفظه .

هذا كله فيض من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..(١٧) ﴾ [القمر] ولولا هذا التيسير ما حفظه الطفل الذى لم يكتمل عقله بعد فيحفظه . وهو لا يعرف معناه ، ولا يعرف ما فيه من أحكام .

وقد علَّمنا النبى ﷺ أن القرآن ليس جُملاً ، إنما يُحسب بالحروف ،

كلُّ حرف له سرّ وله عطاء ، بل وله ملَك موكّل[1] به ، فحين تود قراءة القرآن فإنما تود ملائكة الحق ، فساعة تريدها تأتيك وتسعفك .

وجرِّب نفسك مع القرآن وأنت تقرأ بتأنٍّ وتأمل ثم تنسى حرفاً أو كلمة فتعيد السياق على ذهنك وسرعان ما تأتيك ، لأنها تودّك كما تودّها مثل العبد الذى يوده سيده ، فساعة يستدعيه يسرع إليه ، وأنتم تعرفون هذا الحديث : « .. لا أقول ألف لام ميم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] .

لذلك رأينا عجائب فى مسابقات القرآن الكريم للأطفال والشباب ، فكيف تمتحن مثلاً سبعمائة متسابق فى وقت محدود ، لذلك كانت هناك أسئلة فنية يمكن بها أنْ تقيس حفظ المتسابق للقرآن كله بسؤال واحد ، فمثلاً تقول له :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) ﴾ [المزمل]

اقرأ :

فإنْ كان الولد حافظاً يقول : من أين أقرأ ؟ لأنها فى أكثر من موضع ومن الأسئلة التى نظموها شعراً :

كم فى كتاب الله جمع الناسِ   قد يوم ندعو أخرجوا وأَنَاسى

ففى الشطر الأول : كم مرة ذكر جمع الناس فى القرآن الكريم ؟

والإجابة فى الشطر الثانى : يقصد ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٢٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) من حديث ابن مسعود . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) .

وبيوم ندعو : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ.. ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء]

وبأخرجوا : ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل]

وبأناسى : ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان]

هكذا يجيب عن سؤال الشطر الأول ، بالشطر الثانى وأن المواضع ستة :

واحدة فى البقرة الآية ٢٠ ، اثنان فى الأعراف الآيتان ٨٣ ، ١٦٠ ، واحدة فى الإسراء الآية ٧٠ ، واحدة في الفرقان الآية ٤٩ ، واحدة فى النمل الآية ٥٦ .

لماذا ؟ لأنه مُيسَّر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] فهل لهذا القرآن الذى يسَّرناه أحد يعتبر به ويتعظ بما فيه من الآيات .

لكن تيسير القرآن لمن ؟ الله يسَّر القرآن لمن آمن بقائل القرآن وآمن بالنبى الذى أنزل عليه القرآن ، وإلا فهناك مَنْ يستمع القرآن وهو لاهٍ منصرف ، ومَنْ يستمع القرآن ويستهزىء به ، وقد حكى القرآن عن هؤلاء :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..﴿١٦﴾ ﴾ [محمد] يقولون هذا استهانة وسُخْرية من القرآن .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت] فالقرآن واحد كما قلنا ، لكن المستقبل مختلف .

لذلك رأينا الوليد[1] لما هدأت نفسه وأحب أنْ يستمع ، وأحسن استقبال

---

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو عبد شمس ، من قضاة العرب فى الجاهلية ومن زعماء قريش ومن زنادقتها ، ولد ٩٥ قبل الهجرة ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ودفن بالحجون ، وهو والد خالد بن الوليد . [الأعلام للزركلى ١٢٢/٨] .

كلام الله حَنَّ إليه وانفعل به ، فأثّر فيه القرآن وهو ما يزال على الكفر .

فقال : والله لقد سمعتُ كلاماً ما هو بسحر ، ولا بشعر ، ولا كهانة ، والله إنَّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه[1] .

وتأمل أول تأثير للقرآن فى نفس هذا الرجل وما يزال على كفره ، وكيف عبَّر عنه هذا التعبير الرائع الجميل : إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق .

فشبَّه القرآن بالشجرة المثمرة من أعلى ، والخضراء النضرة من أسفل ، والمعروف أن الشجرة تثمر من أعلاها ، فى حين يكون أسفلها ورقاً جافاً يتساقط ، أما القرآن فهو خير كله ، عطاء كله فى كل حرف من حروفه .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[2] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ[3] ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٤٩٩/١) والشامى فى سبل الهدى والرشاد (٤٠٨/٩) . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٨٣١) والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٠٥) وكذا فى شعب الإيمان (١٢٦) من حديث ابن عباس .

(٢) الريح الصرصر فيه ثلاثة أوجه :
أحدها : باردة . قاله قتادة والضحاك .
الثانى : شديدة الهبوب . قاله ابن زيد .
الثالث : التى يُسمع لهبوبها صوت . [ذكر هذه الأقوال الماوردى فى تفسيره] .

(٣) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية : « معنى الكلام كأنهم أصول نخل منقعر أى منقلع .. وقال مقاتل : شبههم حين وقعوا من شدة العذاب بالنخل الساقطة التى لا رؤوس لها ، وإنما شبههم بالنخل لطولهم » .

القرآن يُعدِّد للمكذبين برسول الله والمعادين لدعوته ، يُعدِّد لهم الأمم المكذِّبة على مرِّ التاريخ كلمهم عن قوم نوح وما حلَّ بهم ، ثم يُحدِّثهم عن قوم عاد ماذا فعل بهم لما كذّبوا رسولهم هوداً عليه السلام .

وعاد هى التى فى الأحقاف جنوباً ، وكانت لهم حضارة عظيمة قال الله عنها : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⟨٦⟩ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⟨٧⟩ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⟨٨⟩﴾ [الفجر] إذن : هى أعظم من حضارة الفراعنة فى مصر ، والحضارة الفرعونية أذهلت العالم كله ، ومع التقدم العلمى الآن لم يصلوا إلى أسرار هذه الحضارة ، وما تزال الأهرامات عجائب لم تُعرف أسرارها حتى الآن .

وحضارة عاد كانت أعظم منها ، لكنها مطمورة تحت التراب لأنها بيئة صحراوية تكثر فيها العواصف والرمال فطمرها مرور الزمان عليها ، لذلك قالوا عن رمال الأحقاف أنها يمكن أنْ تطمر قافلة كاملة إذا هبَّتْ عليها العاصفة ، لذلك نجد آثار هذه الأمة التى أهلكها الله تحت طبقات الثرى .

وقال فى عاد كما قال فى قوم نوح ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ⟨١٨⟩﴾ [القمر]

فالعذاب لم يأتهم فجأة ، ولم يأخذهم ربهم على غِرَّة إنما قدَّم لهم الإنذار على يد نبيهم هود عليه السلام ، لكنهم لم ينتفعوا به. ومن أنذر فقد أعذر .

ثم يبين سبحانه كيف أهلكهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ⟨١٩⟩﴾ [القمر] الصرصر هى الريح شديدة البرودة ، يصاحبها صوت مزعج يزلزلهم .

وفى آية أخرى سمَّى هذا الصوت (الصيحة) والصيحة تكون مصحوبة إما بريح شديدة تدمر أو نار حامية تحرق ﴿فِي يَوْمِ

نَحْسٍ ..(١٩)﴾ [القمر] يوم شؤم ودمار ﴿مُّسْتَمِرٍّ (١٩)﴾ [القمر] أى : استمر عليهم مدة قدَّرها الله حتى أهلكهم عن آخرهم .

ومعنى ﴿تَنزِعُ النَّاسَ ..(٢٠)﴾ [القمر] أى : أن هذه الريح الشديدة كانت تنزعهم من أماكنهم وتقتلعهم ، وترمى بهم ، وتطيح بمتاعهم .

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)﴾ [القمر] تعرفون أصل النخلة حينما يُقطع جريدها ، ثم تُجز من الأرض وتقتلع ، فكأن الريح لشدتها تقتلعهم من أصولهم ، وتأخذهم من بيوتهم ، وترمى بهم كما تُقتلع النخلة من جذرها .

ثم يكرر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ [القمر] كررها ليُكرر العظة ، ولأن العذاب النازل بهؤلاء متنوع يأخذ كلاً منهم بما شاء من ألوان عذابه وانتقامه ، وهذه من طلاقة القدرة فى الجزاء ، فلله تعالى طلاقة قدرة فى النعمة ، وكذلك له سبحانه طلاقة قدرة فى النقمة .

قال سبحانه : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يعيد السياق ويكرر أيضاً :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾

ليؤكد على هذه الحقيقة ، وهى تيسير القرآن ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾ [القمر] كأنه يلتمس واحداً يتعظ ، ياناس ألاَ من مُتذكر معتبر بما فى هذا القرآن من آيات ؟

(١) حاصباً : حصبه قذفه بالحصى . والحاصب إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا
نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾

يُحدثنا الحق سبحانه عن قوم سيدنا صالح عليه السلام وهم ثمود ، ومساكنهم هي مدائن صالح قريباً من المدينة ، وقال ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القمر] جمع نذير وهو الرسول ، وقد خاطب الله نبيه بقوله : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فاطر] ما أنت إلا نذير .

وجاء بصيغة الجمع هذه لأن الذى يكذب برسوله كأنه كذّب بجميع الرسل ، لأن هدفهم واحد ، ومنهجهم واحد ، ينتهى إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران] فالرسول عليه أنْ يوصى قومه إذا جاءهم رسول جديد بمثل المنهج الذى جاء به - يوصى قومه أن يتبعوه ، وأنْ يؤمنوا به وينصروه .

فالعادة أن القوم يتعصّبون لرسولهم ، فيعلمهم أن الهدف واحد والمنهج واحد ، فإنْ جاءكم مَنْ هذه صفته فاتبعوه ولا تصادموه ، فكلنا نأخذ من مشكاة واحدة .

ثم يذكر سبحانه صيغة التكذيب التى نطق بها القوم ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر] وهذا القول شبيه بقول قريش : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

فثمود تستنكر أنْ يتبعوا رجلاً واحداً منهم هو سيدنا صالح وهو بشر ،

فاعـترضـوا على كونه بشـراً وعلى كونـه رجلاً واحداً ، إذن : مـاذا تريدون ؟ يريدون جماعة تتعاون فى حمل هذه الرسالة بحيث يعدل بعضـهم لبعض .

والواقع أن النبـى لا يأتى بشىء من عنده ولا من عـند غـيـره ، إنما يأتى بوحى من الله ، وشبهة البشرية فى النبى أو الرسول مردود عليها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الانعام] ثم إن الملك لا تحدث به القدوة للبشر .

وقولهم : ﴿ إِنَّا إِذًا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر] أى : إذا اتبعـنا واحداً ﴿ لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر] السُّعُر يُطلق على الجنون ، ويُطلَق على سعير النار[1] .

وقولهم : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ..﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر] استفهام يقصدون منه التعجب والاستنكار لهذا ، فكيف يُلقى إليه الذكر وتنزل عليه الرسالة من دوننا ، وهم بهذا القول يسوُّون بينهم وبين نبى الله صالح ، فالنبوة ليستَ مجالاً للمساواة ، لأن الله تعـالى يصطفى لها مَنْ يشاء من عباده ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الانعـام] ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج]

ثم يتعـدَّوْنَ مرحلة الاستنكار إلى الاتهام صـراحةً بالكذب ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر] والكذَّاب هو الذى يقول خلاف الواقع ، وهذا اتهام باطل لأن سيدنا صـالحاً لم يخبرهم بشىء مخالف للواقع أبداً .

﴿ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر] شديد البطر والتكبُّر والتعالى ، يعنى : أنه لم يقنع بما هو فـيه ، ولم يرضَ بما عنده ، بل يريد أنْ يسـتعلى علينا ،

---

(١) سُعُر : السُّعر الجنون . وبه فسر الفارسى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر] قال : لأنهم إذا كـانوا فى النار لم يكونوا فى ضلال لأنه قـد كشف لهم ، وإنمـا وصف حالهم فى الدنيا ، يذهب إلى أن السُّعر هنا ليس جمع سعير الذى هو النار . [لسان العرب – مادة : سعر] .

ويجعل نفسه رئيساً فى قومه ، والجمع تابع له .

فيردُّ الله عليهم : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا .. (٢٦) ﴾ [القمر] أى : يوم القيامة والجزاء ، وكلمة الغد تطلق على المستقبل القريب ، وهو اليوم الذى يلى يومك الحاضر ، لكنه قال عن القيامة غداً ، لماذا ؟

لأنها فى الواقع قريبة منا بالفعل ، فليس بينك وبينها إلا أنْ تموت .

لذلك قال عنها : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾ [الأنبياء] وقال هنا : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١) ﴾ [القمر]

﴿ مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر] وهذا تهديد لهم وردّ للتهمة عليهم ، بل أنتم الكذابون وأنتم الأشرون ، لأنكم كرهتم صالحاً وحسدتموه ، لأن ربه اختاره للنبوة من بينكم ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، فكان ينبغى عليكم أنْ تُصدِّقوه لا أنْ تُصادموه .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ(١) (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى(٢) فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ(٣) الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾

---

(١) محتضر : أى كل نصيب من الماء يحضره صاحب نوبته ، أو كل وقت للشرب يحضره صاحبه فى موعده المحدد له ، وكان النبى صالح قد طالب قومه بأن يتركوا لناقته يوماً تشرب فيه ولهم يوم آخر معلوم يشربون فيه فلم يرعوا ذلك وعقروا الناقة فغضب الله عليهم وسوّى بهم الأرض وأهلكهم .

(٢) فتعاطى : أى تصاول على الناقة وهى واقفة وتناولها فعقرها ونحرها ، ويتضمن معنى تجرُّأ عليها واعتدى عليها . [القاموس القويم ٢/٢٦] .

(٣) هشيم المحتظر : الهشيم ما يبس من الورق وتكسَّر وتحطم ، فكانوا كالهشيم الذى يجمعه صاحب الحظيرة أى قد بلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب – مادة – هشم] . والمحتظِر (بكسر الظاء) الذى يعمل الحظيرة . والمحتظَر (بفتح الظاء) أى الحظيرة .

الناقة هى الآية التى جاء بها سيدنا صالح ، وهى آية ظاهرة مشاهدة اقترحوها بأنفسهم ، فقالوا لنبيهم : أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة[(١)] ، وبالفعل خرجتْ الناقة من الصخرة بشكل معجز .

فقال تعالى : ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ..(٢٧)﴾ [القمر] أى : اختبار وامتحان لهم ، أيؤمنون بالله أم يكفرون ؟ ﴿فَارْتَقِبْهُمْ ..(٢٧)﴾ [القمر] انظر ماذا يكون ردّ فعلهم ؟ ﴿وَاصْطَبِرْ (٢٧)﴾ [القمر] اصبر على عنادهم ، واصبر على أذاهم وتكذيبهم ولا تتعجل فى دعوتهم .

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ .. (٢٨)﴾ [القمر] وما دام أنها معجزة فلها وضع خاص فى طعامها وشرابها ، وقد أوضح لهم أن الماء الذى يشربون منه قسمة بينها وبينهم .

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨)﴾ [القمر] كل منهما يحضر مَشْربه ويلتزم بدوره ، فهم يشربون فى يومهم ، ولا يقربون الماء فى يوم شُرْبها ، ثم يوم لا يشربون من الماء تعطيهم الناقة من لبنها ما يكفيهم ويُغنيهم عن الماء فى هذا اليوم .

وفى سورة الأعراف تحدثتْ الآيات عن أكلها : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [الأعراف]

لكنهم ما فهموا هذا التحذير ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. (٧٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير آية الأعراف ٧٣ : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر ، يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض » .

وما صدقوا بهذه الآية فتواطئوا على قتل الناقة وتمالئوا على ذلك ، فقام رجل أحمق منهم شرير طائش ، كما نقول (بلطجى) قالوا عنه : أحيمر ثمود ، واسمه كما ذكر المفسّرون قيدار بن سالف .

والدليل على أنه أحد سفهاء القوم وأشقيائهم أنه لما أراد عقر الناقة لم يكُنْ معه شيء يعقرها به ، فخطف سيفاً من أحدهم فعقرها ، وحملوا جميعاً تبعة هذا الفعل لأنهم اتفقوا عليه وتعاونوا .

فلما فعلوا ذلك استوجبوا أنْ ينزل بهم العذاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ..(٣١)﴾ [القمر] الصيحة هى الصوت المزعج المدمر . قالوا[1] : صيحة صاحها جبريل فكانت كافية لإهلاكهم وإبادتهم .

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ [القمر] شبَّهم الحق سبحانه بالهشيم ، وهو القشّ المفتّت الذى تذروه الرياح ﴿الْمُحْتَظِرِ(٣١)﴾ [القمر] هو الفلاح[2] الذى يصنع بهذا القش حظيرة لمواشيه ، إذن : لما حلَّت بهم هذه الصيحة أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، وجعلتهم فتاتاً كالهشيم .

ثم تكرر الآيات :

---

(١) قال الطبرى فى تفسير سورة هود آية ٩٤ : « قيل : إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة أخرجت أرواحهم من أجسامهم »

وقد ذكر الماوردى فى تفسيره ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن جبريل عليه السلام صاح بهم .

الثانى : أن الله تعالى أحدثها فى حيوان صاح بهم .

الثالث : أن الله أحدثها من غير حيوان .

(٢) فى الصحاح : المحتظر الذى يعمل الحظيرة . وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية (المحتظَر) بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . وقرأ الباقون بكسر (الظاء) أرادوا صاحب الحظيرة .. فمن كسره جعله الفاعل ، ومن فتحه جعله المفعول به . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٥٤٢] .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

نلاحظ أن السياق يذكر هذه الآية ويأتى بذكر القرآن بعد كل حديث عن أمة من الأمم المكذبة ، ذلك لأن القرآن هو الكتاب الخاتم والمهيمن على كلِّ الكتب قبله كما قال تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ..﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(١) ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ثم عاد ثم ثمود تُحدِّثنا هنا عن إخوانهم من قوم لوط ، فهذه الأمم جمعهم شيء واحد هو تكذيب رسل الله ، لذلك نلاحظ على الأداء القرآنى أنه يقول فى كل أمة من هذه الأمم أنها كذبت ﴿ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القمر]

وقلنا : النُّذر جمع نذير وهو الرسول لأن الذى يُكذِّب برسول واحد كأنه كذَّب بكل رسل الله ، لأن هدفهم واحد ومنهجهم واحد والآيات هنا تنقلنا مباشرة إلى مشهد العقاب والانتقام .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ..﴿٣٤﴾ ﴾ [القمر] الحاصب هى ريح قوية

---

(١) السَّحَر : بفتح السين والحاء ، الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحار . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

تهبُّ عليهم وترميهم بالحصباء ، وهى حجارة صغيرة مُهلكة أمطرهم الله بها .

﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر] فلم يستثْنِ من هذا العذاب إلا آل لوط ، أى أهله والمؤمنين به ﴿بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر] أى : فى وقت السحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ..(٣٥)﴾ [القمر] أى : نجاة لوط وأهله والمؤمنين به ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ (٣٥)﴾ [القمر]

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ(١) (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾

أى : لوط عليه السلام ﴿أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا .. (٣٦)﴾ [القمر] حذَّرهم عذابنا وأخْذتنا القوية لمن كذَّب بالرسل ، وفى آيات أخرى تفصيل لهذه القصة وبيانٌ لمناقشة سيدنا لوط لقومه : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾ [هود]

---

(١) تماروا : تجادلوا وتشككوا فيه ، ويتضمن معنى التكذيب . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر] أى : تشككوا وكذبوا . [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

لكنهم كـذّبوا لوطاً ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر] لما أنذرهم بطشتنا تمادوا أى : شككوا فيها وكـذَّبوا بها ، ثم تمادوا فى الفاحشة التى يرتكبونها ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ..(٣٧)﴾ [القمر] أى : ضيوف سيدنا لوط عليه السلام .

وكلمة ضيف تُطلق على المفرد والجمع معاً ، لأن الضيف إذا جاءك واحد أو اثنان أو جماعة فإياك أنْ تميز ضيفاً على ضيف ، بل تجعلهم كضيف واحد ، لذلك تحدث عنهم السياق القرآنى فى أكثر من موضع بصيغة المفرد .

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر] وقال : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات] وضيف إبراهيم لم يكُنْ واحداً ، بل كانوا جماعة .

ومعنى ﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ..(٣٧)﴾ [القمر] طلبوا منه أنْ يترك لهم ضيوفه يفعلون بهم ما يريدون من الفاحشة التى فشتْ فيهم ، لأنهم رأوا أمامهم أناساً على أجمل ما يكون ، فأول ما يخطر ببالهم هو هذا الفعل الفاضح الذى يفعلونه .

ولا يعلمون أن هؤلاء ليسوا بشراً بل هم ملائكة ، لذلك تدخلت السماء فوراً تدافع عن لوط عليه السلام وتحفظ كرامته .

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ..(٣٧)﴾ [القمر] قالوا : أعماهم الله وأخذ أبصارهم ، وقالوا : بل طمس الله عيونهم فى وجوههم كأنْ لم تكُنْ وليس لها أثر فى وجوههم .

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾ [القمر] نلاحظ أن السياق فى الحديث عن الأمم السابقة كان يختم الحديث بقوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ

(٣٠) ﴾ [القمر] أما هنا مع قوم لوط فقد وجّه الحديث إليهم هم ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] أى : ذوقوا ما تستحقونه من العذاب ، وكلمة ذوقوا فيها سخرية منهم واستهزاء بهم ، هذا لِكِبَر جرمهم وبشاعة فعلتهم .

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) ﴾ [القمر] صبَّحهم العذاب أى نزل عليهم فى الصباح الباكر ، كما قال سبحانه :﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾[الصافات] ولنزول العذاب على المكذِّبين فى الصباح خاصة لحكمة ، لأن الصباح الباكر غالباً يكون الناس نائمين أو قائمين من نومهم .

وحين ينزل العذاب فى هذا الوقت يفاجئهم فلا يستطيعون تفادى ما ينزل بهم ، وهذا أنكى وأشدّ عليهم ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] وأيضاً يأتى بذكر القرآن : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر]

لأن كل قصة من قصص هؤلاء المكذِّبين فيها عبرة ، فيكرر مع كل قصة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾ [القمر] أى : متعظ معتبر من هؤلاء .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾

يحدثنا هنا عن جماعة أخرى من المكذِّبين هم قوم فرعون ، فقد كذَّبوا سيدنا موسى عليه السلام وكذَّبوا ما جاء به من الآيات البينات ، وهى الآيات التسع التى جاء بها : العصا واليد .. وغيرها .

فكانت النتيجة ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] والأخْذ فى الأصل الجذب بشدة ، فالأخْذة إذن تتناسب وقوة الآخذ ، والأخذة هذه لله تعالى فهى شدة ، ثم أضيفتْ إلى صفتين لله تعالى ﴿ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] العزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو الذى يملك القدرة المطلقة التى لا تنفد .

وقلنا : إن مهمة موسى عليه السلام مع فرعون أنْ ينقذ بنى إسرائيل من قبضته ، ومن العذاب الذى يتعرضون له من آل فرعون ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ..﴿٤٧﴾ ﴾ [طه]

كانت هذه هى المهمة الأساسية ، ثم جاتْ دعوة موسى لفرعون على هامش هذه المهمة ، فأخذ يدعوه إلى الله ويشرح له العقائد وأمور الدين .

وسبب العداء بين الفراعنة وبنى إسرائيل أن ملوك الهكسوس(١) لما دخلوا مصر عاونهم بنو إسرائيل وساعدوهم وأعانوهم على الفراعنة ، وكان بنو إسرائيل فى هذا الوقت هم مَنْ تبقى من قوم سيدنا يوسف فى مصر .

فلما تغلب الفراعنة على الهكسوس وطردوهم من مصر رجعوا إلى بنى إسرائيل بالمعاملة السيئة وساموهم سوء العذاب ، فأرسل الله تعالى سيدنا موسى لا ليدعو فرعون وقومه ، بل ليستخلص بنى إسرائيل من هذا العذاب .

---

(١) الهكسوس : كلمة من المصرية القديمة تعنى الملوك الرعاة (هكاسوس) وهو شعب سامى بدوى غزا أرض شمال مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحكمها لأكثر من ٢٥٠ سنة ، حكموا الدلتا حكماً مباشراً ، أما مصر العليا (طيبة) وبلاد النوبة فكانتا تخضعان لهم اسمياً وتؤديان نوعاً من الجزية السنوية طيلة قرن ونصف إلى ملك الهكسوس فى عاصمته زوان . [موسوعة ويكيبيديا] .

وتعرفون قصة خروج سيدنا موسى ببنى إسرائيل ، وأن فرعون تبعه وجنوده ، وما كان من حادثة انشقاق البحر ونجاة موسى وبنى إسرائيل بمعجزة بينة واضحة ، لما ضرب البحر بالعصا فانفلق فكان كل فرْق كالطود[1] العظيم .

قالوا : أنهم لما نجوا من فرعون ونجوا من الغرق مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا : ﴿ يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف] قال المفسرون : أنهم طلبوا من موسى هذا المطلب وما تزال أقدامهم مبللة من عبورهم البحر[2] .

إذن : كذَّبوا بالآيات فى وقت كانوا فيه أجدر وأحق أن يؤمنوا بالله الذى أنجاهم وأنقذهم من العذاب .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ[3] (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . وفى حديث عائشة تصف أباها أبا بكر الصديق : ذاك طود منيف أى جبل عالٍ . [لسان العرب مادة : طود] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال] أن رجلاً يهودياً لقى ابن عباس فقال اليهودى : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال اليهودى : أنت من القوم الذين قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال] فهلا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له إن هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلى من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه وأنجى موسى وقومه حتى قالوا : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فقال لهم موسى : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) ﴾ [الأعراف] فأطرق اليهودى مفحماً » .

(٣) الزبر : زبر الكتاب كتبه فهو مزبور وزبور أى مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء] أى كتاباً وجمعه زبر . [القاموس القويم ١/ ٢٨٣] .

بعد أنْ قصّ علينا القرآن قصص الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ، ثم عاد قوم هود ، ثم ثمود قوم صالح ، ثم قوم لوط يعود إلى كفار مكة الذين كذّبوا بمحمد وعاندوه ووقفوا في وجه دعوته ، عاد ليقول لهم : هذا موكب الرسالات على مرِّ العصور قبلكم وحال المكذبين الذين سبقوكم .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر] كفار مكة ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر] خير من هؤلاء المكذبين الذين نزل بهم انتقام الله وعذابه ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر] أم أعطاكم الله عهداً أنه لن يعذبكم كما عذبهم ، ويترككم بدون عقاب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القمر] أى : جميع المكذبين سيُكتب لهم النصر والغلبة ، فهم إذن مغترُّون بجمعهم واجتماعهم على الباطل ، وأن هذا الجمع سيضمن لهم الغلبة .

إذن : القرآن نزل يناقش كفار مكة ويُقنعهم ، فخيَّرهم بين هذه الثلاثة الأمور : أأنتم خيرٌ من المكذِّبين قبلكم الذين أهلكهم الله ؟ أم عندكم براءة وعهد فى الكتب السابقة أن الله لن يعذبكم ؟ أم أنَّ جمعكم وكثرتكم ستغنى عنكم ؟

وهذه الثلاثة مردود عليها بالنفى ، فليستْ لكم خيرية على سابقيكم ، وليستْ لكم براءة من العذاب ، لأن الله تعالى لم يُعْطِ براءة لأحد ، ولم يُرخِّص فى تكذيب رسله .

بقيتْ الثالثة ، فقال فيها ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] هذا الجمع الذى تغترون به سيُهزم[1] .

(١) قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٤٦] .

ونزلت هذه الآية في وقت كان الكفار أشدَّ ما يكونون على المسلمين ، والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، لذلك عندما سمع سيدنا عمر هذه الآية قال : أيُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا وتأمين حياتنا[1] ؟ فلما حدثتْ غزوة بدر وهزِم الجمع فعلاً قال : نعم صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

لذلك ساعة ترى القرآن يُسجِّل على نفسه هذه الحقائق بصيغة المستقبل فاعلم أنها حق ، ولا بد أنْ تحدث ، لأن القرآن يُسجلها ويحفظها ، والعادة أن الإنسان يحفظ ما له لا ما عليه ، مثل (الكمبيالة) يحفظها صاحبها لا مَنْ أخذت عليه (الكمبيالة) .

فالقرآن هو الذى حفظ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] ولا يمكن أنْ تأتى الأحداث بما ينقض هذا الحكم ، كما قال سبحانه ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] فطالما توفرتْ الجندية لله تعالى توفر لها النصر ، فإنْ خالفوا شروط الجندية خالفهم النصر ، كما رأينا فى أُحُد لما خالفوا أمر رسول الله[2] .

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] يفرون منهزمين ، وهذا فى الدنيا ، أما عقاب الآخرة فشىء آخر ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ.. ﴿٤٦﴾﴾ [القمر]

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتا بالسيف وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] وكانت ليوم بدر . ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣ ، ١٧٨٥٩) من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه .

القيامة موعد الجزاء والعقاب ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] نعم أدْهى أشد داهية وأفظع من عقاب الدنيا .

﴿وأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] أشد ألماً ومرارة مما عانوه فى الدنيا ، لأن داهية الدنيا لها نهاية ومصيبتها تُجبر ، أما الآخرة فهى الطامة الكبرى التى ليس لها نهاية ولا جبر .

والعجيب هنا أن سيدنا رسول الله وقف فى الميدان قبل الحرب وأخذ يشير بعصا بيده ويقول : هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان يقصد صناديد[1] قريش ، وفعلاً قُتل هؤلاء فى نفس الأماكن التى أشار إليها سيدنا رسول الله ، انظر إلى هذه الثقة فى نصر الله لرسوله ، فهو يُخبر بهذا ولا يخاف أنْ يُكذِّبه واقع المعركة وهى كَرٌّ وفَرٌّ ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يتوقع ما يحدث بهذا التفصيل وبهذه الدقة . لكنه إخبار مَنْ لا ينطق عن الهوى .

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾

نعم ﴿فِي ضَلالٍ ..﴿٤٧﴾﴾ [القمر] لأنهم عرفوا الحق فلم يتبعوه ﴿وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر] السُّعُر يأتى على معنيين : إما نار مُسعرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٣٠ ، ٥١٢٠) وأبو داود فى سننه (٢٣٠٦) والنسائى فى سننه (٢٠٤٧) وأحمد فى مسنده (١٧٧ ، ١٢٨١٩ ، ١٣٢٠٧) قال : إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله . فقال عمر : فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ ، فجُعلوا فى بئر بعضهم على بعض » الحديث .

مشتعلة أو السُّعُر يعني الجنون ، والآية التى بعدها ترجح أن تكون بمعنى النار المستعرة .

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ..(٤٨)﴾ [القمر] أى : يوم القيامة يُسحب هؤلاء المجرمون على وجوههم فى النار ، والوجه أكرم ما فى الإنسان . لذلك يحاول الحفاظ عليه ويُجنِّبه الأذى ، فهو عنوانه وأعزُّ ما فيه ترتفع إليه اليدان تلقائياً ، ودون أنْ تفكر لتحمى وجهك أولاً لو مرَّتْ مثلاً بجانبك سيارة و (طرطشت) عليك الماء .

إذن : منتهى الذلة والإهانة فى هذا الموقف يوم يُسحبون فى النار على وجوههم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ [القمر] كلمة ذوقوا فيها استهزاء بهم وسخرية منهم ، وقال ﴿مَسَّ .. (٤٨)﴾ [القمر] لأن مسّها كافٍ لأنْ يذيقهم العذاب والإهانة ﴿سَقَرَ (٤٨)﴾ [القمر] اسم من أسماء النار . وقيل : وادٍ فى جهنم .

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾

الضمير فى ﴿إِنَّا .. (٤٩)﴾ [القمر] للحق سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر] كل شىء فى الكون صغيراً أو كبيراً من الذرة إلى المجرة ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر] بحساب دقيق وقدر مقدور من الله تعالى القادر على إنفاذ ما قدّره ، لأنه سبحانه إله

واحدٌ لا شريكَ له ، وليس هناك قوة تغير الذى قدَّره وقضاه .

لذلك قلنا فى شهادة أن لا إله إلا الله : أن هذه الشهادة قبل أنْ يشهد بها الخَلْق شهد بها الخالق لنفسه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ..(١٨)﴾ [آل عمران] ولولا هذه الشهادة لم يكُنْ فى جرأة أن يقول للشيء : كن فيكون ، لأنه سبحانه وتعالى لو كان له شريك لكان بإمكانه أنْ يقول للشيء : لا تكُنْ .

إذن : الخَلْق كله الله وحده والأمر له وحده ، لذلك قال سبحانه عن الأرض وهى خَلْق من خَلْق الله : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : سمعتْ وأنصتت لتلقى الأمر .

وفى قصة أم موسى قال لها الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (١)وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

الحق يُطمئن أم موسى ويُعطيها هذا الوعد أنه سينجو ، بل وسيكون من رسل الله ، لأن البحر بحره وخلقه يأتمر بأمره أنْ يحفظ هو الوليد ، وأنْ يُلقى به فى مكان كذا .

إذن : الحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله غيره ، ثم قضى قضاءه فى كونه قضاءَ مَنْ يرى أنه لا إله غيره ، ولا أحدَ ينقض أمره ، وبعد أنْ قالها سبحانه لم يكذبها الواقع أبداً .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره : اليم البحر . وأراد هنا النيل . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) : « يقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء » .

لذلك قلنا : أول دليل على الإيمان بالله أنه تعالى هو الذى أخبر أنه وحده الخالق ، ولم يقُمْ له منازع ، لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] أى : أننا لا نكرر الأمر لأن أمرنا نافذ ، فيصدر مرة واحدة ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل]

هكذا كلمة واحدة من حرفين (كن) فيستجيب على الفور (فيكون) والفاء للترتيب والتعقيب . وقال سبحانه ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ..(٢١)﴾ [مريم] وقال : ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾ [إبراهيم]

وتأمل هنا سرعة الاستجابة فى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] واللمح هو الرؤية الخاطفة التى ليس لها ثبوت ، والحق سبحانه يشبه سرعة الاستجابة بأسرع شىء وأعجل شىء يعلمه الإنسان وهو لمح البصر .

فهذه الأشياء مخلوقة لله وتعرف خالقها وتسرع بالاستجابة لأمره ولا يشذ منها شىء لأنها مُستجيبة طائعة بالفطرة ، قال تعالى :﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ[1] فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾

---

(١) أشياعكم : أى أمثالكم من الأمم الماضية ومن كان مذهبه مذهبهم . [لسان العرب – مادة : شيع] .

الخطاب لكفار مكة ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ..(٥١)﴾ [القمر] أهلكنا أمثالكم ومَنْ على ملتكم من العناد والتكذيب ومصادمة الرسل على مرِّ عصور الرسالات.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١)﴾ [القمر] متعظ معتبر من دروس التاريخ ومن سنة الله فى الرسالات .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ..(٥٢)﴾ [القمر] من التكذيب ﴿فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾ [القمر] مسجل في الكتب مسطور محفوظ ليكون حجة على صاحبه ، قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

وإذا كنا الآن نشاهد الأحداث بالصوت والصورة وبكل تفاصيلها ، فلم نستبعد ذلك على قدرة الله ؟ فالعقل الذى ينظر فى التطور العلمى و(التكنولوجى) فى مجال تسجيل الصوت والصورة لا بدّ أنْ يصل إلى الإيمان بالحفظَة الذين يسجلون الأعمال .

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾ [القمر] مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(١) (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

---

(١) ذكر هنا (نهر) بالمفرد وهو يقصد الجمع أى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ودليله قوله تعالى : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٧)﴾ [الفتح] . وقال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ..(١٥)﴾ [محمد] وظاهر هذه الآية أنها ليست أربعة أنهار ، بل هى أنهار من كل صنف .

وقال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٤٩) : « وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة (ونُهُر) بضمتين » .

هذه هى خلاصة الأمر ، والغاية التى ينبغى أنْ نسعى إليها ، وهى تحقيق التقوى التى تؤدى بنا إلى جنات ونهر . فلم يقل جنة بل للمتقى جنات ، وكذلك ﴿ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [القمر] أى : أنهار .

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر] مقعد مكان القعود أو مجلس صدق ، لأن الإنسان قد يجلس مجلساً بالصدق أى مجلس خير هو أهْل له ويستحقه ، وآخر يجلس مجلس شر مجلساً بالباطل ، لا يستحقه وليس أهلاً له .

فالمؤمن الذى حقق التقوى أهْلٌ لأنْ يجلس هذا المجلس ويسعد به ، لذلك نجد حينما نستقصى كلمة الصدق هذه فى القرآن نجدها مطلباً ودعاء لأهل الإيمان ، اقرأ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

فإذا أردتَ أنْ تدخل فى عمل فاطلب من الله وادْعُه أنْ يُدخلك فيه مدخلاً صحيحاً نافعاً ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] بحيث يُعينك عليه فتؤديه بحقٍّ وتؤديه بإخلاص ، وتؤديه على الصورة التى يرضاها الله ورسوله .

كذلك فى الخروج من العمل ، ادْعُ الله أنْ يُخرجك منه مخرج صدق ، وأنْ يُتمه لك على الصدق الذى بدأتَ به .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء] اللسان هنا يُراد به الذكر والمدح ، فسيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو الله أنْ يجعل الثناء عليه ، ومدحه بالصدق وبالحق لا بالباطل ، يريد أنْ يكون أهلاً للمدح لا أنْ يمدح كذباً أو نفاقاً يقول : اجعلهم يمدحوننى صدقاً لا كذب ، وبواقع ما عندى من

الخير الذى تتناقله عنى الأجيال .

إذن : مَنْ يحرص على الصدق فى الدخول ، والصدق فى الخروج ، والصدق فى المدح والثناء ، مَنْ يحرص على الصدق فى حياته ينتهى به إلى الصدق فى الآخرة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ..(٥٥)﴾ [القمر] أين ؟ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

ووالله لو كان هذا المقعد عند ملك من ملوك الدنيا لكان عزاً وشرفاً ، فما بالك إذا كان هذا المقعد عند الله المليك : أى الذى يملك الملوك وما تملك الملوك .

اللهم أنِلْنَا هذه الغاية وألهمنا جميعاً فى قلوبنا العقيدة الصحيحة ، وأعِنْ جوارحنا على تنفيذها تنفيذاً صحيحاً على وفق سنة سيدنا رسول الله ، ليأخذ بأيدينا جميعاً إلى حضرته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . آمين .

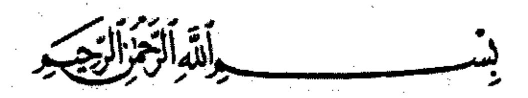
كلمة ﴿ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] من أسمائه تعالى المقتدر وتدل على القوة والبطش .

ومن سمات الأسلوب القرآنى أنْ يجمع بين المعنى ونقيضه ، لأن الضدَّ يُظهر حُسْنه الضدُّ .

ولما انتهتْ هذه السورة باسم المقتدر بدأت الرحمن بقوله تعالى : (الرَّحْمَن) فنقرأ : ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] فالمليك المقتدر هو الرحمن .


سورة الرحمن

سورة الرحمن(١)



﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ﴾

الرحمن : اسم من أسماء الله الحسنى ، وهى من صفة الرحمة ، وتعنى إسداء النعم وإنْ كان المنعَم عليه لا يستحقها ، لذلك علّمنا أنْ نقول حينما نقبل على الأعمال « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنك ربما كنتَ عاصياً وتستحى أنْ تُقبل على العمل باسم مَنْ تعصاه ، فيقول لك : قُلْها لأننى أنا الرحمن .

والمبالغة فى الرحمة تأتى بمعنيين : مبالغة فى ذات الصفة أى رحمة واسعة ، ومبالغة تأتى من تعدُّد الرحمات بتعدُّد المرحومين ، يعنى : لا رحمةَ تغنى عن رحمة .

---

(١) سورة الرحمن هى السورة رقم (٥٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية فيها هى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ..۝٢٩ ﴾ [الرحمن] . وقال ابن مسعود ومقاتل : هى مدنية كلها . قال القرطبى في تفسيره (٩/٦٥٥١) : « القول الأول أصح » . عدد آياتها ٧٨ آية .

وهذا هو معنى الرحمن أى الذى تعمُّ رحمته المؤمنَ والكافر أيضاً ، حيث لم يضنّ عليه لو أخذ بالأسباب ، كما قال سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى] فكأن العصاة والكفار ينعمون فى الدنيا بحضانة كلمة (الرحمن).

إذن : فالحق سبحانه رحمان الدنيا ، أما الرحيم ففى الآخرة ، لذلك يقولون رحمان الدنيا ورحيم الآخرة لأن رحمته تعالى فى الآخرة لا ينالها إلا مؤمن ، وليس للكافر نصيب منها .

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾

أى : نزّله على رسول الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير]

إذن : جاء العلم من السماء لا من الأرض ، والعلم هو معرفة قضية تعود على الإنسان فى سلوكه بالخير المطلق ، أما العلم إنْ جاء من الأرض خلط بين الخير والشر .

لذلك قلنا : إن الأمية فى ذاتها عيب وضعف ومهانة ، أما الأمية فى حق سيدنا رسول الله فشرف ، لأنها تعنى فى حقه ﷺ أنه لم يأخذ علمه من بشر ، إنما أخذ كلَّ ما يعلم من السماء .

---

(١) ذو مِرَّة : أى ذو قوة ، وأصل المرّة : الفتل . قال المفسرون : وكان من قوته أنه قلع قريات لوط وحملها على جناحه فقلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين . [زاد المسير لابن الجوزى] .

حتى فى الأمة كان من حكمة الله أنْ تكون أمة محمد أمة أمية ، بدو ليس لهم حضارة ولم يُعرف عنهم تقدّم علمى أو غيره من مجالات الحياة ، فلما بعث فيهم رسول الله أقام لهم حضارة جديدة ، وجعل لهم قوة دكّتْ حضارة الفرس والروم فى وقت واحد .

وهذا يعنى أن قوتهم جاءت من هذا الدين الذى جاء من السماء ، وأخذ تعاليمه لا من البشر بل من ربِّ البشر .

والعجيب أن الحق سبحانه قدَّم ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] على ﴿ خَلَقَ[1] الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] ليعلمنا أهمية العلم ووَضْع المناهج والأسس قبل أنْ نُقدم على العمل ، فقبل أنْ يخلق الإنسان وضع له منهج حياته ، مثل الذى يصنع صنعة فيضع لها (الكتالوج) الذى يضمن صيانتها ، ونحن نرى الآلة تعطب وتفسد إذا لم تُستخدم وفق المنهج الذى يصلحها ، كذلك الإنسان لا يصيبه العطب إلا إذا خالف منهج ربه .

إذن : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] تعنى : أن وَضْع المنهج سابق على خَلْق الإنسان ، فجاء الإنسان فوجد المنهج الذى يُحدِّد له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا حلال وهذا حرام ، هذا خير وهذا شرّ .

ومن معانى الرحمة فى القرآن أنْ يعتنى الراحم بالمرحوم عناية

---

(١) الإنسان هنا مقصود به أحد ثلاثة :

أولها : أنه اسم جنس فالمعنى خلق الناس جميعاً . قاله الأكثرون .

الثانى : أنه آدم . قاله ابن عباس وقتادة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، علّمه بيان ما كان وما يكون . قاله ابن كيسان . [زاد المسير لابن الجوزى] .

تحفظ له مقوِّمات حياته ، فى سلامة ليس معها عطل ولا عطب ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..(٨٢) ﴾ [الإسراء] قالوا : شفاء للداء الذى يطرأ عليك نتيجة الغفلة عن المنهج ، والرحمة ألاَّ يحدث الداء أصلاً .

وقالوا فى سبب نزول هذه الآيات أن كفار مكة اتهموا رسول الله بأنه يذهب إلى رجل أعجمى يعلمه القرآن ، فقالوا كما حكى القرآن ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم رداً منطقياً ، فقال : ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقال هنا : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] وكيف لرجل أعجمى لا يعرف العربية أنْ يأتى بهذا القرآن الفصيح ، إذن : فالقرآن جاء من العلو ، نزل من السماء لم يخرج من الأرض .

ثم نقف على معنى آخر للرحمن فى قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ .. (١١٠) ﴾ [الإسراء] فجاء بصفة الرحمة بعد صفة الألوهية ، لأن الألوهية تكليف ، والتكليف قد يشقّ على النفس ، فناسب بعدها أنْ يذكر صفة الرحمة .

كأنه سبحانه يقول لك : لا تقلق ، فالذى كلّفك هو الرحمن الذى تسع رحمته الجميع ، وتعم رحمانيته المؤمن والكافر .

وفى مسألة بدء الخلق ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان]

فالحق سبحانه بعد أن خلق الخلق استوى على عرشه تعالى ،

والاستواء يعنى السيطرة واستتباب الأمـر له سبحانه ، فيذكر هنا صفة الرحمـة ليقـول لنا : إنها ليسـت سيطرة قهـر وبطش وجبـروت ، إنما سيطرة رحمانية .

حتى في موقف الآخرة وما فيها من أهوال يذكر صفة الرحمة ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْـمَـٰنِ عَـبْـداً (٩٣) ﴾ [مـريم] الله سبحانه يتحنَّن إلى خَلْقه ويعطيهم الأمل فى عطفه ومحبته لهم .

وهنا جاءت الرحمن آية مـستقلة ﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) ﴾ [الرحمن] لأنها حين تُطلق لا تنصرف إلا إلى الحق سبـحانه ، وتجمع كل هذه المعانى وسيالها السارى فى كل تكليف .

وفى تقديم ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] على ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] تكلموا فى الغـاية والوسيلة أيهـما تسبق الأخـرى ، والمعلوم عـادة أن الغـاية تأتى بعـد الوسـيلة ، فلو أنك تريد الذهاب مـثـلاً إلى الإسكندرية فـأنت تركب وسـيلة مـواصـلات ، وتسلك طريقـاً يُوصلك ، وباستخدام الوسيلة تصل إلى غايتك وهى الإسكندرية .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

أَلاَ مَنْ يُرِينى غـاَيتِي قَبْلَ مذْهَبِـى ... وَمِنْ أيْنَ وَالغَايَاتُ بَعْـدَ المذَاهِبِ

نعم البشـر عاجـزون عن معرفـة الغايات مُقـدماً ، لكن رب البـشر يعرفها مقدماً وأزلاً ، فيخبر بغايتك قبل أنْ تُخلق ، وقبل أنْ تسلك إليها الوسيلة ، وعليـه يمكن أنْ تقدم الغايات على الوسـائل . نقول : أنت لم تسلك السبيل إلى الإسكندرية إلا وهى فى بالك ، فـالغاية موجودة قبل الوسيلة .

ويمكن أنْ نجمع بين الرأيين لو قلنا بأن الغاية أولاً تخطيط ، لأنك تُحدِّد الغاية قبل الشروع فى الوسيلة ، والوسيلة أولاً واقع وتنفيذً . إذن : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ ﴾ [الرحمن] هى الوسيلة التى تُوصلنا إلى الغاية المرجوة ؛ فالوسيلة بعد الغاية تخطيطاً ، ولكن الغاية بعد الوسيلة واقعاً . أو بتعبير آخر : الغاية قبل الوسيلة دافعاً ، ولكنها تأتى بعد الوسيلة واقعاً .

والقرآن كله مقصده العقائد والأحكام والآداب والقصص ، فالعقائد لُبُّها فى القلب ، وهى أنْ تؤمن بإله واحد أحد لا نشرك به شيئاً ، وهذا الإيمان له جناحان هما الخوف والرجاء ، فإذا كنتَ فى خير وأمن وسلامة لا تأمن مكر الله .

وإذا كنتَ فى شدة وبُؤْس لا تقنط من روح الله ، ولو أُشْرِبَ القلبُ هذه العقيدة الصحيحة لَضخَّها إلى باقى الجوارح ، فجاء سلوك الجوارح موافقاً لعقيدة القلب .

وحين تتبع أحكام القرآن وأوامره وآدابه تجد رحمانية (الرحمن) سيالاً عاماً فى كلّ الجوارح ، وأول جارحة فى التكليف هى اللسان ثم الأذن ، لأن اللسان هو المبلِّغ ، والأذن هى التى تتلقى ، والاستقبال الأول من الله تعالى لا بدّ أن يتوفر فيه الصدق والأمانة لأنه مبلِّغ عن الله .

لذلك قلنا فى الثناء على سيدنا رسول الله : الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا أذن الخير التى استقبلتْ آخر رسالات السماء ، ويا لسانَ الصدق الذى بلَّغ عن الحق مراده من الخلق .

وقد أعدَّ الله رسوله محمداً لهذه المهمة ، وجعل فيه من مواصفات التلقى والبلاغ ما يُؤهله لها ، وقد شهد له قومه حتى قبل بعثته ، ورأينا أن الذين سبقوا للإيمان بمحمد قبل أنْ يروا له معجزة تؤيده

آمنوا به لسابقة علمهم بسلوكه وأخلاقه .

لذلك لما عرَّفه الله لقومه قال لهم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى : محمد هذا الذى تعرفونه وتشهدون له ، ولا تختلفون على صدقه وأمانته ، هو رسول الله إليكم فكأن كلمة محمد واسمه ذاته هو حيثية كَوْنه رسولَ الله .

والمنهج القرآنى هو (الكتالوج) الذى يصلح حركة حياة البشر قد جاء بما يحفظ اللسان ، فأمرك بذكر الله وقَوْل الحق ، ونهاك عن قَوْل الزور والباطل واللغو ، وبما يحفظ الأذن ، فأمرك بسماع ما هو خير لك مفيد لحياتك ، ونهاك عن سماع الباطل.

اقرأ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ .. (٦٨) ﴾ [الأنعام] وقال سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

وهكذا تجد المنهج القرآنى يحفظ عليك كلَّ الجوارح بما بيَّنه لك من الحلال والحرام ، والخير الذى أمرك به ، والشر الذى نهاك عنه ، وحين تتأمل فى هذه الأوامر وهذه النواهى تجد أنها مظهر من مظاهر رحمة الله بنا ، وتجد سيال الرحمانية فيها كلها .

فحركة الحياة إنْ قامت على وفق منهج الله ساد الأمن والرخاء ، وحفظ لكلٍّ ذى حقٍّ حقه ، وإنْ قامت على غير هذا المنهج ضاعت الحقوق وعَمَّ الفساد وانتُهِكتْ الأعراض .

فمن رحمة الله أنْ يحرم قول الزور وشهادة الزور[1] ، لأنها تنقل الحق لغير صاحبه وتحرم صاحب الحق من حقه ، وتأمل الفساد الذى يستشرى فى المجتمع نتيجة ضياع الحقوق .

فشهادة الزور والغش والسرقة والخطف والغصب والاختلاس والرشوة والتدليس والمحسوبية وغيرها من المحرمات نهى عنها الشرع ، وسماها القرآن أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (٢٩)﴾ [النساء] أليست هذه من رحمة الله بنا ، نعم يرحم بعضنا من ظلم بعض ؟

إذن : نقول سيال (الرحمن) فى كل الأحكام وفى كل المنهج حتى حينما يأمرنا بالقصاص ، وأن القاتل يُقتل ، حتى فى القتل رحمة ، لأنه يحمى القاتل ، ويحمى المقتول ، ويحمى المجتمع بأسْره ، فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على القتل .

وكلُّ التكاليف الشرعية تنطلق من هذه الرحمانية منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ، وأسكنه الجنة ، وأجرى له هذه التجربة التمرينية فى الانقياد للأمر ، فلما أقام آدم على أمر الطاعة استقرّ فى الجنة وتمتع بها ، فلما خالف الأمر شقى وبدتْ عورته وساء حاله .

ومن هذه التجربة عرفنا موقف الشيطان من الإنسان ، وعلينا أن نعتبر بالدرس الذى عاشه أبونا آدم ، وأن نحذر مخالفة منهج الله .

واقرأ : ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر ، فقال : الشك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين ، فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور أو شهادة الزور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٨) .

هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا[2] وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه]

إذن : جاء التكليف كله من سيال الرحمانية ، حتى فى حالة الخروج عن المنهج وحدوث المخالفة لا يتخلى عنك ربك ، ولا تفارقك هذه الرحمة ، إنما يشرع لك التوبة ويفتح لك باب الرجعة إلى ساحته تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء] فمشروعية التوبة فى حدِّ ذاتها من سيال الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] لنفهم هذا المعنى نعود إلى ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] حيث لم يخبر الحق سبحانه علَّم مَنْ ، لأنه سبحانه قال ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] وليس هناك أحد يعلمه . إذن : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] يعنى : جهَّزه وأعدَّه للعلم به ، فلما خلق الخلق قال : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] أى : علَّم الإنسان الخليفة فى الأرض .

---

(١) ضنك : قال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال :
أحدها : أنها عذاب القبر . لحديث أبى هريرة وقاله ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى والسدى.
الثانى : شدة عيشه فى النار . رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وقتادة وابن زيد .
والثالث : أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه .. رواه عطاء عن ابن عباس .
الرابع : أن المعيشة الضنك هى كسب الحرام . (قال ابن عباس : المعيشة الضنك أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشيء منها وله معيشة حرام يركض فيها .
(٢) فنسيتها : أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها . [قاله الشوكانى فى فتح القدير تفسير آية [١٢٦ طه] .

والبيان هو أنْ تستطيع أنْ تعبر عما في نفسك بأسلوب بيِّن واضح يفهمه المخاطب ، وهذا يعني أننا لا بدّ أن نلتقي على شيء واحد نفهمه ، وهو اللغة ، وهذه هي التي علَّمها آدم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١)﴾ [البقرة] ليستطيع أنْ يعبِّر بها عما في نفسه ، ومعنى علَّمه الأسماء كلها أي : أسماء الأشياء(١) ، فآدم عليه السلام هو مصدر اللغة .

وقلنا : إننا لو سلسلنا تعليم اللغة لَعُدنا به إلى آدم ، فالابن تعلَّم من أبيه ، وأبوه تعلَّم من أبيه إلى أنْ نصل إلى آدم ، وآدم علَّمه مَنْ ؟ علَّمه ربه عز وجل .

ولقائل أنْ يقول : علَّم الله آدم أسماء الأشياء الموجودة في بيئته ، فعرف أسماء السماء والأرض والشمس والقمر والأشخاص والحيوانات وغير ذلك ، فما بال الأسماء التي استُجدتْ بعده ؟

نقول : معنى علَّمه الأسماء أوسع مما نفهمه من مسألة التعليم ، فالمراد علَّمه ما يقيم منطقه ليستطيع التعبير عما يستجد أمامه من أسماء ، ويستطيع أنْ يستخدم ما علَّمه في الوصول إلى الجديد الذي لا يعلمه .

(فالتليفزيون) مثلاً لم يكُنْ له اسم قبل أنْ يُوجد ، لكن لما وُجد وضعوا له اسماً اتفقوا عليه ، وهذا يُنهي الخلاف مع الذين يقولون أن اللغة توقيفية . نقول : لا ليستْ توقيفية فيما يَستجد عليها من أسماء .

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ..(٣١)﴾ [البقرة] قال الماوردي في تفسير الآية : « في الأسماء التي علمها الله تعالى آدم ثلاثة أقوال : أحدها : أسماء الملائكة . الثاني : أسماء ذريته . الثالث : أسماء جميع الأشياء . وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد » .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾

والشمس والقمر آيتان من الآيات الكونية فى السماء ، ومعنى ﴿ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن] بحساب دقيق ، نقول : حسبتُ الأمر حساباً وحُسْباناً ، لأنهما يجريان بحساب دقيق وقدر قدَّره الخالق سبحانه ، كما نقول نحن (الشىء دا ميخرش الميه) . يعنى : دقيق دقة متناهية .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذه الدقة ، فقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس]

فمنذ خلق الله الشمس والقمر وهما يدوران كُلٌّ فى مداره لا يشذ عنه ، ولأنهما بهذه الدقة جعلهما الله ميزاناً ودليلاً على ضبط الأوقات ، فالساعة فى يدك إنْ لم تكُنْ فى ذاتها منضبطة لا تصلح لضبط الوقت .

فالشمس تضبط لنا حساب اليوم والليلة ، والقمر يضبط لنا حساب الشهر ، والشمس بالشروق والغروب ، والقمر بمراحله التى يمرُّ بها خلال الشهر ، حيث يبدأ هلالاً ثم يكبر حتى يصير بدراً فى منتصف الشهر ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود كما كان فى أول الشهر ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[2] الْقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ [يس]

---

(١) فلك : الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى ، قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنبياء] أى فى مدار تدور فيه [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) العرجون : أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون فى أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفَّ صار أبيض وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس]

فالشمس لها ضياء ولها حرارة ، والقمر له نور لأنه يعكس ضوء الشمس فليس له حرارة ، ونلاحظ أن شهر القمر أقل من شهر الشمس لاختلاف حركة دوران كل منهما . والشمس لها كل يوم مطلع .

لذلك لاحظوا فى معابد الفراعنة أن بها ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس من واحدة منها كل يوم ، وبذلك استطاعوا بحسابات دقيقة أنْ يجعلوا الشمس تتعامد على وجه رمسيس فى يوم معين .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل العبادات والصلوات اليومية مرتبطة بالشمس ، وجعل العبادات الشهرية أو السنوية مرتبطة بالقمر فلو ارتبط رمضان مثلاً بحركة الشمس لظلَّ فى زمن واحد لا يتغير أبداً .

فلو جاء مثلاً فى بؤونة[2] يظل فى بؤونة طوال العمر ، ولو جاء فى طوبة يظل فى طوبة كذلك ، لكن ارتباطه بحركة القمر جعله يأتى على مدار العام كله ، وكلٌّ منا فى رحلة حياته صام رمضان فى الصيف وصامه فى الشتاء ، كذلك الحال فى عبادة الحج .

وتعلمون أن هذا التغيير يأتى من ١١ يوماً هى الفرق بين توقيت

---

(١) منازل القمر : هى مجموعة النجوم التى يقطعها القمر فى دورة له تامة حول الأرض فى ٢٨ يوماً ، وعدد منازل القمر ٢٨ منزلاً ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها ، وتسمى هذه المنازل الطوالع .

(٢) بؤونة : شهر مصرى ، أصله بالهيروغليفية (با أونى) أى إله المعادن ، لأن فيه تستوى المعادن والأحجار ، ولذا يسميه العامة بؤونة الحجر نسبة لشدة الحر فيه .

الشمس وتوقيت القمر ، وهذا يُسهِّل أمر التكاليف العبادية ، ويعطى الغاية بدون عطب فى الكون ، لأن الشمس والقمر آياتٌ كونية عظيمة لا تتناولها أيدى الصيانة ، فهى تؤدى مهمتها بقدرة الله منذ خلقها الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرحمن] كلمة النجم تُطلق على النجم فى السماء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل] والنجم أيضاً هو العشب والنبات الذى ليس له ساق .

فالآيتان جمعتا بين جنسين من الآيات الكونية : الشمس والقمر من آيات السماء ، والنجم والشجر من آيات الأرض ، وقد جمعتهما كلمة النجم ، فالشمس والقمر منسجمان لأنهما من جنس واحد ، والنجم والشجر أيضاً من جنس واحد ، هذا فى السماء وهذا فى الأرض .

ومعنى ﴿ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرحمن] يخضعان لمراد الخالق ، وفى آيات كثيرة بيَّن الحق سبحانه أن هذه الجمادات والنباتات تسجد لله وتُسبِّح الله بما يناسبها .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج]

لذلك نسمع علماء الطبيعة يقولون : أن النبات يمتصّ الغذاء من الأرض بخاصية الأنابيب الشعرية ، نعم فى النبات أنابيب شعرية لكن فيها إعجاز وفيها حياة وفيها قدرة ، فلو أنك جئت بحوض به ماء ووضعت به أنابيب شعرية فإنها تمتص الماء كله بكل عناصره .

أما امتصاص النبات فأمر آخر ، لأن النبات يمتصُّ من عناصر التربة ما يحتاجه ، ويميز بين عنصر وعنصر ، ألا ترى أن قصب السكر يمتصُّ الحلاوة ، والفلفل مثلاً يمتص الحرارة .

واقرأ : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ ﴾ [الرعد]

إذن : المسألة ليستْ مسألة الشعيرات ، إنما مسألة آية من آيات الله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ [الأعلى]

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ⑨ ﴾

والسماء معطوفة على النجم والشجر ﴿ رَفَعَهَا .. ⑦ ﴾ [الرحمن] تراها فوقك بلا عمد ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ ﴾ [الرحمن] أنزل أسس العدالة والحق ، والميزان هو الآلة التي تضبط الحق والباطل[1] .

---

(١) قال الحسين بن الفضل : هو القرآن ، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه . نقله القرطبي في تفسيره (٩/٦٥٥٤) أما الحسن وقتادة والضحاك فقالوا : هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض . قلت : وهو الأولى في تأويل (الميزان) للآيات بعده الناهية عن الطغيان في الميزان والآمرة بإقامة الوزن بالقسط .

[عادل أبو المعاطي]

ثم أمرنا سبحانه بأنْ نقيم ميزان العدالة ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧﴾ [الرحمن] الطغيان هو مجاوزة الحد ، أى : لا تتجاوزوا الحقَّ إلى الباطل . إذن : الآيات تحدثنا عن منظومة كونية قامتْ على الحق وعلى نظام دقيق لا يشذ ولا يتخلف .

وميزان العدالة يحكم حركة الشمس والقمر كما يحكم حركة الإنسان ، اقرأ : ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ④⓪﴾ [يس] فلم يطغ شىء على شىء ، كذلك الإنسان .

﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧﴾ [الرحمن] فالأجرام والأفلاك السماوية لما استقامتْ على ما خُلقت عليه وعلى مراد الله منها استقامتْ حركتها فى أداء مهمتها فى الكون ، فلم نَرَ مثلاً بين هذه الأجرام تصادماً ، كذلك أيها الإنسان إنْ أردتَ أنْ تستقيم حركة حياتك فسِرْ فيها على هذا الميزان الذى وضعه الله لك .

وبعد أنْ نهى سبحانه عن الطغيان فى الميزان يأمرنا سبحانه : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨﴾ [الرحمن] أى : بالعدل بحيث يأخذ كلّ ذى حَقٍّ حقه ، كما قال سبحانه : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ①⑧②﴾ [الشعراء] فإقامة الشىء تعنى آداؤه على أكمل وجه ، فلأن الميزان هو الضابط فلا بدّ أنْ يكون دقيقاً قائماً على القاعدة التى أرادها الله وهى العدالة .

ثم يؤكد الأمر السابق بنهى ﴿وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨﴾ [الرحمن]

قالوا أى : لا تُنقصوا الميزان ، لكن نقص الميزان قد يكون له صور مختلفة ، فالذى يغشّك ويضع لك الفاكهة المعطوبة على أنها سليمة يُنقص الميزان .

والذى يتلاعب فى آلة الوزن ينقص الميزان ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحفظ للعباد حقوقهم ، وهذه من سيال رحمانيته تعالى .

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ
وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ
وَٱلرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾

الحق سبحانه قال عن السماء ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ٧﴾ [الرحمن] وقال عن الأرض ﴿وَضَعَهَا .. ١٠﴾ [الرحمن] أى : جعلها منخفضة ومنبسطة ، وقال سبحانه : ﴿الأَرْضَ مَهْدًا ..٥٣﴾ [طه] فهى ممهدة وقال : ﴿مِهَادًا ٦﴾ [النبأ] تحمل الإنسان كما حمل المهد الطفل . فالأرض وُضعتْ ليستقرَّ عليها الإنسان .

ومعنى﴿ لِلأَنَامِ ١٠﴾ [الرحمن] لبنى الإنسان ، وقالوا : بل يدخل فى الأنام كلُّ ذى روح ، فالحيوانات بهذا المعنى هى من الأنام ، لأنها تأكل من زرع الأرض وتعيش عليها . وقالوا : الجن أيضاً من الأنام .

ونلاحظ فى هذه الآية العموم فى الأرض فلم يُخصصها أرض مَنْ ، وهذا يعنى الشمول ، فالأرض أى كل أرض فى أىّ مكان ، كذلك

﴿ لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] أىّ أنام[1] فأرض الله فى كلِّ مكان لعباد الله فى كلّ مكان .

وهذا المعنى نفهمه من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]

فأرض الله للجميع ، إذا ضاقتْ عليك الحياة هنا فاذهب إلى مكان آخر فيه متسع ، وهذه فى حدِّ ذاتها كفيلة بأن تحل مشاكل العالم اليوم لو أخذوا بها ، لكن الحاصل أنهم قطَّعوا أوصال هذه الوحدة الطبيعية التى أرادها الخالق للخَلْق ووضعوا فيما بينهم الحدود والحواجز .

ومن العجيب أنْ نراهم يختلفون على عدة أمتار على حدودهم وهم يعيشون على مئات بل آلاف الكيلو مترات من أرض الله ، ثم لك أنْ تتأمل الخريطة وترى رسم الحدود بين الدول الآن ، هل تراها على شكل مستقيم ؟

---

(١) فى الانام ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم الناس . قاله ابن عباس .

الثانى : الأنام الإنس والجن . قاله الحسن .

الثالث : الأنام جميع الخلق من كل ذى روح . قاله مجاهد وقتادة والسدى ، سمى بذلك لأنه ينام . [الماوردى فى تفسير الآية ١٠ الرحمن] .

لا بل هي متعرجة وملتوية ومتداخلة بعضها في بعض ، فهكذا أرادها الحق سبحانه ، الأرض كلُّ الأرض للأنام كلّ الأنام .

ونحن الآن نرى أرضاً تكاد تنفجر من كثرة عدد السكان لكن فيها قلة موارد ، وعلى النقيض نرى أرضاً خالية من السكان مليئة بالموارد المهملة التي لا تجد مَنْ يستخرجها ، فهل هذا هو الميزان العادل الذي قامت عليه أمور الخلق ؟ لا والله بل هذا جور وطغيان في الميزان .

ولك أنْ تنظر إلى الحدود المصطنعة والأسوار والمطارات والبواب وما يحكمها من قوانين صارمة وتأشيرات دخول وشروط ، حتى أنك تستغرق شهراً وشهوراً تعد في أوراق وتأشيرات لتتمكن من دخول بلد كذا وكذا .

ثم ترتّب على هذا الفصل بين الحدود وجود الخلافات الدولية ، والتمييز العنصري ، وانفراد أصحاب الثروات بثرواتهم ، فنشأت الحروب والصراعات كما ترون .

ثم تُعدِّد الآيات طرفاً من نِعَم الله في الأرض : ﴿ فِيهَا .. (١١) ﴾ [الرحمن] أي في الأرض ﴿ فَاكِهَةٌ . (١١) ﴾ [الرحمن] الفاكهة ما يتفكّه به، فهي من الكماليات والزيادة عن الطعام الأصلي ، وأتى بالفاكهة قبل البُرِّ والقمح وغيره من الحبوب .

﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) ﴾ [الرحمن] جمع كم ، وهو الغطاء الذي يكون على الثمرة قبل نُضْجها ، والأكمام هنا المراد بها الطلع .

﴿ وَالْحَبُّ .. (١٢) ﴾ [الرحمن] مثل القمح والشعير والذرة وغيرها من المطعومات .

﴿ ذُو الْعَصْفِ .. (١٢) ﴾ [الرحمن] هو القشرة التى تغطى الحبة ، وذِكْر العصف يدل على أهميته الغذائية ، وقد توصل العلماء إلى أن لقشرة القمح فوائد صحية عظيمة[1] ، وأن حبة القمح لا تؤدى مهمتها إلا مع قشرتها .

وقد حذر العلماء من تناول الدقيق الفاخر أو (العلامة) خالية من قشرتها ، والذى أسرف فى تناول الدقيق الفاخر ، يُضطر فى مراحل تقدُّم السن إلى أنْ يأكل الخبز من الردة أو السِّن ، لذلك نجد رغيف السِّن أغلى من رغيف (الفينو) .

إذن : نفهم من ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ..(١٢) ﴾ [الرحمن] أن نأخذ الحب كما خرج من أرضه بعَصْفه فهذه ميْزته ، وقد وردت كلمة العصف أيضاً فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الفيل : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل] يعنى : فتات وبقايا الأكل .

﴿ وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ [الرحمن] قالوا : هو لُبُّ الحبة .

وقالوا : هو النبات ذو الرائحة الطيبة المعروف بهذا الاسم .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] الخطاب للثقلين الجن والإنس ، لذلك سيخاطبهم بعد ذلك ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) ﴾ [الرحمن] وهنا يخاطبهم الحق سبحانه بهذا الاستفهام : هذه نعم الله

---

(١) قشرة القمح هى قشرة رقيقة فيها ستة فيتامينات ب١ إلى ب٦ بالإضافة إلى عدة فيتامينات أخرى وفيها مادة فسفورية هى غذاء للدماغ والأعصاب وفيها الحديد الذى يهب الدم قوة وحيوية ويعين على اكتساب الأكسجين من الرئتين وفيها كالسيوم الذى يبنى العظام وفيها السيليكون الذى يقوى الشعر ، وفيها اليود الذى ينشط عمل الغدة الدرقية .. وهكذا .. ونحن ننزع عن حبة القمح قشرها ونرميه للبهائم ونأكل نحن النشا الصافى .

وآلاؤه ، فبأىٍّ هذه النعم تكذِّبان أيها الإنس وأيها الجان ؟

ومن أساليب القرآن الكريم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يقرر حكماً ويؤكد عليه لا يأتى به فى صورة الخبر ، إنما يأتى فى صورة الاستفهام ، كأنه يقول لهم : قولوا أنتم ، وحين تبحث عن الجواب للاستفهام لا بد أنْ تقول : ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب .

وأنت لا تسلك سبيل الاستفهام إلا وأنت واثق من أن الجواب سيأتى ولا بد كما تريد ، كالذى ينكر مثلاً فضلك عليك ، فتقول له : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟

كلمة ﴿آلاءِ .. ⟨١٣⟩﴾ [الرحمن] أى نعم جمع أل مثل حمل وأحمال . وهذه الآية :﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⟨١٣⟩﴾ [الرحمن] تكررتْ فى هذه السورة عدة مرات ، وهذا له مزيّة وحكمة ، كما فى قوله تعالى فى السورة قبلها :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⟨١٧⟩﴾ [القمر] ومثل ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ⟨٢١⟩﴾ [القمر] ومثل هذا التكرار له حكمة ، ويضيف جديداً ، وإلا كان زيادة ، والقرآن مُنزَّه عن هذا .

فالأسلوب هنا حينما يكرر ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⟨١٣⟩﴾ [الرحمن] تأسيس لكل نعمة مخصوصة ، فمع كل نعمة يعيد هذا الأسلوب ، فيجعل كلّ نعمة على حدة مسئولاً عنها هذا السؤال .

وقد تكررت هذه الآية فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يؤكد لنا على سيال الرحمانية فى سورة الرحمن فيذكرها فى كل نعمة ، هل تكذِّبون بكذا ؟ هل تكذِّبون بكذا ؟

وكيف لنا أنْ نكذِّب ونحن نتقلَّب فى هذا النعيم ليل نهار ، لذلك سَنَّ لنا رسول الله حينما نقرأ هذه الآية أنْ نقول : ولا بشيء من نعمائك ربنا نكذِّب .

فقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، كانوا كلما قرأتُ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشيء من نعمائك ربنا نكذب فلك الحمد(١).

وهذا يعنى أننا حينما نستمع للقرآن يجب أنْ ننفعل به ونتدبر معناه ، لا أنْ يمرّ على آذاننا هكذا كغيره من كلام البشر ، وقد رأينا أهل الإيمان والقرب من الله ، يفعلون ذلك ، فإذا ذُكر اسم الله قالوا سبحان الله ، أو جَلّ جلاله ، وإذا ذُكر رسول الله قالوا : صلى الله عليه وسلم . إذا ذُكرتْ الجنة سألوها ، وإذا ذُكرتْ النار استعاذوا بالله منها ، وهكذا يتفاعل المؤمن مع كلام الله . فأين نحن من هؤلاء ؟

ولقد استمعتُ إلى القرآن فى أحد المآتم ، وكان الشيخ يقرأ آيات العذاب ويذكر النار وجهنم ، فإذا بواحد من المشجِّعين له يقول : إيه العظمة دى ، اللهم زيدك يا شيخ !!

---

(١) أخرج الترمذى وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : مالى أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكم ما تكذبان) قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ، ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية ١٠ سورة الرحمن .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

الصلصال هو الطين الذى جف وتيبَّس ، والصلصال مرحلة من المراحل التى مرَّ بها الإنسان فى الخَلْق الأول لادم عليه السلام ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أن الإنسان خلق من ماء ، ومن طين ، ومن تراب ، ومن حمأ[2] مسنون ، وكلها مراحل حتى صار صلصالاً كالفخار .

هى إذن مراحل للشىء الواحد ، فالتراب بالماء يصير طيناً ، والطين لو تُرِكَ فترة يختمر ، ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته فيصير حمأً مسنوناً ثم يجف فيصير صلصالاً .

وليس مرحلة من هذه المراحل هى بداية الخَلْق ، إنما كلها مجتمعة هى بداية الخَلْق ، والحق سبحانه أخبر : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

فنحن لا نعرف كيف خُلِقنا إلا من خلال ما أخبرنا الله به ، لذلك

---

(١) مارج : المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) حمأ مسنون : الحمأ : الطين الأسود المنتن . [لسان العرب - مادة : حمأ] . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

يقول سبحانه بعدها :﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] المضلون هم الذين يخبرون عن الخَلْق بغير ما أخبر الحق ، كالذى طلع علينا يقول[1] إن الإنسان فى أصله قرد ثم تطور إلى الإنسان ، فالقرآن يسبق الزمن ويخبر بما سيكون ، ويحذرنا من تصديق هذه الافتراءات والكذب على الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى حينما يُحدِّثنا عن أمر غيبى يقف العقل أمامه ، يوضحه لنا بأمر مشاهد يدلّ عليه ، فنحن نعم لم نَرَ الخَلْق الأول فهو أمر غيبي ، لكن رأينا نقيضه وهو الموت وشاهدناه ، الموت ينقضُ الحياة وعادةً الهدم يأتى عكس البناء ، فما بُنى أولاً يهدم آخراً ، وما بنى آخراً يُهدم أولاً .

فالخَلْق بدأ من ماء وتراب وطين ، ثم حمأ مسنون ، ثم صلصال كالفخار ، ثم بعد ذلك نفخ الله فيه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة ، أما الموت فيبدأ بخروج الروح ، ثم يتيبس الجسد فيشبه الصلصال ، ثم تتغير رائحته كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، ولا يبقى بعد ذلك إلا عناصر تصير إلى تراب .

إذن : نأخذ من الموت الذى شاهدناه دليلاً على الغيب فى ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن] أى : الجن ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن] المارج هو لهب النار الصَّافى الذى لا يخالطه دخان ، وطبيعة النار ألطف من طبيعة الطين ، لأن النارَ لها

---

(١) تشارلز داروين : عالم حيوان إنجليزى ولد ١٢ فبراير ١٨٠٩ م عالم تاريخ طبيعى ، له كتاب (أصل الأنواع) عام ١٨٥٩ م ، توفى عام ١٨٨٢ عن ٧٣ عاماً .

سيالٌ نافذ على خلاف الطين ، فليس له هذا النفاذ .

مثلاً لو معك تفاحة فى حجرة وأنت فى الحجرة المجاورة ، فهل تجد للتفاحة أثراً فى الحجرة الأخرى ؟

أما النار فعلى خلاف ذلك لأنها تنفذ من الجدار ، فتشعر بحرارتها من خلف الجدار ، وقدرة الجن تأتى من هذا النفاذ .

فلديهم القدرة على أنْ ينفذوا من الأشياء لا يعوقهم شىء مادى ، وهذا يعنى أنهم خُلقوا من شفافية النار، ونحن من كثافة الطين ، لذلك هم يَرَوْننا ولا نراهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧)
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾

الحق سبحانه يذكر المشرقين والمغربين فى سياق نعمه تعالى ، وهذا يعنى أن فيهما ينطوى كثير من النعم .

وحينما نستقرىء هاتين الكلمتين فى القرآن نجدهما بالمفرد مرة ، وبالمثنى مرة ، وبالجمع مرة أخرى ، فقال : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. (٩) ﴾ [المزمل] وقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن] وقال : ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. (٤٠) ﴾ [المعارج]

وهذا التعدد يأتى من تعدد المكان ، ففى المكان الواحد مشرق ومغرب للشمس ، لكن الشمس حينما تشرق عندك تغرب عند آخرين ، فكلُّ مشرق معه مغرب ، وكل مغرب معه مشرق .

إذن : هما مشرقان ومغربان ، إذن مع دوران الأرض وحركتها تعطينا في كل لحظة مشرقاً ومغرباً ، فهي إذن مشارق ومغارب ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ [الرحمن]

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(١) ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿مَرَجَ .. ﴿١٩﴾﴾ [الرحمن] أي خلط ﴿الْبَحْرَيْنِ ..﴿١٩﴾﴾ [الرحمن] العذب والمالح ﴿يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ [الرحمن] قالوا : يتجاوران أو يتعاقبان ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ..﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن] أي : حاجز يحجز هذا عن هذا فلا يختلطان ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن] لا يتعدَّى أحدهما على الآخر .

وهذه آية من آيات الخَلْق أنْ يلتقي العَذْب بالمالح دون أنْ يذوب هذا في هذا ، لذلك حينما تذهب إلى العريش مثلاً تجد على شاطئ البحر أجود أنواع النخيل ، ولو كان هذا يتغذّى على الماء المالح ما كان على هذه الصورة من الحلاوة ، لكن قدرة الله .

---

(١) قال الماوردي في تفسيره للآية ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ [الرحمن] ، أما البحران ففيهما خمسة أوجه :

أحدها : أنه بحر السماء وبحر الأرض . قاله ابن عباس .

الثاني : بحر فارس والروم . قاله الحسن وقتادة .

الثالث : أنه البحر المالح والأنهار العذبة . قاله ابن جريج .

الرابع : أنه بحر الشرق وبحر المغرب يلتقي طرفاهما .

الخامس : أنه بحر اللؤلؤ وبحر المرجان .

واقـرأ : ﴿أَلَـمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّـمَـاءِ مَـاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر] وقال سبحانه :﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون]

فقـدرة الله حفـظتْ الماء العـذْب فلا يخـتلط بالمالح ، لذلك تـجد مستوى الماء العذب أعلى من مـستوى المالح ، وإذا ذهبتَ إلى دمياط ستـجد الـماء العَـذْب فى النيل يمتـدُّ لمسـافات داخل المـالح دون أنْ يطغى المالح على العذب ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾

معنى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا .. (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من البحرين العذب والمـالح ، مع أن اللؤلؤ والمرجـان لا يخرجـان إلا من الماء المـالح ، وهذه المسـألة حلَّهـا لنا حاجب المحكمة الذى ذهب لخطـبة سنية بنت محضية ، فسألوه : ماذا تعمل ؟ قال : أنا حاجب المحكمة ، قالوا : كم راتبك من هذا العمل ؟ قال : أنا والقاضى نأخذ مائة جنيه .

فقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من مجموعهما معاً[1] ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٥٦٣/٩) : « قـال (منهما) وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ .. (١٣٠)﴾ [الأنعام] وإنما الرسل من الإنس دون الجن . قاله الكلـبى وغيره » . فقال (منكم) مع أن الرسل من الإنس فقط .

والآن يقول العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يوجدان إلا فى مَصبٍّ الماء العذب[1] ﴿ فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) ﴾ [الرحمن]

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ .. (٢٤) ﴾ [الرحمن] أى : لله تعالى ﴿ الْجَوَارِ .. (٢٤) ﴾ [الرحمن] جمع جارية وهى السفينة التى تجرى على صفحة الماء ﴿ الْمُنشَآتُ .. (٢٤) ﴾ [الرحمن] التى أنشئتْ وصُنعتْ فى البحر ﴿ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] أى : كالجبال العالية التى تُرى مثل العلَم أو مثل القصور الشاهقة ﴿ فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن]

والعجيب أنْ يخبر بهذا سيدنا رسول الله ، وهو لم يركب البحر ولم يعرف هذا النوع من السفن ، فالسفن التى كانت موجودة على عهد سيدنا رسول الله كانت صغيرة مسطحة ومن دور واحد ، ولم تعرف السفن ذات الأدوار إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، إذن : هذه الآية من الإعجاز ومن علامات النبوة ، ودليل على صدقه ﷺ فى الإخبار والبلاغ عن الله .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾

---

(١) حتى العلماء القدامى نقلوا هذا ، فقد نقل القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٦٤) هذا القول فى سياق حديثه عن اللؤلؤ ، فقال : إن العذب والملح قد يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح ، فنسب إليهما كما يُنسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى » ثم قال : « لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح » .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ..(٢٦) ﴾ [الرحمن] أى : على الأرض والأرض لم يأتِ لها ذكْر هنا حتى ينصرف إليها المعنى ، لكن قالوا : الضمير يعود على مذكور أو على معلوم بالبديهة كما هنا ﴿ فَانٍ (٢٦) ﴾ [الرحمن] أى : هالك .

﴿ وَيَبْقَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الرحمن] أى : بعد فناء كل شىء ﴿ وَجْهُ رَبِّكَ ..(٢٧) ﴾ [الرحمن] الوجه يُعبَّر به عن الذات ، لأن الوجه فى الخَلْق جميعاً هو المميِّز للشخص ، بحيث لا يتشابه اثنان تشابهاً تاماً ، فأطلق الوجه ليدل على الذات .

﴿ وَجْهُ رَبِّكَ .. (٢٧) ﴾ [الرحمن] أى : ذاته سبحانه وتعالى ، وهذه المسألة نرد بها على مَنْ لا يرى تأويلاً فى القرآن ، وإلا فكيف نقول فى هذه الآية(١) ؟

ومعنى ﴿ ذُو الْجَلالِ .. (٢٧) ﴾ [الرحمن] أى : صاحب العظمة ، وصاحب الغنى المطلق ﴿ وَالإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] صاحب الكرم المطلق والفضل التام ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ [الرحمن]

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾

---

(١) مقصود الشيخ رحمه الله أننا إن لم نقل أن وجه ربك هنا تعنى ذاته سبحانه فهذا يقتضى أن الله سبحانه مكوَّن من أجزاء ستفنى كلها مع ما سيفنى ويبقى وجهه فقط . وقد ذهب العلماء إلى أن (وجه ربك) هنا تعنى الذات . قاله الألوسى فى روح المعانى ، والشوكانى فى فتح القدير قال : « الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده » . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير : « أى : ويبقى ربك » . [عادل أبو المعاطى]

قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ ..(٢٩) ﴾ [الرحمن] أى : الحق سبحانه وتعالى ﴿ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] اليوم زمن يستغرق الوقت كله اليوم والليلة ، فمعنى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ..(٢٩) ﴾ [الرحمن] أى : كل آن وكل وقت هو سبحانه فى شأن جديد ، ففى كل لحظة يحدث أمر ، ويظهر قدر مما قدَّره الله أزلاً .

وقد سُئل المأمون(١) فى هذه المسألة : ما شُغل ربك الآن وقد جَفَّ القلم ، ومع ذلك قال ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] ؟ فقال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين(٢).

وقد بينَّا أن الأقدار قُدِّرتْ أزلاً ، وهى محفوظة فى اللوح المحفوظ ، فالذى يحدث الآن هو ظهور هذا المقدور فى أرض الواقع ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾ [الرحمن]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) ﴾

---

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى العباسى ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، أحد أعاظم الملوك فى سيرته وعلمه وسعة ملكه ، ولد ١٧٠ هـ ، ولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة (١٩٨ هـ) ، أطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الدجل والفلاسفة ، توفى فى « بذندون » عام (٢١٨ هـ) ودُفن فى طرسوس . [الأعلام للزركلى ٤/١٤٢] .

(٢) هذا لا يستطيع المأمون أن يقوله من عند نفسه ، ولكن روى عن رسول الله ﷺ أنه تلا قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

قال فى البحر المديد (٦/٢٠٨) : « المراد بهذه الشؤون أمور يبديها ولايبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له » .

هذا أسلوب تهديد ، وما بالك بالتهديد إنْ كان من الله ؟ ومَنْ يتحمله ؟ لكن تبقى الرحمانية نتعلق بها ونطمع فيها ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ..(٣١) ﴾ [الرحمن] تهديد كما تقول لخصمك : غداً (أفضى لك) ، يعني (هوريك شغلك) .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بعد أنْ أمهلناكم ، فلن تفلتوا منا .

﴿ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) ﴾ [الرحمن] الثقلان هما الجن والإنس ، وسُمِّيا الثقلان لأنهما أثقلا[1] الأرض ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) ﴾ [الرحمن]

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟
مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ[2] (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾

هذا نداء لجماعة الجن والإنس ، وقد خاطبهم فى الآية السابقة ﴿ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) ﴾ [الرحمن] وهنا يتحدى الجميع ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ، وقال الماوردى فى تفسيره : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض . وقال الشوكانى في فتح القدير : سُمى الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض .

(٢) قوله ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] فيه ثلاثة أقوال :
أحدها : لا تنفذون إلا فى سلطان الله وملكه لأنه مالك كل شىء . قاله ابن عباس .
الثانى : لا تنفذون إلا بحجة . قاله مجاهد .
الثالث : لا تنفذون إلا بمُلك ، وليس لكم مُلك . قاله قتادة . ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية .

تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا..(٣٣)﴾ [الرحمن] وهذا يعنى أن الجن والإنس لن يستطيعوا ذلك ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] أى : من الله فلو أعطى هذه القوة لأحد من خلقه لاستطاع .

لذلك البعض فهم أن صعود الإنسان للقمر نفاذ من أقطار السموات والأرض ، فكيف إذن نفهم ﴿لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] قالوا : أى سلطان العلم الذى مكّنهم من ذلك .

والواقع أن ارتقاء الإنسان لسطح القمر ليس نفاذاً ، لأن القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض ، هو كحلوان بالنسبة للقاهرة ، ولو تأملنا المسافات بين الكواكب لسهل علينا هذا الفهم .

فقد أثبت العلماء أن بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة[1] مائة سنة ضوئية ، والثانية الواحدة فى سرعة الضوء فيها ثلاثمائة ألف كيلو متر ، فما بالك بباقى كواكب هذه المجموعة ؟ أما القمر فهو تابع من توابع الأرض .

والاستثناء فى ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] يثبت صدق سيدنا رسول الله فيما أخبر به من حادثة الإسراء والمعراج ، وإلا لقالوا كيف هذا ؟ لأنه فوق إمكانيات البشر . إذن : إلا بسلطان منا فمَنْ أردنا له أنْ ينفذ بقدرتنا نحن .

---

(١) المرأة المسلسلة : هى إحدى كوكبات نصف الكرة السماوية الشمالى وتظهر فى ليالى الشتاء والخريف . وفى هذه الكوكبة يوجد سديم المرأة المسلسلة الذى يُرى بالعين المجردة . ويقدر بُعده عن الأرض بحوالى ٣١ بارسك أى مائة سنة ضوئية . [الموسوعة الفلكية - ص ١٨٩ ، ٤٦٥] .

وذكر سبحانه الجن هنا قبل الإنس ، لأنهم أخفّ منا وأسرع فى الحركة ، لذلك رأينا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام لما أراد أنْ يأتى بعرش بلقيس فقال لمساعديه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ..(٣٨) ﴾ [النمل] لم يتكلم أحد من الإنس ، لأنه يريده أمامه على وجه السرعة ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل] والحادث أنهم فى الطريق إليه .

والإنس لا يملكون هذه السرعة ، أما الجن فقد قال واحد منهم ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ..(٣٩) ﴾ [النمل] هذا عفريت من الجن وليس من الجن العادى ، وهذا يعنى أن من الجن النشط الماهر ومنهم (لبخة) لا يستطيع أنْ يؤدى هذه المهمة .

وهذا العرض من العفريت يستغرق وقتاً لأنه لا يقوم من مقامه إلا بعد ساعات ، فقال الأمهر منه وهو الذى عنده علم من الكتاب ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..(٤٠) ﴾ [النمل]

وطرفة العين لحظة لا تستغرق وقتاً ، فلما كان الجن بهذه المهارة فى الحركة بدأ الحق سبحانه بهم لأنه فى مجال التحدى .

ثم إن التحدى فى السموات جمع سماء ، وحركة الإنس فى صعودهم للقمر ، وحركة الجن فى عملية استراق السمع كلها فى مجال السماء الدنيا ، فأين الإنس والجن من باقى السموات ؟

هذه السموات التى اخترقها سيدنا رسول الله فى صحبة سيدنا جبريل حتى وصل إلى منتهاها عند سدرة المنتهى . إذن : ﴿ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] ليس سلطان العلم ، بل سلطان قدرة الله ، وإلا فقد مرَّ رسول الله فى أماكن ليس فيها هواء للتنفس ، فكيف

يفعل العلم فى هذه ؟

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾

الخطاب للجن والإنس : إنْ أردتما النفاذ من أقطار السموات والأرض دون سلطان من الله ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾[الرحمن] وهذا يعنى أن للجن والإنس حدوداً فى الحركة لا يستطيعون تجاوزها .

ومعنى﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ .. (٣٥) ﴾[الرحمن] أى : لهب النار الصافى الخالص الذى لا دخان فيه ، وهذا اللهب يكون أشد حرارة .

﴿ وَنُحَاسٌ .. (٣٥) ﴾[الرحمن] أى المذاب وهو من أدوات العذاب ﴿ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾[الرحمن] لا تتمكنان من النفاذ ، ولا تجدان مَنْ يدفع عنكما العذاب .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ[1] (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) ﴾

---

(١) الدهان : فى الدهان قولان : أحدهما أنه مفرد وهو الأديم الأحمر . قاله ابن عباس . والثانى انه جمع دهن والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة . حكاه اليزيدى . وقال الفراء : شبه تلوُّن السماء بتلون الوردة من الخيل . وشبه الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن . [زاد المسير لابن الجوزى] .

نلاحظ أن هنا أسلوبَ شرط ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ..(٣٧)﴾ [الرحمن] وجوابه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾[الرحمن] وفَصل بين الشرط والجواب ، لأن فى كل منها آية وعجيبة ، وكل منهما من آلاء الله ، فجاء بكل جزء منهما فى آية وذيلها بقوله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)﴾ [الرحمن]

وانشقاق السماء من علامات القيامة يوم الحساب ويوم يسأل كلاً عن عمله ، لذلك وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية يقولون إنها تتعارض مع قوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

وهذا التعارض الذى يرونه فى الآية ناتج عن عدم إلمامهم بملكة اللغة وتذوقها ، لأن السؤال فى العربية له وجهان : التلميذ يسأل المعلم ليعلم منه الحق ، والمعلم يسأل التلميذ ليقرره بالحق .

فقوله تعالى :﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] سؤال إقرار ليقروا على أنفسهم .

ومعنى ﴿لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾[الرحمن] نعم لأننا لسنا فى حاجة إلى كلامهم ولا اعترافهم ، لأننا سجلنا عليهم وكتبتْ ملائكتنا عليهم أعمالهم فلا داعى لأن نسألهم عنها .

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى (١)
وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا موقف من مواقف القيامة ، حيث تعرف ملائكة العذاب المجرمين بعلامات مميزة ، فأهل الإجرام يُعرفون ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن] أى : بعلامتهم بسواد وجوههم ، فيأخذونهم من نواصيهم أى : شعر مقدمة الرأس يجمعونها مع الأقدام ، ثم يُلقون بهم فى جهنم والعياذ بالله ، وهذا الأخذ فيه إذلال وإهانة ، فضلاً عن العذاب لأن الناصية محلّ عزّة الإنسان وكرامته .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقرعهم ويُؤنبهم ويزيد من حسرتهم ، فتقول لهم ملائكة العذاب ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ..﴿٤٣﴾ ﴾[الرحمن] أى : التى ترونها وتقاسون حرّها الآن هى التى كنتم تكذّبون بها فى الدنيا ، فذوقوا حرّها الآن .

وتلاحظ أن السياق استخدم الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الرحمن] أى : فى الدنيا ، أما الآن فهم

---

(١) النواصي : جمع ناصية وهو ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة . ومعنى ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن] أي : يُجر المجرمون من نواصيهم وأقدامهم كناية عن إذلال المجرمين وإهانتهم يوم القيامة إذ يُطوى كل مجرم فتربط ناصيته مع قدميه ويؤخذ فيلقى في النار عاجزاً مهاناً . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠] .

يعاينونها ويباشرون حرَّها .

إذن : أراد أنْ يستصحب التكذيب منهم في الدنيا ، وكأنه واقع منهم الآن ، وهذا أنكى لهم . وأشد في تأنيبهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا .. (٤٤) ﴾[الرحمن] أي : بين جهنم ﴿ وبين حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) ﴾[الرحمن] وبين الشراب الحميم الذي تناهى حرُّه حتى بلغ الغاية فيُقطِّع أمعاءهم ، فكلما اشتدت عليهم حرارة جهنم طلبوا الشراب الذي يخفف عنهم فيذهب بهم إلى الحميم .

وهم يأملون شراباً يلطف من حرارة جهنم ، فإذا به يزيدهم حرارة ، فهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ومع ذلك نرى الأداء القرآني يُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾ [الرحمن]

فهذا الحديث وهذا الوصف للعذاب يُعد من آلاء الله ومن نعم الله علينا ، لأنه يجعلنا نهرب من هذا المصير ونتلاشى الوقوع في أسبابه .

ثم يأتي الحق سبحانه بالمقابل :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ[1] (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) ﴾

(١) الأفنان : جمع فنن وهو الغصن المستقيم من الشجرة ، والأفنان تحمل الثمار ولها ظل ظليل وذلك كناية عن النعيم الذي يلاقيه أهل الجنتين . [القاموس القويم ٢/ ٨٩] .

أى : خاف صفات الجلال من الله تعالى ، خاف حسابه وعقابه ، ما جزاؤه ؟ له ﴿ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن] لا جنة واحدة ، وهنا أيضاً وقف المستشرقون يقولون : أهى جنة أم جنتان ؟ قالوا : جنتان باعتبار أنه تعالى يتكلم عن الإنس والجن ولكلٍّ جنته .

وآخرون أخذوها بمعنى آخر ، فقالوا : جنة المؤمن التى أعدها الله له فى الآخرة ، وجنة الكافر التى أعدها الله له إنْ آمن ، فلما لم يؤمن ورثها عنه المؤمن ، كما سبق أنْ أوضحنا ، وهكذا يكون للمؤمن جنتان .

وهذه الآية وقف عندها سيدنا شقيق البلخى[1] وهو أحد العارفين بالله ، وكان له تلميذ اسمه حاتم وغلب عليه لقب الأصم [2] وكان لهذا اللقب قصة تُرينا مدى الارتقاء فى الخَلْق عند هؤلاء الناس الذين خافوا مقام ربهم .

قالوا : إن امرأة جاءته فى حاجة لها ، فلما دخلتْ عليه غلبها ما يغلب الناس من الضراط ، فقال لها : ما تريدين ؟ وأعادها كأنه لا يسمع ما حدث منها تأدباً منه ، لذلك لُقِّب بالأصم[3] .

---

(١) هو : شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى البلخى أبو على ، زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، وكان من كبار المجاهدين استشهد فى غزوة كولان (عام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م) [الأعلام للزركلى ٣/١٧١] .

(٢) هو : حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحكم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل ، شهد بعض معارك الفتوح ، توفى عام (٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) [الأعلام للزركلى ٢/١٥٢] .

(٣) ذكر الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فن مستظرف » أن سبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة ، فقال حاتم : ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فسُرَّت المرأة بذلك . فغلب عليه هذا الاسم . [باب فى الخير والصلاح] .

الشاهد أن البلخي سأل تلميذه حاتم الأصم : كم مُكْثك معي ياحاتم ؟ قال : ثلاث وثلاثون سنة ، قال : فماذا أفدتَ مني في هذه المدة ؟ قال : مسائل .

قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، طوال هذه المدة ما أفدتَ غير مسائل ؟ قال : هو كما أخبرتك قال : ما هي ؟ فقال : أحببتُ الجنة لأنني رأيت الخلق الذين أعاصرهم كلهم غل وحقد بعضهم على بعض فكرهتُ هذه الخصال ، فلما قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ .. ﴿٤٣﴾ ﴾[الأعراف] اشتقتُ للجنة التي لا يُوجد فيها غلٌّ ، قال : أحسنت فما الثانية ؟ قال : عرفت أن السبيل إليها مخافة الله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن] فخفتُ مقام ربي ، ونزعت من نفسي هواها فاستقامت لي الطاعة ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات]

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الثالثة ؟ فقال : استقرأتُ الخلْق فوجدتُ لكلٍّ واحد منهم حبيباً يحبه ويصاحبه ، لكن مهما كان الحب بينهما فإنه يفارقه عند دخوله القبر ، فأحببت أنْ يكون لي صاحب لايفارقني في قبري ، فلم أجد غير عملي .

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الرابعة ؟ قال : رأيت الخلْق كُلٌّ منهم يحب شيئاً يحافظ عليه ، ومع ذلك قد يسرقه منه لص أو تنتابه الأغيار ، لذا جعلت عملي كله لوجه الله ليكون ربي هو الأمين عليه .

قال : فما الخامسة ؟ قال : علمتُ أن الناس يتعادون ويتحاسدون ويتباغضون ، فلما بحثتُ فى سبب ذلك وجدته سعة الرزق عند هذا ، وضيق الرزق عند ذاك ، فلما قرأتُ قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٣٢)﴾ [الزخرف] فاطمأن قلبى وألقيتُ عنى الغل والحقد والحسد .

قال : فما السادسة ؟ قال : رأيتُ ما بين الناس من عداوات فقرأتُ : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ..(٦)﴾ [فاطر] فتركتُ عداوة الخَلْق ووجهت عداوتى كلها للشيطان .

قال : فما الأخيرة يا حاتم ؟ قال : وجدتُ الناس يثقُون فى أشيائهم من مال وعقار أو تجارة وصناعة ، وأنها تفوت صاحبها ، فتوكلت على الحىِّ الذى لا يموت ولا يفوت .

وقوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨)﴾ [الرحمن] أى : الجنتان فيهما أفنان ، جمع فنن ، وهو الغصن ، فالجنتان مليئتان بالأغصان الكثيرة الملتفة المتشابكة ، بحيث تجن أو تستر مَنْ يسير فيها.

﴿ فِيهِمَا ..(٥٠)﴾[الرحمن] أى : الجنتين ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)﴾ [الرحمن] أى : بالماء العذب ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾ [الرحمن] أى : صنفان ، قالوا : صنف تعرفه وصنف لا تعرفه ، فإذا كان هذا حال التفكه وهو زيادة ورفاهية ، فما بالك بالضروريات ؟

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ
بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ(١) وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ(٢) إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ
وَلَا جَآنّٞ ٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ
وَٱلۡمَرۡجَانُ ٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩ ﴾

تستمر الآيات في تعداد مظاهر النعيم وألوانه فى الجنة ، ومنها أنْ ترى أهل الجنة ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا .. ٥٤ ﴾ [الرحمن] أى : حشْوها ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ .. ٥٤ ﴾ [الرحمن] وهو الحرير الغليظ .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ٥٤ ﴾ [الرحمن] الجنَى : هو الثمر الذى نضج وحان وقت جَنْيه ﴿ دَانٍ ٥٤ ﴾ [الرحمن] قريب فى متناول الأيدى ، لا يمنعك عنه مانع ، ولا يحول دونه حائل ، فهو قريب من يدك أينما كنتَ وعلى أىِّ هيئة ، تناله وأنت قائم ، وتناله وأنت قاعد أو نائم على سريرك تتقلَّب فى هذا الحرير .

بل فيها أكثر من ذلك ، فمجرد أنْ يخطر الشيء ببالك تجده بين يديك(٣) دون أنْ تُحرك ساكناً ، ودون أنْ تبذل أىَّ مجهود ﴿ لَهُم مَّا

---

(١) إستبرق : قال الزجاج : هو الديباج الغليظ الحسن . فهو حرير سميك [لسان العرب - مادة : استبرق] .

(٢) يطمثهن : الطمث : المسّ ، ويكنى به عن المباشرة الجنسية لأول مرة واستعمل فى افتضاض العذراء . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٣) أخرج ابن أبى الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن عبد الله ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » . ثم أورده السيوطى فى تفسيره الدر المنثور فى تفسير آية ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ ﴾ [الواقعة] .

يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق]

ثم يحدثنا عن لون آخر من نعيم الجنة وهو الحور العين ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ..(٥٦) ﴾ [الرحمن] أى : نساء حسناوات قصرْنَ أبصارهن على أزواجهن ولم يتعدينهم إلى غيرهم .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) ﴾ [الرحمن] أى : لم يسبق لهُنَّ الزواج ولم يفُض بكارتهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن[1] ، وهذا يعنى أنهن محفوظات مقصورات لأهل الجنة ﴿ كَأَنَّهُنَّ .. (٥٨) ﴾ [الرحمن] أى : فى الحسْن والجمال ﴿ الْيَاقُوتُ[2] وَالْمَرْجَانُ (٥٨) ﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تسأل : ما السبيل إلى كلِّ هذا النعيم ؟ فتجيبك الآيات :

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴾

فالجزاء من جنس العمل ، ولما أحسن المؤمن أحسن الله إليه ، وتداركته رحمة الله فيما قصّر فيه ، وإلا فالعمل وحده لا يكفى لبلوغ هذه المنزلة .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) ﴾

(١) قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) ﴾ [الرحمن] قال القرطبى فى تفسيره (٦٥٨١/٩) : « ذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونُزهن والطمث الجماع » .

(٢) قال الحسن البصرى : هُنَّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦٥٨٢/٩] .

أى : من دون الجنتين السابقتين ، وأقل منهما فى المنزلة جنتان أخريان ، ذلك لأن الجنة منازل ودرجات بحسب الأعمال والإخلاص فيها لله تعالى ، وسيأتى فى سورة الواقعة بيان لهذه المنازل ، فالجنتان السابقتان بكل هذا النعيم هى درجة المقربين ، ومَنْ دونهما ، وأقل منهما جنتان لأهل اليمين .

ومعنى ﴿ مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) ﴾ [الرحمن] أى : الجنتان مدهامتان ، والمدهام هو اللون الأخضر الذى اشتدتْ خُضْرته حتى مال إلى السواد من كثرة الخضرة فيه ، وهذا اللون لا تجده إلا فى الأرض الخصبة التى توفَّر لها الارتواء بالماء العذب .

لذلك بعد أنْ وصف الجنتين بأنهما مدهامتان قال :

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (١) (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٢) (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) ﴾

أى فى هاتين الجنتين عينان تفوران بالماء ، والماء العذب هو مصدر النماء ومصدر النضرة فى النبات . ثم ذكر من نعيم هذه المنزلة ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) ﴾ [الرحمن] وفى المنزلة الأعلى قال : ﴿ مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) ﴾ [الرحمن]

---

(١) المعنى نضاختان بالخير والبركة . قاله الحسن ومجاهد . وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما ينضح رش المطر . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٨٥] .

(٢) ذكر الله الفاكهة ثم أفرد النخل والرمان ولم يعدهما من الفاكهة فثمرة النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء . فلم يخلصا للتفكُّه .

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ[(١)] حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾

هذا وصف أيضاً لنساء الجنة فهُنَّ خيْرات قالوا فى الأخلاق والشِّيَم ، وحسان الوجوه والمنظر ، وهُنَّ ﴿ حُورٌ ..﴿٧٢﴾ ﴾[الرحمن] الحوَر مما تُمدح به المرأة وهو شدة بياض العينين وشدة سوادهما ﴿ مَقْصُورَاتٌ ..﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] محفوظات مُخدرات فى بيوتهن لا يبتذلن ولا يخرجن للعمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ[(٢)] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[(٣)] حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

(١) فَهُنَّ خيرات أى ذوات خير وقيل : مختارات اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره سبحانه ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . وهُنّ حسان بوصف الخالق لهن بالحسن ، لا بوصف البشر ، فانظر ما حُسْنُهن .

(٢) الرفرف : اشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر لتحريكه جناحيه فى الهواء . والرفرف أيضاً جوانب الفسطاط (الخيمة) لأنها ترتفع مع الهواء . فالمعنى على هذا أنهم متكئون على وسائد مرتفعة . قال القرطبى فى تفسيره (٦٥٩١/٩) روى لنا فى حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش ، فذكر أنه قال : « طار بى يخفضنى ويرفعنى حتى وقف بى بين يدى ربى » .

(٣) قال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرى . [تفسير القرطبى ٦٥٩٢/٩] .

قالوا ﴿ رَفْرَفٍ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الرحمن] هو الوسادة التى يُتكأ عليها ، أو الفرش الذى يجلس عليه .

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الرحمن] العبقرى : البساط الذى بلغ الغاية فى حُسْنه ، وعبقرى فى لغة العرب نسبة إلى وادٍ فى الجزيرة العربية اسمه وادى عبقر ، يعتقدون أنه تسكنه الجان ، فمَنْ أتى بشىء بديع يقولون أنه عبقرى . يعنى : ذهب إلى هذا الوادى وعلَّمته الجن ، وأصبحوا يقولون للشىء الذى بلغ فى الحُسْن مبلغاً يفوق صناعة البشر : عبقرى .

ثم يختم الحق سبحانه وتعالى هذه السورة بالثناء على نفسه سبحانه فقال :

﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

كلمة (تبارك) من البركة ، فأثبتت البركة للاسم نفسه ، فمجرد الاسم فيه بركة .

وكلمة (تبارك) لا يُشتق منها غير هذا اللفظ ، فلا يأتى منها المضارع ولا الأمر ولا اسم الفاعل . ومعناها : كَثُر خير الله وزاد ، وعَظُم هذا الخير ، وتنزَّه عن النقص .

الحق سبحانه وتعالى فى مواضع أخرى قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ .. ﴿١﴾ ﴾ [الملك] فتوجهت الصفة إلى المسمى وإلى ذاته تعالى .

أما هنا فقال : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن] فاثبت الصفة

للاسم ، فكيف يكون الاسم مُعظماً كثير الخير وهذه الصفة تكون فى المسمى ؟

قالوا : لأن الأسماء حين تُوضع يُراعى فيها التفاؤل بمَنْ يُوضع له الاسم ، فنسمى المولود مثلاً ذكى أملاً فى أن يكون ذكياً ، وسعيد أملاً فى أنْ يكون سعيداً وهكذا .

وبعد ذلك يأتى واقع المسمى على خلاف اسمه وعلى نقيضه ، نسميه أميناً فيكون خائناً ، إذن : تبارك الاسم حين يصدق الوصف على الموصوف به فنسميه سعيداً ويكون فى الواقع سعيداً .

إذن : حصل للاسم بركة المسمى بأنْ وافقه ولم يُكذّبه ، لذلك قال سبحانه ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ .. (٧٨) ﴾ [الرحمن] فهو سبحانه أحق الأسماء بهذه البركة .

ومعنى ﴿ ذِى الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن] صاحب العظمة وصاحب الهيبة المرهوبة وصاحب القوة والبطش والجبروت ، وسبق أنْ قلنا : إن الله تعالى صفات جلال هى هذه الصفات ، وصفات جمال هى الرحمة والرأفة والمغفرة والتوبة وغيرها .

فحين يتجلى الحق سبحانه عليك بصفات الجلال ترى ما يُخيفك ويُرهبك ، وحين يتجلى عليك بصفات الجمال ترى ما يُريحك ويسعدك ويسرُّك .

لذلك لما قال أحد الإخوان : إننى أجد نفسى فى المدينة غير ما أجدها فى مكة ، قلنا : لأن الله تعالى يتجلى فى مكة بصفات الجلال ،

ويتجلى فى المدينة بصفات الجمال .

وكمـا أنه تعالى ﴿ذِى الْجَلالِ (٧٨)﴾ [الرحمن] هو أيضاً – وفى نفس الوقت – ذو الإكرام وذو الفضل والإنعام والإحسان إلى الخلق .


سُورَةُ الوَاقِعَةِ

سورة الواقعة[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ ﴾

كلمة وقع تدل على أن شيئاً سقط من أعلى سقوطاً لازماً لايستطيع أحد أنْ يمنعه . ونقول : إن الجاذبية هى التى أسقطته . وتأتى هذه المادة (وقع) فى المسائل الهامة التى فيها هيبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. ۝٨٢ ﴾ [النمل] وقال : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۝٧١ ﴾ [الأعراف]

---

(١) سورة الواقعة هى السورة رقم (٥٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٩٦) آية . وهى سورة مكية نزلت فى مكة فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ ﴾ [الواقعة] نزلت سورة الواقعة بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء . [تفسير القرطبى ٦٥٩٥/٩ ، والإتقان للسيوطى ٢٧/١] .

إذن : وقع تدل على أمر حاسم وحاصل بذاته بأمر الله الذى قدَّره وضبطه على أنْ يقع بهذه الصورة ، كما تضبط المنبه ليُوقظك لصلاة الفجر ، وحين يرن المنبه فى وقت الفجر ويُوقظك لا يكون الفضل والعظمة للمنبه ، إنما للذى ضبطه على هذا الوقت ، كذلك إذا وقع الحق تكون العظمة لمن أوقعه .

فكلمة (وقعت) يعنى : هى أمر واقع لا مردَّ له ، فقال سبحانه : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾[الواقعة] أى : القيامة واقعة أزلاً وتدبيراً ، كأنها وقعتْ بالفعل لأن الذى يتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه الذى لا رادّ لأمره .

لذلك سماها أزلاً وقال بعدها ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة] لأنهم كانوا يُكذِّبون بها وينكرون الرجعة بعد الموت ، فالحق سبحانه يخبر عن القيامة بأنها وقعتْ بالفعل ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة] كأنها حدثت .

فالله تعالى سماها أزلاً الواقعة ، وجعل لها وقتاً مضبوطاً عنده تعالى ، ثم قال أن الواقعة التى أخبرنا بها سابقاً وقعتْ بالفعل الآن ، وساعة ما أخبرنا بها كان هناك تكذيب بها ، ولكن بعد أنْ وقعت ليس هناك تكذيب .

والواقعة اسم من أسماء القيامة ، ولها أسماء عدَّة لكل منها معنى ، ويعطينا لقطة من هذا اليوم الخطير المفزع ، تأمل فهى : الطامة والحاقة والقارعة والصاخة والواقعة ، فلكل منها ملحظ وهى جامعة لكل هذه المعانى من زوايا مختلفة فى الوقت الواحد .

وباستقراء مادة وقع فى القرآن نجدها تدل على شىء مخيف إلا

فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

أى : سقط أجره على الله ، وحتى نفهم معنى (وقع أجره على الله) علينا أن نقرأ قوله الحق ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢) ﴾ [النمل]

والوقوع هنا السقوط ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله ، ولماذا يستخدم الحق هنا (وقع) بمعنى (سقط) هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام ، حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا أدرك العبدَ الموتُ فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ويعرف الجزاء من يذهب إليه معرفة كاملة .

ومعنى ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ [الواقعة] أى : ساعة أنْ تقع ليس لأحد أنْ يُكذِّب بها ، مثل : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] فاللام لام العندية : أى عند دلوك الشمس .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا[1] (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) ﴾

أى : خافضة لقوم رافعة لآخرين ، خافضة للكافرين الذين كذبوا بها فلم يعملوا حسابها ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . قال تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) ﴾ [الواقعة] أى : فُتت تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٢) القيعة : جمع قاع كجار وجيرة . والقاع أيضاً واحد القيعان كما يقال جار وجيران وهى الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب .

فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

وهى رافعة للمؤمنين بها الذين عملوا لها وكانوا ينتظرونها ويحتسبون أجرهم فيها ، فترفعهم فى درجات الجنات ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ .. (١٨) ﴾ [الشورى] إذن : القيامة خافضة للكافرين فى دركات جهنم ، رافعة للمؤمنين إلى درجات الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) ﴾ [الواقعة] هذه الأرض المثبّتة بالجبال الرواسى ترج وتهتز ، وقد أخذنا من ذلك أن الأرض خلقها الله تعالى على هيئة الحركة ثم ثبّتها بالجبال ، ولو كانت على هيئة الثبات ما احتاجت إلى الجبال فوقها ، إذن : تثبت الآيات أن الأرض تتحرك وتدور .

والرجّ خلخلة الشىء من مكانه وهزّه هزاً عنيفاً كما تخلع الوتد ، فلا تنزعه من مقابض الأرض عليه مرة واحدة ، إنما تحركه لتخلع جذوره وتُخفف قبضة الأرض عليه ، فيسهل عليك انتزاعه ، كذلك ترج الأرض وتهز بقوة .

وقد عبّر عن هذا المعنى بالزلزلة : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) ﴾ [الزلزلة] وقال : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾ [الحج] ولأن هذا الرج بقوة وعنف أكد قوته بالمفعول المطلق المبيِّن للنوع ، فقال ﴿ رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) ﴾ [الواقعة] أى : رجاً قوياً عنيفاً ، وما بالك إذا كان الفعل لله تعالى ؟!

وقوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) ﴾ [الواقعة] هذه نتيجة الرجة العنيفة التى تفتت هذه الجبال الصلبة الجامدة وتجعلها كما

نقول فى الريف (بسيسة) ، ومعنى بُسَّت أى : تفتتت فصارت كالدقيق .

﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ ﴾[الواقعة] أى : كالغبار الذى لا يُرى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشمس لدقّته وصِغَره ﴿ مُّنبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة] متفرقاً .

وفى آية أخرى عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] الْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾[القارعة] أى : الصوف المندوف ، والصوف حينما تتفرّق شعيراته تكون كالهباء المنتشر المتفرق .

إذن : القيامة تبدأ بتهدُّم هذا الكون كله ، كل ما يحيط بك من عناصر الكون الثابتة تزول ، فالسماء تنفطر وتتشقق ، والنجوم تنكدر ، والجبال تُنسف ، ثم يأتى الدور عليكم وتقفون للحساب :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ﴾

أى : سيكون الخلْق فى هذا الموقف على ثلاثة أصناف ، أولها أصحاب الميمنة وفى موضع آخر قال (أصحاب اليمين) وهم الذين

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو ألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢ / ٤٠] .

يأخذون كتبهم باليمين ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾[الواقعة] تفخيم وتعظيم لهذه المرتبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه]

واليمين تدل على الخير لذلك تستخدم اليد اليمنى فى الأعمال الخيِّرة المفضلة ، لذلك أمرنا الشرع بالتيمُّن ، وفضل اليمين لا تُحرم منه الشمال ، فأنت حينما تمسك بالمقصِّ مثلاً لتقصّ أظافرك ، فاليمين تقصّ للشمال بدقة وأمان ، أما الشمال فتقصّ اليمين هكذا كيفما اتفق وبلا دقة .

وهذا يُعلِّمنا درساً فى الحياة هو أننا يمكن أنْ نستفيد بمَنْ هو أفضل منا فلا نحقد عليه ولا نحسده ، لأنه يكمل ما عندنا من نقص ، وخيره سيعود علينا ، فيتحمل هو شيئاً من نقصك .

ومن هنا حثَّ الشارع على أنْ نتعلم العلم ونُعلّمه ، وننشر فى المجتمع الفضيلة ، ونأمر بها وننهى عن الفحش والرذيلة ، لأن الخير عند غيرك سينالك منه وكذلك الشر ، ولو التزم الناس بالمنهج لاستراحوا وأراحوا .

وقد أخبر الحق سبحانه عن أهل الميمنة أنهم يفتخرون بكتبهم حينما يستلمونها باليمين ويتباهوْنَ بها ، يقول قائلهم : ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة] هؤلاء هم الذين رفعتهم القيامة .

الصنف الثانى هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله ، وهم الذين يأخذون كتبهم بالشمال ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾﴾ [الواقعة] فاليمين تيمُّن وخير ، والشمال شُؤْم وشرٌّ .

وقد حكى القرآن عنهم حينما يأخذون كتبهم بالشمال ﴿فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة] فيؤمر به : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ[1] ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا[2] سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة]

والصنف الأخير هم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾[الواقعة] كررها للتعظيم ، وهؤلاء وإنْ أتوا فى الذكر مؤخراً إلا أنهم فى الترتيب أولاً ، وهم أعلى الدرجات بدليل أنه سبحانه أخبر عنهم بقوله : ﴿أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة] أى : مقربون من العرش ، فإنْ أردت الترتيب من أعلى ، فالسابقون ثم أصحاب الميمنة ثم أصحاب المشأمة .

إذن : هذه مراتب ثلاث احتلها أصحابها فى الآخرة بحسب أعمالهم فى الدنيا : فالسابق إنسان باكر حياته بعمل الخير منذ صِغَره ، ثم ظل على هذا حتى قضى فسبق إلى الجنة ، وصاحب اليمين أو الميمنة إنسان باكر حياته منذ صغره بعمل الشر ، لكن تداركته نفسه اللوّامة فتاب وأناب وظل على عمل الخير حتى قُبض ، وصاحب المشأمة هو الرجل الذى باكر حياته بعمل الشر ، وظل على ذلك حتى قُبض .

والجنة هى عطاء الله ، وفيها يجتمع أصحاب الميمنة والسابقون ، إلا أن السابقين يكونون فى منزلة أعلى وأقرب من العرش ﴿أُوْلَٰئِكَ

---

(١) صلُّوه : أى أدخلوه النار . صلاه الله النار تصلية : أدخله النار . وقوله ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة] أى إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

(٢) ذرعها : قال ابن عباس : بذراع الملَك . وقال نوف الشامى : كل ذراع سبعون باعاً . الباع أبعد مما بينك وبين مكة . وقال سفيان : كل ذراع سبعون ذراعاً . [زاد المسير لابن الجوزى الحاقة ٣٢] .

الْمُقَرَّبُونَ (١١)﴾ [الواقعة] أين ؟ فى جنات النعيم ، ونفهم هذا من قوله تعالى فى سورة الزمر :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] .. ثم قال بعدها : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ..(٧٥)﴾ [الزمر]

إذن : القرب هنا يعنى القرب من العرش .

والسابق هنا هو الذى ينافس غيره ليسبقه ، والمسابقة هنا فى الخير وهو أمر مطلوب شرعاً ، لذلك أمرنا الحق سبحانه بأنْ نسارع وأنْ نسابق : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ..(١٣٣)﴾ [آل عمران] وقال : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(٢١)﴾ [الحديد]

والسباق هو سباق إيمان وعمل صالح ، سباق مَنْ يريد أنْ يسبق ، وفى نفس الوقت يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، سباق ليس فيه حقد ولا أنانية .

المؤمن يسابق غيره ، والمسألة واضحة فى ذهنه ، فالجوائز تنتظر مَنْ يسبق ، والعطاء عطاء لا ينفد . والعجيب أن المؤمن يسرع فى عمل الخير فى حياته ، وقد يسرع حتى فى موته شوقاً إلى الجنة التى رأى علاماتها وهو فى سكرات الموت .

لذلك عندنا فى الفلاحين يحكون أن فلاناً أسرع به النعش ، فالبعض ينكر عليهم ويقولون : هذا وهم ، لكن ثبت أن النعش قد يسرع ببعض الناس الطيبين ، ومن سيرتهم نعلم أنهم كانوا على خير وأنهم يسرعون تشوّقاً إلى الجوائز ، والذين يباشرون شئون الموتى يعلمون أن الميت تظهر عليه علامات حُسْن الخاتمة ، أو العياذ بالله علامات سوء الخاتمة .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١) ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

هذا الكلام متصل بما قبله ، فالسابقون المقرَّبون تجدهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[الواقعة] أى : جماعة تمثل كثرة ﴿مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[الواقعة] أى : من الأولين فى الإسلام السابقين إليه وهم جماعة الصحابة رضى الله عنهم .

فالسابقون المقربون كُثْر فى عصر الصحابة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة] أى : هؤلاء قلة فى العصور التالية ، قلة هم الذين يُوصفون بأنهم سابقون مُقربون فى عصرنا وفى العصور السابقة علينا فى هذه الأزمان المتأخرة .

وكثيراً ما نسمع جدالاً بين الناس يقولون : فلان رجل طيب يفعل كذا وكذا من أعمال الخير وهو أشبه بالصحابة ، فيرد الآخر يقول : لا ليس بيننا أحد كالصحابة ، ولا يرقى عملنا مهما كان لدرجتهم .

لكن القرآن يحسم لنا هذه القضية ، فالسابقون المقربون موجودون فى أمة الإسلام ، فى الأولين الذين عاصروا رسول الله

---

(١) قال عروة بن رويم : لما أنزل الله تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة] بكى عمر وقال : يا رسول الله آمنا بك وصدقناك ومع هذا كله من ينجو منا قليل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الواقعة] فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال : يا عمر بن الخطاب قد أنزل الله فيما قلت ، فجعل ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فقال عمر : رضينا عن ربنا وتصديق نبينا . فقال رسول الله ﷺ : من آدم إلينا ثلة ، ومنى إلى يوم القيامة ثلة ، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله . [أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٢٢٩] .

والتابعين لهم ، وموجودون كذلك حتى عصرنا الحالى لكنهم كثيرون فى الأولين قليلون فى الآخرين .

قليلون إما لكثرة الناس فيظهر السابقون بينهم قلة ، وإما لتفشى الفتنة وكثرة الفساد ، إذن : هم موجودون . لذلك قال الشاعر :

إنَّ الذى جَعَلَ الحَقيقةَ علْقماً ... لَمْ يُخْلِ منْ أهْلِ الحَقيقَةِ جِيلا
ولَرُبّما قَتَلَ الغرَامُ رِجَالَها ... قُتل الغَرَام كَم استَبَاحَ قَتيلاَ

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾[الواقعة] أى : جزاؤهم وإقامتهم فى الجنة ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾[الواقعة] أى منسوجة نَسْجاً دقيقاً متداخلاً بخيوط الذهب ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ..﴿١٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : على هذه السُّرر ، والاتكاء وضع يدل على الطمأنينة والراحة والرفاهية .

﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : أنهم فى وضع التقابل لا التدابر ، وجوههم متقابلة ، وهذا الوضع يدل على الأُنس والراحة ، حيث تتقابل الوجوه التى يملؤها البِشْر والسرور ، وهذا الوضع متوفر لهم دائماً حتى مع حركتهم لا يتدابرون .

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ[1] مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

---

(١) الولدان : الغلمان . وقال الحسن البصرى : هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنات فيجزون بها ، ولا سيئات فيعاقبون عليها ، فوُضعوا بهذا الموضع . وفى المخلدين قولان : أحدهما أنه من الخلد ، والمعنى أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون وهم على سن واحد .
والثانى أنهم مُقرَّطون ويقال مسوَّرون . ذكره الفراء وابن قتيبة . أى أنهم يلبسون الأقراط والأساور . [زاد المسير لابن الجوزى – آية ١٧ الواقعة] .

ومن نعيم الجنة الذى يتنعَّمون به ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧)﴾[الواقعة] يطوف عليهم بأكواب الشراب ويقوم على خدمتهم ولدان ، وهم الصبيان الصغار حسان الوجوه ، فرؤية الوجه الحسن من النعمة ، وهؤلاء يبقون على هذا الشكل وفى هذا السن لا يكبرون .

وهذا حال أهل الجنة عامة أنهم يبقون على سِنٍّ واحدة هو سِنّ الشباب والفتوة ، لا يصيبهم هرم ولا كِبَر ، لذلك قال فى النساء ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾[الواقعة] أى : فى سِنٍّ واحدة .

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾[الواقعة] أى : يطوف عليهم الولدان الحسان بأكواب جمع كوب و (أباريق) جمع إبريق ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾[الواقعة] أى : من ماء عذب يجرى من العيون ، أو من خمر ، وهذه هى أدوات الشراب .

الفرق بينها أن الكوبَ إناء يُشرب فيه ليس له يد تمسكه منها ، وليس له (بزبوز) يُصبُّ منه الماء ، فإنْ كان للإناء يد و(بزبوز) فهو إبريق ، أما الكأس فهو الكوب شريطة أنْ يكون ممتلئاً .

وهم فى هذا النعيم ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا .. (١٩)﴾[الواقعة] طالما قال ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾ [الواقعة] إذن : الكلام عن شراب الخمر ، فلا بُدّ أنْ يُنزهها عن خمر الدنيا ، فقال ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا (١٩)﴾ [الواقعة] أى : لا يصيبهم ما يصيب شارب الخمر فى الدنيا ، لا يصيبهم صداع .

﴿وَلَا يُنزِفُونَ (١٩)﴾[الواقعة] لا تذهب الخمر بعقولهم كما تفعل خمر الدنيا ، وهكذا يكون خمر الآخرة متعة صافية ، خلصت من كل شائبة ومن كل نقيصة .

وخمر الدنيـا أول ما تعطى شاربها تُعطيه صداعـاً ، ثم يشعر أنه يريد أنْ يسـتفـرغ أو يقىء مـا فى بطنه ، وهذا مـعنى ﴿ وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩) ﴾[الواقعة] فخمر الآخرة لذة لا يشعر شاربها بهذا الشعور ، فهى متعة وسرور خالص من كل ما يكدر .

والعجيب أنْ نرى كثيراً من شـاربى الخمر يشربونها ، لأن عندهم هماً يريدون الخلاص منه ، فيستر عـقله ، ويُذهبه بشرب الخمر حتى لا يُفكر فى همه ، وهكذا تتعقد الأمور ولا تحل مُشكلة ، فستْر الهَمِّ لا يُذهبه ، والعاقل هو الذى يواجه المـواقف ، وينظر فى أسباب الخروج من الهَمِّ بالتفكير والتأمل والبحث عن حلول عملية .

والقرآن لما تكلم عن الخمر قال : ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ..(١٥) ﴾ [محمد] فجاء لهم بشـىء كانوا يرتبطون به ويحبونه ويجـدون فيه متعة فجَعله من نعيم الآخـرة ، لكن صفَّاه ممـا يشوبه من نقائص شـراب الدنيا ، فقال ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩) ﴾ [الواقعة]

﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾

أى : ومن نعيم الجنـة أيضاً أنهم يجدون الفـاكهة أمـامهم ﴿ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) ﴾[الواقعة] هم ومما يحبون ، يتـخيّرونها من بين أنواع كـثيـرة ليـعرفـوا الفرق بـين هذه وهذه ، والاختـيـار يدل على كثـرة المعروض عليهم .

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾[الواقعة] أى : مما يُفضلون ومما يُحبون .

وهكذا أتى لهم بالطعام والشراب والفاكهة ، فماذا تبقى من متعة الإنسان فى الدنيا ؟ قالوا : متعة النساء ، فقال بعدها : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) ﴾[الواقعة] ليستوعب كلَّ المتع .

والحور جمع حوراء ، والحَوَر صفة جمال فى المرأة ، وهى شدة سواد العين مع شدة بياضها ، سواد ناصع وبياض ناصع مع اتساع العين ، لذلك مدح الشاعر العربى القديم هذه الصفة فقال :

إنَّ العُيُونَ التى فِى طَرْفِها حَوَرٌ ... قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيِين قَتْلانَا
يصرعن ذَا اللبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ ... وَهُنَّ أضْعَفُ خَلْق الله إنْسَانَا

ثم وصف هؤلاء الحور العين ، فقال ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) ﴾ [الواقعة] واللؤلؤ جميل بذاته وله بريق وجاذبية ، وهو مع ذلك ﴿ الْمَكْنُونِ (٢٣) ﴾[الواقعة] أى : محفوظ ومصُون لا يلحقه غبار يُقلل من جماله وبريقه .

ونفهم من معنى ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) ﴾[الواقعة] أن الحور العين لسْنَ فى المتعة كنساء الدنيا فإن اشتهيت النساء تجد مشاعر أرقى ولذة أرقى من هذا الذى يحدث مع نساء الدنيا .

وهذه اللذة ترتقى حتى تصل إلى درجة العليين ، وهذه الدرجة ليس فيها متعة من طعام أو شراب أو نساء ، إنما يكفيهم لذة النظر إلى الله عز وجل .

هذا كله ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾[الواقعة] أى : بسبب

أعمالهم الطيبة نالوا هذا الجزاء ، وهذا يعنى أن الأعمال ليست مقابل الجزاء ، وإلا فقد ورد فى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله قال : « لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[1]

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾

أى فى الجنة ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] اللغو هو الكلام الذى لا خير فيه أو هو الباطل ﴿ وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] لا يؤثم بعضهم بعضاً لأنهم لا يفعلون فيها الإثم ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴿٢٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : لا يسمعون فيها إلا هذه الكلمة كلمة السلام .

بمعنى أنْ يسلم بعضهم على بعض أو تسلم عليهم الملائكة ، أو أشرف من هذا ، وهو أن يُسلِّم عليهم الحق سبحانه وتعالى ، كما قال فى (يس) : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾
وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾
وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (حديث ٥٠٣٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من أحد يدخله عمله الجنة . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى ربى برحمة » .

سبق أنْ حدثتنا الآيات عن مراتب ثلاث : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، ثم السابقون ، ثم بينتْ جزاء السابقين ، وأنهم كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين . والآن تذكر الآيات جزاء أصحاب اليمين .

وسوف نلاحظ أن جزاءهم فى الجنة أقل مرتبة من السابقين المقربين ، فكأن السياق القرآنى يُفصِّل القول فى هؤلاء الثلاثة بعد إجمال .

يقول تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) ﴾[الواقعة] فكررها هنا بعد (ما) التعجبية ليفيد التعظيم والتفخيم لهؤلاء ، كما تقول : أعطيته ما أعطيته وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) ﴾ [النجم] يعنى : أوحى إليه شيئاً عظيماً يجلّ عن الوصف أو الحصر .

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) ﴾ [الواقعة] السدر : جمع سدرة وهى شجرة النبق ، وهذه الشجرة لها مزية كبيرة ، وهي أن سدرة المنتهى شجرة نبق ، وإن كانت في الحقيقة ليست كشجرة النبق التى نعرفها .

لذلك لما وصف ثمرها قال « كقلال هجر »[1] وثمر النبق حينما يستوى وتكون شجرته فى أرض طيبة وبيئة صالحة تجده لذيذاً حلواً

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤١٧/١) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يخرج من تحت سدرة المنتهى أربعة أنهار ، اثنان باطنان واثنان ظاهران ، ورأيت ورق الشجرة كآذان الفيلة وحملها كقلال هجر » . وقال : حديث صحيح مشهور من حديث قتادة عن أنس .

تأكله واحدة بعد الأخرى ، لا تحب أنْ تتركه .

والذى يعكر هذه اللذة أن شجرة السدر لها شوك يؤذيك كلما أردتَ أنْ تتناول ثمرة منها ، وكثيراً ما نرى الشوك فى الأشجار النفيسة لحماية ثمارها ، كما فى الورد وفى النخل يحميه من الفئران ومن الحشرات .

أما فى الجنة فقلنا : إن النعيم فيها خَالٍ مما يشُوبه ومما يعكر صفوه ، فسدْر الجنة ﴿مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾[الواقعة] أى : مقطوع منه الشوك ، نزعنا منه ما يؤذى وأبقينا على المتعة واللذة ، والجنة ليس فيها آفات ولا حشرات تحتاج إلى أشواك لحماية الثمرة .

ومعنى ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة] الطلح شجر الموز(١) ﴿مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة] منظوم مرصوص بعضه فوق بعض ، كما نرى فى سباطة الموز ، وما فيها من تنسيق وترتيب بين أصابع الموز .

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾[الواقعة]ظل ممتد دائم لا يزول ، ومعلوم أن الشمس هى التى تزيل الظل ، والجنة ليس فيها شمس ، فظل هذه الأشجار ظل دائم ممدود .

---

(١) الطلح : فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الطلح الموز . قاله ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة والحسن وعكرمة .

الثانى : أنها شجرة تكون باليمن وبالحجاز كثيراً تسمى طلحة .

الثالث : أنه الطلع . قاله على . [تفسير الماوردى آية ٢٩ - الواقعة] .

﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ[1] (٣١) ﴾[الواقعة] ثم ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) ﴾[الواقعة]بالله بعد أنْ استوفى لذة الطعام والشراب والتفكه ، ماذا يبقى من متع للإنسان ؟

يبقى متعة النساء فيعبر عنها السياق القرآنى هذا التعبير الأدبى اللطيف ، ويُكنِّى عنها بقوله سبحانه : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) ﴾[الواقعة] والفُرُش جمع فراش ، والفراش هو المحل ، ولذلك يُسمُّون المرأة فراش الرجل ، وهذا تعبير راقٍ لهذه المتعة التى تقوم على الستر والصيانة ، لذلك قال بعدها :

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ (٣٥) فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا (٣٦) عُرُبًا[2] أَتۡرَابٗا (٣٧) لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (٤٠) ﴾

إذن : فهمنا من الفُرش أنها كناية عن النساء أنه سبحانه قال بعدها ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) ﴾[الواقعة] أى الحور العين أنشأهن الله

---

(١) ماء مسكوب : قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٦١٠) « أى : جار لا ينقطع. وأصل السكب الصب . أى وماء مصبوب يجرى الليل والنهار فى غير أخدود لا ينقطع عنهم » .

(٢) عربا أترابا : العُرُب : جمع العَرُوب : المرأة المتحببة إلى زوجها . [القاموس القويم ٢/ ١٣] . أما الأتراب فهن اللاتى على ميلاد واحد متماثلات مستويات فى سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٦١٢] .

وخلقهن خلقاً جديداً ونشأة جديدة .

فلا تأخذ الصورة التى عندك فى الدنيا فتقول أنها ستكون معى أيضاً فى الآخرة ، نعم ستكون معك إنْ كانت من أهل الجنة ، لكنها ستكون على صورة أخرى مُنقاة مُطهرة مما كان يشوبها فى الدنيا ، خالية من كلّ ما لا يعجبك منها .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران] مثل واحد صاحبنا كنا نتكلم فى قوله تعالى : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يس] فقال : آه يعنى فلانة ستكون معى حتى فى الجنة ؟ فقلت له : نعم لكن بعد أنْ يُطهرِّها الله من الذى لم يعجبك فيها فى الدنيا .

ومعنى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الواقعة] يعنى : كل ما الواحد يعمل العملية يجدها بكراً فلا يزهد فيها ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الواقعة] عُرباً جمع عَرُوب وهى المرأة المتحبِّبة لزوجها ﴿ أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الواقعة] أى : فى سن واحدة ، وهذا يعنى أن العين لا تمتد إلى غير الزوجة .

وقوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الواقعة] يعنى : هذه المرتبة وهم أصحاب اليمين منهم كثرة من الأولين وكثرة من الآخرين ، فهم متساوون هنا وهنا ، أما فى المرتبة الأعلى وهم السابقون فكانوا كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين .

ثم يُحدِّثنا عن الصنف الأخير والعياذ بالله :

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ(١) وَحَمِيمٍ (٤٢)
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ(٢) (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ(٣) ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)
أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩)
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ﴾

أصحاب الشمال هم الذين يأخذون كتبهم بالشمال والعياذ بالله ، وقال هنا أيضاً : ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١)﴾ [الواقعة] تعجباً من حالهم ، وأن ما يُقاسونه من ألوان العذاب يفوق الوصف .

فهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢)﴾ [الواقعة] أى : مظروفون فى سَمُوم وحميم . والسَّموم ريح شديدة الحرارة تخترق مسام الجسم ، والحميم الماء الذى بلغ غاية الحرارة .

---

(١) سموم : الريح الحارة المؤذية التى تؤثر فى الأجسام كأنها مادة سامة تنفذ فى المسام . [القاموس القويم ١/٣٢٩] والسموم أيضاً نار جهنم قال تعالى : ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الطور] .

(٢) كريم : فيه قولان :

الأول : لا بارد المدخل ، ولا كريم المخرج . قاله ابن جريج .

الثانى : لا كرامة فيه لأهله . ويحتمل ثالثاً : أنه يريد لا طيب ولا نافع . [تفسير الماوردى - آية ٤٤ الواقعة] .

(٣) الحنث : الذنب والإثم . [القاموس القويم ١/١٧٥] وقيل : هو الشرك لأنه أعظم الذنوب .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) ﴾ [الواقعة] اليحموم : دخان أسود شديد الحرارة ، فإذا رأوْه ظنّوْه ظلاً فإذا به نار تحرقهم ، ثم يصف هذا الظل بأنه ﴿ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) ﴾ [الواقعة] لأن الظل عادة نأمل فيه أنْ يكون بارداً لطيفاً يحمينا حرارة الشمس ، وكريم يُكرم فيه الإنسانُ ويستريح ، أما ظل هؤلاء والعياذ بالله فيظلهم الدخان الملتهب .

ثم يجيب القرآن الكريم على هذا السؤال : لماذا فعل الله بهم هذا ؟ فيقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) ﴾ [الواقعة] أى فى الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، فقال فى السابقين : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

كذلك أصحاب الشمال يواجهون هذا المصير لأنهم كانوا فى الدنيا مترفين ، والترف فى ذاته ليس ذنباً ، أما هؤلاء فقد قصروا الترف على أنفسهم ولم يعدوه إلى غيرهم ، بل بخلوا به على الناس الذين لا ترفَ عندهم ، ولا يؤدون حقّ الله فيما أترفوا به ، هذا هو المترف .

أما الذى يؤدى حقّ الله وينفع بترفهه الغير فلا يُعَدُّ مُترفاً لأنه بترفه يحقق للآخرين شيئاً ضرورياً ، فالذى يجدد فى منزله أو يغير أثاث بيته لا يُسمّى هذا ترفاً لأنه أخرج من ماله للنفع العام ، وحقق ضرورة للطبقات الأدنى التى تنتفع من ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) ﴾ [الواقعة] الحنث : الذنب والمعصية والمخالفة التى تُوقع صاحبها فى الإثم . وقالوا الحنث : الشرك لأنه وصف بالعظيم ، والشرك أعظم الذنوب .

إذن : جمعوا بين الترف والنعمة ومعصية المنعم سبحانه وتعالى

بقمة العصيان وهو الكفر به سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

بل وأعظم من ذلك ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) ﴾ [الواقعة] فينكرون البعث لأنهم ما قدَّموا شيئاً ينفعهم فى هذا اليوم ، فلو حدث البعث والحساب فعاقبتهم سوداء ، فحظهم إذن أنْ ينكروا البعث ، أو لو كان البعث فى بالهم ما تجرأوا على المعصية ، وما وقعوا فى الكفر والشرك .

فردَّ الله عليهم بما يؤكد لهم هذه الحقيقة التى ينكرونها ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ﴾ [الواقعة] وقد سبق أن أكدها فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ [الواقعة]

لذلك قال مسروق [1] رضى الله عنه : مَنْ أراد علم الأولين والآخرين ، والدنيا والآخرة والثواب والعقاب فليقرأ سورة الواقعة .[2]

ويُروى أن سيدنا عثمان رضى الله عنه بلغه شىء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقطع عنه عطيته ، فلما مرض ابن مسعود ذهب إليه عثمان يعوده ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال : أشتكى ذنوبى —

---

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمدانى الوادعى ، أبو عائشة ، تابعى ثقة من أهل اليمن . وقدم المدينة فى أيام أبى بكر وسكن الكوفة وشهد حروب على ، وكان أعلم بالفتيا من شريح . توفى ٦٣ هـ / ٦٨٣ م (الأعلام للزركلى ٢١٥/٧) .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (كلام مسروق ٩) : « من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة » . وأورده القرطبى فى تفسيره وكذا ابن عادل فى تفسير اللباب وإسماعيل حقى فى تفسيره .

وهذا حال الذين يعيشون بالله ومع الله - فلم يقل : أشتكى رأسى ولا بطنى ، فقال : وماذا ترجو ؟ قال : أرجو رحمة ربى ، فقال له : نُرجع لك العطاء الذى كان لك ؟ فقال : منعته عنى وأنا صحيح ، وتريد أنْ تعطينى إياه وأنا أحتضر ؟ فقال : يكون لأولادك ، فقال : ليسوا فى حاجة إليه لأنى علَّمتهم سورة الواقعة ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة لا تصيبه فاقة أبداً » .(1)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ
مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ
مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ(2) ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ
يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد أنْ أكَّد لهم الحق سبحانه أنهم مبعوثون ومجموعون ليوم معلوم ، أخذ يُبيِّن لهم جزاءهم فى هذا اليوم . وشجرة الزقوم فُصِّل القول فيها فى موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان]

---

(1) أخرجه البيهقى فى شُعب الإيمان (٢٣٩٦ ، ٢٣٩٧) مختصراً بلفظ « من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » . وقد أورده القرطبى فى تفسيره بطوله وعزاه لأبى عمر بن عبد البر فى التمهيد والتعليق والثعلبى أيضاً . وكذا النسفى فى تفسيره (٣٩٦/٣) .

(2) شرب الهيم : الهيم : جمع أهيم أو هيماء وهى الإبل الظماء . هام البعير : اشتد عليه الظمأ فإذا رأى إناء اندفع إليه فأكثر من شربه . [القاموس القويم ٣١٢/٢] .

وقال عنها : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات]

يريد أن يُبشِّع منظرها ، فشبّهها بشيء فظيع لم يره أحد وهو رؤوس الشياطين ليذهب الناس في تصور بشاعتها كل مذهب ، ولو شبّهها بشيء بشع معلوم للناس لوقفوا عنده في بشاعته ، وسبق أنْ أوضحنا أننا لو أعلنّا عن مسابقة بين الرسامين لرسم صورة للشيطان فسوف يتقدم كلُّ رسام بصورة بشعة تختلف عن التي يقدمها غيره ، ويمكن أنْ نجمع ملايين الصور البشعة للشيطان ، فلكلٍّ رسام تصوّره في البشاعة .

لذلك شبّه القرآن شجرة الزقوم وهي شيء مجهول برؤوس الشياطين ، وهي أيضاً مجهولة على خلاف العادة في التشبيه ، وهي أنْ نشبه مجهولاً بمعلوم . وقلنا : إن الإبهام هنا هو عين البيان ، كما أبهم وقت الموت وقيام الساعة .

ومعنى : ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[الواقعة] دليل على أنه لا طعام لهم غيره يملأون منه بطونهم ، وهذا لون آخر من العذاب أن تمتلىء بطونهم منه ، هذا عن الطعام ، فماذا عن الشراب والعياذ بالله ؟ ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الواقعة] والحميم هو الماء الحار الذي تناهى حَرُّه وبلغ الغاية .

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾[الواقعة] الهيم : الإبل العطاش التي تشرب بكثرة ولا تروى . إذن : يملأون بطونهم من شجرة الزقوم ، ثم يحتاجون للشراب الذي يُلطف حرارتها فيسقون الحميم ، وأيضاً يشربون منه ملء بطونهم ، وفي آية أخرى قال عن الحميم :

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد]

وبعد هذا العذاب يُوبِّخهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴾ [الواقعة] لأن النُّزُل ما أُعدَّ لاستقبال الضيف وألوان الطعام والشراب ، فقال هنا ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ .. (٥٦) ﴾ [الواقعة] على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية منهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ(١) (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

مسألة الخَلْق مُسلَّم بها لله وحده ولم يدَّعها أحد ، لذلك عبَّر عنها بهذا الأسلوب المؤكد ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ .. (٥٧) ﴾ [الواقعة] فقصر الخلق عليه سبحانه ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ﴾ [الواقعة] يعنى : إذا قلتُ لكم هذه الحقيقة فلا تُكذّبوا بها ولا تُصدِّقوا المضلين الذين يُحدِّثونكم عن عملية الخَلْق ، لأنهم كاذبون .

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا(٢) (٥١) ﴾ [الكهف] وقلنا : إن الدعوى تثبت

---

(١) منَى وأمنى : قذف من فرجه الماء الذى يتكوَّن منه الجنين ولو فى الحلم وهو نائم ويسمى الماء منياً . [القاموس القويم ٢/٢٤١] .

(٢) عضداً : أعواناً . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه . وفلان يعضد فلاناً أى يعينه . [لسان العرب – مادة : عضد] .

لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، ولم يعارض أحد في مسألة الخَلْق حتى الكفار ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ﴾[الواقعة] هذه مرحلة من مراحل الخَلْق ، الذى بدأ أولاً من طين ، كما أوضحت الآيات التى فصّلت مراحل الخلق : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ[(١)] (٨) ﴾ [السجدة] فالمرتبة الأولى كان خَلْق آدم عليه السلام من الطين ، والمرتبة الأخرى خلق ذريته من ماء مهين .

وأنتم تشاهدون عملية التناسل التى تتم بالتقاء الذكر والأنثى ، فخذوا منها دليلاً على صدقى فى الأولى ، لذلك قال : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ﴾ [الواقعة] أى : فى وجودكم بالتناسل . وكلمة ﴿ فَلَوْلَا .. (٥٧) ﴾ [الواقعة] للحضِّ والحث والعرض .

لذلك يُحدِّثنا هنا عن هذه المرحلة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ﴾ [الواقعة] والمنى هو ماء الرجل الذى يُقذف فى رحم المرأة والذى يكون منه الجنين .

وفى موضع آخر قال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم]

فالنطفة هى الجرثومة التى يكون منها الإيجاد ، والمنى هو

---

(١) ماء مهين : ماء ضعيف . قاله مجاهد . [قاله الماوردى] وقال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : « ممتهن لا يُعتنى به وهو المنى » .

السائل الذى تعيش فيه النطفة . الحق سبحانه يقول : أرأيتم هذه النطفة التى لا تكاد تُرى ، أأنتم تخلقونها بشراً سوياً مكتملاً ، أم نحن الخالقون ؟

﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾[الواقعة] والاستفهام هنا للتقرير ، فليس هناك إلا جواب واحد هو أن الخلق لله وحده ، ولو كنتم أنتم الخالقين ما اشتكى أحد منكم من هذه المسألة وأنه لم ينجب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ [الواقعة]

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن الخَلْق والإيجاد من عدم ، يقول لنا : إياكم أنْ تَغْتَرّوا بأنْ أوجدناكم فى أحسن تقويم ، فالذى وهبكم الحياة قادر على أنْ يسلبها منكم .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [الملك] فذكر الموت أولاً لنستقبل الحياة بلا غرور ، فالقوى لا يغتر بقوته وجبروته ، والغنى لا يغتر بغناه ، واذكر دائماً أنك ستموت ، لذلك قبل أنْ نستقبل الحياة استقبلنا الموت .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ..(٦١) ﴾[الواقعة] لا يغلبنا أحد ، ولا يمنعنا أحد أن نأتى بخَلْق جديد غيركم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾[إبراهيم] وواقع الحياة يؤيد ذلك فقد خلقتُ قبلكم الجن ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾[الواقعة] أى : نخلقكم على صورة أخرى قبيحة بعد أنْ كنتم فى أحسن تقويم .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ ..(٦٢) ﴾[الواقعة] أى : الخلْق الأول ، وهو خلْق آدم عليه السلام من طين واستدللتم على صدقها بما شاهدتموه من النشأة الثانية أى الخلْق بالتناسل ، وما دُمتم علمتم هذا ﴿ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾[الواقعة] أى : هلاَّ تذكرون قدرة الله وتجعلونها دائماً على بالكم . وقالوا : النشأة الأولى أى : خَلْقكم الأول فى الحياة الدنيا .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

بعد أن حدثنا الحق سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان يحدثنا عن خلق النبات ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ﴾[الواقعة] والحرث مكان الزرع واستنباته ، لأن الفلاح قبل أنْ يبذر البذور يحرث الأرض ليُقلِّب التربة فيتخللها الهواء وتزيد خصوبتها ، فمن الأرض خُلِق الإنسان الأول آدم ومن الأرض خلق النبات .

والحق سبحانه يسألنا وهو أعلم ، فالسؤال إذن سؤال تقرير ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾[الواقعة] فترك الحرث وذكر الزرع ، لأنه هو المراد والهدف من عملية الحرث .

الحق سبحانه يوضح لنا قدرته فى هذه المسألة فلا أحدَ يدَّعى أنه يُخرج هذا الزرع من الأرض ، فهى عملية خَلْق لم يدَّعها أحد .

وبعد أنْ ينمو الزرع ويزهر ، هل تقدرون على حمايته ؟

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ ﴾[الواقعة] فتاتاً وهشيماً تذروه الرياح ولا تنتفعون منه بشيء . إذن : أتى للإنسان بالحياة وما ينقضها من الموت ، ثم أتى بحياة النبات وذكر ما ينقضها من جفافه وجعله فتاتاً لا فائدة منه .

لذلك لما مثَّل للحياة الدنيا قال سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. ۝٤٥ ﴾ [الكهف]

إذن : إياك أنْ تغترَّ بزرعك وجماله ونضرته ، فنحن في الحقيقة الزارعون ، ونحن القادرون على الذهاب به ، فكلُّ دورك أيها الإنسان أنْ ترمي البذرة في الأرض ، ولا دخلَ لك بعد ذلك في عملية الإنبات وما فيها من إعجاز وقدرة هي لله وحده .

ونحن نرى محصول القطن مثلاً يزدهر ويُبشِّر بدخل وفير ، وفجأة وقبل أنْ يستوي للجني تأتيه آفة فتقضي عليه ولا يستطيع أحدٌ منعها ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ ﴾[الواقعة] تنظرون في تعجُّب ماذا حدث ؟ وكيف أخذ المحصول بهذه السرعة وتقولون : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ ﴾[الواقعة] زرعنا ولم نحصد [1] ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ ﴾[الواقعة] محرومون من ثمرة زرعنا .

---

(١) قال الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرم ، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض أي : غرمنا الحَبَّ الذي بذرناه . [تفسير القرطبي ٩/٦٦٢١] .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ[1] أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

بعد أنْ تحدَّث عن الطعام يتحدث عن الماء ، وهما العمدة في مقوِّمات الحياة : الغذاء والماء ، وسبق أنْ أوضحنا أن مقومات الحياة ترتب بحسب الحاجة إليها ، فأولها الهواء ثم الماء ثم الغذاء ، فالهواء تحتاجه كل لحظة ولا تصبر على منعه عنك ، لأنه لو مُنِع عنك نَفَس واحد تموت .

لذلك من حكمة الله تعالى أنْ جعله مشاعاً لا يملكه أحد ، ثم تصبر على الماء حتى عشرة أيام ، لذلك في العادة والغالب تجد الماء مجاناً وقلما تملَّكه الناس ، أما الطعام فيمكن أنْ تصبر عليه حتى شهر ، لأنك لو مُنِع عنك الطعام يتغذَّى الجسم على المخزون فيه من الدهون .

ونلاحظ على الأسلوب هنا أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن الحرث والزرع قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة] بلام التوكيد ، أما في الحديث عن الماء فقال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾[الواقعة] بدون توكيد للفعل جعل ، قالوا : لأن الإنسان له دَخْل في عملية الزرع ، حيث يحرث ويبذر ويجني .

أما الماء فلا دخل لأحد فيه ، فعملية إنزال المطر خاضعة لقدرة الله وحده ، ومَنْ يقدر على إنزال قطرة واحدة من المطر ؟ ولك أنْ

(١) المزن : السحاب . وقيل : السحاب الأبيض . [القاموس القويم ٢/٢٢٥] .

تتصوَّر المعاناة والتكلفة التى يتحملها مثلاً الصيدلى فى تحضير كوب واحد من الماء المقطر .

لذلك قال سبحانه ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) ﴾ [الواقعة] ولأن الإنسان لا دخلَ له فى عملية إنزال المطر ولا شبهة فيه كما فى الزرع . قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] أى : مالحاً لا تنتفعون به ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾[الواقعة] حضٌّ أيضاً على الشكر لهذه النعم التى تُساق إليكم ولا تدرُون بها .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ(١) (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾

معنى ﴿ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ﴾[الواقعة] توقدون من أورى الزناد، يعنى قدحه لإشعال النار ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾[الواقعة] كان أصل النار الخشب الذى يُؤخذ من الأشجار ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. (٧٣) ﴾[الواقعة] تذكرة باقية لكم .

ألا ترى أن الحق سبحانه ذكر النعمة وما ينقضها ، فبعد أن تكلم عن خَلْق الإنسان قال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ .. (٦٠) ﴾ [الواقعة] وبعد أنْ تحدَّث عن الزرع قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة]

---

(١) المقوين : قال الضحاك : أى منفعة للمسافرين ، سموا بذلك لنزولهم القُوى وهو القفر . قال الفراء : إنما يقال للمسافرين مقوين إذا نزلوا القيَّ وهى الأرض القفر التى لا شىء فيها . [تفسير القرطبى ٦٦٢٣/٩] .

وبعد أنْ حدثنا عن الماء قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة]

أما فى الحديث عن النار والعياذ بالله فقد تركها بدون أنْ يذكر ما ينقضها ، إنما قال بعدها : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. ﴿٧٣﴾ ﴾[الواقعة] جعلها هكذا قائمة لتكون تذكرة لكم ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الواقعة] المقوى هو الرجل المسافر المنقطع عن وطنه ، ويريد أنْ يشعل النار يستدفىء بها .

وبعد كل هذه النعم لم يبْقَ إلا أنْ نشكر الله عليها ، وأول الشكر أنْ تقول : سبحان المنعم علينا بكلِّ هذه النعم ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[الواقعة] لذلك دائماً ما نرى كلمة سبحان الله بعد كل أمر عجيب ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الروم]

لذلك قال العلماء : منْ قال عند النعمة سبحان الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله لا يرى فيها مكروهاً ولا تُصيبها آفة لأنك نسبت النعمة لواهبها فهو يتكفّل بها ، كالصانع الذى يبيعك سلعة ، ويعطيك معها شهادة ضمان كذا سنة ، وإذا أعطاك الحق سبحانه شهادة ضمان فهى مفتوحة غير موقوتة .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ .. (٧٥)﴾[الواقعة] بمعنى الإثبات أقسم بمواقع النجوم ، والمستشرقون لم يفهموا هذا المعنى لذلك اعترضوا على الآية وقالوا : كيف يقول لا أقسم ثم يأتي بعده بجواب القسم ، كأن القسم موجود .

ولبيان هذه المسألة نقول : القسم يمين ، لذلك فى إثبات الحقوق يقولون : البينة على المدعى واليمين على مَنْ أنكر ، فإذا عزَّتْ البينة نلجأ إلى اليمين . إذن : لا يتأتى اليمين أو القسم إلا للتأكيد وفى حالة وجود إنكار .

فحين تسأل مثلاً : هل محمد فى البيت ؟ يقول لك : نعم ، ولا يقول مثلاً : والله العظيم محمد فى البيت لأنك لا تكذّبه ولا تنكر عليه . فإنْ رأى منك ذلك أكّد لك الكلام بالقسم فقال لك : والله العظيم كذا وكذا .

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ[1] النُّجُومِ (٧٥)﴾[الواقعة] أن المقسم عليه واضح لا يحتاج إلى دليل ، ولا إلى بينة ، ولا إلى تأكيد وقسم ، ولو كنت مُقسِماً لأقسمتُ بما أقول ، لا أقسم بكذا وكذا .

ولك أنْ تتأمل القسم الذى جاء منفياً هكذا وفى جوابه ، فسوف تراه أمراً واضحاً لا يحتاج فى إثباته إلى قسَم مثل : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا

---

(١) هناك قراءة أخرى فى هذه الكلمة (بموقع) وهى قراءة حمزة والكسائى وعبد الله بن مسعود والنخعى والأعمش وابن محيصن ورويس عن يعقوب . أما الباقون فهى على الجمع (بمواقع). قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٦٢٥) : « فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه » .

الْبَلَدِ ①﴾ [البلد] وتوكيد الشيء الواضح الذى لا يحتاج إلى قسم يدعو إلى الشك فيه ، فلا يصح أنْ يؤكد .

ومواقع النجوم المنازل التى تسير فيها ، وهذا خَلْق من خَلْق الله ، فيه ما فيه من الإعجاز ومن الأسرار ، ثم إن الحق سبحانه يُقسم بما يشاء من مخلوقاته على ما يشاء ، لأنه تعالى الأعلم بهذه المخلوقات .

وفى موضع آخر قال عن النجم : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ⑯﴾ [النحل] والنجم حين يُشرق له أسرار ، وحين يغرب أو يهوى له أسرار نحن لا نعلمها ، لكن ربّ النجم يعلمها .

ويكفى لنا هذه الإشارة ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ⑰⑥﴾[الواقعة] خذوا بالكم وانتبهوا فلكم فوائد كثيرة فى مواقع النجوم أنتم لا تعرفونها ، وعدم معرفتك للشيء لا تقدح فى أنك تستفيد به وتنتفع بحركته .

فالفلاح مثلاً لا يعرف شيئاً عن كيفية عمل (التليفزيون) ، ولا عن كيفية بَثِّ الإرسال ، ومع ذلك يفتح (التليفزيون) وينتفع بما يقدمه لو كان نافعاً .

فالمعنى : لو تعلمون أسراره وفوائده لكم لوجدتموه عظيماً ، ونحن نرى بعض المهتمين بحركة النجوم والبحث عن أسرارها يقولون بارتباط ما بين النجم والإنسان .

فلكلٍّ إنسان منا نجمه فى السماء الذى يُشبهه ، فهناك نجوم ساطعة للمشاهير ، ونجوم دون ذلك ، ونجوم بعيدة لم يأتنا ضوؤها بعد ، لذلك يستخدمون تعبير : فلان هوى نجمه . يعنى : أفل وانتهى

دوره كناية عن نهاية الشخص .

ثم يأتى جواب القسم أو المقسم عليه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) ﴾ [الواقعة] أى : هذا الكتاب الذى بين أيدينا كريم ، ونشعر هنا بمناسبة ، فالمقسم به النجوم والمقسم عليه أيضاً نزل مُنجماً على مراحل . إذن : ذكر النجم السماوى ومعه النجم القرآنى .

ووصف القرآن بأنه كريم ، لأن الكريم هو الذى يعطى ما عنده ولا يبخل عليك ، كذلك عطاء القرآن للأجيال المتعاقبة عطاء واسع لا ينتهى وفيض لا ينضب أبداً .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) ﴾ [الواقعة] محفوظ مُصان فى اللوح المحفوظ ، ومحفوظ فى الصدور ، ولمكانته وعلو شأنه ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] مطهرون طهارة حسِّية من الحدث ، ومطهرون طهارة معنوية من التحريف والتدليس .

وختام هذه الصفات أنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الواقعة] فهو منسوب فى نزوله إلى رب العالمين الكريم للمؤمن والكافر ، واختيار صفة رب العالمين تدلنا على أن القرآن كتابٌ لكل العالمين .

فالذى نزّله ربّ العالمين الذى يعلم أحوال العالمين وما يصلحهم ، فهو خالقهم وأعلم بهم ، وقرآنه بالنسبة لهم هو كتالوج الصيانة الذى يحميهم ويحفظ سلامتهم بالمنهج ، فالذى خلق هو الذى أنزل هذا المنهج .

لذلك خاطب آدم وحواء بعد تجربة الأكل من الشجرة بقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

لذلك قلنا : لو سار العبد على منهج ربه وخالقه ما أصابه عطب أبداً ، وإذا رأيتَ فى رحلة حياتك (زرجنة) فقف وانظر ماذا أحدثتَ من خروج على منهج ربك ، وكان أحد الصالحين يقول : إنى لأجد أثر المعصية فى خُلق زوجتى ودابتى ، نعم مجرد أنْ (تحرن)[1] منه دابته يقول : ماذا فعلتُ ؟ والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١)﴾ [الرعد]

والذى يدلنا على أن النجم المقصود هو النجم القرآنى الذى تنزل به الآيات أنه تعالى أقسم به أى بالقرآن : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾[الواقعة] والكريم هو الذى يبذل الخير من عنده وعلى مقدار صفته فى الكرم ومدى استدامته .

ومن كرم القرآن أن عطاءه ممتد فى كل نواحى الحياة مادية ومعنوية ، ففى الزراعة والصناعة والاقتصاد والهندسة وفى اللغة والحكمة والقيم . ومن كرمه أنه لا يعطى عطاءه دفعة واحدة ، لأنه ما جاء لزمن بعينه إنما جاء للزمن كله إلى قيام الساعة .

ولو أن القرآن أفرغ عطاءه فى قرن واحد لاستقبلته بقية القرون بلا عطاء ، ونفهم هذا من السين فى قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ..(٥٣)﴾ [فصلت] إذن : عطاء مستمر ومتجدد ، لأن ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

ومن معانى الكريم أنه الشيء النفيس . ومنه قولنا حجر كريم . أى : هو فى ذاته كريم ، لذلك قال بعدها : ﴿فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ

---

(١) حرنت الدابة : التى إذا أريد جريها وقفت . وفرس حرون : لا ينقاد إذا اشتد به الجرى وقف . [لسان العرب – مادة : حرن] .

(٧٨) ﴾ [الواقعة] لأن الشيء النفيس لا بد أنْ يُحفظ فى خزانة تصونه .

فالقرآن مصون ومكنون عن أن تمسه إلا يد مطهرة ﴿ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] هم الملائكة ، والمطهر هو الذى طهَّره غيره ، فلم يقل المتطهرون ، لذلك يستدل بهذه الآية الفقهاء الذين يذهبون إلى جواز لمس المصحف للمحدث ، لأن المتطهر هو الذى يُطهر نفسه .

وهذه وردت فى مسألة الحيض : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فمعنى : (يطهرن) يعنى : يمتنع دم الحيْض ، ومعنى (تطهرن) يعنى : اغتسلن ، إذن : يطهرن جاءت من الغير لأن قطع الحيض من الله ، على خلاف التطهر بالاغتسال .

أما الذى اشترط الوضوء لمسِّ المصحف فقد نظر إلى الآية نظرة عامة ، ليبين أن المصحف ليس كأىٍّ كتاب آخر إنما له قداسة فى التناول ، لذلك يقول : أخذتموه من مُطهَّرين فلا تلمسوه إلا متطهرين .

إذن : وصف القرآن هنا بأوصاف ثلاثة أنه كريم ، وأنه محفوظ فى كتاب مكنون ، وأنه لا يمسُّه إلا المطهّرون ، يريد أنْ يقول سبحانه خذ هذا الكتاب بعناية ففيه عطاء لا ينفد ، ووصلك بأمانة كما أُنزل من الله ، فحافظ عليه حتى من أنْ يمسه غير مطهر .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الواقعة] هذه حيثية الأحكام المتقدمة كلها ، فهو كتاب كريم ولا يمسُّه إلا المطهّرون لأنه تنزيل من رب العالمين . ورب العالمين يعنى ربوبية وعطاء الربوبية وللكافر وللطائع وللعاصى ، فهو قرآن كريم فى عطائه من رب كريم يعطى عبده العاصى ولا يحرمه رغم عصيانه .

﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ
أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)(١) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)
وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ
وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦)
تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾

كلمة (الحديث) يراد بها القرآن ، قال تعالى :﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر] والحديث ما يتحدَّث الناس به ، والحديث الشيء الطارىء الجديد وقلنا : إن القرآن يعطينا كل يوم جديداً ، لذلك لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد(٢).

ومعنى : ﴿ مُّدْهِنُونَ (٨١) ﴾ [الواقعة] جمع مدهن ، وأصله الذى يأتى بدهان ويدهن الشيء ليلتصق بغيره ، ومعناه الملاينة والمصانعة ، وهنا بمعنى الشكِّ والتكذيب والاستهانة بهذا الحديث وهو القرآن .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله تعالى . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا . فنزلت هذه الآيات ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) ﴾ [الواقعة] حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ [الواقعة] أورده الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول) ص ٢٢٩ وعزاه لمسلم .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه رفعه إلى رسول الله ﷺ : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه » .

الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[البقرة] وفى سورة القلم قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القلم] أحبّوا أنْ تلاينهم وتصانعهم .

وقال تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة] أى : تجعلون نصيبكم وحظكم من الدنيا أنْ تكذّبوا بهذا الكتاب ، والرزق الذى ساقه الله إليكم تجعلونه وسيلة تكذيب لمنهج الله بدل أنْ تشكروا الرازق سبحانه الذى خلقكم من عدم ، وأمدكم من عُدْم .

فصدق فيهم قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[1] ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

ثم يذكر هؤلاء المكذبين بنهايتهم التى لا مفر منها : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة]

الضمير فى ﴿ بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة] ليس له عائد لأنه معلوم للجميع وهو الروح ، كما فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] والمراد الشمس . وكما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر] والمراد ظهر الأرض لأنه معلوم بداهة . صحيح أن الضمير لا يعود إلا على اسم ظاهر ، لكن إذا اتضح أمره واشتهر يمكن أنْ يعود على غير مذكور لأنه ما حُذف إلا للعلم به .

وبلوغ الروح الحلقوم يعنى الاحتضار ، فاذكروا أيها المدهنون

---

(١) دار البوار : دار الهلاك وهى النار . يبور : يبطل ويزول ولا يؤدى الغرض منه . [القاموس القويم ١/ ٨٩] .

هذا الموقف ، ماذا ستفعلون فيه ، وهل ستكذبون أيضاً فى هذا الموقف ؟

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة] تنظرون إليه وهو يحتضر فلا تملكون له شيئاً ، ولا تدفعون عنه الموت ، لأن الموت من الأمور المملوكة لله تعالى ليس لأحد فيها اختيار .

كلمة ﴿ فَلَوْلا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [الواقعة] حرف يفيد الحضّ والحثّ مثل هلاّ فعلت كذا . والحلقوم : أول القصبة الهوائية ، وهى موضع خروج الروح ، فقالوا أنها لا تخرج من القناة الهضمية ومجرى الطعام ، إنما تخرج من مجرى النفَس لأنه الأهم فى حياة الإنسان ، كما سبق أنْ رتّبنا أولويات الطعام والشراب والهواء . وقلنا : إن أهمها الهواء لذلك لا يصبر الإنسان على منعه أبداً ، ولو منعك النفَس لشهيق أو زفير تموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة] أى : فى هذا الموقف وفى وقت حشرجة الروح والنزع الأخير فى الوقت الذى لا حيلة لكم فيه نكون نحن أقرب إليه منكم ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة]

هذه الكلمة ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة] حلت لنا إشكالات متعددة ، لأن البعض يفهم مسألة معية الله فى مثل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة] و ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل] أنها معية علم ، ولو كانت كذلك ما قال سبحانه ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة]

إذن : هى معية حقيقية ولو كان عندكم بصر حديد يُمكّنكم من الرؤية لرأيتم ، فلم لا يتسع التصور فى المعية بدون تحيُّز ، ولك فى

نفسك مثال : فالروح التى تدير حركة حياتك كلها ، هل تعلم أين هى من جسمك ؟

إذن : أنت لا تدركها وهى فيك ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى الذى يدير هذا الكون كله ، فمعية الله بذاته التى ليستْ كالذوات ، فإذا كنتَ لا تدرك مخلوقاً لله فهل تطمع فى أنْ تدرك معية الله لك ؛ إذن فمخلوق لله لا يُدرَك ، فكيف تريد أن تدرك من خلق ما لا يُدْرَك !!

﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ [الواقعة] يعنى : فهلا ترجعونها أى الروح ، وهل لكم قدرة على ذلك ، والحال : أنكم بالفعل مدينون لنا وفى قبضتنا ، وأنكم مملوكون لنا ولا قدرة لكم على إرجاع هذه الروح التى قضينا بخروجها ، إذن : أنتم فى قبضة القدرة وإنْ كنتم خُلقتم مختارين .

ومعنى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ [الواقعة] أى : فى زعمكم بعدم وجود بعث وحساب .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ(١) وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) ﴾

حدَّثتنا السورة فى بدايتها عن هؤلاء الثلاثة ، وفى نهايتها يذكر

---

(١) الرَّوْح : الرحمة . وقال الزجاج : معناه فاستراحة وبرد وتأويل الروح بالرحمة قال تعالى : ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ (٨٧) ﴾ [يوسف] أى من رحمة الله ، سماها روحاً لأن الروح والراحة بها . والرَّوْح أيضاً : السرور والفرح . والروح : برد نسيم الريح . [لسان العرب مادة روح بتصرف] .

الحق سبحانه موجزاً جزاء كل نوع منهم ، فأولهم وأعلاهم درجةً هم السابقون أو المقربون . وقلنا : إنهم مُقربون من الله ومن الجنة ، وهم الذين بادروا بطاعة الله وداوموا عليها ولم يُدنسوا أنفسهم بمعصية فنالوا هذه المنزلة .

وجزاؤهم : (فروح) ، قالوا : يعنى رحمة من الله وسرور بنعمة الله . والرحمة تتناسب سعتها وعلوها بقدر الراحم ، فإذا كانت الرحمة من الله فهى رحمة لا حدود لها .

﴿ وَرَيْحَانٌ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة] نبات أخضر غضّ طرى له رائحة طيبة ، وهو نبات معروف ، وقد ورد فى قوله تعالى : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[1] وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرحمن] لكن ريحان الجنة شىء آخر غير الذى نعرفه فى الدنيا .

وقد بيَّن لنا سيدنا رسول الله ذلك ، فقال عن الجنة ونعيمها : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] .

ومعلوم أن ما رأتْ العين أقل مما سمعت الأذن ، لأن ما تراه العين محدود بقدرتها على الرؤية ، أما السمع فيسمع ما تراه العين وما لا تراه ويراه الآخرون ، فالأذن أوسع إخباراً ، وفوق ذلك

---

(١) العصف : التبن ، قال ابن عباس : العصف تبن الزرع وورقه الذى تعصفه الرياح ، وعن ابن عباس أيضاً : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه وييبس . [تفسير القرطبى ٦٥٥٦/٩] .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لا يخطر على القلب ولا يتصوره العقل ولا ورد على البال ، فما رأته العين موجود ، وما سمعته الأذن موجود ، لكن ما لا يخطر على البال هو شيء جديد لم نعهده ، ولا حتى يخطر لنا على بال من النعيم .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يعطينا وصفاً لنعيم الجنة لم يصف النعيم ذاته إنما وصف مثالاً له وكأنه فوق أنْ يُوصف بكلمات نعرفها نحن ، فقال سبحانه : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥)﴾ [الرعد]

والمتأمل فى نعيم الجنة يجد أنه يستوعب جميع حواس الإنسان ، ففيه متعة التذوق فى الطعام والشراب فى الفاكهة والماء والعسل واللبن ، وفيه متعة الرؤية فى رؤية الحور العين كاللؤلؤ المكنون ، ورؤية الغلمان الحسان وغيرها .

وفيه متعة اللمس فى لمس الحرير والإستبرق والسُّندس[1] ، وفيه متعة السمع ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)﴾ [الواقعة] وفيه متعة الشم فى الريحان الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ومعنى ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)﴾ [الواقعة] النعيم ما تستطيبه النفس وتتنعم به دون ألم يتأتى منه منغصات ، فهو نعيم خالص لأنك قد تأكل الأكلة أو تشرب الشربة فى الدنيا وتتمتع ، وقد تجد لها لذة صحيح لكن بعد قليل تجد لها ألماً أو آثاراً غير مرغوب فيها .

---

(١) السندس : رقيق الحرير الذى يتلوَّن ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٢١] .

لـذلك قـال سبحانه عن طعام الجنة ﴿ فَكُـلُوهُ هَنِيئًا مَّـرِيئًا (٤) ﴾ [النساء] فهو هنىء فى تناوله له لذة ومتعة ومرىء بعد ذلك لا يتعبك ولا تجد له منغّصات .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) ﴾ [الواقعة] أصحاب اليمين هم النوع الثانى ولم يُفصِّل القول فى النعيم الذى يجدونه ، واكتفى بأنْ يخـبر عنهم بما يدل على النعيم فهم فى سلام ، يُسلِّم بعضهم على بعض ، كلّ فوج يُسلم على الآخر ، أو تُسلم عليهـم الملائكة ، أو يسلم عليهم الحق سـبحانه وتـعـالى كمـا قال فى (يس) :﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس] وتحت هذا السلام من الرب الرحيم تنطوى النعم .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢)
فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) ﴾

هؤلاء والعيـاذ بالله أهل الشقـاوة وجزاؤهم فى النار ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) ﴾[الواقعة] النُّزل ما أُعدَّ للضـيف من قِرَى ، لذلك نسمى الآن الفنادق نزل ، فهـؤلاء أُعدَّ لهم الحمـيم طعاماً والحمـيم هو الماء الذى تناهى حَرُّه ، وأُعـدَّتْ لهَم الجحيم يصلوْنَهـا ويُقاسُون حـرارتها وآلامها .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْـرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النسـاء] وقلنا : فى هـذه الآية مظهـر من مظاهـر الإعـجـاز القرآنى ، فهـو أول مَنْ أثبتَ للعالم أن الجلد هو مركـز الإحساس فى الجسم .

هذا نُزل الكافرين المكذِّبين ، ويقابله نُزُل المؤمنين وهو الجنة ، الذى وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت] وللعاقل أنْ يقارن وأنْ يختار أىَّ النُّزُلين يريد .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

قلنا : إن العلم على مراتب ثلاث : علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين . وبعد أن ذكر الحق سبحانه نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الواقعة] أى : حين يباشرون نعيم الجنة ويدخلونها بالفعل ، وأهل النار يُقاسُونَ حرارتها بالفعل ، هذا هو حق اليقين وهو آخر مرحلة فى العلم .

وقد ذكرنا أن العلم درجات : علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين ، وفى سورة التكاثر ذكر الأولى والثانية : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر]

فعلم اليقين حينما يخبرك الصادق بالخبر ، وعين اليقين حينما ترى بعينك ، وحقّ اليقين حينما تباشر الشىء بنفسك .

والحديث هنا عن المرحلة الأخيرة ، وهى يوم القيامة حينما يباشر أهل الجنة نعيمها ، ويُقاسى أهل النار عذاباتها ، والجزاء فى الآخرة جزاء عادل جزاء مَنْ لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولولا هذا الجزاء ما استقامت للناس حياة فى الدنيا .

فالعصاة والأشقياء الذين شَقِى بهم المجتمع وذاقَ الأمرَّين من تجاوزاتهم لا يمكن أنْ يستووا مع المؤمنين الذى سعد بهم مجتمعهم

وانتفع ببرِّهم وكرمهم وصلاحهم .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يَغار على خَلْقه ويغضب لهم ويحميهم من مراتع الهلكة ، وإلا فالحق سبحانه وتعالى الغنى عن خَلْقه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لذلك كان على الخَلْق أنْ يستقبلوا الجزاء فى الآخرة بحمد الله وتسبيحه ، لأنه أسدى إليهم نعمة الجزاء فى الآخرة ولم يتركهم هملاً حتى النار وعذابها من نعم الله ، لذلك ختمت الآيات بهذا الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : جاء التسبيح نتيجة لما ذكره الحق سبحانه من نعيم دائم للمؤمنين وعذاب مقيم للكافرين ، وهو يستحق منا أنْ نسبح الله أى نُنزِّهه سبحانه عن كل نقص ونُنزهه سبحانه عن مشابهة الخَلْق ، وأنْ نثبت له سبحانه كلّ صفات الجلال والكمال والجمال ، وأنْ نؤمن بأنه سبحانه ليس كمثله شىء .

والحق سبحانه يعطينا من واقع حياتنا آية تدلنا على ذلك فالتاريخ ملىء بالجبابرة والعتاة مثل فرعون ومَنْ على شاكلته ، وقد وصل الحد بالناس إلى أنْ جعلُوهم آلهة من دون الله ، وقدموا لهم فروض الولاء والطاعة لكن لم يقُلْ لهم أحد أبداً سبحانك ، لأن هذا اللفظ لا يقال إلا لله وحده ، ولا يجرؤ أحد أنْ يقوله لغير الله .

كما قلنا فى لفظ الجلالة (الله) فمع وجود الكافرين والملحدين إلا أنهم لم يجرؤ أحد منهم على أنْ يُسمى هذا الاسم ، وما هذا إلا لأنهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أن الله حَقٌّ ، وأنهم لو تجرأوا على هذا الاسم لأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، لذلك قال سبحانه ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم]

ومثل هذه الخصوصية وجدناها فى فريضة الصيام ، فالشهادة : لا إله إلا الله يمكن أنْ تُقال لبشر ، ويمكن أنْ نرى المنافقين والأفاقين يرفعون وينفخون فى أحد الطغاة الظالمين ويقولون له أنت ولا أحد بعدك ، كما قال فرعون ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص] وفى التاريخ مواقف مثل هذا كثيرة .

والصلاة يمكن أنْ تجد من يسجد لبشر مثله وينحنى له ، والزكاة كذلك نرى مَنْ يقيم الحفلات و(يرش) من أجل فلان ، والحج يأتى كل أسبوع مثلاً ويُوقِّع فى دفتر التشريفات إظهاراً للولاء والتبعية .

أما الصوم فلم نجد أحداً تعبّد به لأحد من البشر ، لذلك ورد فى الحديث « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » [1] .

هذه مسائل ثلاث اختصّ بها الحق سبحانه نفسه ، ولا تكون إلا له سبحانه ، وهى دليل على طلاقة القدرة ، وعلى عظمة الذات العلية .

ومعنى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة] أى : الذى لا تُستوعب عظمته ولا تُدرك ، ونحن نقولها فى كل ركعة فى ركوعنا (سبحان ربى العظيم) ومن جميل السَّبْك الأدائى فى القرآن أن السورة التى بعدها سورة (الحديد) تفتتح بقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحديد] فكأن السموات والأرض وما فيهن استجاب لهذا الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة] فسبَّح .

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٧١) وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة (سبحان) مصدر . وحين تقول سبحان الله تثبت له سبحانه أنه مُسبَّح قبل أنْ يوجد مَنْ يُسبحه منْ خلقه ، كما قلنا فى صفة الخلق ، فالله متصف بهذه الصفة ، وخالق قبل أنْ يخلق شيئاً من خَلْقه ، فبصفة الخَلْق فيه تعالى خلق .

كذلك هو سبحانه وتعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يوجد أحد يُسبِّحه ، وهو راحم قبل أنْ يخلق مَنْ يرحمه .

إذن : صفات الله تعالى صفات ذاتية فيه سبحانه ، كما نقول فلان شاعر . لا نقولها لأنه قال قصيدة ، بل قال القصيدة لأنه شاعر ، ولو لم يكُنْ شاعراً بداية ما قالها .

وكلمة (سبحان) أتتْ فى القرآن عدة مرات مضافة للاسم الظاهر ، أو مضافة لكاف الخطاب ، أو مضافة لهاء الغائب ، فمع الاسم الظاهر جاءتْ ثمان عشرة مرة فى ثمان عشرة سورة أولها فى سورة (يوسف) : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف] وآخرها فى سورة (القلم) : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾ [القلم] فى قصة أصحاب الجنة .

ثم أول مصدر مضاف إلى كاف الخطاب فى سورة (البقرة) : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا .. (٣٢) ﴾ [البقرة] وقد ورد بكاف الخطاب فى تسع سور ، وبهاء الغائب فى أربع عشرة سورة أولها فى سورة البقرة : ﴿ سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾[البقرة] هذه المواضع مع المصدر الذى يثبت الصفة لله تعالى أزلاً قبل أنْ يوجد من خلق الله مُسبح .

ثم بعد أنْ خلق الله الخَلْق من السموات والأرض وما فيهن من الملائكة ومن الإنس والجن وباقى الكائنات امتثلتْ أمر ربها بالتسبيح

فسبَّحتْ وما تزال ، لذلك وجدنا هذا الفعل فى القرآن بصيغة الماضى وبصيغة المضارع المستمر إلى يوم القيامة ، فهى منظومة دائرة فى الكون كله باقية ما بقى إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ① ﴾ [الحديد] وقال : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [الجمعة] ثم جاء بصيغة الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٧٤ ﴾[الواقعة] أى : ياأيها الإنسان لا تشذ عن هذه المنظومة المسبِّحة وسبِّح أنت أيضاً .

والتسبيح أنْ نقول نحن العرب : سبحان الله ، وهذه لغة وألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، فكُلٌّ يسبح الله بلغته ، حتى الجماد والنبات والحيوان مُسبِّح بلغة يعلمها الخالق سبحانه ، وليس بالضرورة أنْ نعلمها نحن ، فإذا كنا لا نعلم كثيراً من لغات البشر فهل يطمع فى أنْ نعلم لغات المخلوقات الأخرى ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ٤٤ ﴾ [الإسراء] وهذا يعنى أنها تُسبِّح على وجه الحقيقة بلغة خاصة لا تسبيح دلالة كما يقولون .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ٧٩ ﴾ [الأنبياء] وفى قصة سيدنا سليمان وجدنا للنمل لغة ، وللهدهد لغة وللطير لغة .

وقد امتنَّ الحق سبحانه على سيدنا سليمان عليه السلام ، فعلّمه هذه اللغة فعلمها وفهم عن هذه المخلوقات ما تريد ، فاللغة تقوم على التفاهم ، البشر يفهم لغة البشر ، والحيوان يفهم لغة الحيوان ، والنبات يفهم لغة النبات ، والجماد يفهم لغة الجماد .


سورة الحديد

سورة الحديد[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾

يعنى : ما من شىء موجود فى السموات ولا فى الأرض إلا يسبح لله تسبيحاً على الحقيقة بلغته التى خلقها الله فيه لا تسبيح دلالة [2] كما يقولون بدليل ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ۝٤٤ ﴾ [الإسراء] لذلك لما قالوا فى معجزاته ﷺ أن الحصى سبّح فى يده [3]

---

(١) سورة الحديد سورة مدنية فى قول الجميع [قاله القرطبى فى تفسيره (٦٦٣٧/٩)] نزلت بعد سورة الزلزلة وقبل سورة محمد . عدد آياتها ٢٩ آية ترتيبها فى المصحف الشريف (٥٧) .

(٢) قال الزجاج : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ۝٤٤ ﴾ [الإسراء] وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ۝٧٩ ﴾ [الأنبياء] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ نقله القرطبى فى تفسيره (٦٦٣٧/٩) وقال : « ما ذكره هو الصحيح » .

(٣) قال أبو ذر : جاء أبو بكر فسلّم وجلس عن يمين رسول الله ﷺ ، إذ جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبى بكر ، إذ جاء عثمان وجلس عن يمين عمر رضى الله عنه ، فتناول النبى ﷺ سبع أو تسع حصيات فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن . أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة (٤٧/١) .

ﷺ قلت : الصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، لأن الحصى مسبّح أياً كان حتى لو فى يد أبى جهل .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾[الحديد] العزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ، والعزيز الشىء النادر الذى ليس له مثيل ، فجمعتْ الآية المعنيين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ..㊽ ﴾ [المؤمنون] وهو أيضاً سبحانه ﴿ الْحَكِيمُ ① ﴾[الحديد] والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه بحكمة وعلم ، حتى لا نأخذ العزة على أنها جبروت وبطش ، فهى عزة بحكمة وبقدر .

﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ② ﴾

قلنا : فى مادة (ملك) أنها تأتى بالفتح مَلْك كما فى قوله تعالى : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ..(٨٧) ﴾ [طه] والمَلْك المقدرة والإرادة ، وتأتى بالكسر مِلك وتعنى أىّ شىء تمتلكه فهو مِلك لك ، وتأتى بالضم كما هنا مُلك ، والمُلْك أنْ تملك مَنْ يملك ، فالأرض مثلاً مِلك للناس ، والله سبحانه له مُلك هذه الأشياء يملكها ويملك مَنْ يملكونها .

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من مخلوقات ، لذلك يقول فى موضع آخر :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ④ ﴾ [الشورى] فهو سبحانه يملك الظرف والمظروف فيه ، السماء فيها الملائكة ، وفيها ما فيها من كواكب ونجوم ومجرّات ومخلوقات أخرى ، والأرض فيها

الإنس والجن ، وأيضاً فيها الحفظة من الملائكة .

وعادة كما ذكرنا نجد أن المظروف أنفسُ من المظروف فيه ، فعلى قدر نفاسة المحفوظ يكون الحافظ ، فإذا كانت السموات والأرض فى ذاتها عظيمة ، وكلها آيات وعجائب ، فالمظروف فيها أعجب منها وأعظم .

ثم هناك فى مُلْك السموات والأرض الغيبيات التى لا نعرفها ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٣) ﴾ [هود] إذن : هذه مراحل ثلاث من ملك الله : له ملك السموات والأرض ، وله ملك ما فى السموات والأرض ، وله غيب السموات والأرض .

وكل يوم نكتشف فى مُلْك الله جديداً فى السموات وفى الأرض لذلك تلفتنا الآيات إلى ذلك : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) ﴾ [طه] ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. (٢) ﴾ [الحديد] يُحيينا نحن ويُميتنا ، أحيانا أولاً لما خلقنا من عدم ، ثم يميتنا ثم يحيينا فى الآخرة .

والإحياء والاماتة له وحده سبحانه لا يشاركه فيها أحد ، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم قصة الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، وأنه ادعى الإحياء والإماتة فجادله سيدنا إبراهيم حتى كشف كذبه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] وعندها أحسَّ سيدنا إبراهيم أن الرجل يريد الجدل ، فقطع عليه الطريق وأخذه إلى مجال لا جدالَ فيه ، ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② ﴾[الحديد] لايعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء ، فالذى أوجد من عدم أقدر على الإعادة ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ(١) مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮ ﴾ [ق] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ㉗ ﴾[الروم] وليس فى حقِّ الله هيِّن وأهون .

لكن الحق سبحانه يخاطبنا بما نفهم ، ويجارى الخصم حتى يقيم عليه الحجة ، لذلك قال : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] أى : غلبته الحجة فلم ينطق ببنت شفه .

فالحق سبحانه مالك الملك ، وبيده الإحياء والإماتة ، فأوجد من عَدَم وأمد من عُدْم ، وله قيومية تبقيه على ما هو عليه ، فلم يخلق الخلْق ثم تركه هملاً ، إنما قائم عليه بقيوميته سبحانه .

لذلك قال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ..(٤١) ﴾ [فاطر] وهذه قيوميته سبحانه : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر] وهنا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② ﴾[الحديد] يعنى : بقدرته يخلق ما يشاء ، يخلق من عدم بداية ، ويخلق من موجود ، وبقيوميته يحتفظ بخَلْقه كما خلقه .

والضمير (هو) للغائب لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : زارنى زيد فأكرمتُه . أى زيداً ، وهذا المرجع يُفهم من الكلام السابق

---

(١) اللبس : الشك . ولبس الشىء يلبسه : خلطه وعمَّاه وأبهمه وجعله مُشكلاً مُحيِّراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

كما قلنا فى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] والمراد الشمس .

كذلك هنا ضمير الغائب لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، الذى لا يشاركه أحد فى الملْك ولا الخَلْق . ولا فى الإحياء والإماتة .

وقال سبحانه فى الأحدية : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾[الإخلاص] فلا يصح هنا أنْ نقول الضمير (هو) عائد على متأخر ، لا بل عائد على متقدم وإنْ لم يُذكر ، لأنه لا ينصرف إلا لله الإله الواحد الأحد ، الواحد الفرد الذى لا ثانى له ، والأحد فى ذاته ليس مُركباً من أجزاء بحيث يحتاج جزء إلى جزء .

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾

ما دام أنه تعالى هو الذى أوجد كل موجود ، فهو بالتالى ﴿الأَوَّلُ ..(٣)﴾[الحديد] أى : قبل كل موجود ﴿وَالآخِرُ.. (٣)﴾ [الحديد] الباقى بعد فناء كل موجود ، لذلك قلنا فى الثناء على الله : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، ولكن ذاك فى ذاك ، فقف أيها العقل عند منتهاك .

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ .. (٣)﴾[الحديد] الظاهر لنا جميعاً ، والباطن أى المستور عنا جميعاً . فهو سبحانه ظاهر وباطن معاً ، ظاهر بآثاره وآياته فى الوجود التى لم يدَّعها غيره سبحانه ، والدَّعْوى تسلم لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

وباطن بذاته : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ (١٠٣) ﴾ [الانعام] فـالأبصار لا تدرك إلا المـحـدود بحدود المكـان والله تعالى لا يحـدّه زمان ولا مكان ، لأن الزمان والمكان خَلْـق من خَلْقه تعالى ، لذلك لا يقال فيه متى ولا أين ، فمنه جاءت متى وأين .

وواقع الحياة يدلنا على أن الأبصار لا تُدرك إلا المشاهد ، فهناك معنويات وغيبيات كثيرة لا تدركها الأبصار وهى موجودة .

خذ مثلاً معنى العدل الذى به يقوم ميزان الحق والباطل . والعدل أساس الملك ، لكن هل رآه أحد ؟ هل شممته أو لمسْته ؟ لكن عرفناه بآثاره فى إنصاف المظلوم ومعاقبة الظالم .

كذلك قلنا فى الروح هى مـوجودة بالفعل فى جـسمك ، لكن هل تعرف أين هى منه ؟ فهل بعد ذلك نطمع فى أنْ نعرف أين الله ونحن خَلْق من خَلْقه وأثر من آثار قدرته تعالى ؟

وقـولـه تعـالـى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾[الحديد] أى : لا يخفى عليه شىء ، فـهو سبحانه يعلم البـاطن كما يعلم الظاهر ، لأنه سبحانه الظاهر الباطن .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤ ﴾

فالـذى سبّـحتْ له المخلوقـات هو الخالق لهـا ، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ..(٤) ﴾[الحديد] والكلام هنا عن مـسـألة الوقت

الذى استغرق ستة أيام ، وهو سبحانه لا يزاول الأشياء ، إنما يخلق بكُنْ فيكون ، لكن هناك شيء اسمه عمر التكوين وشيء اسمه مراد التكوين .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بصناعة كوب من الزبادى ، فمزاولة هذه العملية تحتاج إلى لحظات أنْ نأتى باللبن ونضع عليه قطعة من الخميرة ، هذا زمن مزاولة الفعل ، لكن يحتاج الزبادى بعد ذلك إلى عدة ساعات لتتفاعل الخميرة واللبن وتعطينا المادة المطلوبة . إذن : الستة أيام ليست هى وقت علاج ومزاولة من الخالق سبحانه ، بل الستة أيام عمرها عنده .

وقد وقف المستشرقون عند هذه المسألة وقالوا : كل الآيات التى تكلمت عن خَلْق السموات والأرض قالت ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ..(٤)﴾ [الحديد]

لكن فى سورة (فصلت) قال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. (١٢)﴾ [فصلت]

إذن : أصبح لدينا ثمانية لا ستة ، وهذا الفهم ناتج عن عدم الإلمام بملكة اللغة ، لأن تقدير الكلام : فى تتمة أربعة أيام ، فالأرض خُلقتْ فى يومين ، ثم كان تمامها بخَلْق الرواسى من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فيما يُتمم أربعة أيام .

ومثَّلنا لذلك وقلنا : سافرتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين ، فجملة الزمن ساعتان لا ثلاث .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ④ ﴾[الحديد] اختلف العلماء فى معنى الاستواء . بعضهم قال : استوى على وجه الحقيقة ، وابن القيم [1] قال : استوى بمعنى استقر . وبمعنى علا . وبمعنى صعد ، ونقول : لا صعد ولا علا ، لأن الحق سبحانه لم يعْلُ على العرش فحسب إنما علا على كل شيء .

والأقرب أن الحق سبحانه ما دام قد خلق الخَلْق وفرغ منه ، فالاستواء هنا بمعنى أنجز هذا الكون واستتبَّ له الأمر ، ونحن فى أعرافنا الدنيوية نرى الملك لا يجلس على عرشه إلا إذا استتبَّ له أمر المُلْك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه أو يشاغبه .

وقد وردت مادة استوى فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع ذكرها الناظم ، فقال :

وَذِكْرُ اسْتِواء الله فى كَلِمَاته ... عَلَى العرشِ فى سَبْعٍ مَوَاضِع فَاعدد
فِى سُورَةِ الأعْرافِ ثمَّة يُونُسَ ... وَفِى الرَّعْد مَعَ طه فَللعَدِّ أكِّد
وَفِى سُورَةِ الفُرْقانِ ثمَّة سَجدة ... كَذَا فِى الحديدِ فَافْهَم فهْمَ مُؤيِّد

ثم تستمر الآيات فى ذكر بعض آياته تعالى فى الخَلْق : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ..④ ﴾ [الحديد] أى : ما يدخل فيها وما يخرج منها ، ما يدخل فى الأرض هو المطر ينزل من السماء ويستفيد منه الخَلْق وينتفعون به وما زاد عن حاجتهم يسلكه ينابيع

(١) هو محمد بن أبى بكر الدمشقى أبو عبد الله شمس الدين ، ولد بدمشق (٦٩١هـ) تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وسجن معه فى قلعة دمشق ، ألف كتباً كثيرة جداً منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) و (حادى الأرواح) ، توفى عام ٧٥١ هجرية . [الأعلام للزركلى ٦/٥٦] .

فى الأرض ، فهى مخزنٌ للماء العذب الذى يستنبطه الناس فى الأماكن التى ليس فيها أنهار فيجدونه فى أعماقها ، ثم ما يخرج منها هو النبات وهو قوام حياتنا .

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ..(٤) ﴾[الحديد] ينزل من السماء المطر ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] وينزل من السماء ملائكة ، وتتنزل من السماء رحمات الحق بالخَلْق ، وينزل منهج الله الذى يُنظم للناس حركة حياتهم .

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ..(٤) ﴾[الحديد] يعنى : ما يصعد إلى السماء . وقال : السماء بصيغة المفرد ، وأراد الجنس لأن السموات سبع ، فعبّر عنها بجنسها ، والأصل فى (يعرج) أنْ نقول : يعرج إليها .

(فى) هنا فبمعنى اللام ، فعدل عن اللام واستخدم (فى) لأنها تدل على المبالغة ، ومثلها قوله تعالى عن الكافرين المكذِّبين بالرسل : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

فالأيدى تُرَدّ إلى الأفواه ، لكنه أراد المبالغة فجعلها فى أفواههم ، كأنه يقول سُك لسانك لا أريد أنْ أسمع منك . كذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾[الحديد] بعد الحديث عن السموات والأرض فيه إشارة كأنّ الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا أن السموات والأرض خَلْق طائع يؤدى مهمته ولا يشذ عما خُلِق له فهو غير محاسب ، أما أنتم فمُحاسبون لأنكم مختارون .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. (٤) ﴾[الحديد] يعنى : لا يحجبه ظاهر عن باطن ، ولا يحجبه باطن عن ظاهر .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾[الحديد] فهو سبحانه معكم وبصير بكم ، ولو كانت معية عين ما قال ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾[الحديد] إذن : هى معية بصير ، ذكر سبحانه البصر وهو الرؤية ، ولا تتصور مثل هذه المسائل ، بل خذها بكمال الكمال فيه سبحانه .

وما دُمْنا فى معية الله وتحت بصره فلنراع ذلك ، ولنعمل له حساباً ، ولم لا ونحن نعمل حساباً لمعيَّة البشر ونظرهم ، والآن يخترعون أجهزة للتجسس تعرف كلَّ ما يُدبَّر وكل ما يدور عند العدو وترصده بالصوت والصورة ، ترصد ما يدور بالليل قبل النهار ، نعم فعلوا ذلك لأنهم ليستْ لديهم ذاتية تعرف فاستعانوا بالآلة ، ومع ذلك أين علمهم من علم الله ؟ وأين عيونهم من عين الله !؟

ودائماً نقول فى حقه تعالى : ليس مع العين أين ، فكل ذرة فى كونه تعالى تحت بصره ولا تخفى عليه ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟»[1]

كأنه تعالى يقول لنا : هل أنا أهون عليكم من خَلْقى وأنتم

---

(١) ذكره ابن عجيبة فى كتابه (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) (٣/١) قال : فى بعض الأخبار القدسية : « إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم » ، وقال رجل لوهيب بن الورد : عظنى . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

تستترون منهم : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ .. (١٠٨) ﴾ [النساء]

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ .. (٤) ﴾ [الحديد] يستخدم الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال ، لأنه تعالى يحكى لنا الواقع ، وإلا فعلْم الله أزلاً يعلم ما يلج وما ولج منذ خلق سبحانه السموات والأرض .

فكل قطرة من ماء المطر امتصَّتها الأرض منذ خُلقَتْ يعلمها الله ، بل هى عنده فى اللوح المحفوظ قبل أنْ تُخلق .

وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة [1] . لذلك قلنا : إن الملائكة تزداد تسبيحاً لله تعالى كلما رأتْ الواقع يأتى مطابقاً لما سُجِّل فى اللوح المحفوظ .

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾

قوله تعالى هنا أيضاً (له) لا ينصرف الضمير إلا إليه سبحانه : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥) ﴾ [الحديد] وهذه دعوى أقامها

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢٦٦٦) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه .

الحق سبحانه ولم يَقُمْ لها منازع فتسلَّم لصاحبها ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ۝٥ ﴾[الحديد] يعنى : المسألة ليست معيَّة بصر وتسجيل لما يحدث وتنتهى المسألة ، لا بل لها مرجع فى النهاية مرجع لتصفية الحسابات فالله تعالى ما خلقكم عبثاً ، ولن يترككم سُدى ، بل لكم نهاية فتجهزوا لها .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. ۝٦ ﴾[الحديد] أى : يُدخل الليل فى النهار ، ويُدخل النهارَ فى الليل ، فكل منهما يحلُّ محلَّ الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً(1) لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ۝٦٢ ﴾ [الفرقان] فكل منهما يخلف الآخر .

ومن آيات الليل والنهار أنْ نجد يوم الصيف طويلاً وليله قصير ، ويوم الشتاء قصير وليله طويل ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦ ﴾ [الحديد] لأنه سبحانه قال قبل ذلك ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ ﴾ [الحديد]

يعنى : لا يقتصر علمه تعالى على الحركة والأحداث ، إنما يعلم أيضاً مكنونات الصدور ومطويات النفوس مما نفكر فيه ، ولم يترجم إلى عمل وحركة ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩ ﴾ [غافر]

وهذه من خصائص علمه تعالى ، والعظمة ليست فى أنْ تعلم ما تُقهر عليه ، بل فى أنْ تعلم ما هو مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

مثلاً لو خرجتَ مع أهلك فى (مشوار) وتركتَ الأولاد بالبيت ، وقلتم لهم : الثلاجة فيها الأكل ، وكل واحد يأكل ما يعجبه ، وفى

(1) خلفة : أى يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [القاموس القويم ١/٢٠٦] .

الطريق قلتَ لأهلك : الولد فلان سيأكل كذا ، وفلان سيأكل كذا ، وبعد أنْ رجعتما إلى البيت وجدتم الأمر كما أخبرتَ أنت به .

فعظمة علم الله أنْ يعلم ما فى الصدور وما فى القلوب من نوايا ، مجرد نية ، ولعلمه تعالى بالنية جعلها أساساً للحكم على العمل : « إنما الأعمال بالنيات »[1] فكأن القلب سيطر بعقيدته على سلوك كل الجوارح ، فأنت حين تنفق مثلاً يعلم نيتك من هذا العمل ، فيحاسبك بالنية لا بالفعل ، فكأنه جعل النية تحرس العمل والحركة الظاهرة .

إذن : نفهم من ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦ ﴾ [الحديد] أى : بنت الصدور وهى النية ومحلُّها القلب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2] حتى فى موقف القيامة يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝٨٨ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾ [الشعراء] أى : سليم القصد ، وسليم النية ، وخالٍ من العطب .

والقلب فى ظاهره مضخة تضخ الدم ، وهو سائل الحياة فى الجسم كله ، فإذا ما مُلِئ القلب باليقين وأُشرِبَ الإيمان ضخَّه مع الدم إلى الأعضاء كلها ، وصار هذا الدم حلالاً صالحاً وصلحت

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) وأبو داود فى سننه (١٨٨٢) وابن ماجه فى سننه (٤٢١٧) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير .

بصلاحه الجوارح فى حركاتها ، فلا تتحرك إلا فى الحلال ، ولا تفعل إلا ما هو مطابق وموافق لهذه العقيدة ، فتأتمر بما أمرت وتنتهى عما نُهيَتْ .

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧﴾

هنا علاقة ومناسبة بين ذات الصدور و ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(٧)﴾ [الحديد] فالإيمان عمل قلبى محلُّه الصدر ، فإذا استقرَّ فيه سُمِّى عقيدة . أى شىء معقود لا يُفك ولا يُحلّ ، شىء ثابت مستقر لا يطفو إلى العقل مرة أخرى ليُناقش ، لأنه ما استقر فى القلب وصار عقيدة إلا بعد أنْ ناقشه العقل واختاره من بين البدائل .

لكن أيهما أسبق ، يعنى : هل آمنتَ بالله من أجل الرسول أم آمنتَ بالرسول من أجل الله ؟ وهذه مسألة سُئل فيها الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

وبعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله ذكر أمراً آخر لا تستقيم حياة المجتمع إلا بالقيام به ، وهو مسألة الإنفاق : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ..(٧)﴾[الحديد] أى : من كل شىء استخلفكم الله فيه مال أو غيره ، ذلك لأن الإنسان لا يؤدى مهمته فى الحياة ، ولا يتحرك إلا إذا توفرتْ له مُقوِّمات الحياة ، وأولها القوت الذى تنشأ منه الحركة ، وفى المجتمع عناصر عاجزة عن الكسب غير قادرة على

الحركة الإيجابية فى الحياة .

والحق سبحانه وتعالى لن يترك هؤلاء يضيعون بين القادرين ، فجعل الإنفاق عليهم ومساعدتهم جزءاً من إيمان المؤمن ، فيؤدى لهم حَقًا هو حَقُّ الله فى الأساس ، ويجعل هذا الحق شكراً لله على النعمة ، وشكراً لله على الصحة والسلامة التى مكَّنته أنْ يعمل ويكتسب من الحلال وينفق .

ثم إن العاجز حينما يجد مَنْ يرعاه ويُعينه يسعد ويطمئن قلبه ، ويرى أن فى مجتمعه المؤمن عوضاً عما فاته ، فالنعمة تُساق إليه وتطرق عليه بابه وتحفظ ماء وجهه أنْ يذلّ للسؤال .

فهو مع عجزه عن الحركة مُسيّد فى هذا المجتمع المؤمن ، فمن شرف الفقير أنْ جعله الله شرطاً فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، والمراد فريضة الزكاة .

فالزكاة تُطيِّب خاطر الفقير وتُذهب ما فى نفسه من الحقد على الغنى ، وتجعله راضياً بقضاء الله فيه ، فلا يقول : لماذا خلَق هذا غنياً وأنا فقير ؟ لذلك جاء الأمر بالإنفاق تالياً للأمر بالإيمان ، فالإنفاق يعطى استبقاءَ الحياة ، والطاعات كلها فرع الحياة ، فحين تُوفر القوت للفقير تُعينه أولاً على طاعة الله .

ومعنى ﴿ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .. ⑦ ﴾ [الحديد] يعنى : ليس من عندك ، إنما من رزق الله الذى ساقه إليك وجعلك خليفة فيه ، فالله هو الرازق فى الحقيقة لأنه سبحانه خالق المادة التى تعمل فيها ، وخالق الجوارح التى تعمل بها ، وخالق الوقت الذى تعمل فيه ، وخالق فيك

القوة ، وخالق الأمن والسلامة التى تُعينك على العمل ، وخالق العقل الذى يدبر ويفكر .

إذن : لم تأتِ أنت بشىء من عندك ، والمال فى الحقيقة مال الله ، وأنت خليفته فيه ووكيله ، فلا تبخل بمال الله على عياله وهم الفقراء ، استدعاهم الله إلى الوجود وتكفَّل برزقهم .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾[الحديد] أى : بالله ورسوله ﴿ وَأَنفَقُوا .. ﴿٧﴾ ﴾[الحديد] أى : مما استخلفوا فيه ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾[الحديد] نعم كبير لأنهم جمعوا بين أجر الإيمان بالله ورسوله وأجر الإنفاق وتنفيذ مطلوبات الإيمان ، لأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه إلا بالعمل الصالح والتطبيق ، الإيمان أمر عقدىّ نظرى لا يُغنى عن العمل .

لذلك قُرن الإيمانُ دائماً بالعمل الصالح : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

ثم إن الأجر كبير لأنك لا تأخذ من أجر الله على قدر ما تعطى ، إنما تأخذ على قَدْر المعطى الواهب الذى يُعطى الحسنة بعشر أمثالها ، ويزيد إلى سبعمائة ضعف وإلى أبلغ من ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ[1] اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي[2] الصَّدَقَاتِ .. ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة] يزيدها ويُنميها لصاحبها .

---

(١) يمحق : ينقص ويذهب البركة . شىء ماحق : ذاهب . محقه الله : ذهب خيره وبركته . يمحق الله الربا : يستأصل الربا فيُذهب ريعه وبركته . [لسان العرب – مادة : محق] .

(٢) قال الماوردى فى تفسيره : فيه قولان أحدهما : يُثمر المال الذى خرجت منه الصدقة . والثانى : يضاعف أجر الصدقة ويزيدها .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً محسوساً من واقع حياتنا : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة] وفوق ذلك ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة] فإذا كانت الجنة المخلوقة لله تعالى تعطى سبعمائة ضعف فما بالك بخالق الجنة ؟

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾

هنا استفهام للتعجب والإنكار ، يعنى : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أمر عجيب ألا تؤمنوا بالله ورسول الله يدعوكم للإيمان ؟ ولم يقُلْ : لتؤمنوا بالله إنما ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ .. (٨) ﴾ [الحديد] فالذى يجب أنْ تؤمنوا به هو ربكم .

والرب هو الخالق والمربّى والرازق والمعطى الذى أعطاك وخلق لك قبل أنْ يخلقك ، ربٌّ ربّاك بعد أنْ أوجدك وزرع محبتك فى قلب أمك وأبيك فتحمّلا متاعبك ومشاقّ تربيتك إلى أنْ تبلغ وتتولّى حركة حياتك بنفسك ، ألاَ يستحق منك هذا الرب أنْ تؤمن به على الأقل ؟

ألا يكفى أنْ تركك تربَع فى الكون ولم يطلب منك شيئاً ، ولم يكلفك بشىء حتى سنِّ البلوغ بعد أنِ استويتَ وأصبحت قادراً على السعى ، إذن : عطاء الربوبية شملك قبل أنْ تُخلق ، ثم جاء عطاء الألوهية بالتكليف .

فكأن عطاء الربوبية حيثية لقبول عطاء الألوهية ، وهو أيضاً فى

صالحك وأنت المنتفع به ، والله لا ينتفع منه بشيء ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، فالله تعالى ما خلقك إلا بصفات الكمال فيه سبحانه .

فقولوا لنا إذن : لماذا لم تؤمنوا وقد بعثَ إليكم رسولاً يبلِّغكم رسالاته ويدلكم عليه ، ويبلغكم منهجه ؟ انظروا مثلاً إلى العامل الذى يعمل لك نظير أجر ، كيف يطيعك ويأتمر بأمرك ، ولا يخرج عنه قَيْد أنملة ، وأنت مع ذلك لا تعطيه إلا القليل الذى يسدُّ حاجته ليوم أو يومين ، فما بالك بمَنْ أعطاك بسخاء ، وأنعم عليك كلَّ هذه النعم ، أليس أوْلَى بالطاعة والامتثال ؟

إذن : هذا أمر يدعو إلى العجب منكم ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..۝٨ ﴾ [الحديد] يعنى : شيء لا يُتصوَّر منكم ، وفى سورة البقرة قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ..۝٢٨ ﴾[البقرة] كيف تجرأتم على ذلك والعقل مجرد العقل والتفكير يأبى ذلك . فواجب عليك أنْ تؤمن بالله خاصة والإيمان ليس تطوعاً منك ، إنما جاءك رسول يدلُّك ويُذكِّرك .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾[الحديد] أى : أخذ عليكم العهد والميثاق والحجة أنْ تؤمنوا به ، فالإيمان إذن ميثاق قديم أقررتم به ووافقتم عليه فلم تنكرونه الآن ؟ وهذا الميثاق أخذه الله على بنى آدم وهم فى مرحلة الذر ، فيُروى أن الله تعالى مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته وهى فى صُلْبه وأخذ عليهم هذا العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ

(١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا العهد أخذه الله على بنى آدم جميعهم قبل أنْ توجد لهم نفس أمّارة بالسوء ، فلما وُجدت النفس الأمّارة بالسوء نقضت هذا العهد ولم تُوف به ، ولما كنا جميعاً من آدم ففى كل واحد منا ذرة منه حية باقية لم يطرأ عليها عدم ، فأنا أخذتها من أبى وأبى أخذها من أبيه وهكذا .. إلى آدم .

ومن هذه الذرة نشأتْ الفطرة الإيمانية ونشأ الضمير والنفس اللوامة ؛ لذلك إذا فعل العبد ذنباً فى غفلة من الفطرة الإيمانية سرعان ما يستيقظ فيه هذا الوازع فيردّه إلى الجادة ، ويُصحِّح مساره على الإيمان الفطرى .

ثم أخذ الله ميثاقاً آخر على الأنبياء : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

إذن : مطلوب من كُلِّ رسول أنْ يبلغ أمته والمؤمنين به : يا من آمنتم بى وصدقتمونى فيما جئتكم به اعلموا أنه سيأتى بعدى رسول صفته كذا وكذا ، فإذا عاصرتموه فإياكم أنْ تتعصَّبوا ضده ، لأنه ما جاء إلا ليتمم ما جئتكم به .

وهذه قالها موسى عليه السلام لقومه ، وقالها عيسى عليه السلام

---

(١) الإصر : بالكسر : القيد والثقل والعهد المؤكد . قوله : ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ..(٨١)﴾ [آل عمران] : أى : عهدى . [القاموس القويم ١/ ٢١] .

لقومه ، وقد وثَّقها القرآن وسجَّلها على اليهود فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فقد كان اليهود فى المدينة يستفتحون على عُبَّاد الأصنام ببعثة محمد ﷺ ، ويقولون لهم : لقد أظلَّ زمانُ نبى جديد سيأتى ، وسوف نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

فلما جاءهم رسول الله ﷺ كفروا به وعاندوه وصادموا دعوته لأنه سيأخذ منهم السلطة الزمنية التى كانت لهم ، فلو أنهم أخذوها على أنها من الله ، وأن نبيهم أخبرهم بهذا الخبر ما كان منهم هذا اللدد وهذا العناد ، فكفار مكة وعبَّاد الأصنام أهون منهم ، لأنهم لم يبشَّروا بمقدمه ﷺ كما بُشِّر اليهود .

ونفهم من هذا أن الأديان السماوية كلها متكاتفة على الحق وعلى منهج واحد هو منهج عبادة الله وحده لا شريك له ، فالأديان المتعاقبة ما هى إلا مراحل فى منظومة واحدة هى إسلام الوجه لله تعالى ، فهى كما شبَّهها سيدنا رسول الله بناء واحد .

قال ﷺ : « إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأكمله وأجمله إلا موضع لبنة فيه ، فأخذ الناس يمرون به ويقولون : ما أجمل هذا البيت لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وكذا الطبرانى فى مسند الشاميين (١٢٥) . ولفظ البخارى : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعت هذه اللبنة . قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

إذن معنى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ .. ⟨٨⟩ ﴾ [الحديد] أى : ميثاق على الخلْق جميعاً وهم فى مرحلة الذرِّ ، وميثاق على النبيين أنْ يُبلغوا أقوامهم أنَّ دين الله بُنى على التوافق لا على التعارض .

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⟨٩⟩ ﴾

أى على نبيه ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ⟨٩⟩ ﴾[الحديد] واضحات الدلالة على الخالق سبحانه ، والآيات إما كونية كالشمس والقمر والليل والنهار .. أو معجزات وعجائب تصاحب بعثة الرسل لتثبت للناس صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، ثم آيات الذكر الحكيم ، آيات القرآن حاملة المنهج والأحكام التى تنظم حركة الحياة بما يُوصِّل الناس إلى الغاية السعيدة .

إذن : هذه أشكال ثلاثة للآيات ، ولكل منها هدف وغاية ، وقد أجملها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ⟨٩⟩ ﴾[الحديد] النور والظلمة ضدّان ، نعرف النور بأنه هذا الأثر الذى نرى به الأشياء فله كيان معروف ، أما الظلمة فليس لها كيان بذاتها ، بل هى سلبية فى عدم وجود النور .

وقلنا : إن النور هو الذى يجعلنا نرى الأشياء ، فنسير على هدى لا نصطدم بشىء ، أما فى الظلمة فنتخبط نحطم الأضعف ويُحطمنا الأقوى . هذا عن النور الحسى ، مثله النور المعنوى ، وهو نور المنهج والقيم التى نهتدى بها فى دروب الحياة :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ⟨١٥⟩ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة] فهو نور على نور .

وقال عن الكافرين الذين استدبروا منهج الله وصادموه : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]

فالمراد إذن المعنويات : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩)﴾ [الحديد] الرأفة أنْ تزيل الألم والشقاء عن الشخص وتنزع عنه الداء ، والرحمة أن تصونه بعد ذلك من أن يصيبه ألم أو داء .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء] فالقرآن منهج الله فيه شفاء لداءات المجتمع ، يوقظهم من الغفلة وينأى به عن سُبل الفساد ويصلح ما به من عطب أو عوار ، ثم تأتى الرحمة تحصيناً لهم من الزلل وتحميهم ، فلا تصيبهم هذه الداءات مرة أخرى .

وقد مثَّلنا منهج الحق (بالكتالوج) فلو سِرْنا عليه ما أصابنا عطب أبداً ، فصانع الشيء أدرى بما يصلحه ، وأحرص عليه وعلى سلامته .

ثم يقول الحق سبحانه [(١)] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٣٠) عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق . فعن ابن عمر قال : بينا النبى ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خلَّها على صدره بخلال ، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال : يا محمد مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلَّها على صدره بخلال ؟! فقال : يا جبريل أنفق ماله قبل الفتح علىَّ . قال : فاقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام . وقل له : يقول لك ربك : أراضٍ أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فبكى أبوبكر وقال : على ربى أغضب أنا عن ربى راضٍ » .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

كما قال سبحانه في الإيمان ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الحديد] قال هنا ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] يعنى : كيف يحدث منكم هذا ، والمال مال الله وأنتم مستخلفون فيه ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] إذن : هذه قاعدة عامة في المال وغيره ، فالمُلْك مُلْك الله ولا بد أنْ يعود إليه .

وهل رأيتَ أحداً خرج من الدنيا بمال ؟ نعم يعطيك المال ويُملِّكه لك فترة بقائك في الدنيا تتمتع به ، فإذا حان الأجل تتركه للورثة ، والعاقل حينما ينظر إلى المال يجد أن حوادث الدنيا تأخذ منه جانباً ، والباقي يتركه لورثته ، فأين أنت يا صاحب المال من مالك ؟ أليس من العقل أنْ تجعل لك منه نصيباً ؟

والرسول ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ »[1] فتأمل يا صاحب المال .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٦٤ ، ٣٢٧٧) من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه . وكذا أحمد فى مسنده (١٥٧١٥) والحاكم فى مستدركه (٣٩٢٨ ، ٨٠٣٠). قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وتعلمون قصة الشاة التى أُهديتْ إلى بيت رسول الله ﷺ ، فلما عاد آخر النهار سأل عنها ، وكان ﷺ يحب منها لحم الكتف - فقالت له السيدة عائشة رضى الله عنها : « ذهبت كلها إلا كتفها ، يعنى : تصدقتُ بها كلها ولم أُبْقِ لك يا رسول الله إلا الكتف ، فعدَّل لها رسول الله مقالتها وقال : بل بقيت كلها إلا كتفها »(1) .

ولما سُئِلَ الإمام على رضى الله عنه : أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال للسائل : الجواب عندك ، قال : كيف ؟ قال : انظر إذا دخل عليك حامل هدية وطالب عطية إلى أيِّها تبشُّ ، فإنْ كنتَ تبشّ للأول وتفرح به فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ للآخر فأنت من أهل الآخرة .

إذن : الحق سبحانه تعالى يريد أنْ يُحبِّبنا فى مسألة الإنفاق ، لذلك تحدَّث عنها القرآن كثيراً ، لأن الإنفاق عنصر رئيسى فى استبقاء الحياة ، فلا تقوم حياة الفقير إلا به ، يعنى : مسألة حياة أو موت .

ودائماً يُذكِّرنا القرآن بهذه الحقيقة : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (10) ﴾ [الحديد] وقال : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) ﴾ [القصص] وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) ﴾ [مريم]

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الوارث الحقيقى للمال ، وإذا

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح . وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٥ / ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : « ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها » .

كنت لا بدَّ خارجاً من الدنيا مجرداً من كل شىء كما جئتَ إليها فلم تبخل على نفسك ؟

حتى فى مسألة الميراث وتوزيع التركة يقول لك : ارفع يدك عنها فنحن الوارثون ونحن نقسمها كما نريد ، لهذا كذا ولهذا كذا لا تتدخل فى هذا الشأن ، فالمال مال الله يقسمه ما يريد . لا تقُلْ هذا أفضل من هذا : ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا..(١١)﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ..(١٠)﴾ [الحديد] قالوا : المراد بالفتح فتح مكة ، لكن فتح مكة لم يأت إلا نتيجة لصلح الحديبية ، فهو إذن بداية الفتح ، لذلك قال سيدنا أبو بكر : لم يكن فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية[1] .

لماذا ؟ لأن قريشاً كانت تهاجم محمداً ﷺ وتصادم دعوته ، فجاء صلح الحديبية ، وجعل قريشاً تعترف بمحمد وبدعوته ، وتعاهده وتأخذ منه وتُعطيه ، وهذا فى حدِّ ذاته فتح .

ثم إنه مكّن رسول الله من الفراغ لنشر الدعوة فى المدينة ، فالحديبية أزاحت عن رسول الله عبء قريش وعداءها ، لذلك وجدنا بعد صلح الحديبية أن أرض الكفر تتناقص ، وأرض الإيمان تتزايد .

وميزان الحق لا يُسوِّى بين مَنْ أنفق قبل الفتح ومَنْ أنفق بعده ، لأن الذين أنفقوا قبل الفتح كانوا قلة ضعفاء ، قليلى العُدة والعدد

---

(١) قاله الواقدى فى المغازى (١ / ٦١٠) أن أبا بكر الصديق قال : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية . ونقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٨ / ٢٨٣) وعزاه لابن شهاب الزهرى .

مستضعفين لا شوكة لهم فى وقت كانت القوة والسيطرة فى يد عدوهم ، أما بعد الفتح فقد انقلبت الصورة تماماً ، فأصبح المؤمنون قوة لهم عدد وعُدة ، واطمأنوا إلى أن الدنيا صارتْ معهم .

إذن : لا يستويان ، مَنْ أنفق قبل الفتح ، ومَنْ أنفق بعده ﴿أُولَـٰئِكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [الحديد] أى : الذين أنفقوا قبل الفتح ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ..﴿١٠﴾﴾ [الحديد] ومع ذلك لم يهضم الذين أنفقوا بعد الفتح حقهم ، فقال : ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. ﴿١٠﴾﴾[الحديد] فالحُسْنى وعد من الله للفريقين ، لذلك كانوا يقولون : كفانا الحسنى من الله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد]

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[1] فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى فرض الزكاة وجعلها ركناً من أركان الإسلام رعايةً لحقِّ الفقير ، واستبقاءً لحياة العاجز عن العمل ، ولو نظرتَ إلى واقع الحياة وتأملتَ حركة توزيع الثروات والموارد تجد أن

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد] قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : أرنى يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده . قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطاً وله حائط فيه ستمائة نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح . قالت : لبيك . قال : أخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رَدَاح (عظيم ضخم) فى الجنة لأبى الدحداح » وفى لفظ « رُبَّ نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة » . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٠٧) وعزاه لابن أبى حاتم .

الخالق سبحانه وتعالى وقّر لخَلْقه ما يُغنيهم جميعاً ، ففى مال الغنى ما يسع الفقير ويُقيم حياته فى سعادة لا تقل عن سعادة الغنى .

فإنْ رأيتَ الصورة غير ذلك فاعلم أن فى الأمر خللاً إما أنْ يصير الغنيٌّ بخيلاً ، أو يصير الفقير محتالاً ، لأن الخالق سبحانه وتعالى يدبر شئون الكون بما يُسعد عباده لا بما يُشقيهم .

ترى مثلاً أحد الأغنياء تتسع أملاكه فى بلد مثل طنطا ، فيشتاق إلى العيش فى بلد أخرى مثل الإسكندرية ، فيذهب إلى هناك وتصير له أملاك أخرى : مثل هذه الحركة ليست عبثاً ، إنما بتقدير من الله رب الجميع ، فمال هذا الرجل أصبح زائداً عن حاجة الفقراء فى طنطا ، فأراد الله له أنْ يفتح مجالاً جديداً للعطاء فى الإسكندرية ، وربما أنت تتعجب لماذا ينتقل هذا وهو غنى ، ماذا ينقصه ؟ لكنه تدبير الخالق الرازق الذى بيده مقاليد الأمور وأزمّتها .

ولأهمية الإنفاق وحاجة المجتمع إليه لم يكتفِ الشارع بفريضة الزكاة الواجبة ، إنما ترك باب العطاء مفتوحاً ليسع أريحية الغنى المعطاء الذى يريد أنْ يعطى أكثر مما فُرِض عليه فيتجاوز نسبة ٢,٥٪ إلى ٥ أو ١٠٪ .

لذلك عبّر القرآن عن الزكاة فقال : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾[المعارج] وعبّر عن الإنفاق فيما غير الزكاة فقال : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾[الذاريات] ولم يقل هنا (معلوم) .

فالمعلوم هو الزكاة الواجبة ، والمطلق هو الصدقة ، وهى مقام الإحسان كما فى سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥)

آخذين مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فمَنْ أدخل نفسه فى باب الإحسان ، وفرض عليها فوق ما فرض الشرع ، وألزم نفسه فوق ما فُرض عليه سوف يجد الجزاء أيضاً بالإحسان والزيادة ، فله خصوصية فى الجزاء مثل ما كان له خصوصية فى العطاء .

لذلك سمَّى القرآن هذا الإحسان وهذه الزيادة فى الإنفاق قرضاً ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..(١١) ﴾ [الحديد] والقرض الحسن هو الذى تعطيه طيِّبة به نفسك ، ويشترط له أن يكون من مال حلال ومن كسب حلال ، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً .

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾[المائدة] وألا يكون القرض من خبيث ما تملك ﴿ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ .. (٢٦٧) ﴾[البقرة] وأنْ تعطيه وأنت محبٌّ للعطاء ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان]

ثم لا تمنّ به بعد إخراجه ﴿ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى .. (٢٦٢) ﴾[البقرة] وأنْ تتصدق فى خفاء حتى لا تحرج الآخذ ، كما بيّن سيدنا رسول الله ﷺ : « حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[2] ثم إن الصدقة فى الخفاء أبعد عن الرياء ، فإنْ أعطى عن رياء فقد أفاد

---

(١) يهجعون : ينامون ليلاً . وهجيع الليل : ساعة من الليل . ويقال : أتيت فلاناً بعد هجعة أى بعد نومة خفيفة من الليل . [لسان العرب - مادة : هجع] .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١٥٠١) والبخارى فى صحيحه (٦٢٠، ١٣٣٤) والترمذى فى سننه (٢٣١٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٩٢٨٨) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أوله : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

الآخذ ، وحرم نفسه ثواب عمله ، وضيَّع سعيه هباءً .

وأنت حين تقرض تحمى المحتاج وترحم وجهه من مذلة المسألة وطلب الصدقة ، لذلك ناس كثيرون تضطرهم الظروف وتُحوجهم بعد عزة وغنى ، فمثل هذا يناسبه القرض ليحفظ عليه عزته ، كما يقولون : ارحموا عزيز قوم ذل .

فحين تعطيه على سبيل القرض تخفف عنه المسألة ، وبعد ذلك إنْ قدر على الأداء فبها ونعمت ، وإنْ لم يقدر فأنت أمام أمرين كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[1] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] إما أنْ تنتظره إلى أنْ يتيسَّر له السداد ، أو تعفو عنه وتجعله صدقة .

إذن : الحق سبحانه وتعالى جعل لنا فى الإنفاق مراحل أولها الزكاة المفروضة ثم الزيادة عليها بالإحسان ثم القرض ثم العفو عن القرض والتصدُّق به .

وما دام أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى تكلم بهذا الكلام ، فلا يأتى واقع الحياة ليُكذبه ، فعلى الغنى أنْ يتحلى بآداب الغنى ، وعلى الفقير والمحتاج أنْ يتحلى بآداب المسألة لنحقق مراد الله منا ، والحاصل الآن أن أكثر الأغنياء يبخل ، وأكثر الفقراء يلحف ويحتال .

ورسول الله ﷺ يُعلمنا هذا الدرس ، فيقول : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، ومَنْ أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله »[2] .

---

(١) النَّظرة : الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب – مادة : نظر] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وابن ماجه فى سننه (٢٤٠٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لذلك لما مات رجل ، وطُلِبَ من رســول الله أنْ يصلى عليه سأل : أعليه دين ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، فامتنع عن الصلاة عليه[(١)] .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهن : وما ذنبه وقد مـات ؟ لكن الحديث السابق يوضح المســألة ، فالمدين الذى يأخذ القـرض وفى نيته أنْ يؤدى لا بدَّ أنْ يُعينه الله على الأداء ، بل يؤدى عنه دَيْنه ، ومـعنى أنه مات دون أنْ يؤدى أن نيته فى الأداء لم تكُنْ صادقة ، وإلا لأدَّى الله عنه وأعانه .

وفى امتناع النبى ﷺ عن الصلاة عليه جانب آخر ، وهو أنْ يحثّ الناس على أنْ يُؤدوا عنه دَيْنه قـبل أنْ يدفن رحمة به وتعليـماً للناس وتعظيماً لأمر الدَّينُ فهو حقّ يتعلق بالعـباد فلا تسامحَ فيه ، وحتى لا يستهين الناسُ بالدَّينْ ويأخـذونه هكذا بلطجة وعُنْوة ، لذلك قام الإمام على وقتادة يقول كل منهم : أنا أؤدى عنه يا رسول الله .

ثم إن رســول الله لمـا امتـنع عن الصــلاة على المـدين لم يمنع الناس من الصلاة عليه ، إنما أمرهم بالصلاة عليه ، وقال : « صلُّوا على صاحبكم »[(٢)] ، وهذا يعنى أن الرجل عنده نقص فى إيمانه وفى

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٩٠٢) وأحـمد فى مسنده (١٤٠٠٩ ، ٢١٥٠٣ ، ٢١٥٤٠) وابن حبان فـى صحيحه (٣١٢٩) من حـديث جابر بن عبد الله رضى الله عـنه . وفيه : أنه ﷺ قال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصارى : هو علىَّ يا رسول الله . قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ .

(٢) أخرج البـخارى فى صحيحـه (٢١٢٧) عن سلمة بن الأكوع قـال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة قالوا : صلِّ عليـها . فقال : هل عليه دين ؟ قـالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قـالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يـا رسول الله صلِّ عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليها . ثم أتى بالثالثـة فقالوا : صـلِّ عليها . قـال : هل ترك شيئـاً ؟ قالوا : لا . قال : فـهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم .

اتباعه لرسول الله حرمه هذا الفضل العظيم ، وهو أنْ يصلى عليه رسول الله ﷺ ، ولو كان الرجل متبعاً لأمر رسول الله فعلاً ما مات وهو مدين .

وذكرتُ أننا فى سان فرانسيسكو التقينا بأحد المستشرقين الدارسين للإسلام ، وكان يقول أنا عندى فقدان توازن ، لا أنا مسيحى ، ولا أنا مسلم ، وكان الرجل يميل إلى الإسلام لكن عنده بعض الشبهات ، وكان يقول لبعض الإخوان إن جاء فلان فأنا أريد مقابلته لأناقشه فى بعض المسائل .

وكان من الشبهات عنده مسألة الصدقة والقرض ، فسأل فى قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١) ﴾ [الحديد] أى : يضاعفه عن الأصل ، والحسنة بعشر أمثالها يعنى عشرين ضعفاً ، وفى الحديث : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1] .

إذن : نقص عن العشرين فألهمنا الله وقلنا له : أنت حين تتصدّق بدولار مثلاً يكون لك عند ربنا كم ؟ قال : وهو يشير بأصابعه عشرة ، قلت : هل استرددت دولارك الأول ؟ قال : لا ، قلت : إذن أخذت تسعة ، وحين تُضاعف تعطينا ثمانية عشر ؟ إذن : ليس هناك مخالفة بين النصين .

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الأوسط (٦٩٠٨) عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، قلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ فقال : إن السائل يسأل وعنده . والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

ولما نزلتْ هذه الآية : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١)﴾ [الحديد] قال بعض اليهود[1] : إن ربَّ محمد افتقر ويريد أنْ يقترض منا ، وساعتها ضربه أبو بكر على وجهه ، فقال له رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فأنكر ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر :

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾ [الحديد] بعد مضاعفة الأجر والحسنة بعشر أمثالها يعطيه أيضاً أجراً كريماً فضلاً منه تعالى ، فالمضاعفة عَدْل ، والأجر الكريم فَضْل ، ووَصْف الأجر ذاته بأنه كريم دليل على عِظمه ، فإذا كان العطاء ذاته كريماً فما بالك بالمعطى ؟

الحق سبحانه وتعالى فى مسألة القرض هذه يحفظ للمؤمن سَعْيه

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسير آية ١٨١ سورة آل عمران عن ابن عباس (أثر رقم ٨٣٠٠) قال : دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة .

ويُقدِّر حركته فى الحياة ، ولا يبخسه حقه ، فيسمى النفقة على الفقير قرضاً ، مع أن المال فى الحقيقة مال الله لكنه يقترضه منك ، لا يقترضه لنفسه سبحانه إنما يقترض منا على خَلْقه .

وهذه موجودة فى واقع حياتنا ، يفعلها الأب مع أولاده ، مثلاً تجد الأب يعطى لأولاده المصروف ، فمنهم مَنْ يدخره فى حصالة ، فإذا ما احتاج الأب لمال لكى يُجرى عملية مثلاً لأحد الأبناء يقول للآخرين : هاتوا ما معكم لنفعل كذا وكذا ، وسوف أردّها لكم فيما بعد وحين ميسرة ، فأخذها منهم على سبيل القرض وهى فى الواقع مِلْك له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ[1] وَبِأَيْمَٰنِهِم[2] بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال : « إن من المؤمنين من يضىء نوره كما بين المدينة وعدن - أو ما بين المدينة وصنعاء - ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه » . [أورده القرطبى فى تفسيره ٩ / ٦٦٤٥] .

(٢) قوله (بأيمانهم) قال الفراء : الباء بمعنى (فى) أى فى أيمانهم . أو بمعنى (عن) أى عن أيمانهم . وقال الضحاك : (نورهم) هداهم . (وبأيمانهم) كتبهم . واختاره الطبرى . أى : يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى (فى) .

الفعل (ترى) هنا يُراد به الرؤية البصرية لأنه ورد فى أمر يقع تحت الحواس ، فإذا ورد فى أمر لا يقع تحت الحواس تكون بمعنى العلم كما فى قوله تعالى لسيدنا رسول الله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾[الفيل] لأن رسول الله وُلد عام الفيل فلم يَرَ هذه الحادثة . إذن : ﴿أَلَمْ تَرَ.. ۝١﴾[الفيل] بمعنى ألم تعلم ، ولكنه عدل عنها إلى ﴿أَلَمْ تَرَ.. ۝١﴾[الفيل] ليبين أن علمك عن ربك أوثق من رؤية عينك .

والكلام هنا عن موقف من مواقف يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ..۝١٢﴾[الحديد] هذا النور نور الإيمان والأعمال الصالحة فى الدنيا يمشى أمامهم ويمشى عن أيمانهم ليُوصلهم إلى الجنة .

وقال : ﴿نُورُهُم ..۝١٢﴾ [الحديد] كأن النور ملْك لهم ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ .. ۝١٢﴾ [الحديد] فالنور هو البشرى ساعة يرونه يستبشرون به ويعلمون أنه هاديهم إلى الجنة ومُوصِّلهم إليها .

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الحديد] نعم عظيم لأنه فوز دائم لاينقطع ولا يُنغِّصه شىء ، لأن الإنسان قد يجد فى الدنيا جنات وحدائق ونعيماً لكن يُنغِّصها عليه أنها لا تدوم ، إما أنْ يتركها أو تتركه ، أما نعيم الجنة فدائم باقٍ لا يحول ولا يزول أبداً .

وفى الوقت الذى يجد فيه المؤمنون نورهم يسبقهم ويقودهم فيستبشرون به يكون الكفار والمنافقون فى ظلمات تتقاذفهم ويتخبطون فيها ، فيأمر الله الملائكة أنْ تزجّ بهم إلى النار والعياذ

بالله: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات]

يعنى : دُلّوهم على طريق النار قِفُوهم على أول الطريق واتركوهم ، واستخدام لفظ الهداية هنا على سبيل السخرية منهم والتهكم بهم .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾

﴿ يَوْمَ ..(١٣) ﴾ [الحديد] أى يوم القيامة يوم يرى المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يُوصلهم إلى الجنة ، فى نفس هذا اليوم ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا .. (١٣) ﴾[الحديد] أى : انتظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ..(١٣) ﴾ [الحديد] نأخذ منه قبساً نستضىء به ونهتدى به ، فيُقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ..(١٣) ﴾ [الحديد]

أى : عودوا إلى الدنيا فاطلبوا النور الذى يهديكم الآن ، لأن النور الذى نهتدى به الآن قدَّمناه عملاً صالحاً فى الدنيا يوم آمنّا بالله ورسوله وأطعنا ، والآن نجنى ثمرة ما قدَّمناه ، وعليكم أنْ تستأنفوا حياة جديدة حيث التكليف والعمل ، فاليوم جزاء لا عمل .

---

(١) وأزواجهم : معناه نظراءهم وضرباءهم وأشكالهم . والزوج الصنف ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) ﴾ [ص] معناه ألوان وأنواع من العذاب وأصناف منه . [لسان العرب – مادة : زوج] .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآني ، فالحوار يدور بين المؤمنين والمنافقين ، ومع ذلك بنى الفعل (قيل) للمجهول ولم يقل قال المؤمنون للمنافقين حتى لا يكون فى الموقف شماتة ، ولا يريد أنْ يُوقف المؤمنين هذا الموقف ، فكأن الصوت جاءهم من جهة لا يعرفونها .

وقوله تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم ..(١٣)﴾[الحديد] بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ .. (١٣)﴾[الحديد] وهكذا أنهى الحق سبحانه هذا الحوار وحجز المؤمنين عن المنافقين بسور له باب حتى لا يروْهم ولا يسمعوهم ، لأن المؤمن بطبعه رقيق القلب .

فربُّه عز وجل يحمي سمعه ويحمي بصره أنْ يتأذى بما يعانيه المنافقون فى جهنم والعياذ بالله ﴿بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ..(١٣)﴾ [الحديد] من ناحية المؤمنين ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)﴾ [الحديد] من ناحية المنافقين .

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾

ما يزال الحوار مستمراً ، يقول المنافقون للمؤمنين وينادونهم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ .. (١٤)﴾[الحديد] أى فى الدنيا نصلى كما تصلُّون ، بل نسبقكم إلى الصفوف الأولى ، فماذا حدث ؟ ما الذى أدخلكم الجنة وألقى بنا فى النار وعملنا واحد ؟

فيردّ المؤمنون على المنافقين : ﴿قَالُوا بَلَىٰ ⟨١٤⟩﴾[الحديد] صحيح كنتم معنا فى الدنيا تعملون كما نعمل وزيادة ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..⟨١٤⟩﴾[الحديد] كنتم معنا قوالب لا قلوب ، كنتم معنا نفاقاً ورياءاً وسمعة ، تقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ .. ⟨١٤⟩﴾[الحديد] عرَّضتموها للفتنة بأيديكم (١) .

ومن هنا كان المنافق أشدَّ جُرْماً من الكافر واستحقّ أنْ يكون فى الدرك الأسفل من النار ، لأن الكافر صارح نفسه وصارح الناس وأعلن صراحة أنه كافر ، فعاملناه على هذا ولم يلتبس علينا أمره .

أما المنافق فهو واحد منا وفى صفوفنا وبين أظهرنا ونحن لا نعرف نواياه ولا دخيلة قلبه ، فعداؤه لنا مستتر ومواجهته شاقة صعبة .

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ ..⟨١٤⟩﴾ [الحديد] التربُّص : الانتظار ، أى : انتظرتم أنْ تحلّ المصائب والنكبات بالمؤمنين ، انتظرتم أنْ يزول هذا الدين ، انتظرتم أنْ يموت رسول الله فتموت معه دعوته .

وفى آيات أخرى الحق سبحانه وتعالى يوضح هذا الموقف ، فيقول عزوجل : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ⟨٥٢⟩﴾ [التوبة]

---

(١) معنى ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..⟨١٤⟩﴾ [الحديد] :
– أهلكتموها بالنفاق . قاله مجاهد .
– بالمعاصى . قاله أبو سنان .
– بالشهوات واللذات . رواه أبو نمير الهمدانى . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٦٤٨] .

يعنى : ماذا تنتظرون لنا ؟ الأمر بالنسبة لنا إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة ، أما أنتم فليس لكم إلا العذاب ، إما أنْ يعذبكم الله بأيدينا فى الدنيا ، أو يعذبكم بالنار فى الآخرة .

وفى الوقت الذى تتربصون فيه زوال الإسلام وأفول نجمه كان الإسلام ينتشر وتزداد رقعته : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤١﴾﴾ [الرعد] يعنى : تتناقص أرض الكفر ، وتزداد أرض الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿وَارْتَبْتُمْ .. ﴿١٤﴾﴾ [الحديد] الارتياب : الشك ، أى : شككتم فى أمر الدعوة وفى صدْق رسول الله فى البلاغ عن الله ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ .. ﴿١٤﴾﴾ [الحديد] خدعتكم أمانيكم فى زوال هذا الدين بموت محمد وذهاب دعوته .

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾﴾ [الحديد] إما بالانتصار عليكم أو موتكم ، أو جاء أمر الله بالقيامة ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾[الحديد] وهو الشيطان لأنه يغرُّ الناس ويخدعهم ويصرفهم عن الله ، وفى النهاية يفضحهم ويتبرأ منهم .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

هذا قطع لآمالهم فى النجاة ، فالمصير الذى ينتظرهم لا مفر منه ولا مهرب ، حتى الفدية لا تؤخذ منهم إذا أراد الواحد منهم أنْ يفتدى نفسه من عذاب الله . وقد يظن ظانّ أن هذا الحكم خاص بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم ، لأن الله أخبر عنهم بأنهم ﴿فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ [النساء]

فيوضح سبحانه وتعالى أن هذا الحكم يشمل أيضاً أمثالهم من الكافرين : ﴿وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (١٥)﴾ [الحديد] لأن الكافرين أقلّ جُرْماً من المنافقين ، فقال : لا تُقبل الفدية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، ولا بد أنْ يواجهوا هذا المصير .

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ ..(١٥)﴾[الحديد] مرجعكم ومثواكم الأخير ﴿هِىَ مَوْلاكُمْ .. (١٥)﴾ [الحديد] أى : النار مولاكم ، لأن الإنسان يحتاج فى هذا الموقف إلى ولىّ يواليه ونصير ينصره ، ومن لم يكن الله وليَّه ونصيره فى هذا اليوم ، فالنار والعياذ بالله هى وليّه .

لذلك قال فى آية النساء : ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ [النساء] وقال : ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨)﴾ [الشورى] ومَنْ كانت النار وليه ونصيره فبئس المولى وبئس النصير ، وبئس المرجع والمصير .

ثم يقول الحق سبحانه [١] :

---

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم فقالوا : حدِّثنا عما فى التوراة فإن فيها العجائب ، فنزلت هذه الآية وقال غيرهما : نزلت فى المؤمنين .

فعن سعد بن أبى وقاص قال : أُنزل القرآن زماناً على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصتَ فأنزل الله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..(٣)﴾ [يوسف] فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ..(٢٣)﴾ [الزمر] قال : كل ذلك يؤمرون بالقرآن . قال خلاد : وزاد فيه آخر قالوا : يا رسول الله لو ذكّرتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ..(١٦)﴾ [الحديد]

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾

الهمزة استفهام يراد به التعجب أو الحث على المسارعة ، يعنى ألم يأتِ أوان أنْ تخشع قلوبهم ، ألم يحنْ الوقت ، وكأنهم أخروا خشوع القلوب وتباطئوا فيه ، كما نقول مثلاً للشيخ الذى أسرف على نفسه وما يزال على هذا الحال مع كبَر سنه : ألم يأنِ لك أن تتوب وترجع إلى الله ، فهذا يعنى أنه أخّر التوبة .

والكلام هنا عن الذين آمنوا بالفعل ، فهم مؤمنون لكن عندهم خلل وقصور ، إما أن أعمالهم قليلة ، أو أنهم يؤدون الأعمال دون استحضار القلب ، ودون الخشوع والخضوع المطلوب لله ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. (١٦) ﴾ [الحديد] أى : عند تذكره وعند سماع آيات ، فمن صفات المؤمن أن ينفعل لآيات الله ، خاصة آيات التهديد والوعيد وذكر النار والحساب .

﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .. (١٦) ﴾ [الحديد] أى من الآيات ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ .. (١٦) ﴾ [الحديد] وهم اليهود والنصارى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ .. (١٦) ﴾ [الحديد] طالتْ مدة التذكر فأصابتهم الغفلة ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .. (١٦) ﴾ [الحديد] صارت قاسية لا تلين لذكر الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾ [الحديد] خارجون عن طاعة الله .

ويُحكى فى معنى هذه الآية قصة ، قالوا : إن الفضيل بن عياض[1] وهو أحد الصوفية والعارفين بالله كان فى بداية أمره قاطع طريق ، وفى مرة تسوّر أحد الأسوار ليسرق فسمع هاتفاً يقرأ هذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .. ⟨١٦⟩ ﴾[الحديد] فقال : أنا يارب ونزل ، فكانت نقطة تحول فى حياته[2] .

وقد سأله سائل عن قصته العجيبة هذه ، وكيف تحول من قاطع طريق ولص إلى ولى صالح ، فقال له : أتذكر لك حسنة قبل أنْ يتوب الله عليك ؟ قال : والله لا أذكر لى إلا حسنة واحدة ، فقد مررتُ فى الطريق بورقة من كتاب الله مُلْقاة على الأرض والناس يدوسون عليها ، فأخذتها واحتفظتُ بها ولم يكُنْ معى إلا درهم واحد فاشتريت به عطراً فعطرتها به ، فسمعت هاتفاً يقول : والله لأبيضنّ اسمك كما بيضتَ اسمى .

---

(١) الفضيل بن عياض : شيخ الحرم المكى من أكابر العبَّاد الصالحين ، كان ثقة فى الحديث ، أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعى ولد فى سمرقند (١٠٥ هـ) ونشأ بأبيورد ودخل الكوفة وهو كبير وأصله منها ثم سكن مكة وتوفى بها عام (١٨٧ هـ) [الأعلام للزركلى ٥ / ١٥٣] .

(٢) أورده ابن الشجرى فى الأمالى الشجرية (التوبة وما يتصل بها) ، قاله إبراهيم بن الأشعث : كان مبتدأ توبة فضيل بن عياض أنه خرج عشية يريد مقطعة وكان يقطع الطريق فإذا بقوم حمارة معهم ملح فسمع بعضهم يقول : مروا مروا لا يفجأنا فضيل فيأخذ ما معنا ، فسمع ذلك فضيل فاغتم وتفكر ، وقال تخافنى الخلق هذا الخوف العظيم فتقدم وسلم عليهم وقال لهم وهم لا يعرفونه : تكونون الليلة عندى وأنتم آمنون من الفضيل فاستبشروا وفرحوا وذهبوا فأنزلهم وخرج يرتاد لهم علفاً ثم رجع فسمع قارئاً يقرأ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ..⟨١٦⟩ ﴾ [الحديد] فصاح ومزق ثيابه على نفسه وقال : بلى والله لقد آن فكان هذا مبتدأ توبته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ألا تلاحظون المناسبة هنا بين قسوة القلوب وتحجرها وبين إحياء الأرض بعد موتها ؟ كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقول لنا : إنْ كانت قلوبكم قد ماتت وقستْ ، وإنْ كانت تعاليم الدين قد ضاعت منكم فلا تيأسوا ، لأن الذى يحيى الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى موات قلوبكم .

إذن : كانت بشارة لهم أنهم سيعودون إلى ساحة الإيمان بأفضل مما كانوا عليه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾[الحديد] ومن الآيات أن الله يُحيى القلوب بالذكر والآيات كما يُحيى الأرض بالمطر ، فكل منهما آية تحتاج منا إلى تفكير وتعقل وتأمل .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

السياق القرآنى يعود بنا مرة أخرى إلى الحديث عن الصدقات والإنفاق فى سبيل الله لما له من أثر وأهمية فى حياة المجتمع ، فيقرر هذه الحقائق ويؤكد عليها لأن إنفاق المال بعد مشقة اكتسابه أمر صعب يشقّ على النفس ، فيحتاج إلى مجاهدة .

وإذا كان السياق قد قرر هذه المسألة قبل عدة آيات فإنه يؤكدها هنا كما أكد الآيات الكونية فى سورة (الرحمن) : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾[الرحمن] يكررها بعد كل آية .

كذلك هنا يؤكد على ضرورة الإنفاق والصدقة ، ويؤكد على الأجر الكريم الذى ينتظر المتصدِّقين ، ومعلوم أن المال مُحبَّب إلى النفس خاصة إذا جاء بعرق ومجهود .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾

قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ..(١٩)﴾[الحديد] لأن الإيمان برسول واحد يقتضى الإيمان بجميع الرسل لأن رسالة السماء كما قلنا واحدة ، لذلك كان الإيمان بالرسل ركناً من أركان الإيمان .

ثم وصف المؤمنين بأنهم ﴿هُمُ الصِّدِّيقُونَ .. (١٩)﴾[الحديد] جمع صِدِّيق ، وهو الذى بالغ فى تصديق الرسول فى كل ما جاء به .

لذلك لُقِّب أبو بكر رضى الله عنه بالصِّدِّيق لأنه كان يصدق رسول الله فى كل ما يقول . كذلك وصف الله بها السيدة مريم : ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ[1] .. (٧٥)﴾[المائدة] لأنها صدَّقت ربها عز وجل فى الشىء الخارق لعادة الخَلْق فى مسألة الإنجاب .

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ..(١٩)﴾[الحديد] وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

(١) صديقة أى مبالغة فى الصدق والتصديق . وقال الليث : كل من صدّق بكل أمر الله لا يتخالجه فى شىء منه شك وصدَّق النبى فهو صِدِّيق . [لسان العرب - مادة : صدق] .

﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾[آل عمران] فهم أحياء عند ربهم لا عندنا ، لأنك ترى الشهيد بعد أنْ يُقتل ويُوضع فى كفنه ويُدفن فهو عندنا ميت ولو فتحت عليه قبره لوجدته ميتاً .

إذن : هم أحياء عند الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .. (١٩)﴾ [الحديد] أى : نورهم أيضاً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يهديهم ويدلّهم على أماكنهم فى الجنة .

ثم يذكر النقيض : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)﴾ [الحديد] أى : مصاحبين لها ملازمين لحرِّها ، فكأنهم صاحبوا النار والنار صاحبتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ[1] فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ (٢٠)﴾

هذه الآية فضحت الدنيا وكشفت زيفها ، فالبعض يعمل فى الدنيا على أنها غاية وهى ليست كذلك ، فالحق سبحانه يصفها هنا بعدة أوصاف فى أسلوب قصر ، يعنى ما هى إلا كذلك .

---

(١) هاج النبات يهيج : أدرك النضج واصفرَّ . وهو وصف للنبات عند تمام نضجه أى يكثر ويزداد أو ييبس ويصفر . [القاموس القويم ٢/ ٣١٢] .

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد] واللعب حركة للإنسان ليس لها مقصد حسن ، مثل لعب الأولاد فى المنزل حينما يلعبون ويُكسرون ، وهذا اللعب مجرد تسلية لهم وشَغْل للوقت واستفراغ للطاقة ، واللعب يكون قبل زمن التكليف ، فإنْ كان بعد التكليف فهو لهو ، لأنه يُلهيك عن العمل الصالح .

والزينة الشيء الزائد عن قوام الحياة وضرورياتها ، فالإنسان له حَدّ أدبى فى أكله وشُرْبه وملبسه بحيث يسدّ جوعه ويستر عورته ولو بأىّ شىء موجود ، فإذا أنعم الله عليه ووسّع رزقه يرتقى فى مأكله ومشربه وملبسه ومركبه .

وقد وضحت الآيات هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ..﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف] ومنه قولنا (فلان متريش) يعنى : عنده زيادة فى الملبس ، عنده زينة تتعدّى مجرد ستر العورة .

لكن مهما توفر لك الرياش فى الدنيا والزينة فلا تنسَ أنها دنيا ، وخالقها سبحانه هو الذى وصفها بهذا الوصف ، وإذا كانت هذه الحياة التى نحياها دنيا ، فلا بدّ أنْ يكون مقابلها العليا وهى الآخرة .

ويكفى فى دناءتها وحقارتها أن نعيمها منغّص وأن أمدها قصير ، فالدنيا بالنسبة لك مقدار عمرك فيها ولا صلة لك بأعمار الآخرين من آدم إلى قيام الساعة ، فمَنْ مات قامت قيامته (١) .

---

(١) أورده الطبرى فى تهذيب الآثار (٢٤٠) عن أبى قيس قال : رأيت علقمة فى جنازة فلم يزل قائماً حتى دفن فقال : « أما هذا فقد قامت قيامته » وكذا أورده الدولابى فى (الكنى والأسماء ١٢٠١) .

لذلك الحق سبحانه وتعالى لما مثَّل لنا مثلاً للدنيا قال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر بيَّن الحق سبحانه وتعالى المراد بالزينة ، فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ[2] الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

والتفاخر أنْ تفخر على غيرك إما بشيء فى ذاتك كالصحة أو العافية أو الجمال . أو بشيء خارج عن الذات كالمال والأولاد والجاه والسلطان . والتكاثر كذلك هو التباهى والاستعلاء بما عندك من الأموال والأولاد .

ثم يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لهذا كله ليوضح لنا الصورة ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : مطر نزل من السماء ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] الكفار هنا بمعنى الزُّراع وليست بمعنى الكفار المخالفين لمنهج الله .

وفى آخر سورة الفتح ضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لمحمد ﷺ وأمته : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ[3] فَاسْتَغْلَظَ

---

(١) الهشيم : الحطب والخشب المحطَّم . والهشيم : النبات اليابس المتكسِّر المتحطم . تذروه الرياح لخفته وتكسُّره .

(٢) القنطار المقدار الكبير من المال جمعه قناطير . ومعنى أنها قناطير وأنها أيضاً مقنطرة أنها أموال كثيرة توزن بالقناطير ولا تُعد عداً . فهى أكثر من أن تعد بل توزن .

(٣) آزر الزرع : قوى واشتد ساقه . والأزر القوة . وآزره : قوَّاه . [القاموس القويم : مادة : أزر] .

فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] فقال هنا (الزرّاع) ليفرق بين المعنيين ، فالكفار هنا أى المخالفين لمنهج الله .

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد] أى : يزدهر ويترعرع ثم سرعان ما يذبل ويصفرّ ويتحوّل إلى حطام وفتات ، كذلك حال الدنيا تضحك لأهلها وتعجبهم ، ثم تنتهى إلى لا شىء ، بل وتخلف بعدها التبعات .

﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد] لمن غرَّتْه الدنيا ، فأخذها لهواً ولعباً وزينة وتفاخراً تباهياً بين الناس ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد] لمن لم يغتر بالدنيا ولم ينصرف عن منهج الله .

ثم تؤكد الآيات هذا المعنى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد] أى : متاع خادع زائف لا يدوم . والغرور بالضم مصدر غرّ ، والغرور بالفتح هو الشيطان ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر] أى : الشيطان وكل ما يغرّك من مال أو غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

بعد أنْ ذكر الحق سبحانه وتعالى الدنيا وما فيها من لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر قال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٢١) ﴾ [الحديد] كأنه سبحانه يقول لنا : اتركوا هذه الدنيا وما فيها من غرور ، فهي سراب لا طائل من ورائه ، وسابقوا إلى ما هو أبقى لكم .

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ .. (٢١) ﴾ [الحديد] فكأن المغفرة هي الغاية وهي الهدف ، كما تقول سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية ، وهذه الغاية لا تُدرَك إلا بالمسابقة والسعي الجاد الدائب ، لا تُدرك المغفرة بالتهاون والتكاسل . والسباق هنا سباق في الأعمال الصالحة وفي الطاعات ، سباق في الانقياد لأوامر الله .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران] والمسارعة والمسابقة تعني مفاعلة ومشاركة ومنافسة بين المؤمنين المنقادين لمنهج الله كُلّ يريد أنْ يسبق وأنْ يرتقي إلى الغاية المنشودة لهم جميعاً وهي المغفرة ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٢١) ﴾ [الحديد]

لكن في آية أخرى قال في شأن سيدنا زكريا وسيدنا يحيى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء] ولم يقل إلى الخيرات لأن الخيرات وسيلة وليست غاية في ذاتها الخيرات وسيلة للغاية العظمى وهي المغفرة .

وقال (الخيرات) بصيغة الجمع لأنها مجال واسع يسع الطموح الإيماني ، فكلّ مؤمن يأخذ منه على قدر أريحيته ويسارع فيه على قدر جهده وإمكانيته ، فعمل الخير يتفاوت إذن كلما أوغلت فيه وسارعت أخذت من المنزلة على قدره .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين] أى : فى عمل الخيرات ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]

والنبى ﷺ يوضح لنا هذا المعنى بقوله : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله العلم فهو يقضى به بين الناس »(١) .

والحسد هنا بمعنى الغبطة والمنافسة الشريفة ، وأصل المنافسة من طول النفس ، لذلك سيدنا عمر قال لسيدنا العباس : هيا بنا نتنافس يعنى : نغطس فى الماء ونرى مَنْ منا أطول نفساً من الآخر(٢) ؟ ومعلوم أن الإنسان كلما كانت رئته سليمة تتسع لأكبر قدر من الهواء كان نفسه وبقاؤه تحت الماء أطول .

إذن : نتسابق فى الخيرات لنرى مَنْ منَّا أسبق ، مَنْ منَّا يصل إلى غايته أولاً . لذلك رُوِى أن حاتم الأصم(٣) سأله شيخه البلخى(٤) :

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١ ، ١٣٢٠ ، ٤٦٣٧) وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى عما يباح فى الإحرام : عن ابن عباس قال : ربما قال لى عمر بن الخطاب : تعال أباقيك فى الماء أينا أطول نفساً ونحن محرمون . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال وعزاه للشافعى والبيهقى فى السنن . وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (١٠٢١ - مختصر) .

(٣) حاتم الأصم : هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم ، زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحكَم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح وكان يقال : حاتم الأصم لقمان هذه الأمة . توفى بواشجرد عام ٢٣٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢ / ١٥٢] .

(٤) البلخى : هو شقيق بن إبراهيم الأزدى البلخى أبو على : زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، كان من كبار الزهاد والمجاهدين ، استشهد فى غزوة كولان (بما وراء النهر) عام ١٩٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣ / ١٧١] .

فِيمَ أفنيتَ عمرك ؟ فقال : فى أشياء : علمتُ أنِّى لا أخلو من نظر الله إلىَّ طرفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه : وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ ديناً لا يؤديه عنِّى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته - وهذه هى المسابقة ، يعنى : أجل يبادرنى بالموت فبادرته أى : سابقته بالعمل الصالح[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الحديد] جاءت الجنة بعد المغفرة ، فالله يغفر لهم الذنوب أولاً ثم يدخلهم الجنة ، والقاعدة أن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، وقلنا سابقاً : إن التخلية تسبق التحلية .

ومثَّلنا لذلك وقلنا : لو أن واحداً رماك بحجر وآخر رماك فى نفس الوقت بتفاحة ، فلا شكَّ أنك تدفع الحجر عن نفسك أولاً . وهذا المعنى واضح فى قول الله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

والمغفرة إما أنْ يسبقها ذنب فتمحوه المغفرة ، أو تكون المغفرة بستر الذنب عنك فلا يأتيك أصلاً .

والحق سبحانه وتعالى هنا يعطينا مثلاً وتوضيحاً للجنة لأنها

---

(١) ذكره ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية (الفصل الرابع فى أخبار التابعين) أن رجلاً سأله : على ما بنيت أمرك هذا فى التوكل على الله ؟ قال : على خصال أربع : علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى ، وعلمت أن علىَّ ديناً لا يعمله غيرى فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مُسْتحٍ منه .

غيب عنا مجهولة لنا ، فيُقرِّبها للأذهان بشيء معلوم مُشاهد ، ونحن نشاهد السماء والأرض واتساعهما طولاً وعرضاً .

فقال في وصف الجنة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الحديد] فالكاف هنا للتشبيه فهي في عَرْضها تشبه عرض السموات والأرض ونحن ننظر إلى السموات وإلى الأرض فنجدها ممتدة لا نهاية لها ، فضرب لنا مثلاً بأوسع شيء نعرفه وهو السماء والأرض لما لا نعرفه وهو الجنة .

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(٢١)﴾ [الحديد] فأتي بالعرض ولم يأت بالطول ، ومعلوم أن العرض دائماً أقلّ من الطول ، فإذا كان عرضها أي الجنة كعرض السموات والأرض في اتساعه فما بالك بالطول ، فهذا كناية عن الاتساع .

وقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ..(٢١)﴾ [الحديد] أي : أُعدَّتْ بالفعل وجُهِّزت لاستقبال الذين آمنوا بالله ورسوله ، فهي مسألة مفروغ منها وليست تحت الإنشاء ، لذلك لما سأل سيدنا رسول الله ﷺ سيدنا حارث بن مالك : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال : لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها[1] ، وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون وإلى أهل النار في النار

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العِلْك (اللزج) الذى لا رمل فيه . وهو أيضاً الطين المتماسك . (لسان العرب - مادة : مدر) بتصرف .

يُعذَّبون ، فقال له : عرفتَ فالزم[1] .

فمعنى (أُعدت) بصيغة الماضى انها موجودة من الآن ، وسيدنا رسول الله ﷺ فى مرحلة الإسراء والمعراج قال : وعُرضتْ علىَّ الجنة (أى الماكيت) ، ونحن حينما نريد أنْ نبنى عمارة مثلاً نعمل لها نموذجاً أو (ماكيت) يوضح كل تفاصيلها حتى الفرش والأثاث ، كذلك الحق سبحانه وتعالى عنده (الماكيت) الأعلى للجنة .

لذلك لما قال له : ما شُغل ربك الآن وقد صحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ قال : أمور يُبديها ولا يبتديها يرفع أقواماً ويضع آخرين[2] . معنى يُبديها يُظهرها للوجود ، فهى موجودة بالفعل فى عالم الغيب تنتظر الأمر بالظهور للوجود .

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]

فكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه ، والفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « مَنْ

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (الجزء ٧ - باب ما ذكر فيما يطوى عليه المؤمن من خلال) أن رسول الله ﷺ قال : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عزفت نفسى عن الدنيا وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى انظر إلى عرش ربى قد أبرز للحساب ، وكأنى انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فى الجنة وكأنى أسمع عواء أهل النار . قال فقال له رسول الله : « عبد نوَّر الإيمان فى قلبه إنْ عرفت فالزم » .

(٢) جاء فى تفسير (البحر المديد) : « رُوى عنه ﷺ أنه تلاها ، فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرِّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين . وقيل : نزلت آية الرحمن ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن] فى اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شأناً فردَّ الله عليهم . والمراد بهذه الشؤون : أمور يُبديها ولا يبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له

كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »[1] هذا عن الفضل بالنسبة للبشر أما بالنسبة لله سبحانه فإن كل ما في كون الله الآن وفي الآخرة فهو فضل الله لأنه زائد على حاجته ، فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التي سبقت والتي ستأتي .

ولذلك قال : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾ [الحديد] أي ذو الفضل الهائل الزائد عن حاجته ، والفضل الحقيقي هو الذي من عند الله .

لذلك فإن الله سبحانه هو ذو الفضل العظيم لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ، لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شيء ، وسيكون بعد ألا يوجد شيء ، وهذا ما يسمى بالفضل العظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ[2] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾

المصيبة : كل ما يصيب الإنسان ويسوءه ويُخرجه عن سلامة التنعم ، فاسمها يدل عليها فلا تسمى مصيبة إلا إذا وقعتْ . كالذي قال : الموت سَهْمٌ أرسلَ إليك وعمرك بقدر سفره إليك ، فالسهم أرسلَ بالفعل فإذا أصاب فهي المصيبة ، وهي الشيء الذي حكم بأنه واقع لا محالة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لك انظر إلى المصيبة ﴿فِي الأَرْضِ ..

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٣٢٥٨) وأبو داود في سننه (١٤١٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٣٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) برأ الله الخلق : خلقهم . والباري من أسماء الله عز وجل وهو الذي خلق الخلق لا عن مثال .

(٢٢) ﴾ [الحديد] كالقحط والجدب والحريق والفيضانات والزلازل وغيرها ﴿ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ.. (٢٢) ﴾ [الحديد] المصيبة في النفس هي المصيبة الخاصة بالشخص كالمرض والموت وفقدان الأهل أو المال .

فالمصيبة في الأرض عامة وفي النفس خاصة ، وقد تأتي المصيبة في النفس عامة كالقحط والفيضانات ، لأن الذنوب قد تحدث من الشخص فتأتي المصيبة خاصة به ، وقد تعم ويقع فيها كثير من الناس ، فتأتي المصيبة أيضاً عامة كما حدثت الذنوب عامة .

فالحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ [الشورى] وهذه من رحمة الله بعباده . ويشرح لنا هذه المسألة في آية أخرى فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥) ﴾ [فاطر]

فمن صفاته تعالى الرحمة ، ومن أسمائه الرحمن الرحيم ، لذلك شرع لنا مواسم للرحمات ، فالجمعة إلى الجمعة ، والصلاة إلى الصلاة ، ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتُنبتْ الكبائر [(١)] .

إذن : الحق سبحانه يريد لنا الرحمة والمغفرة ولا يريد لنا العنت ، والمصيبة لا تنزل إلا بما كسبت أيدي الناس . وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ..(٤١) ﴾ [الروم]

وتأمل مثلاً ما نعانيه الآن من تلوث الماء والهواء بل وكل شيء

---

(١) هذا مضمون حديثين ، أولهما أخرجه مسلم في صحيحه (٣٤٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغش الكبائر » . وثانيهما أخرجه أحمد في مسنده (٨٨٣٠) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات ما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

فى حياتنا ، إنه نتيجة طبيعية لتجاوزات الناس . وقد أبدع الخالق سبحانه هذا الكون كله بكلّ ذرة فيه على هيئة الصلاح ، ثم أوصانا بأنْ نحافظ على هذا الصلاح ، فقال : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٥٦)﴾ [الأعراف]

وقوله سبحانه : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥)﴾[فاطر] دلّ على سعة رحمة الله ، فلولا هذه الرحمة لهلك كلّ ما يدب على الأرض بشؤم معصية البشر ويشرح لنا هذه النقطة الحديث القدسى : « ولولا أطفال رُضّع ، وشيوخ ركع ، وبهائم رُتّع لَصُبتُ عليكم العذاب صَبّاً »[١] فنحن إذن مرحومون بضعفائنا ، لذلك قال : بضعفائكم تُرزقون[٢] .

وقوله سبحانه : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ .. (٢٢)﴾[الحديد] يعنى : مُسجلة عندنا مقدورة ومَقْضية ، والفرق بين المقدور والمقضى : القضاء حكم لازم لا دخْلَ لك فيه ، أما القدر فحكم لك فيه اختيار ، ولكن الله تعالى علمه أزلاً فكتبه مقدماً .

مثلاً وزير الزراعة يقول : قدّرنا محصول القطن هذا العام كذا قنطار ، ثم تأتى للقطن آفة فلا يأتى بهذا المحصول الذى حدده الوزير ، لأنه يقدِّر حسب علمه بظواهر الأشياء ولا دخلَ له بالغيبيات ، لذلك

---

(١) أخرجه البزار مرفوعاً ولفظه « لولا أطفال رضع ، وعباد ركع ، وبهائم رتع لصبّ عليكم العذاب صباً » ذكره فى كشف القناع عن متن الإقناع ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤ / ٤٥٨) عن أبى هريرة .

(٢) عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبى ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨١) .

يأتى تقديره خطأ .

أما الحق سبحانه وتعالى فإذا قدّر شيئاً فلا بد أنْ يأتى الواقعُ موافقاً له ، فالقدر إذن شىء قدّره الله ولك فيه اختيار علم الله هذا الاختيار فكتبه قبل أنْ يقع منك .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالمعلم الذى يتوقع لتلميذ من تلاميذه أنْ يكون متفوقاً فى امتحان آخر العام ، لقد حكم هذا الحكم بناءً على ما لاحظه على تلميذه من الذكاء والاجتهاد ، فالمقدمات تؤكد هذا الحكم ، لكن يأتى الامتحان ويُصاب التلميذ بدوار أو شىء طارئ فلا يحقق ما توقعه أستاذه .

إذن : جاءت النتيجة مخالفة لتوقع الأستاذ لخلل فى علمه ، أما الحق سبحانه وتعالى فله صفات الكمال وعلمه لا خلل فيه .

وقد شرحنا هذه المسألة أيضاً فى تفسير قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه الآيات وقد كان بوسعه أنْ يؤمن كما آمن أمثاله : عمر وخالد وعمرو وعكرمة ، لكن هذا حكم الله أزلاً وقدره الذى علمه مقدماً أن أبا جهل لن يؤمن وأنه سيختار الكفر ، فالله تعالى لم يفرض عليه الكفر ولكن تركه لاختياره .

وقوله تعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. (٢٢)﴾ [الحديد] أى : من قبل أنْ نخلقها ونبرزها فى عالم الواقع ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد]

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ(١) وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا هنا ألاَّ نأسى وألاَّ نحزن على ما فات ، وما دام أن الأمر من الله بقضائه وقدره فلا يناسبك إلا التسليم والرضا ، لأن الحزن لن يغير الواقع ولن يعيد ما فات ، لذلك عندنا في الفلاحين يقولون : العايط في الفايت نقصان من العقل .

لذلك نقول للمرأة التي فقدت زوجها أو عزيزاً عليها وبالغت في الحزن ولبس السواد : بالله عليك هل سيعيد الحزن ما فات ؟ ثم احذري أنْ تألفي الحزن وتعشقيه فيُديمه الله عليك ، لأن الله تعالى يعين عبده على ما يريد وعلى ما يحب ، لذلك يختم على قلب الكافر حتى لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر ، ففي الرضا إذن سعة للمؤمن .

وكذلك الحال في الفرح : ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..﴿٢٣﴾ ﴾[الحديد] لأنك لا تدري عاقبة ما آتاك الله من النعمة أتُوفَّق فيها أم لا ؟ أتعينك على الطاعة أم تفتح عليك باب معصية ؟ إذن : هي في الواقع فتنة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٤٤﴾ ﴾[الأنعام] فليست النعمة بالضرورة دليلاً على رضا الله

---

(١) عن ابن مسعود أن نبي الله ﷺ قال : « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » ثم قرأ ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ..﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد] والحديث أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (حديث ١٤٣٩) ولفظه « والذي لا إله غيره لا يذوق أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه » .

على العبد ، لذلك نرى كثيراً من أهل المعاصى والبُعْد عن الله فى سعة من الرزق يمد يده فى التراب فيصير ذهباً ، لماذا ؟

لأنهم لما نسُوا مـا ذُكِّروا به نريد أنْ نعاقبهم ، وكيف نعـاقبهم ؟ نرفعهم إلى أعلى منزلة حتى إذا أخذناهم كان الأخذ مؤلماً شديداً .

وسـبق أنْ قلنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع شـخـصاً لا توقـعـه من على الحصيرة ، بل لا بـد أنْ ترفعه إلى أعلى ، وكلما رفعتـه كان السقوط مؤلماً .

حتى فى المـعنى اللغوى يقولون : فـتح له غير فـتح عليه ، لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾[الفتح] (لك) أى : فتح فى صالحك لكــن ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ..(٤٤)﴾[الأنعام] أى : ضدهم وفى غير صالحهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ..(٤٤)﴾ [الأنعام]

إذن : ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..(٢٣)﴾[الحديد] لأنه قد يكون فتنة لك وابتلاءً ، فيكون غيرك ممَّنْ حُـرم خيراً منك وأحسنَ حالاً . والحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا : لا تأسوا ولا تفرحوا يريد أنْ يحفظ نفوس المؤمنين عما يُكدِّرها أو يُخرجها عن حال السلامة .

لذلك علماء النفس لمـا تكلموا فى هذه المسألة قـالوا : ينبغى على الإنســان ألاّ يتـأثر بالحـزن ولا بالفـرح تأثراً يُخـرجه عـن الطبيـعـة والاعتـدال ، لأن الأحداث تمـر بك وأنت عُرْضَـة فى رحلة الحـياة لأنْ تحزن أو تفرح .

والتأثر بـذلك والانفعال به يُـحدث فيك تغـييـراً ، فالحزن يـجعلك

تنقبض ، والفرح يجعلك تنبسط ، وأىّ عضو له كيان مخصوص لا يحب القبض ولا البسط ، فاحذر الحالتين والزم الاعتدال ليظلّ كيانك فى سلامة الفطرة وصلاح الجسد .

لذلك قال الشاعر فى هذا المعنى :

فَكُنْ رَجُلاً كَالضّرس يرسُو مكانه ليمضغ لاَ يَعنِيه حلْوٌ وَلاَ مُرّ

والنهى عن الفرح هنا يُقصد به الفرح المذموم ، وهو الفرح الذى يدعو صاحبه إلى التباهى والغرور ويحمله على التعالى والتكبر ، الفرح الذى يورث صاحبه بطراً وغطرسة ، ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١) ﴾ [التوبة]

أما الفرح المحمود فهو الذى يُورث صاحبه انكساراً لصاحب النعمة ، ومنه قوله تعالى عن أهل الطاعات : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ [الحديد] أى : كلّه فرح يدعوه فرحه إلى الخيلاء وإلى التفاخر والتعالى . والخلاصة أن الأمور ما دامت بقدر وبقضاء ، وما دامت فى كتاب من قبل أنْ نبرأها[1] ، وما دُمتَ لا قدرةَ لك على استعادة ما فات ولا تضمن ما هو آت ، فالزم جانب الرضا والتسليم والاعتدال ، ولا مانع أنْ تفرح ، لكن الفرح الذى لا يؤدى إلى التعالى والخيلاء .

---

(١) نبرأها : نخلقها . وقال سعيد بن جبير : من قبل أن نخلق المصائب ونقضيها . [الماوردى فى تفسيره] وقال ابن كثير فى تفسيره : « أى من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة » وقال بعضهم : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. (٢٢) ﴾ [الحديد] عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليه » .

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ[1] وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾

الحق سبحانه وتعالى ينقلنا إلى معنى آخر وهو الإنفاق فى سبيل الله ، يريد سبحانه أنْ يُوسع قبضة المؤمن فى العطاء لإخوانه المؤمنين ، وقد جعل سبحانه الأمر بالإنفاق على مراحل : أولاً أمر القادر أنْ ينفق على غير القادر ، وهنا ينهى غير القادر عن أنْ يُثبطوا القادرين ويُزهّدوهم فى العطاء .

فالإنسان قد يكون بخيلاً فى ذاته فيمسك يده عن العطاء ، وقد يتعدّى بُخله إلى غيره فيدعو غيره إلى أنْ يمسك يده ، أو يكون هو فقيراً ليس عنده ما يبخل به فيقول لغيره : لا تنفق واترك شيئاً لأولادك . على حدّ قول الفلاحين عندنا : (فلان لا بيرحم ولا يسيب رحمة ربنا تنزل) .

وهذه المسألة حدثت فى عهد رسول الله ﷺ ، لما قال المنافقون على أهل الصُّفَّة[2] : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ٧﴾ [المنافقون]

---

(١) ورد فى المقصود بالبخل هنا عدة أقوال :
- الذين يبخلون بالعلم . قاله سعيد بن جبير .
- البخل بأداء حق الله . قاله زيد بن أسلم .
- البخل بالصدقة والحقوق . قاله عامر بن عبدالله الأشعرى .
- البخل بما فى يديه . قاله طاوس .

وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، وكلها صحيح والأمر يجمع الأقوال كلها .

(٢) أهل الصُّفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصُّفة : الظّلة . [لسان العرب – مادة : صفف] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ .. (٢٤) ﴾[الحديد] يعنى : أنهم كانوا أغنياء عندهم ما ينفقون ولكنهم بخلوا به ، ثم تعدّى بُخلهم إلى غيرهم ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ .. (٢٤) ﴾[الحديد] لذلك تحمل هؤلاء وزر بُخلهم ووزر بُخل غيرهم ، ومنعهم من الإنفاق .

ثم تقرر الآيات هذه الحقيقة : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ .. (٢٤) ﴾[الحديد] يعرض عن الإنفاق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾[الحديد] يعنى : لا يهمنا بخلكم لأنكم تبخلون فى الواقع عن أنفسكم لأن المال مال الله والملك مُلكه ، وهو الغنى الحقيقى وهو الرازق للعباد .

وإنما فتح لكم مجال الإنفاق لتتماسكوا وتتكاتفوا فى رحلة الحياة ، وليقض على مشاعر الحقد والحسد من الفقير للغنى ، فالفقير حينما يجد فى المجتمع مَنْ يعطيه ويمدّ له يد المساعدة ، يحمد الله ويرضى بقضائه ، واليتيم حينما يجد مَنْ يحنو عليه تكون ثقته فيمَنْ أخذ كثقته فيمَنْ وهب فيعيش راضياً .

إذن : جاء الأمر بالإنفاق لأنه يعين المؤمن على إيمانه ويُحبِّب الناس فى شرع الله ويُرضيهم بقضائه ، فإنْ بخل القادرون فالمؤمن يعلم جيداً قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا .. (٦) ﴾ [هود]

وينبغى هنا أنْ نفرق بين البخل والشح : البخل أنْ يبخل الإنسان على غيره لكنه كريم على نفسه ، أما الشح فهو يبخل على غيره وعلى نفسه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل ، فيقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ[1] فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾

بيّنا أن الرسول هو من أوحى إليه بشرع يعمل به فى نفسه ويُبلغه قومه ، أما النبى فهو مَنْ أوحى إليه بشرع يعمل به دون أنْ يُؤمر بتبليغه .

إذن : الأنبياء الذين ليس لهم كتب ولا معجزات ، بل كانت معجزاتهم معجزة مَنْ كان يعمل على مقتضى دينهم .

وآدم عليه السلام أول نبىّ وأول رسول ، لكن كيف وقد حدثتْ منه المعصية حينما أكل من الشجرة ؟ قالوا : حدثت منه المعصية قبل ذلك ، وجاءت المعصية منه ليتعلم ضرورة تطبيق المنهج ، وأنه إذا أخلّ بالمنهج ظهرت عورته فتعلم آدم هذا الدرس وعلّمه ذريته من بعده .

---

(١) القرآن يقطع بأن الحديد أُنزل إلى الأرض ، وهذا هو ما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة فقد سئل البروفيسور أرمسترونج وهو أحد أربعة فى وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) : كيف خُلق الحديد فى الأرض ؟ فقال : الحديد يستحيل أن يكون خُلق فى الأرض لابد أن يكون قد خلق فى السماء وأنزل إلى الأرض . لماذا ؟ قال : لأن تكوين ذرة حديد واحدة لما حسبناها وجدنا أنها تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات ، فالحديد عنصر وافد من الكون .

وبعد ذلك تاب الله عليه واجتباه للنبوة وللرسالة ، قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾[طه]

إذن : الاجتباء جاء بعد المعصية وهو بداية الرسالة والبلاغ ، لكن مَنْ يبلغ وهو ما يزال وحده ؟ قالوا : هذا مثل قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن]

إذن : تعلّم آدم المنهج أولاً لنفسه ، ثم لما جاءتْ الذرية بلغهم الرسالة وعلّمهم القيم والأخلاق لكن مع مرور الزمن تطرأ الغفلة على الناس ويكثر عددهم فيحتاجون إلى رسالة جديدة تذكرهم .

وقد لخص القرآن الكريم هذا الدرس الذى تعلّمه آدم من معصيته فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

إذن : فاتباع منهج الله هو الذى يحفظ على الإنسان أمنه وسلامته ويجعله سعيداً فى دنياه سالماً فى أخراه ، أما مَنْ أعرض فله معيشة ضنكاً . والضنك لا يعنى الضيق والفقر كما يظن البعض .

الضنك معنى أوسع يشمل كل حركة الحياة تجد فيها ضيقاً ، لذلك عندما عملوا إحصاء لأكثر دول العالم غنىً فكانت السويد ، ومع ذلك وجدوها أكثر الدول أيضاً فى عدد المنتحرين والذين يصيبهم الجنون .

إذن : المسألة ليست مسألة الرزق والأكل والشرب ، ونحن نرى كثيراً من الفقراء يأكلون اللقمة ويحمدون الله عليها ، نراهم راضين

سعداء وهم يرونْ بذخ الأغنياء من حولهم .

فليس الفقر ضنكاً ، إنما الضنك حالة نفسية وشعورية يضيق فيها الصدر لا الرزق ولا يجد صاحب هذه الحالة فكاكاً منها وتظل تُطبق عليه حتى تُلجئه إلى أنْ يُنهى حياته ليستريح .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال :

لَيْسَ الحِملُ مَا أطَاقَ الظّهر ... مَا الحِملُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرْ[1]

إذن : جاء آدم برسالة ومنهج علَّمه وبلَّغه ذريته ، لكن لما كَثُر الناس وحدثتْ الغفلة وتباعدتْ المسافات بين المجتمعات ، وكذلك تعددتْ الداءات فى كلِّ مجتمع لذلك تعددتْ الرسل .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : الآيات الواضحات التى تلفت الناس إلى وجود الحق سبحانه وتؤيد الرسل الذين بعثهم الله لهداية الخلْق .

والآيات إما كونية وإما معجزات تؤيد الرسل ، وإما آيات الكتاب الحكيم ، وهى التى تحمل المنهج وتحمل الأحكام من الله للخلق ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : الكتب التى نزلتْ من عند الله ، والكتاب هو الشىء المكتوب .

﴿وَالْمِيزَانَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : ميزان الحق الذى يزن الأشياء

---

(١) بنحو هذا البيت جاء بيت لأحمد شوقى أمير الشعراء :

ليس بحمل ما يملُّ الظهر ... ما الحمل إلا ما يعانى الصدر

وهو من قصيدة من بحر الرجز عدد أبياتها ١٢ بيتاً أولها :

كان على بعض الدروب جمل ... حمَّله المالك ما لا يُحمل

ويُحدِّدها ويُبيِّنها ، والميزان لا يخصّ الأشياء المادية التى لها كثافة فقط ، بل ميزان يزن بالحق كل شيء مادى ومعنوى فقال فى الماديات : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (١٥٢) ﴾[الأنعام] وأمر بإقامة هذا الميزان فى كل شيء .

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ .. (٥٨) ﴾[النساء] حتى فى المحاكم تجدهم يتخذون الميزان رمزاً للعدالة ويرفعونه شعاراً لهم ، والميزان له كفتان متساويتان ليدلّ على الحكم العادل .

والميزان الذى جاء به الرسل هو الميزان الذى يُميز بين الحق والباطل ، فما دامت هناك رسل وآيات بينات ومنهج ينفع الناس وينظم حياتهم ، فلا بدّ أنْ تستقيم حركة الحياة .

لذلك قال حذيفة[1] : لقد مرّ علىَّ زمان ما كنتُ أبالى أيكم بايعتُ ، فلئن كان مسلماً ليردّنه علىَّ دينه ، وإنْ كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه علىَّ ساعيه - والساعى الذى يرقب حركة الناس ويتابعها - أما اليوم فما كنتُ لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً[2] .

إذن : لا تستقيم الأمور إلا فى ظل هذا المنهج ، ولا سعادةَ

---

(١) هو حذيفة بن اليمان ، أبو عبد الله ، واليمان لقب حسل أبى حذيفة صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبى ﷺ فى المنافقين لم يعلمهم أحد غيره ، استقدمه عمر إلى المدينة ، ثم أعاده إلى المدائن فتوفى فيها . له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً . توفى ٣٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) من قول حذيفة ضمن حديث رسول الله ﷺ أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٦) عن رفع الأمانة ، وأن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال وأنه ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك » الحديث .

للخلق إلا بـه ، فـإنْ طمس هذا المنهج فـلا بدّ أنْ يـحـدث الخلل فى الميزان، فيصير الحق باطلاً والباطل حقاً .

وعندنا فى ساحات المحاكم تجد للمحامين ألاعـيب ، منهم مَنْ يعتمد على لباقته فى إظهار الحجة حتى ولو بالباطل ، وتناسى حديث سيدنا رسـول الله ﷺ : « إنما أنا بشر وإنكم تختـصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم يكون ألحنَ بحجـته - كما يقولون (كذب مـساوى ولا صدق منعكش) فمَنْ قضـيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً بقـوله ، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها »[1]

إذن : ردَّ رسـول الله الميـزان إلى الدين والشـرع ، وإلى الكتـاب والبينات ، فمَن التزم بـالكتاب والبينات لم يكُنْ عنده حقّ وباطل ، بل هو حقّ واحد بيِّن ليس غيره ، فـإذا اختلف الناسُ فى البينات فلا بدّ أنْ ينشأ الباطل فيأتى الميزان ليميز بين الحق والباطل .

لذلك قال سبـحانه بعدها : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾[الحديد] أى : العدل ، فالكتاب للتشريع وتنفيذ الأحكام ، والميزان للغفلة إنْ حدثت أو المخالفة ، فيبيِّن الحق والباطل .

وما دام يقوم الناسُ بالقسط والعدل كلّ الدنيا ترتاح ، إما قسط نابع من ضمير الأفراد ، وإما قسط من القضاء الذى يحكم بينهم ، لذلك قلنا : إنه من المصلحة فى التقاضى وبيـان لحقوق ألاّ تطول مدة التقاضى لأن طول مدة التقاضى تزيد من ظلم المظلومين وتُغرى الظالم بالتمادى .

وبطول أمد التقاضى تبهت الجـريمة وننسى المقتول ولا نذكر إلا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحه (٢٢٧٨ ، ٢٤٨٣ ، ٦٤٥٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٢٣٢) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

القصــاص من القاتل ، وكــأننا نعتدى عليـه وننشـىء جريمـة أخرى ، وهنا تنشأ عواطف تدعو إلى الرحمة بالقاتل فيختل الميزان .

لذلك حذرنا القرآن من التهاون فى هذه الحقوق ، فـقال تعالى : ﴿ وَلا تَأْخُـذْكُم بِهِمَـا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ..﴿٢﴾ ﴾ [النور] لأن الشـفقـة بالمجرم تدعو إلى استشراء الجريمة والإفساد فى الأرض .

ثم جعل إقامة الحدود علانية ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور] لماذا ؟ ليقوم الناس كلّهم بـالقسط ساعة يرون الحكم العادل يُطبق فى وقته المناسب الذى يُحدث ما يراد منه من الردع .

أمـا إنْ سلك المحـامى طريق الضـلال ووقع القـاضى فى منزلق الرشـوة فـلا بدّ أنْ يفسـد حـال البـلاد والعـبـاد . ويُحكى فى أيام المهدى[1] الخليفـة العباسى أنه ولّى القـضاء رجلاً شـهد له بالنزاهة اسمـه قامح إلا أنه فى يوم دخـل على الخليفـة ، وقال له : يا أمـير المؤمنين أقلْنى من القضاء ، فقال له : ولمن يكون العدل بعدك ؟

فقال : يـا أمير المؤمنين لم أعـد أضمن نفسى فى القضـاء فكما وثقتَ فىَّ ووليتنى فثقْ فىَّ أيضاً حينما أطلب منك أنْ تقيلنى ، وأنا لا أخلو عن حـالين : إما كـاذب وإما صادق ، فـإنْ كنتُ كاذباً فـلا تُبْق على قاض كذاب ، وإنْ كنت صادقاً فاقبل منى .

فقال له : إذن قُلْ لى ما سبب ذلك . فقال : خصمان عُرِضا علىّ

---

(١) المهدى العـباسى هو محـمـد بن عبد الله المنصور بن مـحمد بن على العبـاسى أبو عبد الله المهـدى بالله من خلفـاء الدولة العبـاسية فى العـراق ، ولد بإيذج [من كـور الأهواز] عام ١٢٧ هـ وولى بعد وفاة أبيه وأقـام فى الخلافة عشر سنين وشهراً ، مات فى مـاسبذان صريعاً عن دابته فى الصيد وقيل مسموماً عام (١٦٩ هـ) . [الأعلام للزركلى ٦ / ٢٢١]

ولكل منهما حجته حتى أننى لم أحكم بينهما وكنت أؤجل هذه القضية مخافة أنْ أظلم ، وفى يوم من الأيام دخل علىَّ خادمى بطبق من رطب فلما سألتُه عن صاحبه وصفه لى فعرفتُ أنه أحد الخصمين فرددتُ إليه طبقه وقد اشتهر عنى أنى أحب الرطب .

وفى اليوم التالى وقف أمامى الخصمان فما استويا فى نظرى ووجدتُ فى نفسى ميلاً إلى صاحب الطبق مع أنى رددته عليه .

إذن : أنزلنا ﴿الْكِتَابَ (٢٥)﴾ [الحديد] للملتزم ﴿وَالْمِيزَانَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] الذى يفرق بين الحق والباطل لغير الملتزم ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ .. (٢٥)﴾ [الحديد] جميعاً ﴿بِالْقِسْطِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] فحين يُقتصّ من القاتل وتُقطع يد السارق لا يجرؤ أحدٌ على القتل ولا على السرقة . ولم يقُلْ ليقوم المؤمنون بالقسط إنما الناس كلّ الناس .

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ..(٢٥)﴾ [الحديد] أى : كما أنزلنا الكتاب وأنزلنا الميزان أنزلنا كذلك الحديد ، فالحديد وإنْ كان مكانه الأرض إلا أنَّ أصله من أعلى ، والحديد إشارة للقوة فمَنْ لم يردعه القرآن يردعه الحديد .

لذلك قال : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[1] ، فالعاقل تردعه البينة والجاهل لا يردعه إلا السيف والقوة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ كما أعطيناك القرآن أعطيناك الحديد والسيف فافعل به ما تشاء وجَابِه به الكفار والعصاة

---

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (حديث ١٤٢٨٤) باب الإمارة عن عمر قال : والله ما يزع الله بسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . وعزاه للخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد .

الذين لا يُردعهم الكتاب ، وقد عبَّر الشاعر[١] عن هذا المعنى بقوله :

أَنَاة وحِلْم ثم عَـقب بَـعْـدَهَا وَعِـيـداً فَإِنْ لَـمْ يُغْنِ أغْنَتْ عَـزَائِمـه[٢]

وقال الآخر :[٣]

فَمَـا هُوَ إلاَّ الحلم أَوْ حَـدّ مُرهَف تُقـيـم ظبـاه[٤] أَخْدَعَيْ كُـلِّ مَائِل

فَـهَـذَا دَوَاءُ الـــدّاء مِنْ كُلِّ عَـاقِل وَذَاكَ دَوَاءُ الدَّاءِ مِـنْ كُلِّ جَـاهِلِ[٥]

وقوله تعالى ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. ﴿٢٥﴾ ﴾[الحديد] دلّ على أن الحديد أقوى عُدة فى الحياة ، والواقع يؤكـد ذلك ، فمن الحديد نصنع الفأس والمحراث وكلّ الآلات التى تُستخدم فى القـوة والحفر والحمل وغيره ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾[الحديد] فمع قـوته فيه نفع مـثل السكاكين والملاعق وغيرها من الأدوات .

---

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولي ، كـاتب العراق فى عصره أصله من خراسان ولد (١٧٦ هـ) . كان جـده من رجال الدولة العباسـية ودعاتهـا . له ديوان الرسائل ، وديوان شعر وكتاب الدولة . توفى عام ٢٤٣هـ عن ٦٨ عاماً .

(٢) لفظ البيت فى الموسوعة الشعرية :

أناة فإن لم تُغن أعقب بعدها وعيداً فإن لم يجد أجدت عزائمه

وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل من بيت واحد . منسوب للصولى .

(٣) هو حبيب بن أوس الـطائى أبو تمام ، ولد بجاسم (من قرى حـوران بسورية) عام ١٨٨ هـ - نزل مصر وبغداد والموصل ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام ، فى شعره جزالة وقوة .

(٤) ظُبة السيف : طرفه . ويُجمع على الظُّباة والظُّبين . [لسان العرب - مادة : ظبب]

(٥) البيتـان من قصيدة لأبى تمام من بحر الطويل عـدد أبياتها ٣٢ بيتاً ، وهما فى الـموسوعة الشعرية :

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف تُمـيل ظبـاه أخدعـى كل مائل

فهـذا دواء الداء من كل عـالم وهـذا دواء الـداء من كـل جاهـل

ثم هناك مهمة أخرى للحديد ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد] وهنا إشارة إلى السيف الذى تكون به النصرة ، فالسيف لمن لم يجد معه الكتاب والبينات .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد] أى : علم الواقع وإلا فالله تعالى يعلم كل شيء أزلاً ولا يخفى عليه خافية ، فليس المراد علم تقدير إنما علم واقع .

وقال : ﴿ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ..(٢٥) ﴾ [الحديد] لأن نُصْرة الله نُصْرة لرسل الله ونصرة رسُل الله نُصرة لله ، لذلك قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٩٢) ﴾ [المائدة] وقال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠) ﴾ [النساء] لأن هنا تداخلاً فى الأحكام .

هناك أحكام قالها الله تعالى وقالها رسول الله ، وأحكام خاصة بالله وحده ، وأحكام خاصة برسوله ﷺ ، لذلك كرَّر الأمر بالطاعة مرة لله ومرة لرسوله ، ومعلوم أن السنة فصَّلَتْ ما أجمله القرآن .

وقوله ﴿ بِالْغَيْبِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد] بالإيمان بالغيب ومشهد السيف ، هذا يدافع عن قضية غيبية هى القيامة والله الذى لا تراه يدافع عن قضية غيبية ، إنما عندما يحيى المِلَك بالكتاب أو السيف .

لذلك لما أصرَّ الكفار على كفرهم قال الله لرسوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ..(٢٩) ﴾ [النجم] فالهمزة فى أعرض همزة الإزالة يعنى : دعهم وانصرف عن دعوتهم بالآيات والبينات .

ومعنى نصرة الله كما قال سبحانه : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ .. (٧) ﴾ [محمد] إن تنصروا الله بقوتكم ينصركم بقوته ، إذن : أنت ما

عليك إلا أنْ توجه ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ..(١٧) ﴾[الأنفال]

فالله تعالى قادر على إبادة هؤلاء الكفار فى لمح البصر ، فلماذا الحرب؟ قالوا : لو أهلكهم الله بأمر غيبى وبدون تدخّل المسلمين فى حرب لقالوا آية كونية ، لذلك قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ..(١٤) ﴾ [التوبة] بأيديكم أنتم فيكون الأمر أنكى .

وتختتم الآية بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ [الحديد] تؤكد أن الله تعالى هو صاحب القوة وصاحب العزة ، حتى لا نفهم من قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد] أن الله يحتاج إلى النصرة من خلقه .

فالله هو ذو القوة الغالب العزيز الذى لا يُغلب ، وإنما قال لكم : انصرونى لتكون أيديكم فى يد الإمام وتكون النصرة بكم رفعة لكم ، وحين يُقهر الأعداء يقهرون بكم ويذلون لكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ (٢٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى خص نوحاً عليه السلام بالذكر لأن رسالته بطبيعتها كانت رسالة عامة ليست عامة فى الزمان والمكان ، وإنما عامة لخصوص مَنْ حملهم معه فى السفينة ، وإبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء وهو الذى وفَّى .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦) ﴾[الحديد] فكلُّ الرسل

جاءوا من هذه الناحية ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦)﴾[الحديد] فلما جاءهم النبوة والكتاب وبلغتهم الرسالة ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ .. (٢٦)﴾[الحديد] كعبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود ، ومع ذلك لما بلغته دعوة محمد آمن به قال : والله لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد[1] .

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾[الحديد] فأقلُّهم مهتد وأكثرهم فاسق، لذلك لما أراد عبد الله بن سلام أنْ يعلن إسلامه ذهب إلى سيدنا رسول الله وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْت[2] ولقد انشرح صدرى للإسلام وأخاف إنْ أسلمتُ أنْ يقولوا فيَّ ما ليس فيَّ ، فاسألهم عنى .

فلما جاءوا رسول الله قال لهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وابن حبرنا ، فقال ابن سلام : أما وقد قالوا ما قالوا فإنى أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت سفيهنا وابن سفيهنا .

فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك أنهم قوم بُهْت[3]؟

---

(١) أورده البغوى فى تفسيره لآية ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ (٢٠)﴾ [الأنعام] أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : كيف هذه المعرفة ، قال عبد الله : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابنى ومعرفتى بمحمد أشد من معرفتى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حق من الله تعالى وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت .

(٢) قوم بُهت : كاذبون . والبُهت : الكذب . والبهتان : الباطل . والبهت أيضاً التحيُّر قال أبو إسحاق : البهتان الباطل الذى يتحير من بطلانه . [لسان العرب – مادة : بهت] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وكذا أحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ﴾[الحديد] أى : خارجون عن الطاعة .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧) ﴾

معنى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم ..(٢٧) ﴾[الحديد] أى : أتبعناهم وجئنا من بعدهم ﴿ بِرُسُلِنَا ..(٢٧) ﴾[الحديد] أى : رسل متتابعين بعضهم فى إثر بعض ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٢٧) ﴾[الحديد] وأتبعنا هؤلاء الرسل عيسى بن مريم عليه السلام .

إذن : نوح وإبراهيم مرحلة ، والرسل بعد إبراهيم مرحلة ، وعيسى عليه السلام مرحلة وهو آخر الرسل قبل رسالة محمد ﷺ ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ..(٢٧) ﴾[الحديد] كتاب سيدنا عيسى عليه السلام .

ثم يصف أتباعه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ..(٢٧) ﴾[الحديد] الرأفة هى التى تزيل الآلام والشقاء ﴿ وَرَحْمَةً ..(٢٧) ﴾[الحديد] والرحمة أنْ تعطى بالزيادة والإحسان .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ..(٢٧) ﴾[الحديد] الرهبانية هى المبالغة فى التعبد ، وقد بالغ أتباع عيسى فى التعبد ، فانقطعوا فى الصوامع

وحرموا أنفسهم من النساء ، وقد وردتْ الرهبانية فى كتاب ألِّفوه سنة ١٩٣٥ ، هذا الكتاب تكلم عن وادى النطرون وعنوان الكتاب : وادى النطرون ورهبانه ، وقالوا : إن الرهبانية وُجِدت من بعد عيسى بمائة وخمسين سنة[1] .

ومعنى ﴿ابْتَدَعُوهَا ..(٢٧)﴾ [الحديد] جاءوا بها من عند أنفسهم وألزموا أنفسهم بها ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧)﴾ [الحديد] ما فرضناها عليهم ، بل فرضوها على أنفسهم للتقشف والزهد والانقطاع للعبادة .

وهذه أمور طيبة فى حد ذاتها لكن لم نكتبها عليهم لأنها تتعارض وطبيعة الإنسان العادى الذى لا تستقيم حياته إلا بأن يأخذ من كلٍّ بطرف ، يأخذ من الدنيا ويأخذ من الآخرة ، أما مسألة ترك النساء فهى تتعارض مع عملية التكاثر وإعمار الكون التى أمر بها الحق سبحانه .

وهذه الرهبانية لما ابتدعوها ابتدعوها ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧)﴾ [الحديد] لكن الآفة أنهم خرجوا عن هذا القصد ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧)﴾[الحديد] ما حافظوا عليها وخرجوا عن حدودها حتى صاروا أسوة سيئة .

والذى يدخل فى هذا المقام مقام الإحسان عليه أنْ يراعى حدوده

---

(١) جاء هذا فى كتاب « وادى النطرون ورهبانه وأديرته » ص ٢٢ الباب الثانى (الرهبان قبل الفتح العربى) : « وقال كورزون فى كتابه (زيارات أديرة الشرق) ص ٧٦ : إن هذه الفكرة تحققت فى أواسط القرن الثانى الميلادى حوالى عام ١٥٠ م وإن القديس المذكور اعتزل الحياة فى هذا الوقت بوادى النطرون ومعه سبعون أخاً » مؤلف الكتاب (عمر طوسون) .

وألاّ يجرى عليه نقصان ، لأن النقصان هنا يفسد العقيدة ، لذلك الحق سبحانه وتعالى يُرغِّبنا فى النوافل وفى الدخول فى هذا المقام فيقول :

« ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه(١) فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

فالتقرب إلى الله بالنوافل دليل الحب ودليل القرب ، والحب يُدخلك فى مقام القرب ، وهذه لها مقاييس غير مقاييس الرجل العادى ، فأنت مثلاً لك معارف كثيرون ، لكن منهم أصدقاء ومنهم مقربون ، وكلّ واحد من هؤلاء له حساب . أنا مثلاً مرضت وبعضهم لم يأت لزيارتى ، وأنا لا أعتب عليهم جميعاً إنما أعتب على القريب منى الذى كان يتردد علىَّ دائماً ، ولما مرضت لم يعدنى .

أمَّا العتابُ فَبالأحبَّةِ اليَقُ وَالحبُّ يَصلُح بِالعتَابِ ويَصدُقُ(٢)

كذلك الذى أدخل نفسه فى باب الود مع الله والقرب منه سبحانه لا يليق به التراجع ، ولا يليق به النكث أو حتى التقصير ، لأنه لو فعل ذلك ، فكأنه يقول لربه عزّ وجلّ : جرّبنا قربك فلم نجدك أهلاً

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٢١) والبيهقى فى السنن الكبرى ج ٣ وابن حبان فى صحيحه (٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) هذا البيت لأمير الشعراء أحمد شوقى المتوفى ١٩٣٢ م . وهو من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ١٢ بيتاً هذا أولها :

أما العتاب فبالأحبة أخلق والحب يصلح بالعتاب ويصدق

للقرب ، أو جرّبنا القرب منك فلم نجده نافعاً فزهدنا فيه .

وإذا كنا لا نرضى نحن بذلك ، فهل يرضى به الحق سبحانه وتعالى ؟

لذلك نقول : احذر الدخول فى هذا المقام فلا أحدَ يُجبرك عليه فقبل أنْ تلزم نفسك به اعرف حدوده وشروطه حتى لا تورط نفسك .

إذن : الرهبانية ليست مذمومة فى ذاتها ، لكن تُذم فى حالة عدم رعايتها حقَّ الرعاية ، لذلك لما حفروا حول بعض الأديرة وجدوا بقايا لأطفال صغار ، وهذا يعنى أن الخطيئة كانت تحدث منهم .

والعبد كلما اقترب من ربه عز وجل أفاض عليه من أنواره بحسب قُرْبه ، وفى مسائل الدنيا تجد أموراً يعرفها عنك كلّ الناس ، وأموراً أخرى لا يعرفها إلا المقربون منك ، وأخرى لا يعرفها إلا الخاصة والملازمون لك .

كذلك الحق سبحانه كلما اقتربتَ منه يُعطِيكَ شيئاً من فيوضاته وإلا لاكتفى الناس بالفرائض ولم نجد مَنْ يؤدى النوافل .

لذلك تجد الخَلْق فى منازل ومقامات مختلفة يتنافسون عليها ، وكلما ارتقى الواحد منا إلى منزلة وجد مَنْ سبقه إلى أعلى منها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الرجل البلخى لما سألوه : أتشتاق إلى ربك ؟ فقال : لا ، إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى أشتاق إليه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧)﴾ [الحديد] استثناء من ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧)﴾ [الحديد] أى : لم نكتبها لأننا خائفون أنْ يُقصروا ، فأنا أريد أنْ أبقى عليهم رضوانى بمجرد الفرض يؤدونه . ويكون قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧)﴾ [الحديد] من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الحديد] أخذوا أجرهم لأنهم آمنوا بمجرد أنْ جاء الرسول صدَّقوه وآمنوا به ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾[الحديد] خارجون عن الطاعة وتعصَّبوا لدينهم القديم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ[2] مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٨)﴾[الحديد] وصف لهم بالإيمان ، فكيف يقول لهم بعد ذلك ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. (٢٨)﴾[الحديد] ؟ قالوا : المعنى : يا مَنْ آمنتم بالله صلُوا إيمانكم بالله بإيمانكم برسوله المبلِّغ عنه ، والمبلغ عنه الذى كنتم تتبعونه جاء رسول بعده ، وكان المفروض أنْ يبينوا ذلك حتى لا يتعصبوا للقديم .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره وعزاه للجنيد . وعزاه إسماعيل حقى فى تفسيره لأبى سعيد الخراز . وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١١٣٧) وقال : رواه ابن عساكر فى ترجمته .

(٢) الكفل : النصيب . والكفل : الحظ والضِّعف من الأجر والإثم . وقوله ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ..(٢٨)﴾ [الحديد] معناه يُؤتكم ضعفين . وقيل : مثلين . [لسان العرب – مادة : كفل] .

وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا .. (٢٨) ﴾ [الحديد] هنا أمر بالتقوى ، وقد سبقه وصفُ الإيمان وبعده أمر بالإيمان ، ذلك لأن الإيمان ليس له فائدة إلا إذا نفذتَ أوامر منْ آمنتَ به .

وقوله سبحانه : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد] الكفل : النصيب والأجر ، وكفلين أجرين ونصيبين من رحمته تعالى : نصيب وأجر للإيمان بعيسى عليه السلام ونصيب وأجر للإيمان بمحمد ﷺ .

فالمراد بقوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد] أى : برسوله الجديد الخاتم محمد ﷺ ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد] هو نور البصيرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحديد] يغفر لكم إنْ كنتم ترددتم فى مسألة الإيمان ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾ [الحديد]

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ(١) أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

أى : لكى لا تقولوا آمنا بعيسى ولا نؤمن بمحمد ، وتحسدونه على أنْ مَنَّ الله عليه بالرسالة ، كما قال كفار مكة : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فردَّ الله عليهم :

---

(١) لئلا يعلم : أى ليعلم . قال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صلة زائدة فى كل كلام يدخل عليه جحد . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبى يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت (لئلا يعلم) أى ليعلم أهل الكتاب (أن لا يقدرون) أى أنهم لا يقدرون . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٦٧٠] .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فإذا كانوا لا يستطيعون قسمة أمور الدنيا الهيّنة أيقسمون فى الأمور الرفيعة العالية ؟ ثم إن هذا فضل الله ، وفضل الله لا يقيده أحد .

﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾[الحديد] وحده لا شريك له ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ..﴿٢٩﴾ ﴾[الحديد] ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف تحجرون على فضل الله وتحسدون محمداً ﷺ على ما أعطاه الله من الرسالة ، إنكم لا قدرة لكم على أمور الدنيا والتحكم فيها ، فكيف تتحكمون فى أمور الآخرة ؟

ثم تُختتم السورة بقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد] نعم فضل عظيم ، لأنه سبحانه أوجدنا من عَدم وأمدنا من عُدْم ، وتكفّل بأرزاقنا وسخر لنا الكون كله ، وجعل لنا منهجاً يحمينا من العطب ، وأرسل لنا الرسل تُذكّرنا إنْ أصابتنا الغفلة ، ثم فتح لنا باب التوبة رحمة بأهل المعاصى والذنوب ، وغير ذلك من آثار رحمته سبحانه بخلقه .
